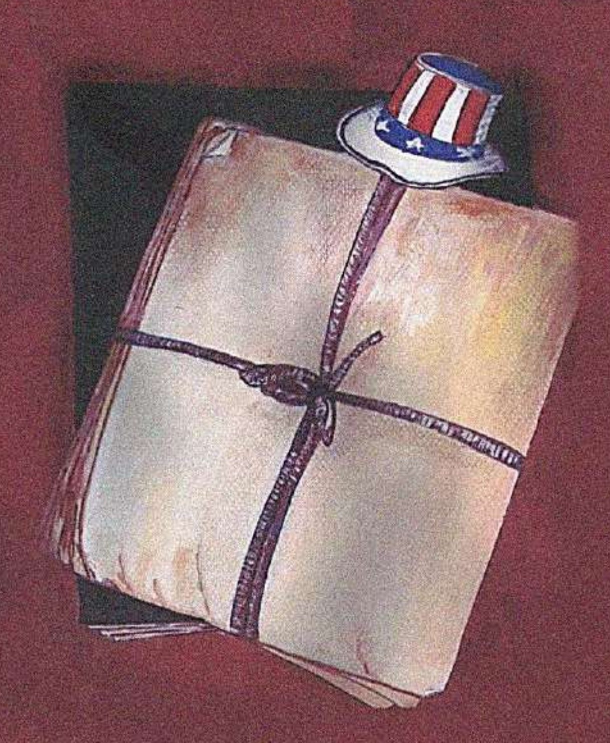
جان بركنس

التاريخ السري للإمبراطورية الأمريكية

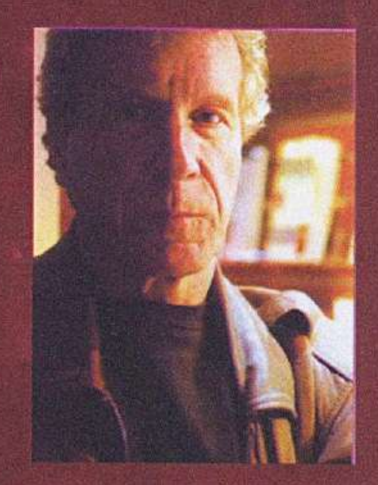


رجال اقتصاد مأجورون، عملاء، والحقيقة حول الفساد العالمي

علي مولا



ترجمة: المحامي حسين علي



حول المؤلف

جان بِركنس: هو مؤلف كتاب «اعترافات رجل اقتصاد مأجور»، فضحٌ مروِع للفساد العالمي، الكتاب الذي بقي أكثر من سنة على لائحة نيويورك تايمز للكتب الأكثر مبيعاً، وقد نُشر بأكثر من ثلاثين لغة. إنه مؤسس وعضو مجلس إدارة تغيير الحلم وتحالف الباشاماما، منظمتان غير ربحيتين مكرستان لإيقاظ الضمير ورفع الوعي من أجل خلق عالم مستقر يسوده السلام الدائم لأجيال المستقبل. حاضَر بركنس وعلَّمَ في جامعاتٍ في أربع قارات من بينها هارفارد، وارتون، وبرينستون، وهو مناضل في سبيل قضايا بيئية واجتماعية.


تليجرام
مكتبة سور الأزبكية

١٥١٩٢٢

التـــاريخ الســـــري
للإمبراطوريـــة الأمريكيـــة

https://t.me/kotokhatab
https://t.me/kotokhatab
https://t.me/kotokhatab
https://t.me/kotokhatab
https://t.me/kotokhatab
https://t.me/kotokhatab
https://t.me/kotokhatab
https://t.me/kotokhatab

جان بركنس

التاريخ السري للإمبراطورية الأمريكية

ترجمة: المحامي حسين علي

جان بركنس

التـــاريخ الســـري
للإمبراطوريـــة الأمريكيـة

ترجمة: المحامي حسين علي

العنوان الأصلي للكتاب

The Secret History
Of The American Empire

الطبعة الأولى ـ 2010

جميع الحقوق محفوظة

دار الطليعة الجديدة

سورية ـ دمشق ـ ص. ب: 34494

هاتف: 2311378

E-mail: marwanfa@scs-net.org

لايجوز نقل، أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة كانت دون إذن خطي مسبق من الناشر

تصميم الغلاف: منى محمود   تنفيذ الغلاف: جمال سعيد

الفهرس



إهداء:

إلى من قطعوا عهداً من أجل خلق عالم ينعم بالاستقرار ويسوده السلام الدائم.



مقدمة

عندما انتهيت من تأليف كتاب "اعترافات" في عام 2004 لم تكن لدي أية فكرة بأنه يوجد هناك من يرغب في القراءة حول تجربتي كرجل اقتصاد مأجور. لذلك اقتصرت على وصف الحوادث التي احتجت إليها في اعترافاتي. ومن ثم، أدركت أثناء سفري في أرجاء الولايات المتحدة وبلدان أخرى، ملقياً المحاضرات، أو مجيباً على الأسئلة، ومتحدثاً إلى رجال ونساء قلقين حول المستقبل، أدركت بأن الناس في كل مكان يرغبون في معرفة ماذا يحدث في واقع عالمنا اليوم. جميعنا نريد أن نتمكن من قراءة ما بين سطور التقارير الإخبارية وسماع الحقائق التي تُمَوَّه لخدمة قرارات الأفراد الذين يتحكمون بشركاتنا وحكوماتنا، وإعلامنا (يشكل هؤلاء بمجموعهم حكم تحالف أثرياء المال والشركات).

كما كنت شرحت في "اعترافات" حاولت تأليف هذا الكتاب عدة مرات. تكلمت إلى الرجال الاقتصاديين المأجورين والعملاء الآخرين والمرتزقة المستخدمين من وكالة الاستخبارات الأمريكية - سي آي إيه - الذين تدخلوا بسياسات الدول للتأثير وللتملق والمداهنة، لدفع الرشاوى، وأحياناً للاغتيال. سألتهم لكي أُضَمِّنَ قصصهم في "اعترافات". انتشر النبأ بسرعة: عُرِضَتْ عليَّ الرشاوى، وتعرضتُ للتهديد شخصياً، فتوقفت عن الكتابة. بعد 11 أيلول، وعندما قطعت عهداً على نفسي، وعزمت أن أبدأ من جديد، قررت هذه المرة أن لا أخبر أحداً إلا بعد نشر المخطوطة عندها سيصبح ذلك وثيقة ضمان لي: عرف العملاء بأنه إذا حدث أي مكروه لي سينتشر بيع الكتاب كالنار في الهشيم. كانت كتابة "اعترافات"، دون مساعدة الآخرين الذين لهم تجارب مثل تجاربي، صعبة جداً، لكنها كانت أسرع طريقة لتأليف الكتاب. بعد نشر الكتاب خرج أشخاص عديدون من الظل، رجال اقتصاد مأجورون، عملاء، صحفيون، متطوعو فرق السلام، مدراء شركات تنفيذيون، وموظفون في البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، وموظفون حكوميون، جاؤوا إليَّ باعترافاتهم الشخصية. إن القصص التي سمعتها منهم والمدونة في الصفحات التالية من هذا الكتاب تكشف الحقائق خلف الأحداث التي تشكل العالم الذي سيرثه أولادنا. لقد أكدوا الاستنتاج المحتوم: يجب أن نتحرك، يجب أن نتغيَّر.

أؤكد لكم بأنكم لن تجدوا كآبة وتشاؤماً في هذه الصفحات. إنني متفائل. أعرف أن مشاكلنا بالرغم من أنها خطيرة، لكنها من صنع الإنسان. نحن لسنا مهددين بنيزك ضخم ونار الشمس لم تنطفئ. ولأننا نحن الذين خلقنا هذه المشاكل فنحن نستطيع حلها. وباكتشاف الأمكنة المظلمة في ماضينا نستطيع أن نُولِّد ضوءاً من أجل اختيار المستقبل وتغييره.

أعتقد أنكم عندما تنتهون من قراءة "التاريخ السري للإمبراطورية الأمريكية" ستشعرون أنتم أيضاً بثقة مطلقة بأننا سنقوم بفعل الشيء الصحيح، وستحددون خطة عمل. معاً سنستخدم الموارد التي يمدنا بها اقتصاد اليوم لكي نؤسس مجتمعاتنا الإنسانية التي تعكس مبادئنا السامية.

في مساء أحد الأيام قبل عدة أشهر من جولتي لدعم نشر كتابي "اعترافات" كنت ألقي محاضرة في محل لبيع الكتب في واشنطن. ذكرت لي المرأة التي ستقدمني بأنها تتوقع حضور عدد من موظفي البنك الدولي.

أنشئ البنك الدولي عام 1944 في مدينة بريتون وودز في ولاية نيوهامشر، الولاية التي نشأتُ فيها. كان البنك مسؤولاً عن إعادة بناء بلدان دمرتها الحروب. فجأة أصبحت مهمة البنك مرادفة لإثبات بأن النظام الرأسمالي كان متفوقاً على ذلك النظام المطبق في الاتحاد السوفييتي. ولتوسيع دوره هذا سعى موظفوه لإقامة علاقات حميمية مع مؤيدي الرأسمالية الرئيسيين، الشركات العالمية. فتح هذا الباب لي ولرجال اقتصاد مأجورين آخرين لوضع خطط لبرامج ومشاريع وهمية أو غير عملية تُقدر بتريليونات الدولارات. وجّهنا أموالاً من البنك والمنظمات المماثلة الأخرى إلى خطط بدت أنها تخدم الفقراء بينما هي في الحقيقة تخدم بشكلٍ رئيسي بضعة من الأثرياء. وفقاً لهذه الخطط كنا نحدد بلداً نامياً يزخر بالموارد الطبيعية التي تشتهيها شركاتنا (مثل النفط)، نعمل على ترتيب قروض ضخمة لهذا البلد، ومن ثم نوجه أكثر الأموال إلى شركاتنا العاملة في مجال الهندسة والبناء ونعطي حصصاً من هذه الأموال إلى بضعة متعاونين في البلد النامي. برزت إلى الوجود مشاريع بنيوية، مثل محطات توليد الطاقة الكهربائية، مطارات، ومجمعات صناعية: مع ذلك قلّما خدمت هذه المشاريع الفقراء الذين لم يكونوا موصولين بالشبكات الكهربائية، لم يستخدموا مطارات أبداً، وكانوا مفتقرين للمهارات التي يتطلبها العمل في المجمعات الصناعية. عند نقطة معينة عدنا نحن "رجال الاقتصاد المأجورون" إلى البلد المدين نطالبه بدفع الديون بأية طريقة وبأي ثمن: نفط رخيص، أصوات في الأمم المتحدة على قضايا حيوية وهامة، أو جنود لدعم جنودنا في بعض الأماكن من العالم، مثل العراق.

عندما ألقي كلماتي كنت غالباً ما أجد أنه من الضروري أن أُذكر الحضور بنقطة هامة تبدو واضحة بالنسبة لي لكن يُساء فهمها من الكثيرين: ذلك أن البنك الدولي هو في الحقيقة ليس بنكاً دولياً على الإطلاق بل إنه بنك أمريكي وكذلك النسيب الأقرب له، صندوق النقد الدولي. ثمانية من مدراء البنك الدولي الأربعة والعشرين يمثلون بلداناً بحد ذاتها هي: الولايات المتحدة، اليابان، ألمانيا، فرنسا، بريطانيا، السعودية، الصين، وروسيا. بقية البلدان البالغ عددها 184 يمثلها بقية المدراء الستة عشر. تتحكم الولايات المتحدة بـ 17٪ تقريباً من الأصوات في صندوق النقد الدولي و16٪ في البنك الدولي تأتي اليابان في المرتبة الثانية

بنسبة 6٪ في صندوق النقد الدولي و8٪ في البنك الدولي، تليها ألمانيا، بريطانيا، فرنسا، كل واحدة من هذه الدول تملك من الأصوات حوالي 5٪. تتمتع الولايات المتحدة بحق النقض "الفيتو" على القرارات الكبيرة ورئيسها يُعَيِّنُ رئيس البنك الدولي.

عندما انتهيت من إلقاء كلمتي دُعيت إلى التوجه نحو الطاولة التي سأوقع كتابي عليها. كان الصف طويلاً وممتداً بين صفوف المكتبة. سيكون مساءٌ آخر طويلاً. لكن لم أتوقع هذا العدد الكبير من الرجال والنساء الذين يرتدون ملابس رسمية وأعطوني بطاقات عملهم التي تشير على أنهم يشغلون مناصب عالية في سفارات أجنبية وفي البنك الدولي. كان مَن بين الحضور عدة سفراء من بلدان أخرى. سألني اثنان منهم أن أوقع نسخاً من أجل رئيسي بلديهما بالإضافة إلى توقيع نسختين لهما.

كان يقف أربعة رجال في آخر الصف: اثنان كانا يرتديان ثياباً رسمية وكان الآخران أصغر بكثير ويرتديان بنطال جينز وقميصاً رياضياً. أعطاني الرجلان الأكبر سناً بطاقتيْ عملهما في البنك الدولي. قال أحد الشابين: "سمح لنا والدانا أن نخبرك بهذا، لقد شاهدناهما كل صباح يذهبان إلى العمل في البنك يرتديان...." أشار إليهما ـ "مثلما يرتديان الآن. لكن عندما احتشد المحتجون هنا في واشنطن للتظاهر ضد البنك، انضم والدانا إليهم. لقد شاهدناهما متخفون بثياب قديمة وقبعات ونظارات شمسية. كانوا هناك لكي يدعما أولئك الناس لأنهما يعتقدان أنهم ـ وأنت ـ على حق".

صافحني الرجل الأكبر سناً بقوة. قال أحدهما: "نريد مطلقي صفارات إنذار أكثر، مثلك".

أضاف الرجل الآخر "اكتب كتاباً آخر، ضع فيه قصصاً أكثر، كالتي قدمتها الليلة، اكتب حول ماذا حدث للبلدان التي عملت فيها، حول الأضرار التي سببناها نحن وآخرون مثلنا باسم التقدم والتطور. افضح هذه الإمبراطورية. وضح الحقيقة الكامنة خلف أماكن مثل أندونيسيا حيث تبدو البيانات والإحصائيات ممتازة بينما يبدو الواقع سيئاً جداً. وأعطنا أيضاً أملاً. قدم بدائل لأولادنا. ارسم طريقاً من اجلهم لكي يؤدوا عملاً أفضل".

وعدتهم أن أكتب كتاباً كهذا الكتاب.

قبل أن ندخل في الموضوع الرئيسي لهذا الكتاب، أود أن أدقق في كلمة "الإمبراطورية" التي استخدمتُها فيه. تناقلت الصحافة وغرف التدريس هذه الكلمة، واستخدمت في الحانات المحلية في السنوات القليلة الأخيرة. لكن ماذا تعني بالضبط كلمة إمبراطورية؟ هل أن أمريكا بدستورها الرائع، بميثاق حقوقها، بدفاعها عن الديمقراطية، تستحق حقاً أن توصم بوصف كهذا الوصف. الوصف الذي يذكر بتاريخ طويل من الوحشية والعنف والحكم الاستبدادي؟

الإمبراطورية: دولة قومية تهيمن على دول قومية أخرى، وتتمتع بواحدة أو أكثر من الخصائص التالية: 1) تستغل الموارد من الأراضي التي تسيطر عليها. 2) تستهلك كميات

كبيرة من الموارد تبلغ حداً كبيراً لا يتناسب مع حجم عدد سكانها قياساً باستهلاك وعدد سكان تلك الأمم الأخرى. 3)تحتفظ بجيش كبير يفرض سياساتها عندما تفشل إجراءات أقل حدة. 4) تنشر لغتها، إنتاجها الأدبي، فنها وجوانب أخرى من ثقافتها من خلال مجال تأثيرها. 5) تفرض الضرائب ليس فقط على مواطنيها، وإنما أيضاً على شعوب البلدان الأخرى و6) تفرض عملتها النقدية على الأراضي التي تحت سيطرتها.

هذا التعريف "للإمبراطورية" قد صيْغَ في لقائي مع طلاب في عدد من الجامعات خلال جولتي من أجل نشر كتابي "اعترافات" في عام 2005 و2006.

وصل الطلاب دون استثناء تقريباً إلى الاستنتاج التالي:

تملك الولايات المتحدة جميع خصائص الإمبراطورية العالمية. لنناقش كل من هذه الخصائص الآنفة الذكر:

الخصيصة الأولى والثانية: تمثل الولايات المتحدة أقل من 5٪ من عدد سكان العالم، وتستهلك أكثر من 25٪ من الموارد العالمية. يتم إنجاز هذا إلى حد كبير من خلال استغلال البلدان الأخرى وبشكل رئيسي استغلال البلدان النامية.

الخصيصة الثالثة: تحتفظ الولايات المتحدة بأكبر جيش وأكثره تطوراً في العالم. على الرغم من أن هذه الإمبراطورية قد بنيت بشكلٍ رئيسي من خلال الاقتصاد - بواسطة رجال الاقتصاد المأجورين - يدرك قادة العالم بأنه عندما تفشل أساليب السيطرة الأخرى سيتدخل الجيش كما حصل في العراق.

الخصيصة الرابعة: تهيمن اللغة الإنكليزية والثقافة الأمريكية على العالم.

الخصيصة الخامسة والسادسة: على الرغم من أن الولايات المتحدة لا تفرض ضرائب على الدول الأخرى بشكل مباشر، ولم يحل الدولار محل العملات الأخرى في أسواق هذه الدول المحلية لكن يفرض حكم تحالف أثرياء المال والشركات ضرائب عالمية بمكر وحذاقة، والدولار هو في الواقع المقياس في التجارة العالمية. بدأت هذه العملية عند نهاية الحرب العالمية الثانية عندما عُدِّل مقياس الذهب: أصبح تحويل الدولار وقفاً على الحكومات وليس الأفراد. خلال أعوام الخمسينات والستينات تراكمت الديون الخارجية للولايات المتحدة التي استخدمت لتمويل الاستهلاك النامي للشعب الأمريكي، الحربان الكورية والفيتنامية، والمجتمع العظيم الذي نادى به ليندن جونسون. عندما حاول رجال الأعمال الأجانب شراء بضائع وخدمات من الولايات المتحدة مقابل ديونهم وجدوا بأن التضخم قد أنقص قيمة ديونهم المحسوبة بالدولار - هنا في الواقع دفعوا ضريبة غير مباشرة. طالبت حكوماتهم تسديد ديونهم ذهباً. رفضت إدارة نيكسون ذلك، وفي 15 آب 1971 قامت بالتخلي نهائياً عن مقياس الذهب.

أسرعت واشنطن في إقناع العالم في الاستمرار بقبول الدولار كمعيار للعملة. ووفقاً لقانون غسيل الأموال السعودي الذي كنت قد ساعدت على إخراجه للوجود في أوائل السبعينات، تعهد البيت الملكي السعودي ببيع النفط بالدولار الأمريكي حصراً. ولأن السعوديين يتحكمون بأسواق البترول أجبرت دول أوبك الباقية بالالتزام بما تعهد به السعوديون. وببقاء النفط المورد الأهم، ضمن الأمريكيون هيمنة الدولار كمقياس عالمي للعملة، واستمروا بفرض الضرائب غير المباشرة على الدول الأخرى.

انبثقت أيضاً سبع خصائص أخرى للإمبراطورية من خلال مناقشاتي مع الطلاب: 1) تحكم الإمبراطورية من إمبراطور. 2) أو ملك. 3) يتحكم بالحكومة. 4) يسيطر على الإعلام. 5) غير منتخب من الشعب. 6) وغير خاضع لإرادته. 7) ومدة حكمه غير محدودة بالقانون.

يبدو من النظرة الأولى أن ذلك يخرج الولايات المتحدة من دائرة الإمبراطوريات الأخرى. مع ذلك نرى خلف هذا المظهر الخادع بأن أمريكا تتصف بكل هذه الخصائص للإمبراطورية. فهي إمبراطورية تحكمها مجموعة من الناس الذين يتصرفون بمجموعهم كما يتصرف الملوك. يديرون شركاتنا الضخمة ومن خلالها يديرون حكوماتنا. يتنقلون جيئة وذهاباً في مواقعهم بين الشركات والحكومة من خلال "باب دوار" ولأنهم يمولون الحملات السياسية الانتخابية والإعلام، فهم يتحكمون بالمسؤولين المنتخبين، وبالمعلومات التي تصل إلينا. هؤلاء الرجال والنساء (حكم تحالف أثرياء المال والشركات) هم أصحاب القرار بغض النظر فيما إذا كان الجمهوريون أو الديمقراطيون يتحكمون في البيت الأبيض أو الكونغرس. إنهم ليسوا خاضعين لإرادة الشعب ومدة حكمهم غير محددة في القانون.

إن هذه الإمبراطورية الحديثة قد بُنِيَتْ بشكلٍ سري ومعظم مواطنيها غير عارفين بوجودها؛ مع ذلك فإن هؤلاء الذين تستغلهم هم في أكثريتهم يعانون الفقر المدقع. يموت كل يوم 24000 إنسان من الجوع أو من أمراض يُسبّبُها الجوع. يعيش أكثر من نصف عدد سكان هذا الكوكب على أقل من دولارين في اليوم. وهذان الدولاران لا يكفيان من أجل تأمين حاجات الحياة الأساسية. يتلقون اليوم المبلغ نفسه الذي كانوا يتلقونه منذ 30 عاماً مضت مقاساً بالقيمة الشرائية الحقيقية.

ومن أجل أن نعيش نحن حياة مريحة، يجب على الملايين أن يدفعوا ثمناً باهظاً.

بينما أصبحنا مدركين للأضرار البيئية التي تسببها أساليب حياتنا الاستهلاكية فإن غالبيتنا إما غافلون أو لا يعترفون بتكلفة المعاناة الإنسانية. لن يكون لدى أولادنا خياراً إلا أن يحملوا مسؤولياتهم عن عدم التوازن الاجتماعي والبيئي الذي خلقناه نحن.

خلال عملية بناء هذه الإمبراطورية نبذنا نحن في الولايات المتحدة معظم مبادئنا الأساسية، هذه المبادئ التي حددت في الماضي معنى الجوهر الحقيقي في أن تكون أمريكياً.

لقد حرمنا أنفسنا وأولئك الذين استعمرناهم من الحقوق التي عبرت عنها ببلاغة شديدة وثيقة إعلان استقلالنا. لقد فقدنا المبادئ العالمية المنادية بالمساواة والعدالة والازدهار.

يُعلِّم التاريخ بأن الإمبراطوريات لا تستمر: إما تنهار أو يتم إسقاطها. تكثر الحروب وتملأ إمبراطورية أخرى الفراغ. إن الماضي يبعث برسالة قوية بأن يجب علينا أن نتغير، لا نستطيع تحمل أن نسمح للتاريخ بأن يعيد نفسه. إن القاعدة القوية لحكم تحالف أثرياء المال والشركات هي الشركات الكبرى التي تحدد عالمنا، وتسيطر عليه. عندما ننظر إلى العالم نرى بأن الحدود تعرف أقل من 200 بلد بقليل. أقامت القوى الاستعمارية الكثير من هذه الحدود ومعظم هذه البلدان لها تأثير ضعيف جداً على جيرانها.

من وجهة النظر الجيوسياسية، هذا المفهوم هو مفهوم قديم للتعبير عن الحدود، فتمثيل عالمنا المعاصر بغيوم كبيرة تحيط بهذا الكوكب، وكل غيمة من هذه الغيوم ترمز إلى شركة عالمية، يكون ذلك أقرب تمثيلاً للواقع. هذه الوحدات القوية تؤثر على كل بلد، ويصل هذا التأثير إلى أعمق الغابات وإلى أبعد الصحارى.

يظهر حكم تحالف أثرياء المال والشركات بأنه يشجع الديمقراطية والشفافية بين الأمم، مع ذلك فإن شركاته الكبرى هي شركات ديكتاتورية إمبريالية، حيث أن قلة فقط يأخذون القرارات ويجنون معظم المكاسب.

في العملية الانتخابية - قلب الديمقراطية الحقيقي - معظمنا له الخيار أن ينتخب فقط من بين المرشحين ذوي السلال المملوءة المدينين بالفضل للشركات الكبرى، وللرجال الذين يملكون هذه الشركات. بالتناقض مع مبادئنا ومثلنا، بنيت هذه الإمبراطورية على أساس من الجشع والسرية، والإفراط في الاستهلاك المادي.

في الجانب الإيجابي، أثبتت الشركات كفاءتها العالية في تنظيم الموارد وإلهام الإبداع الجماعي، ونشر شبكات من الاتصالات والتوزيع إلى أقصى بقاع الأرض. من خلالها يوجد تحت تصرفنا كل شيء نحتاجه لكي نضمن عدم موت أولئك الـ 24000 إنسان من الجوع كل يوم. إننا نملك المعرفة، التقنية، والأنظمة التي نحتاجها لجعل هذا العالم مستقراً يسوده العدل والسلام.

أدرك مؤسسو هذه الأمة بأن الثورة يجب أن لا تقود إلى الفوضى. لقد حرروا أنفسهم من الاستبداد، لكنهم كانوا حكماء بما يكفي من أجل تطوير الكثير من البنى القانونية والتجارية التي ثبت نجاحها بالنسبة للبريطانيين. يجب علينا أن ننجز شيئاً شبيهاً بذلك. يجب قبول الفوائد التي خلقتها هذه الإمبراطورية لاستخدامها لكي نتوحد، نسد الصدوع، ونردم الهوة الكبيرة بين الأغنياء والفقراء. يجب علينا الإقدام بجرأة كما فعل مؤسسو هذه الأمة، يجب علينا كسر نموذج هذه الإمبراطورية الذي يحدد تفاعل البشر ومعاناتهم. يجب تحويل هذه الإمبراطورية إلى نموذج للمواطنية والمضيافية الجيدة.

المفتاح لجعل ذلك يحدث، لخلق عالم يفخر فيه أولادنا بأنهم ورثوه، هو من خلال تحويل الشركات التي هي القوة الأساسية لحكم تحالف أثرياء المال والشركات، تحويل الطريقة التي يحددون بها أنفسهم، يضعون أهدافهم، يبنون أساليب حكمهم، ويؤسسون المعيار لاختيار مدرائهم التنفيذيين الكبار.

تعتمد الشركات بشكل مطلق علينا نحن. نحن نزودهم بالعقول والعضلات. نحن أسواقهم. نشتري منتجاتهم، ونموّل نشاطاتهم. كما سيوضح هذا الكتاب، لقد نجحنا في تغيير الشركات في كل مرة وضعناها هدفاً لنا - مثال: تنظيف أنهار ملوثة، وقف الأضرار في طبقة الأوزون، وقف التمييز العنصري. الآن يجب علينا أن نتعلم من نجاحاتنا، وأن نرتقي إلى مستوى جديد من النضال.

إن القيام بالأعمال الضرورية - تلك الأعمال المعروضة في هذا الكتاب - سيتطلب منا أن ننهي المهمة التي بدأناها في السبعينات من القرن الثامن عشر، ولم ننجزها أبداً. إننا مطالبون باستلام الراية التي حملها المؤسسون، وحملها من بعدهم الرجال والنساء الذين عارضوا العبودية، انتشلونا من ظروف الانحطاط الاقتصادي، وقاتلوا هتلر، الذين جاؤوا إلى شواطئنا هاربين من الاضطهاد أو ببساطة متطلعين إلى حياة أفضل قدمتها أقدس وثائقنا، وثيقة إعلان الاستقلال.

جاءت الساعة بالنسبة لنا لكي نستجمع شجاعتنا الضرورية للاستمرار في العمل الذي بدأه هؤلاء جميعهم. يجب عدم السماح لهذه الإمبراطورية بالانهيار وحلول إمبراطورية أخرى محلها، بدلاً من ذلك لنعمل على تحويلها لمصلحة مبادئ الحق والعدالة الاجتماعية والسلام لكل البشر.

بعد ذلك المساء في محل بيع الكتب في واشنطن غالباً ما كانت أفكاري تعود إلى ما طلبه مني المديران التنفيذيان في البنك الدولي. وعدتهما بأن أضع كتاباً آخر، أفضح فيه الأضرار التي قام بها رجال مثلي، وأن أقدم أملاً من أجل عالم أفضل. كنت أحتاج لفعل ذلك. احتجت أن أعرض قصص الأشخاص الذين تم تجاهلهم من قبل وسائل الإعلام الرئيسية لأن كلماتهم قد تغضب أصحاب الدعايات، واحتجت أن أعطي صوتاً لأولئك الذين هُمِّشوا لأنهم أصروا أن لا تُذكر أسماؤهم خوفاً من فقدانهم لوظائفهم ومعاشاتهم التقاعدية، وحياتهم التي تعتمد على تلك الوظائف والمعاشات. كان علي أن أقدم بديلاً عن التقارير المفلترة والبيانات والإحصائيات المضلّلة والتي مُرِّرت على أنها "موضوعية" أو "علمية" لأنها تتضمن الكثير الكثير من المعلومات التي جمعت من الباحثين الذين على الغالب جميعهم قد مُوِّلوا من حكم تحالف أثرياء المال والشركات.

أدركت بأنه قد يوجد أولئك الذين سيسارعون إلى انتقادي بسبب استخدامي شواهد من متحدثين مجهولين ومن رجالٍ ونساءٍ كانوا من صانعي الأحداث، لكنهم لم يكونوا من بين

الذين تلقوا دعوة للظهور في برنامج الأحد الصباحي. مع ذلك شعرت بأنه يجب علي أن أكرِّم تلك الخبرات وتلك الأصوات.

إنني مدين للناس الذين قرؤوا "اعترافات"، إلى أبناء المديرَين، إلى ابنتي ذات الثلاثة والعشرين ربيعاً، وإلى ذلك الجيل حول العالم الذي يمثله هذان الشابان وابنتي. من أجلهم جميعاً - ومن أجل نفسي - كان يجب علي أن أخطو الخطوة التالية، وأضع هذا الكتاب بين أيديكم.

الجــزء الأول: آسيــا



1 المرأة الجاكرتية اللغز

عندما توجهت إلى آسيا في عام 1971 كنت مستعداً للسلب والنهب. شعرت أن الحياة قد خانتني وأنا في عمر الـ 26 فعزمت على الانتقام.

في تأملي للأحداث الماضية، كنت متأكداً بأن حماسي كان سبباً للحصول على عملي، بعد ساعات من الفحص النفسي من وكالة الأمن القومي عرّفوني كـ "رجل اقتصادي مأجور" محتمل. وصلت منظمة التجسس الأكثر سرية في أمريكا إلى قرار بأن أهوائي وانفعالاتي يمكن أن توجه لتساعد في تحقيق مهمتهم في توسيع رقعة الإمبراطورية.

لقد عينتني في الوظيفة شركة ماين، وهي شركة عالمية للاستشارات تقوم بالأعمال القذرة لمصلحة الشركات الضخمة، كمرشح مثالي لسرقة ونهب العالم الثالث.

على الرغم من أنني قد كنت فصّلت أسباب غضبي وانفعالي في "اعترافات" لكن سأوجزها هنا في بضع جمل: كان والدي الفقير معلماً لما قبل المرحلة الابتدائية. ترعرعت محاطاً بأولاد الأغنياء وكنت مفتوناً بالنساء ومروّعاً منهن في الآن نفسه، لذلك نأيت بنفسي عنهن. في أول عمل تحدٍ لي تركت الجامعة التي أرسلني والدي إليها، وحصلت على عمل أحبه كعامل طباعة في إحدى الجرائد في مدينة كبيرة. ومن ثم "طاوياً ذيلي بين أرجلي" عدت إلى الجامعة فقط لكي أتهرب من الخدمة العسكرية. تزوجت صغيراً بسبب إلحاح الفتاة التي قبلتني أخيراً. قضيت ثلاث سنوات في الأمازون وانديس كمتطوع في فرق السلام الفقيرة، وكان هذا أيضاً اضطرارياً لأتملص من الخدمة العسكرية.

أعتبر نفسي أمريكياً حقيقياً مخلصاً وهذا بسبب من انفعالاتي العاطفية. شارك أجدادي في الثورة وفي معظم الحروب الأمريكية الأخرى.

كانت عائلتي في الغالب من الجمهوريين المحافظين، وقد تأقلمت أظافري على الاطلاع الواسع على جفرسون وباين واعتقدت بأن المحافظ هو شخص يؤمن بالمثل العليا التي تأسس عليها وطننا، مؤمناً بالعدالة والمساواة لكل الناس. كنت غاضباً لخيانة هذه المثل في فيتنام وغاضباً لتواطؤ شركة واشنطن للبترول التي شهدتها تدمر الأمازون وتستعبد سكانه.

لكن لماذا اخترت أن أصبح رجلاً اقتصادياً مأجوراً وأتنازل عن مُثُلي؟ متطلعاً إلى الوراء، يمكنني القول بأن العمل كان واعداً في تحقيق الكثير من أهوائي ونزواتي. محققاً المال والسلطة ونساء جميلات، بالإضافة إلى رحلات في الدرجة الأولى إلى أراضٍ خيالية غريبة. طبعاً أخبروني بأنني لن أدعى للقيام بأي عمل غير قانوني. في الواقع لقد أنجزت عملي بشكلٍ جيد ولاقيت استحساناً وثناء ودعيت لأحاضر في مدارس شهيرة ولاحتساء النبيذ وحضور حفلات العشاء. كنت أعرف في صميم قلبي أن هذه الرحلة محفوفة بالمخاطر. كنت

أقامر بمبادئي الروحية. لكن فكرت بأنني سأثبت العكس. عندما توجهت إلى آسيا اعتقدت بأنني سأجني الفوائد من هذه الرحلة لبضع سنوات وبعد ذلك أفضح هذا النظام وأصبح بطلاً.

يجب علي الاعتراف أيضاً بأنه نما في شيء من الافتتان بالقرصنة وحب المغامرة في سن مبكرة، لكن مع هذا عشت حياة لها طابع مختلف، أفعل دائماً ما كان يتوقع مني. لقد كنت ابناً مثالياً - ما عدا تركي الجامعة ولفصل واحد فقط - والآن حان وقت الانتقام من الماضي حان وقت القرصنة، وقت السلب والنهب.

ستكون أندونيسيا أول ضحية لي.

أكبر أرخبيل على الأرض، تتألف أندونيسيا من أكثر من 17000 جزيرة ممتدة من جنوب آسيا حتى أستراليا، فيها 300 مجموعة عرقية مختلفة تتكلم أكثر من 250 لغة متميزة، ويعيش فيها مسلمون أكثر من أية أمة أخرى. عند مشارف الستينات عرفنا أنها مغمورة بالنفط.

أسس الرئيس جون كندي آسيا كحصن في مواجهة الإمبراطورية الشيوعية، وذلك عندما دعم انقلاب عام 1963 ضد رئيس فيتنام الجنوبية نو دن ديم. اغتيل ديم فيما بعد، ويعتقد كثيرون أن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية سي آي أيه أعطت الأوامر باغتياله. هذا ليس غريباً، ألم تكن الـ سي آي أيه خططت، وقادت انقلابات ضد مصدق في إيران وقاسم في العراق وآربنز في فنزويلا ولومامبا في الكونغو. سقوط ديم قاد مباشرة لبناء قوات عسكرية للولايات المتحدة في جنوب آسيا وبالتالي إلى الحرب الفيتنامية.

لم تكن النتائج والوقائع كما أراد وخطط لها كندي. وبعد فترة طويلة من اغتيال كندي نفسه، كانت الحرب كارثة بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية. بادر الرئيس نيكسون في عام 1969 بسلسلة من الانسحابات بجنوده. وتبنت إدارته استراتيجية أكثر سرية ركزت على منع تأثير الدومينو على بلدان آسيا ووقوعها الواحدة تلو الأخرى تحت سيطرة النظام الشيوعي. أصبحت أندونيسيا هي المفتاح في هذه الاستراتيجية.

كان أحد العوامل الرئيسية في ذلك: رئيس أندونيسيا حاجي محمد سوهارتو. اشتهر سوهارتو كرجل قوي، شجاع في محاربة الشيوعية وبعدم تردده باستعمال أكثر الوسائل وحشية في تنفيذ سياساته. عندما كان قائداً للجيش في عام 1965 سحق انقلاباً مدعوماً من الشيوعيين. كانت النتيجة موت ما بين 300 ألف إلى 500 ألف إنسان، كانت أحد أسوأ المجازر في القرن العشرين مذكرةً بمجازر أدولف هتلر. وفي تقدير آخر ألقي في السجون، وأرسل إلى معسكرات الأعمال الشاقة أكثر من مليون شخص. عقب هذه الكارثة من القتل والاعتقالات تولى سوهارتو السلطة في عام 1968 كرئيس للبلاد.

عندما وصلت إلى أندونيسيا في عام 1971 كان هدف السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية واضحاً: أوقفوا الزحف الشيوعي، وادعموا الرئيس. توقعنا أن سوهارتو سيخدم واشنطن كما خدمها شاه إيران. كان الرجلان متشابهين في الجشع والخيلاء والوحشية.

بالإضافة إلى شهوتنا في امتلاك النفط أردنا أيضاً أن نجعل من أندونيسيا مثالاً لكل بلدان آسيا ولكل بلدان العالم الإسلامي.

كانت شركة ماين، التي كنت أعمل فيها، مسؤولة عن عملية تطوير الشبكات الكهربائية التي ستمكن سوهارتو وحاشيته من تصنيع البلاد وجعلهم أكثر غنى، وتضمن أيضاً السيطرة الأمريكية لمدة طويلة.

كان عملي هو اختلاق الدراسات الاقتصادية الضرورية للحصول على التمويل من البنك الدولي وبنك آسيا للتنمية والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية.

حالما وصلت إلى جاكرتا اجتمع فريق عمل ماين في المطعم الرائع في الطابق العلوي لفندق أندونيسيا انتركونتيننتال. أوجز مدير المشروع شارلي ايلينغورث مهمتنا "لننقذ هذا البلد من قبضة الشيوعية" ومن ثم أضاف: "نحن جميعاً نعرف إلى أي مدى تعتمد بلادنا على النفط، تستطيع أندونيسيا أن تكون حليفاً قوياً فيما يتعلق بهذا. لذلك وأنتم تنفذون هذه الخطة الرئيسية، الرجاء أن تعملوا ما في وسعكم لتضمنوا أن صناعة النفط وما يخدمها من موانئ وأنانيب نقل وشركات بناء، يحصلون على كل ما قد يحتاجونه في الطريق إلى كهربة البلاد خلال مدة الـ 25 عاماً من عمر هذه الخطة".

كانت أغلب المكاتب الحكومية في جاكرتا آنذاك تفتح أبوابها باكراً حوالي الساعة السابعة والنصف صباحاً. وتغلق أبوابها عند الساعة الثانية بعد الظهر. يأخذ موظفو هذه المكاتب استراحة لشرب القهوة، الشاي، وتناول طعاماً خفيفاً. أما الغداء فقد كان مؤجلاً حتى نهاية الدوام. جعلتها عادة الإسراع بالعودة إلى الفندق وتغيير ملابسي وارتداء لباس السباحة متوجهاً إلى المسبح، وأطلب من المطعم سندويشة من سمك الطون وبيرة محلية باردة تدعى بينتانغ بارو. ومع أنني كنت أحمل معي حقيبتي المملوءة بالأوراق الرسمية التي جمعتها خلال لقاءاتي لكن كان ذلك مجرد ذريعة فقد كنت هناك لأستمتع بأشعة الشمس مُحوِّلةً لون جسمي إلى البرونزي، ولأستمتع بالنظر إلى الفتيات الجميلات باللباس البكيني، أغلبهن كنّ زوجات أمريكيات لعمال نفط، واللواتي قضين أيام الأسبوع في أماكن بعيدة أو زوجات لمدراء تنفيذيين يعملون في جاكرتا.

لم يمض وقت طويل لكي أفتتن بامرأة كانت تبدو في عمر قريب من عمري، خليط آسيوي أمريكي. بالإضافة إلى جمال جسدها المذهل بدت ودودة بشكل غير اعتيادي. أحياناً، وبالطريقة التي كانت تقف فيها، وتتمطى، وتبتسم لي أثناء طلبها الطعام بالإنكليزية وتغطس

فيها بالماء بدت وكأنها تغازلني. وجدت نفسي أستدير بسرعة إلى الجانب الآخر، عرفت أن وجهي اكتساه الاحمرار، فلعنت والدي المتزمتين.

كل يوم حوالي الساعة الرابعة، أي بعد وصولي بساعة ونصف، كان يأتي رجل ليرافقها والذي كنت متأكداً بأنه ياباني. يصل لابساً طقماً على غير عادة في بلد لباسه الرسمي هو بنطال فضفاض وقميص مكوي بعناية مصنوع على الغالب من قماش محلي زاه. يتبادلان الكلام لبضع لحظات، ويرحلان سوية. على الرغم من بحثي عنهما في حانات الفندق ومطاعمه لم أراهما أبداً سوية أو كل على حدة في أي مكان إلا عند حوض السباحة.

في عصر أحد الأيام أخذت المصعد إلى الطابق الأرضي، شحذت نفسي، سأقترب منها وأتحدث معها، قلت في نفسي ليس هناك شيء لتخسره. أعرف بأنها كانت متزوجة من الرجل الياباني، وأريد فقط التحدث إلى شخص ما بالإنكليزية. كيف لها أن تعارض هذا؟ شعرت بالابتهاج حالما قررت ذلك.

مشيت باتجاه حوض السباحة بشعور مترقب بهيج، مترنماً بأغنية مفضلة لكن حالما وصلت تسمرت في مكاني مرعوباً ومرتبكاً. لم تكن في مكانها المعتاد، بحثت عنها حول المسبح كالمهتاج، لكن لا شيء دل على وجودها في أي مكان. ألقيت حقيبتي بجانب كرسي استراحة، وأسرعت إلى الحدائق المحيطة بالمسبح أفتش عنها. لم أكن قد شاهدت هذه الحدائق من قبل، والآن وجدت كم هي كبيرة تضج بكل لون ممكن تخيله. طيورٌ كأنها من طيور الجنة وأشجارضخمة، تبدو الأشجار التي رأيتها في الأمازون قزمة تجاهها. لكن كل ما كنت قادراً على التفكير به كانت فرصتي الضائعة لأبدي إعجابي بكل هذا الجمال والغرابة مع المرأة التي لم أجدها. كان يوجد نخيل وأغصان غريبة شكلت زوايا ومخابئ صغيرة. ظننت بأنني قد لمحتها مستلقية على منشفة على الحشائش في الجانب الآخر من السياج، أسرعت حول السياج، وأيقظت امرأة، جذبت سوتيانة المايوه المفكوكة، وضغطتها على نهديها العاريين، وَقَفَتْ وحدقت في مهددة تتهمني عيناها بالتحرش الجنسي، وصرخت بلغة لم أفهمها. اعتذرت بقدر ما كنت أستطيع وعدت إلى مكاني حيث تركت حقيبتي.

عندما اقترب الكرسون ليسألني ماذا أطلب، أشرت إلى الكرسي الفارغ حيث كانت تجلس عادة، انحنى، وابتسم، والتقط حقيبتي ليأخذها إلى المكان الذي أشرت إليه.

قلت: "لا لا" وأنا مازلت أشير إلى المكان "المرأة أين هي". ظننت أن جزءاً من عمل الكرسون أن يعرف عادات زبائنه النظاميين. توقعت أن المدير الياباني يعطيه بخشيشاً جيداً، وسيتذكر.

أجاب: "لا لا".

قلت: "هل تعرف أين ذهبت؟". وألقيت يدي على جانبي، وهززت كتفي كما كنت أعتقد أنها إيماءة عالمية سيفهمها.

قلد الكرسون حركاتي، وابتسم ببلاهة، وردد كلماتي كالببغاء: "أين ذهبت". قلت: "نعم أين؟".

ردد الكرسون: "نعم أين؟" وهز كتفيه مرة ثانية، كان تعبيره كأليس في بلاد العجائب. ومن ثم طقطق إصبعه وقال: "نعم" وضحك.

أمسكت أنفاسي شاعراً بالارتياح بأن نظريتي حول كراسين المسبح كانت على وشك أن تثبت صحتها.

قال الكرسون: "سندويشة طون مع بيرة بينتانغ بارو".

انكمشت على نفسي، واستطعت فقط أن أهز برأسي موافقاً. هرول الكرسون مبتعداً.

زقّتَ الساعة الرابعة، وذهبت ولم تكن هناك أية إشارة تدل على وجودها أو على وجود الرجل الذي كان دائماً يأتي لمقابلتها. عدت إلى غرفتي مجهداً. أخذت دوش حمام، وارتديت ملابسي وتوجهت خارجاً. كان يجب علي الابتعاد عن هذا الفندق. سأغرق نفسي في مشاهدة المناظر المحلية حول الفندق.

2 قرصنة المجذومين

كان مساء جاكرتي اعتيادي، حار وشديد الرطوبة، غيوم ثقيلة تغطي سماء المدينة منذرة بليل ماطر. لم أكن قد غادرت الفندق من قبل إلا في سيارتي الجيب التي يقودها سائقي الخاص. تجاوزت حافة الطريق المنظفة بعناية والموصلة إلى الفندق. اعترضت طريقي، وكانت على وشك أن تصدمني عربة أجرة بثلاث عجلات تدعى "بكاك". وكنت قد مررت بمئات من هذه العربات خلال ذهابي مع سائقي إلى اجتماعات متعددة. وكنت دائماً أجد الرسوم الزيتية بألوان قوس قزح مرسومة على جوانب ما يشبه الصندوق لمقاعدها العالية المثيرة بألوانها، مذكرة بطرافة بأن أندونيسيا كانت أرض الفنون. أما الآن فقد رأيت مظهراً آخر: هؤلاء سائقون فقراء بأسمال بالية يتنافسون بيأس للحصول على زبائنهم. أسرعوا إلي قارعين أجراساً، وصرخوا بأصوات عالية ليجلبوا انتباهي. تحركت في محاولة لكي لا أدهس، وكنت على وشك أن تزل قدمي في بقعة ماء راكدة سوداء كالقار، مليئة بالقاذورات، وتفوح منها رائحة البول.

سالت بقعة الماء القذرة ببطء منحرفة بانحدار شديد إلى أحد الأقنية الكثيرة التي كان قد بناها المستعمرون الهولنديون، كانت راكدة وغطت سطحها نفايات خضراء عفنة، وكانت رائحتها النتنة لا تطاق. لقد بدا منافياً للطبيعة أن المبدعين الذين حولوا البحر إلى مزرعة جميلة قد حاولوا إعادة خلق أمستردام وسط هذا الجو الاستوائي الحار. القناة وكما البقعة الوسخة التي كانت تصب فيها طفحت بالأنقاض، وكان بإمكاني التمييز بين الاثنتين من خلال رائحة النتانة المتميزة. كانت البقعة الصغيرة السوداء لها رائحتها الخاصة، رائحة البول والفاكهة العفنة، بينما القناة كانت تحمل رائحة عميقة لاذعة هي خليط من البراز والعفن.

تابعت السير متفادياً عربات الأجرة التي كانت تحاذي جانبي الطريق، وكان توجد خلف هذه العربات باتجاه الطريق العام حركة سير جنونية من السيارات والدراجات النارية وأصوات المزامير وضجيج المحركات وكواتم أصوات السيارات القديمة كل هذا كان غامراً ومربكاً. كما كانت أيضاً رائحة النفط اللاذعة تنبعث على أرض الرصيف الحار وتفوح رائحة دخان المحروقات في هواء الجو الرطب الحار. بدا ثقل كل هذا يؤثر على حالتي البدنية.

وقفت للحظة شاعراً بأنني قد هوجمت، وهزمت. وكنت على وشك أن أستسلم، وأعود إلى صفاء وسكون الفندق، لكن ذكّرت نفسي بأنني قد تحملت غابات الأمازون، وعشت في أكواخ الطين مع الفلاحين في انديس الذين كان معاشهم اليومي هو أكل البطاطا وحفنة من البقول وعندما كانوا يُسألون عن أسماء أولادهم يسمون الأحياء منهم الأموات. وكان الأموات غالباً يفوقون الأحياء. فكرت في أعضاء فريقي الآخرين وفي كل الرحلات التي يتعمد فيها الأمريكيون تجنب مشاهدة البلاد التي يزورونها بالطريقة التي يراها فيها غالبية السكان

الذين يعيشون في هذه البلاد . فجأة أدركت خلال عملي كمتطوع في فرق السلام التأثير العميق الذي تركته في نفسي العلاقات الوطيدة التي أقمتها مع بعض هؤلاء الناس، الطريقة التي فتحوا فيها حياتهم لي ومشاركتهم لي مؤنهم الضئيلة بشكل بعيد كل البعد عن الأنانية وبدون تكلف وبترحاب حار يصل إلى حد الحب. واقفاً وحيداً في جاكرتا التي بدأ الظلام يلفها، كان يجب علي أن أفكر فيما إذا كنت حقاً مؤهلاً لأكون قرصاناً.

كيف يمكن لي أن أسلب، وأنهب هؤلاء الفقراء سائقي عربات الأجرة، هؤلاء الرجال والنساء الذين خدموني في الفندق وفي المكاتب التي كنت أتردد إليها، الفلاحين الذين يكدحون في حقول الأرز، الصيادين، والخياطات وعمال المكتبات والنجارين: أن تكون روبن هود تسرق من الأغنياء أو قرصاناً تغير على سفن الإسبان المعتدين المحملة بذهب الملك هذا شيء، وأن تنهب، وتسلب الفقراء شيء آخر مختلف تماماً. ومع ذلك كان هذا بالضبط ما دعيت للقيام به، أسرق الفقراء وأعطي الأغنياء وأتقاضى عمولتي خلال هذه العملية. كيف لي أن أقوم بهذا؟ كيف يمكن لشارلي إيلينغورث "مدير الفريق" وكل شخص آخر يقوم بأعمال مشابهة لهذا العمل أن يتعايشوا مع أنفسهم.

في تلك اللحظة كان يجب علي أن أقبل مسؤوليتي الشخصية، وأعترف بأن إمكانية عملي في الإكوادور جعلتني أنظر إلى الأمور بغير الطريقة التي ينظر فيها الأشخاص الآخرون الذين يقومون بأعمال مشابهة لعملي أو نظرة المواطنين دافعي الضرائب الداعمة لنا. كان نعمة - أو نقمة تبصري هذا الذي شاركني فيه بضعة أمريكيين. وجد كل شخص طرقاً ليسوغ بها عمله. كان شارلي يحارب الشيوعيين، وكان الآخرون ببساطة ساعين وراء الربح والفائدة. "عالم كان فيه كلب يأكل كلباً" هكذا يقولون. "عائلتي أولاً". قضى بعضهم على أعراق أو طبقات أخرى كناس متسمين بالوضاعة أو الكسل مستحقين ما يصيبهم من سوء طالع. أفترض بأن البعض اعتقدوا في الواقع أن استثمار الأموال في إنشاء هذه الشبكات الكهربائية سيحل مشاكل العالم. لكن ما هو تبريري أنا؟ لقد كنت شاباً صغيراً وعلى حين غرة شعرت بأني رجل متقدم جداً في السن.

حدقت من الأعلى إلى تلك القناة، تمنيت لو كان معي نسخة من كتاب توم باين "الإدراك العام" لأقذفها إلى ذلك الماء النتن.

استثار عيني شيء لم أكن قد اكتشفته من قبل، صندوق كبير كرتوني بالٍ ملقى قرب حافة الماء الراكد كقبعة متسول مترديه. وبينما كنت محدقاً به ارتجف الصندوق كحيوان أثخنته الجراح، ظننت أنني متوهم وبأن حرارة الجو والدخان والأصوات قد أثرت على أعصابي. قررت متابعة السير. لكن قبل أن أستدير لمحت يداً تبرز من حول أحد جوانب الصندوق، أو بالأحرى رأيت ما بدا أنه يشبه اليد وقد تقلص الآن إلى شيء أبتر مدمى. أصبح ارتعاش الصندوق أكثر حدة. تحرك الشيء المبتور المدمى على طول حافة الصندوق

إلى زاوية في أعلاه، وأطل فجأة بشكل مروع من خارج الصندوق وتبع ذلك كومة شعر أسود على شكل عش بدت وكأنها رأس مكسو بأفاعٍ، كالغرغونة،* واستقرت فوق الصندوق مشوهة ومغطاة بالطين. تحرك الرأس، وبدأ جسم يظهر من داخل الصندوق، أرسل الجسم موجة من الاشمئزاز في كياني، زحف الجسم، الذي بدا لي الآن أنه يشبه امرأة، منحنياً هزيلاً على الأرض إلى حافة القناة. صعقت وأنا أشاهد شيئاً سمعت عنه طوال حياتي ولكن هذه أول مرة كنت أراه. هذه المرأة (إذا كان هذا فعلاً هو حقيقة جنس هذا الكائن) هي كائن مجذوم وكان جسدها يتفسخ، ويموت أمام عيني.

جلس الجسم عند حافة القناة أو على الأصح انهار كأحمال بالية. امتدت اليد التي لم أكن رأيتها من قبل، وغطست خرقة ممزقة في ماء القناة النتن، هزت اليد الخرقة المبللة ببطء، ولفت بها ما كان يجب أن يكون أصابع محل الجراح العديدة المفتوحة للعضو المبتور.

سمعت أنيناً، وأدركت أن هذا الصوت قد خرج مني، ارتعدت مفاصلي. وتحفزت للعودة مسرعاً إلى الفندق، لكن أجبرت نفسي على البقاء حيث أنا، كان يجب علي أن أكون شاهداً على صراع هذا الجسد مع الموت. عرفت في صميم قلبي أن أي عمل آخر سأقوم به سيكون بلا جدوى. كانت معاناة هذه المرأة الوحيدة تتكرر على الأرجح عدة مرات في اليوم الواحد. فكرت ملياً كم من النفوس المنبوذة مقدراً لها أن تقوم بمثل هذا العمل المشؤوم هنا في جاكرتا وفي كل مكان في اندونيسيا والهند وأفريقيا.

التقطت عيناي حركة أخرى: ارتعاش لألواح الصندوق الكرتوني، تحركت المجذومة ببطء لتحدق في الصندوق كان وجهها بلا شفاه وملطخاً بالبثور الحمراء، تابعتُ عينيها الغارقتين في الصندوق.

ظهر طفل صغير إلى جانب الصندوق، أردت أن أكف عن النظر لكن كان شيئاً مذهلاً يحدث على مرأى عيني، كنت كرجل يشهد جريمة قتل عاجز عن إيقافها. زحف الطفل باتجاه المرأة وجلس إلى جانب المجذومة، وبدأ بالبكاء. لم أسمعه يبكي إما لضعف صوته الشديد أو لعلو صوت حركة المرور. لكن كنت أستطيع أن أرى الفم المفتوح وتشنج الجسد الصغير.

تطلعت المجذومة فجأة إلى فوق، وشاهدتني أراقبها، تقابلت أعيننا، بصقت على الأرض، ووقفت وهزت يدها المدماة المبتورة باتجاهي، التقطت الطفل بين ذراعيها وعادت مسرعة، واختفت ثانية داخل الصندوق.

بينما كنت أحدق إلى حيث كانت المرأة، ارتطم شيء ما بظهري، استدرت بسرعة وعفوية، ووضعت يدي في جيب بنطالي باحثاً عن محفظتي، شعرت بالارتياح لأشعر أن المحفظة

---

* - الغرغونة: إحدى أخوات ثلاث في الميثولوجيا الإغريقية، مكسوات الرؤوس بالأفاعي، بدلاً من الشعر، كان كل من ينظر إليهن يتحول إلى حجر "المترجم".

مازالت مكانها . وشعرت أيضاً بالارتياح لهذا الارتباك الذي قطع علي ما كنت مستغرقاً به. مرت أمامي فتاتان جذابتان بقوام مفر تضحكان، وتبتسمان لي. كانت إحداهما ترتدي بنطال جينز ضيقاً يبرز تقاطيع جسدها والأخرى ترتدي تنورة قصيرة تظهر مفاتن رجليها وكندرة كعبها رفيع وصديرة قصيرة تصل إلى ما فوق سرة البطن. وقفتا ، قالت المرأة التي ترتدي التنورة القصيرة: "لسنا نشالتين، نحن نبيع الحب" وطوت إصبعها داعية "تعال وتمتع".

هززت رأسي، فقالت إحدى الفتاتين: يبدو أنه يحب الجنس المثلي".

كان أمامهما حيث اتجهتا صاعدتين جسر للمشاة يقطع حركة المرور الجنونية. سارتا بتبختر باتجاه الجسر تهزان وركيهما بإغراء جنسي كنميرتين تبحثان عن فريسة، استدارت صاحبة التنورة القصيرة مبتسمة، ولوحت لي بيدها ومن ثم اتجهتا صاعدتين درجات سلم الجسر.

عدت فجأة بنظري إلى الصندوق الكرتوني، لم يكن قد تحرك. هبَّ نسيم فتموج ماء القناة، تملكتني رغبة جامحة لأتجه نازلاً، وأعطي هذه المرأة كل ما في حوزتي من نقود لكنني رأيت أسمالها البالية تفرش الأرض حيث كانت، يبدو أنها سقطت منها في عجالتها مبتعدة هاربة مني. فخمنت أنه من الأفضل أن أحترم خصوصيتها . أسرعت باتجاه جسر المشاة المعلق جاهلاً تماماً إلى أين يمكن أن يقودني.

غابت الشمس بشكل مفاجئ ومثير باتجاه خط الاستواء، لكن في هذا اليوم خلقت الغيوم الثقيلة انطباعاً مخادعاً جاعلة الضوء يتلاشى تدريجياً وببطء، ففي الوقت الذي وصلت فيه إلى الجسر هبط ظلام دامس تقريباً . كان يوجد في الجهة الأخرى من الجسر لوحة نيون تومض بكلمة "مطعم" بالإنكليزية. تابعت صاعداً درجات سلم الجسر.

شاهدت امرأة طويلة القامة متكئة على حاجز الجسر. كان من الصعب في هذا الضوء الباهت تبين معالمها ولكنها بدت جميلة. عندما أصبحت بمحاذاتها قالت بصوت أجش مثيراً للاشمئزاز وإنكليزية ركيكة "أنا أنت وقت جيد. رجل نحن نبسط محل تريد أنت" وأشارت إلى حنجرتها جاعلة إياها تبرز ومن ثم ربتت على مؤخرتها، وابتسمت لي فرأيت طبقات الماكياج الفاقع على وجهها، وتابعت مسرعاً .

توهجت بعض أضواء الشارع فجأة على طول الجسر وتتابع وميضها ناشراً ضوءاً أصفر شديداً صبغ المكان بضبابية وكأنه تقريباً منظر لمستنقع. وقفت إلى جانب أحد الأضواء متوهماً أن عملي في تخطيط الكهرباء يتطلب مني البحث والتمحيص في أشياء كهذه. كانت دعامة الإسمنت متصدعة، ومتقشرة، وملطخة بالطين، تجنبت لمسها .

تابعت السير محدقاً إلى قدميّ وإلى أرضية الجسر المتقشرة، نفرتْ من الإسمنت حدائد صدئة متشابكة، وكأنها ديدان غاضبة في مستنقع هذه الأضواء الصفراء. حاولتُ التفكير في

الجسر، عمره، الرجال الذين بنوه... وفي النهاية انقطع حبل أفكاري، واستحوذت على تفكيري صورة المرأة الجميلة التي رأيتها عند مسبح الفندق، وبطريقة محببة أخذني ذلك التفكير بعيداً عن الواقع المحيط بي. لكنها ملأت علي نفسي، ولم أستطع إبعادها عن تفكيري. اكتسحني فكرة وقوعي في حبها وها هي قد تخلت عني. أكدت لنفسي بأن هذا مجرد حماقة.

رفعت رأسي ناظراً أمامي لأرى نفسي قد وصلت إلى سلم الجسر في الجهة الأخرى. كانت تومض أمامي مباشرة لوحة "مطعم" مثبتة إلى سقف مبنى منخفض في شارع فرعي بعيداً عن الطريق العام. تحت اللوحة، وبحروف صغيرة تقرأ "وجبات صينية ممتازة". تقدمت سيارة سوداء ببطء باتجاه المطعم كانت تشبه السيارات التي تستخدمها السفارة الأمريكية، وكانت وحيدة غريبة في هذا المكان وسط خشونة هذه المدينة.

3 الغانيات اليابانيات

هبطت درجات السلم. وقفت السيارة أمام مدخل المطعم. دار المحرك للحظة ومن ثم تقدمت ببطء إلى الأمام. على ما يبدو لم يعجب السائق ما رأى. أو لم يجد الشخص الذي يبحث عنه. حاولت أن أمعن النظر من خلال نوافذ السيارة لكن رأيت فقط انعكاس نيون لوحة المطعم. وفجأة أطلق السائق العنان لمحرك السيارة، وانطلق مسرعاً.

عندما أصبحت أمام المطعم رأيت بأن ستائر رقيقة تحجب الرؤية إلى الداخل. وضعت وجهي على النافذة لم أستطع أن أرى شيئاً كان معتماً من الداخل ما عدا أضواء كروية صغيرة كانت تومض، قدرت بأنها شموع. اتجهت إلى الباب.

فتح الباب على غرفة معتمة تحوي قنديلاً على كل طاولة من طاولاتها الاثنتي عشرة أو ما يقرب من ذلك. وبنظرة عجلى متفحصة للطاولات التي كان يجلس عليها الزبائن رأيت بأن المكان يوحي بوجود ثقافات متعددة: كان هناك آسيويون وأوروبيون وأمريكيون.

انحنت سيدة صينية، وقالت لي: "أهلاً وسهلاً، مساء الخير، عشاء لشخص واحد؟" أوحت لهجتها بأنها درست على يد معلم بريطاني، قادتني إلى داخل الغرفة.

تجمدت غير مصدق ما كنت أرى.

المرأة التي شاهدتها في المسبح، فتاتي، الشخص الذي كنت قد حاولت جاهداً أن أجده. جلست إلى طاولة برفقة سيدة آسيوية أخرى. كانت تحدق فيَّ، ومن ثم ابتسمت، وأومأت لي. لاحظت المضيفة ذلك فقادتني إلى طاولتها سائلة "أصدقاء؟".

فقالت المرأة التي شاهدتها في المسبح ودون تردد "نعم، الرجاء هلا انضممت إلينا؟".

سحبت المضيفة لي كرسياً فارغاً وانحنت ثانية ومشت مبتعدة. أصابني الارتباك فسألت: "أين زوجك؟"

تبادلت الفتاتان النظرات، وبدأتا بالضحك، أخيراً قالت: "أنا لست متزوجة".

"لكن الرجل الذي كان برفقتك في المسبح".

"إنه زميل عمل". كاظمة ضحكتها، أشارت إلى الكرسي. "رجاء تفضل بالجلوس. لقد طلبنا العشاء للتو. يزيد عن حاجتنا جميعاً - على الأقل كبداية - أم أنك مصمم أن تتناول العشاء وحيداً؟". كانت تتحدث الإنكليزية بطلاقة أقرب إلى التمام مع لمحة من نبرة متميزة.

جلست يتنازعني حسن الحظ من جهة وقلق مترقب من جهة أخرى، وكأني أورِّط نفسي بشيء محرَّم. جاءت المضيفة ووضعت فنجاناً صغيراً أمامي.

أشارت المرأة التي شاهدتها في المسبح إلى إبريق صغير من الخزف الصيني "ساك؟ إننا شربنا الكثير، هذه ليلتنا للفرفشة. إنهم يقدمون هنا شراباً جيداً من الساك" وملأت كأسي

"بصحتكم"، وتقارعت كؤوسنا. قالت: "ما ألذه" وهي تمسح شفتيها بمنديل أبيض "يا للغلاظة، عذراً: أنا أدعى نانسي، وهذه رفيقتي ماري".

قلت: "جان" وصافحتهما.

"لقد رأيتك عند المسبح، جان، وانتظرتك لتأتي، وتسلم علي، تبدو وحيداً ولطيفاً لكن أعتقد بأنك خجول جداً أو ربما...." مالت باتجاهي مقتربة مني جداً حتى أنني كنت أستطيع أن أشم رائحة الكحول في أنفاسها: "مجنون بحب زوجتك".

كان دوري لأضحك فقلت: "أتابع إجراءات الطلاق".

فقالت ماري: "يا لحسن الطالع، وهذه تحية للمطلقين" ورفعت كأسها. تحدثت بلكنة إنكليزية مشابهة لكنها أثقل بقليل من لكنة نانسي.

وصلت المضيفة تحمل بضعة صحون مليئة بالطعام. وبينما كنا نأكل تبادلنا معلومات حول حياتنا. صعقتني ماري ونانسي عندما وصفتا نفسيهما كـ "غانيات". اعترفت بأنني اعتقدت أن تلك الأيام، أيام الغانيات، قد ولت بلا رجعة. لكنهما أكدتا لي بأنني مخطئ تماماً قالت ماري: "النفط يا عزيزي، أحيا هذا الفن الموغل بالقدم، نعم بشكل مختلف، لكنه ما يزال حياً وهو اليوم في أحسن أحواله".

هجر والداهن والديتهن التايوانيتين عندما كانتا حبليين بهما. كان والداهن ضابطين أمريكيين أرسلوا للخدمة في بلدهم بعد الحرب العالمية الثانية. سلمت الوالدتان المولودتين لرجل أعمال ياباني. تولى تربيتهما والعناية بدراستهما التي تضمنت دروس مكثفة في اللغة الإنكليزية والتاريخ والثقافة الأمريكية وعندما بلغتا بدأتا العمل لمصلحته.

قالت نانسي "أظن أنك رأيت النساء هناك في الشارع" وأشارت إلى جسر المشاة خارج ستائر النافذة "كان من الممكن أن نكون نحن كمثل تلك النسوة ولكننا محظوظتان" وتابعت القول بأن رجل الأعمال الياباني يدفع لهما أجراً جيداً وقلما يملي عليهما كيف يجب أن يسلكا أو يحدد ما يجب أن تفعلا".

"إنه يطلب نتائج، هذا هو كل ما في الأمر. وعلينا نحن التصرف للحصول عليها".

وسكبت لنا مزيداً من الساك.

سألت: "ما نوع هذه النتائج؟"

أجابت ماري: "كم أنت ساذج، هل أنت جديد هنا؟"

اعترفت أنها كانت رحلتي الأولى، مهمتي الأولى وأضفت بأنني تواق لكي أتعلم.

صرحت نانسي "يسعدنا أن نعلمك، أنت غالٍ علينا. لكن هل بإمكاننا أن نطلب شيئاً ما بالمقابل، ليس الليلة إنما في وقت آخر".

حاولت الظهور بمظهر اللامبالاة وقلت: "أنا في خدمتكما".

كانتا تتكلمان كأساتذة الجامعة أكثر منه كفانيات، وهما تشرحان أن الرجال في السلطة كانوا دائماً مستعدين لبذل الأموال والتضحية بحياة الآخرين في سبيل تكديس الثروة والنفوذ. لقد كنت مندهشاً لصراحتهما وأعدتها - على الأقل في جزء منها - إلى شراب الساك المسكر، على الرغم من أن كل شيء قالتاه كان معقولاً تماماً. تكلمتا عن أهمية تجارة التوابل في زمن المكتشفين الأوروبيين العظماء، والدور الذي لعبه الذهب لقرون عديدة.

تابعت نانسي القول: "أما اليوم فهو النفط، إنه أغلى ثروة على الإطلاق. كل شيء يعتمد عليه. كانت التوابل، وكان الذهب أيضاً من الكماليات دون قيمة حقيقية. التوابل جيدة المذاق، وتستعمل لحفظ الأطعمة والذهب يستعمل للصياغة والزينة. لكن النفط... النفط هو الحياة ذاتها. لا شيء في عالمنا يعمل بدون النفط. إنه الثروة الأكبر في التاريخ. الجوائز التي يوفرها النفط ضخمة جداً، فهل يجب أن نتفاجأ بأن الرجال مستعدون للمخاطرة بكل شيء للتحكم به؟ يخونون، ويسرقون، يبنون الأساطيل، وينتجون الصواريخ ويرسلون الآلاف. مئات الآلاف من الجنود الشبان ليموتوا من أجل النفط".

سألت: "هل هذا ما تعلمتيه في كتب التاريخ؟"

ابتسمت بتكلف، وقالت: "بالطبع لا. هذا تعلمته من مدرسة الضربات القاسية".

كانت ماري تضحك إلى جانب نانسي، وقالت: "الضربات القاسية! لا أصدق أنك قلت هذا. نانسي، ذلك شيء جيد تماماً يجب علي أن أتذكره دائماً. الضربات القاسية!" وهزت رأسها.

في تلك اللحظة فكرت بشارلي والخطبة التي ألقاها أول ليلة في المطعم في الطابق العلوي لفندق انتركونتيننتال حول قدومنا إلى أندونيسيا لإنقاذها من قبضة الشيوعيين وضمان مصالح أمريكا في النفط. ذهب تفكيري بعد ذلك إلى كلودين، المرأة التي كانت في بوسطن تنصحني، وتتابع عملي كرجل اقتصادي مأجور. بدا لي أن كلودين كانت جزءاً من التقليد نفسه الذي ضم هاتين الآسيويتين الأمريكيتين، تساءلت فيما إذا كانت قد فكرت يوماً ما بنفسها كفانية.

انتقلت عيناي من ماري التي كانت تضحك إلى نانسي وفي تلك اللحظة تخيلت كلودين، وأدركت كم اشتقت إليها. لا أعرف فيما إذا كان افتتاني وهاجسي بهذه المرأة الجالسة أمامي، المرأة التي شاهدتها في المسبح، قد أخرجني من وحدتي أو ربما لا شعورياً قد وجدت شبهاً بينها وبين كلودين.

طردت هذه الأفكار من مخيلتي لأجد ماري تدمع من الضحك ماسحة عينيها بمنديلها.

قلت لنانسي: "وأنت ما دورك؟"

أجابت: "نحن كهؤلاء الجنود، قابلون للاستهلاك، ولكن ضروريون في خدمة الإمبراطور".

سألت: "ومن هو الإمبراطور؟"

نظرت نانسي إلى ماري وقالت: "لا نعرف أبداً، لكن على كل حال، الإمبراطور هو من يدفع السعر الأعلى لمعلمنا".

"الرجل الذي كان برفقتك في المسبح؟"

"ليس هو المعلم الحقيقي، هو صلة الوصل هنا، إنه يأخذني لملاقاة زبائني".

"في فندق انتركونتيننتال؟"

"جناح شهر العسل" قالت ذلك قهقهة، لكنها أوقفت نفسها عن الضحك، وتابعت "آسفة، ماري وأنا نقول دائماً نتمنى أحياناً لو كنا في شهر عسل حقيقي في ذلك الجناح" وتطلعت باتجاه ستائر النافذة. تذكرت السيارة السوداء التي كانت تتجول في الخارج، متسائلاً في نفسي فيما إذا قد كان صاحبها يبحث عن إحداهما.

سألت: "عملكما فقط هناك، في فندق أندونيسيا؟"

قالت نانسي: "بالطبع لا، نحن نعمل في كل مكان. في النوادي الريفية في الضواحي، سفن الرحلات الترفيهية، هونغ كونغ، هوليود، لاس فيغاس، سمِّ المكان الذي يخطر ببالك. نحن في أي مكان يحبه رجال النفط والسياسة".

انتقلت عيناي بينهما، بدتا صغيرتين جداً وخبيرتين بهذا العالم جداً. كنت حينها في السادسة والعشرين من العمر وعرفت من خلال أحاديثهما بأنهما أصغر مني بحوالي خمس سنوات.

سألت: "ومن هم زبائنكما؟"

رفعت نانسي سبابتها إلى شفتيها، وأدارت عينيها متفحصة المطعم كظبية رأيتها ذات مرة في غابات نيوهامشر وقد روّعها عواء كلب في البعيد. وقالت بصوت مهيب: "لا تسأل هذا السؤال أبداً".

4 البوغي البعبع

عدت إلى اندونيسيا عدة مرات خلال السنوات القليلة التالية. ثمّن البنك الدولي، مؤسساته الفرعية، وحكومة سوهارتو استعداد شركة ماين لتزويدهم بتقارير تضمن قروضاً ضخمة تعود بالفائدة على الشركات الأجنبية وحكام أندونيسيا. لم يعبؤوا بكون تلك القروض ستغرق البلاد بالديون. بل كان هذا جزءاً من خطة البنوك. بينما كان يهم سوهارتو من استثمار أمواله المتراكمة خارج البلاد هو حماية نفسه من ما يخبئه المستقبل عندما تصل البلاد إلى هاوية الإفلاس.

خلال هذه السنوات اقتضت طبيعة عملي أن أزور قرى ساحرة بطبيعتها لم يشذبها إنسان في جبال جاوا، وشواطئ نائية تقع على طول السواحل وأراض عجيبة باهرة الجمال. كان الناس يتكلمون لغة الباهاسا التي اخترعت من قبل اللغويين بعد الحرب العالمية الثانية لتساعد على توحيد الجزر الأندونيسية، بساطة هذه اللغة مكنتني من تعلم أساسياتها بسرعة. تمتعت باكتشاف مناطق قلما كان الأجانب يزورونها، وتمتعت بالحديث إلى أهلها ومحاولتي فهم ثقافاتهم وعاداتهم. علمني التدريب الذي تلقيته كعضو في فرق السلام قيمة الابتعاد عن الطرق التي كان يرحل فيها معظم رجال الأعمال، الدبلوماسيون، والسياح، فكنت ألتقي المزارعين والصيادين والطلاب وأصحاب الدكاكين والأولاد الفقراء في الشوارع. مع ذلك تأكد لي أيضاً بأنه سيلازمني شعور بالذنب لتأثير العمل الفظيع الذي كان يقوم به رجال مثلي على غالبية سكان أندونيسيا.

عندما كنت في جاكرتا كنت أقضي معظم الوقت في مسبح فندق انتركونتينتال أندونيسيا. خابت آمالي لأنني لم أر ثانية نانسي أو ماري على الإطلاق. على كل حال غالباً ما كنت أشاهد مثيلاتهما بالمهنة حول المسبح. ربطتني علاقة حميمة بإحداهن. امرأة تايلاندية شابة، واكتشفت أن استعمال الغانيات لم يكن حكراً فقط على اليابانيين. نحن الأمريكيون أيضاً كانت لنا غانيات على طريقتنا الخاصة، كما كان للأوروبيين أيضاً وللآسيويين. كان يبدو أنه من المتفق عليه بين هؤلاء النساء أن العمل لدى اليابانيون كان هو الأمثل. لأنهم أتقنوا هذه المهنة بأحسن مما أتقنها الآخرون. خمنت أن ذلك كان صحيحاً بسبب تاريخ اليابانيين الطويل في هذه المهنة.

قبلت المرأة التايلاندية صداقتي لا لتريح أي شيء ولا لأن أحداً ما كان قد استخدمها للتجسس علي لمصالحه الخاصة. على كل حال لقد كنت مشتري، ولم أكن معروضاً للبيع. بل كانت صداقتها بدافع طيبة قلبها لأنها تحتاج شخصاً مثلي في حياتها أو ربما للانجذاب الذي حصل بيننا. لم أكن متأكداً تماماً ما هو دافعها الحقيقي. على كل حال كانت رفيقاً

مثيراً للشهوة ومحل ثقة. نورتني أيضاً حول الطرق التي كان يلجأ إليها كبار رجال الأعمال الدوليين والدبلوماسيين في عقد صفقاتهم.

قالت: "توقع دائماً أن يكون هناك كاميرات مخفية وآلات تسجيل في غرف السيدات اللواتي يحاولن إغواءك" توقفتْ برهة، وأضافت: "أنت رجل جذاب، لكن الأشياء هنا ليست هي كما تظهر لك" علمتني أن امرأة مثلها تلعب دوراً بالغ الأهمية في إظهار بعض أهم الصفقات العالمية إلى الوجود.

بعد سنتين من مهمتي الأولى، أُرسلت لمدة ثلاثة أشهر إلى سولاوسي الجزيرة البعيدة الواقعة إلى الشرق من بورنو والمشهورة باسم "الزرافة المخمورة" وذلك بسبب الشكل الذي تأخذه على الخرائط. اختيرت هذه الجزيرة لتكون نموذجاً لتطوير الريف. كانت الجزيرة في يوم من الأيام جزءاً هاماً من الهند الشرقية لتجارة التوابل، وأصبحت الآن بقرة القرن العشرين الحلوب. صممت الحكومة الأندونيسية لتجعل منها رمزاً للتطور لكن نحن الأمريكيون رأيناها كبقرة حلوب تدر المال لغناها بالمعادن والغابات والصناعات الزراعية. استولت بضع شركات عملاقة على مكامن الذهب والنحاس والغابات ذات الأشجار الفريدة، اشترت مزرعة كبيرة في تكساس مساحات واسعة من الغابات، وقطعت كل أشجارها وباعتها، وخططت أن تشحن لحوم بقر بحجم كرة القدم لتنقلها على ظهر السفن إلى أسواق سنغافورة وهونغ كونغ المربحة. كان ينظر أيضاً إلى جزيرة سولاوسي كحجر زاوية في برنامج الهجرة الذي وضعته الحكومة الأندونسية ـ خطة تشبه استعمار الأمازون الذي أفقر السكان الذين عملت معهم خلال سنواتي كمتطوع في فرق السلام ـ تهدف إلى نقل فقراء المدن التي تقع في جزيرة جاوا (والتي تتميز بأعلى كثافة سكانية في العالم) إلى المناطق الأقل كثافة. على غرار ما حدث في أمريكا اللاتينية، كان هذا البرنامج مدعوماً من وكالات التنمية العالمية كطريقة في توزيع قاطني الأحياء الفقيرة إلى المناطق الريفية التي يسودها الاضطراب وذلك لمنع قيام ثورات محتملة ضد الحكومة. استمرت هذه السياسة على الرغم من اكتشاف الخبراء حالاً ـ في القارتين ـ بأن مثل تلك البرامج غالباً ما أدت إلى نهايات كارثية. رحّل السكان الأصليون من مناطقهم، ودمرت أراضيهم وثقافاتهم بينما فشلت جهود سكان المدن المنقولين حديثاً في حراثة التربة الفقيرة.

عندما وصلت إلى جزيرة سولاوسي أعطيت بيتاً حكومياً خارج المدينة البرتغالية القديمة ماكاسار (أعيد تسميتها باسم "ينجونغ باندانغ" في إحدى إيماءات الرأس القومجية لسوهارتو)وكان لدي خادمة، جنائني، طباخ وسيارة جيب مع سائقها.

كان يتطلب عملي كالعادة، السفر إلى أية منطقة يظهر بأنها تحتوي على موارد يمكن استثمارها من شركاتنا العالمية، اللقاء مع قادة جماعات هذه المناطق، جمع كل المعلومات المتوفرة، وفبركة تقارير متوهجة تثبت أن القروض الضخمة لتطوير شبكات الكهرباء

ومشاريع البنية التحتية الأخرى ستحول هذا الاقتصاد القروسطي إلى اقتصاد عصري متطور.

تقع مدينة باتسفيل المعروفة قرب مزرعة تكساس المزدهرة بتربية الماشية، اعتُبرت مكاناً محتملاً لإنشاء محطة توليد الطاقة الكهربائية. قادنا سائقي باكراً في صباح أحد الأيام خارج ينجونغ باندانغ على طول الساحل المذهل بجماله الأخاذ إلى ميناء مدينة باريبار ومن هناك اتجهنا بحذر في طريق متعرج إلى منطقة الجبال النائية في الداخل. كان الطريق مجرد ممر ترابي وعر يتعرج داخل الأدغال، شعرت بأنني قد عدت إلى الأمازون ثانية.

عندما وصلت الجيب إلى قرية بينرانج قال السائق: "هذه باتسفيل" ـ التي تعني مدينة الخفافيش.

جلت بنظري حول المكان، أثار فضولي اسم القرية. بحثت عن الخفافيش لكنني لم أر أي شيء غير اعتيادي، طاف السائق ببطء حول الساحة التي تشبه ساحات مدن عديدة على امتداد أندونيسيا. تحتوي على مقعدين وعدة أشجار تتدلى من أغصانها عناقيد غامقة ضخمة تشبه جوز هند كبيراً. من ثم انفتحت فجأة إحدى تلك العناقيد، انقبض قلبي وجف حلقي مدركاً أن خفاشاً ضخماً كان يفرد جناحيه.

أوقف السائق السيارة وقادني إلى بقعة تحت أحد الخفافيش، كان هذا الحيوان المدهش يتحرك فوقنا، يفرد جناحيه بكسل، جسده بحجم القرد، فتح عينيه، ودار برأسه محدقاً بنا. كنت قد سمعت بعض الإشاعات بأن تلك الخفافيش قطعت خطوط الكهرباء، هذا يدل على أن امتداد جوانحها يزيد على ست أقدام، مع ذلك حتى في أجمح خيالاتي لم أتوقع أبداً أي شيء ممكن مقارنته بما كنت أراه.

التقيت في وقت لاحق محافظ بينرانج، سألته حول موارد المنطقة وما يمكن أن يكون موقفه تجاه بناء محطة كهربائية وصناعات مملوكة لأجانب في بينرانج. كانت الخفافيش ما تزال تسيطر على تفكيري فسألته فيما إذا كانت هذه الخفافيش تسبب أية مشاكل أجاب: "لا. تطير بعيداً كل مساء وتأكل الفواكه من خارج المدينة وتعود في الصباح. لا تقرب الفواكه عندنا أبداً". ورفع كوب الشاي مضيفاً "تماماً مثل شركاتكم" قال ذلك بابتسامة ماكرة "تعتاش على موارد المناطق البعيدة، وتتغوط على أراض لن يزورها ناس من أمريكا إطلاقاً، ومن ثم تعود إليكم".

كنت قد سمعت هذه النغمة غالباً. وبدأت أفهم على الرغم من أن أغلب الأمريكيين ليس لديهم أية فكرة أن طريقة حياتهم بنيت على حساب استغلال الملايين من سكان وشعوب البلدان الأخرى لكن هؤلاء يعون تماماً لما يجري. حتى في السبعينات نظروا إلى جيشنا ليس كمدافع عن الديمقراطية بل كقوة تحرس الشركات المستثمرة ونتيجة لذلك كانت هذه الشعوب مليئة بالخوف والغضب.

كانت جزيرة سولاوسي أيضاً موطن قبيلة البوغي سيئة الصيت. منذ قرن مضى، خاف منهم تجار التوابل الأوروبيون كأعنف وأكثر القراصنة دموية في العالم. وعندما عاد الأوروبيون إلى مواطنهم كانوا يهددون أولادهم غير المطيعين منذرينهم إذا لم يغيروا من سلوكهم "سيأتي البوغي البعبع ويأخذك". استمر البوغيون خلال فترة السبعينات بالعيش كما اعتادوا خلال مئات السنين. شكلت سفنهم الكبيرة التي كانت تدعى "براهوس" العمود الفقري للتجارة بين الجزر العديدة. كان البحارون الذين قادوا تلك السفن الشراعية السوداء، يلبسون قطعة قماش طويلة على شكل تنورة تغطي الجزء السفلي من أجسادهم وكانت رؤوسهم تلمع بشملات ملونة، وتتألق آذانهم بأقراط من ذهب. حملوا مناجل حادة غمدت في أحزمتهم حول الخصور. بدا البوغيون الآن كما لو أنهم ما يزالون متعلقين بشهرتهم القديمة.

أصبحت صديقاً لعجوز منهم اسمه بولي، يعمل في بناء السفن، وكان يزاول فنه بأسلوب أجداده القدامى. في أحد الأيام عندما كنا نتناول الغداء سوية، أبدى ملاحظة على أن جماعته لم ينظروا أبداً إلى أنفسهم كقراصنة، بل لقد كانوا مجرد مدافعين عن وطنهم ضد المعتدين. وأضاف مقدماً لي قطعة من فاكهة لذيذة: "نحن الآن قلة، كيف لحفنة من الرجال في مراكب خشبية أن يقاوموا الغواصات، الطائرات، القنابل، والصواريخ الأمريكية؟"

أسئلة كهذه كان لها وقع كبير في نفسي. وفي النهاية أقنعتني في تغيير أساليبي وطرقي.

5 نظام وحشي فاسد

بعد سنوات عديدة من محادثتي مع عامل بناء السفن من قبيلة بوغي، أنهيت عملي كرجل اقتصاد مأجور. أخذت هذا القرار - كما وصفت ذلك في كتابي "اعترافات" - بينما كنت في رحلة بحرية في جزر الكاريبي التي كانت معقل القراصنة الذين كانوا يغيرون على أسطول الذهب الإسباني. في مساء أحد الأيام، وبينما كنت جالساً على الجدران المهدمة لمزرعة قصب سكر قديمة، مفكراً بالرعب الذي عاناه العبيد الأفارقة الذين شيدوا هذه المباني، أدركت بأنني أنا أيضاً قد كنت نخاساً. بعد سنوات من التنازع العاطفي، وصلت إلى قرار ترك هذه المهنة الشائنة. عدت إلى بوسطن وقدمت استقالتي. لكنني لم أفضح الحقائق المرعبة للإمبراطورية الجديدة. استسلمت للتهديدات والرشاوى. فبقي ذلك مؤجلاً. خلال السنوات اللاحقة ظل الماضي يطاردني، وأقضّ مضجعي تفكيري بما كنت قد قمت به وبما كنت أعرف. ثم بعد فترة قصيرة من أحداث 11 أيلول كنت واقفاً على حافة تلك الحفرة الرهيبة التي كانت ذات مرة "مركز التجارة العالمي" عرفت أخيراً بأنه يجب علي أن أحزم أمري، وأدلي بما لدي من معلومات.

بعد نشر كتابي "اعترافات رجل اقتصاد مأجور" في عام 2004 وبينما كنت أجيب على أسئلة المستمعين إلى الراديو، أدركت بأنني قد فهمت فقط القليل عن الطرق التي كان عملي كرجل اقتصادي مأجور يؤثر فيها على البلدان التي عملت فيها.

لقد هزمنا الاتحاد السوفييتي، وظهرنا كأول إمبراطورية عالمية حقيقية، كقوة عظمى في العالم بلا منازع. متبجحين بالتقدم الصناعي لبلادنا. كنا قد خلقنا طبقة نخبوية في العالم الثالث، خدم جدد من الحكام المستبدين. لكن ماذا كان حول غالبية السكان في الأماكن التي أخضعناها لنا؟ قررت أن أشحذ نفسي بمعلومات جديدة عما يجري، بادئاً بالبلاد التي زرتها في بداية مهنتي.

لقد كنت على تواصل مع الأحداث العامة التي كانت تجري في أندونيسيا، من خلال وسائل الإعلام الرئيسية. بدأت التمحيص بشكل أكبر مدققاً بالمعلومات التي كانت متوفرة من خلال المنظمات غير الحكومية، والأكاديميين، بالإضافة إلى تلك المتوفرة لدى الأمم المتحدة والبنك الدولي ولدى منظمات أخرى عملت لمصلحتها. كان حب الاستطلاع يتعمق عندي كلما أصبحت أكثر معرفة في الظروف المحيطة بانهيار الاقتصاد الآسيوي في عام 1997 والمعروف أيضاً بـ أزمة صندوق النقد الدولي. بدأ الانهيار في آسيا، وأثر على مئات الملايين من البشر، ونتج عنه موت الآلاف وربما الملايين بسبب المرض والجوع والانتحار، ومن ثم امتدت رقعته لتشمل العالم كله. كان هذا رسالة لهؤلاء الذين كانوا على استعداد لأن يسمعوا - حول النية الحقيقية لصندوق النقد الدولي والبنك الدولي. كان درساً حول

الطريقة التي لا يمكن إدارة الاقتصاد فيها، إلا إذا كان الهدف منها هو زيادة غنى الطبقات النخبوية المستبدة على حساب جماهير الشعب الفقيرة.

أشارت النظرة الأولى إلى الإحصائيات الرسمية أن عملنا في السبعينات في أندونيسيا قد أنتج أرقاماً اقتصادية تستحق الإعجاب، على الأقل حتى عام 1997. تبجحت تلك الإحصائيات بانخفاض التضخم المالي، احتياطي تبادل العملات الأجنبية الذي بلغ مجموعه أكثر من 20 مليار دولار، وقطاع بنكي مستقر. كان حجم نمو الاقتصاد الأندونيسي تقريباً نسبة 9 في المائة كل سنة في التسعينات، حتى عام 1997 . طبعاً لم يكن بفخامة العدد المؤلف من رقمين والذي خُطِّط ودُفع لي لكي أختلقه . ومع ذلك كان مثيراً للإعجاب. استخدم الاقتصاديون في البنك الدولي، صندوق النقد الدولي، والمؤسسات الاستشارية والأكاديميون هذه الإحصائيات لكي يثبتوا وجهة نظرهم بأن سياسات الإنماء التي عززناها نحن ،الرجال الاقتصاديون المأجورون، قد أثبتت صحتها .

على كل حال، تحقق حالاً من أن تلك الإحصائيات لم تأخذ بعين الاعتبار الثمن المرتفع جداً الذي دفعه الشعب الأندونيسي لما سمي "معجزة اقتصادية" . كانت المنافع حكراً على هؤلاء الذين في أعلى السلم الاقتصادي. قد تم إنجاز تقدم سريع على مستوى الدخل الوطني من خلال استغلال وفرة العمالة الرخيصة في معامل كان العمال يتحملون فيها ساعات العمل الطويلة ويخضعون لشروط عمل تهدد حياتهم. تم هذا بالتوازي مع سياسة تسمح للشركات الأجنبية بتدمير البيئة والقيام بنشاطات كانت محرمة في أمريكا الشمالية، وفي بقية "العالم الأول" وغالباً ما كان يتم تجاهل الحد الأدنى للأجور الذي ارتفع إلى حوالي 3 دولارات فقط في اليوم. في عام 2002 حوالي 52٪ من سكان اندونيسيا كانوا يعيشون على أقل من دولارين في اليوم. كان هذا الوضع وبكل المقاييس يشبه ما يدعى حياة العبيد في العصر الحديث. حتى 3 دولارات في اليوم لا يمكن أن تكون كافية للحصول على الحاجات الأساسية للعمال وعائلاتهم.

الدين المريع الذي أدى إلى تكديس الثروة في أيدي الأقلية ترك البلاد دون خيار، فلم تكن مصادفة أن أذعنت أندونيسيا إلى سياسات أرهقت شعبها . وفقاً إلى التقرير المالي للتنمية الدولية الصادر عن البنك الدولي، صندوق النقد الدولي قسم الإحصائيات المالية الدولية كان متوسط الدين الخارجي لأندونيسيا هو الأعلى بين كل البلدان الآسيوية (مقيساً بنسبة حجم الناتج المحلي الإجمالي). خلال السنوات الحرجة من عام 1990 إلى عام 1996 التي كانت قد أنذرت بالانهيار الاقتصادي الآسيوي الذي حصل في عام 1997 تأرجح رقم متوسط الدين الخارجي حول الـ 60٪ (مقارنة مع حوالي 35٪ في تايلاند، 15٪ في كلاً من الصين وهونغ كونغ و10٪ في سنغافورة وتايوان). المعدل الهائل لخدمات الدين بالإضافة إلى الديون قصيرة الأجل كنسبة من الاحتياطي الأجنبي بلغ حوالي 300٪ خلال السنوات 1990

إلى 1996 (مقارنة مع حوالي 120٪ في تايلاند، 60٪ في الصين، و25٪ في هونغ كونغ وتايوان . هذه الأرقام غير متوفرة بالنسبة لسنغافورة).

أجبر الأندونسيين على افتداء أنفسهم بإرضاء رغبات شركاتنا . وهذا ما كنا نعمل لأجله نحن الاقتصاديون المأجورون، فحققنا أهدافنا . ومرة أخرى، أثبتت مقاييس الاقتصاد الوطني وبامتياز بأنها مضللة، كما كانت هي الحالة غالباً .

في أندونيسيا : حجم التبادل الخارجي، والميزان التجاري الإيجابي، وانخفاض معدلات التضخم، وأرقام النمو الداخلي المذهلة هذه كلها كانت تصف فقط حالة شريحة قليلة غنية من المجتمع الأندونيسي لكن كانت بقية الشعب تعيش خارج الاتجاه السائد لهذا الاقتصاد المفصل على مقاس الشركات المستغلة وعملائها الفاسدين. كان الأندونيسيون يرزحون تحت أعباء رهيبة.

ان العلاقة بين الفقر، الشركات المستغلة، والمستهلك الأمريكي ربما هي الأكثر وضوحاً هنا الآن في المعامل الأندونيسية (والتي تتشابه إلى حد كبير مع معامل كثيرة في بلدان أخرى).

ودعمت سياسات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي الشركات العالمية الكبرى، هذه السياسات التي شجعت على الخصخصة والإعفاءات الضريبية للشركات الأجنبية، إما لمعاملها أو للأعمال التي يقوم فيها آخرون بموجب عقود لمصلحة هذه الشركات، حيث كان العمال يتقاضون أزهد الأجور بشكل فاضح، وإذا احتجوا، يُضرَبون أو يقتَلون. لقد عانى هؤلاء العمال حياة رهيبة من أجل أن تباع البضاعة التي ينتجونها بأثمان منخفضة في متاجر "العالم الأول".

عندما قمت بجولات حول الولايات المتحدة لترويج انتشار كتابي "اعترافات" كان البعض يقترب مني ليقولوا لي إن الشركات مثل نايكي، اديداس، رالف لورين، وول مارت، وكاب يستفيدون من ما يمكن القول عنه كدح العبيد.

أخبرني زوجان عن تجربتهما العملية الشخصية في أندونيسيا، وعرضا لي وصفاً مقلقاً لأحداث فظيعة.

6 معامل كدٍّ وكدح

في عام 2005 اتصل بي اثنان من صانعي الأفلام، جيم كيدي ولسلي كريتزو. طلبا إجراء مقابلة تلفزيونية معي. استنتجت من محادثتي معهما خلال الهاتف وبواسطة الإنترنت بأنهما كانا على النقيض من الرجال الاقتصاديين المأجورين، ويمثلان موجة جديدة من الناشطين.

قالت لي لسلي عندما تقابلنا: "بالإضافة إلى إجراء مقابلة معك، نريدك أن تعرف حول ظروف العمل في معامل أندونيسيا". شرحت بإيجاز بأنهما في عام 2000 عاشا مع العمال الذين يعملون في معمل نايكي في أندونيسيا. "عشنا تحت الظروف الفظيعة نفسها، نعيش على الأجور نفسها أو على الأقل حاولنا ذلك".

سألت ما الذي دفعهما لفعل هذا.

قالت لسلي: "يبدو وكأنه قد مضى وقت طويل على ذلك. لقد انضممت إلى فرق المتطوعين اليسوعيين. لقد حذروني وقالوا لي بأنني سوف لن أكون الشخص نفسه أبداً بعد تجربتي التي عزمت على القيام بها. شعارهم هو: فرق المتطوعين اليسوعيين إلى الأبد.

رأيت أشياء لم تصدقها عيني: فقر مدقع ومعاناة فظيعة. بعد مشاهداتي تلك أعتقد أن حياتي. تغيرت إلى الأبد. ومن ثم عملت مع جماعة الأم تريزا في الهند. أردت مساعدة الفقراء المحتاجين. حالما تعيش مع أناس كهؤلاء تتغير حياتك إلى الأبد، وتصبح إنساناً آخر بتفكيرك وطرق حياتك، ولن تكون قادراً على النسيان أبداً. ببساطة يتملكك شعور بأنه يجب عليك أن تفعل شيئاً تجاه ذلك".

نظرت إلى جيم متسائلاً.

فقال ضاحكاً: "لقد اختطفت من الله، يبدو ذلك مضحكاً، لكنني جاد تماماً. عندما كنت في المرحلة الثانوية اعتقدت بأنني سأذهب إلى وول ستريت، وأكسب الملايين، وأتقاعد في سن الخامسة والثلاثين. ومن ثم ذهبت في رحلة حول العالم في عام 1993. كنت في سن الواحدة والعشرين. أول مرة كنت أزور فيها دولاً نامية: أندونيسيا، لاووس، فيتنام، بورما، نيبال، هذا فقط لأسمي بضعاً من هذه الدول التي زرتها. لقد رأيت فقراً حقيقياً يضع السنين الستة عشر التي قضيتها في دراسة التعاليم الكاثوليكية على المحك والمتضمنة إجازة في العلوم من جامعة القديس جوزيف. لقد أدركت من أجل من كان المسيح يقاتل. كانت تلك البداية للعهد الذي قطعته على نفسي لأناضل من أجل الأهداف نفسها التي ناضل من أجلها المسيح والنبي محمد وأنبياء بني إسرائيل وبوذا وكل رمز روحي مبجل. ففي جوهر كل الأديان العالمية الكبيرة نجد العدالة الاجتماعية".

طلبت منهما أن يوجزا لي قصتهما كتابةً:

"بدأنا في عام 1998 بالاهتمام في ما تمارسه شركة نايكي من أعمال. حينذاك كان جيم مساعداً لمدرب فريق كرة القدم في جامعة القديس جون في مدينة نيويورك. وكان يحضُر رسالة ماجستير في اللاهوت بينما كان يدرب فريق كرة القدم، قرر أن يكون موضوع رسالته: ممارسات شركة نايكي في ضوء تعاليم الكاثوليك الاجتماعية. عندما بدأ بالبحث لغرض هذا الموضوع، بدأ القسم الرياضي في جامعة القديس جون يتفاوض لتوقيع عقد بمبلغ 3.5 مليون دولار مع نايكي. حيث يتطلب العقد من جميع المدربين والرياضيين ارتداء وتشجيع منتجات نايكي.

لم يكن جيم مرتاحاً لذلك، ولم يستطع أن يخفي موقفه فقال علناً: إنها مسألة ضمير، وأنه لن يسمح لنفسه بأن يكون دعاية متحركة لشركة متهمة باستغلال كدح العمال في معاملها. الذي حدث بعد ذلك وفي إحدى أكبر الجامعات الكاثوليكية في الولايات المتحدة كان شيئاً مذهلاً، لقد أعطي جيم أحد خيارين إما أن يلبس نايكي، ويتوقف عن تساؤلاته حول هذه الصفقة أو يستقيل، وفي حزيران من عام 1998 أجبر على الاستقالة.

أراد جيم أن يتأكد من موقفه بشكل لا يقبل الشك. لذلك سأل شركة نايكي فيما إذا كانوا يسمحون له بالعمل في أحد معاملها لمدة شهر وذلك ليتعرف على شروط العمل. أجابت نايكي، أن شهراً واحداً لا يمكن أن يكون كافياً وبأنه لا يتكلم أية لغة آسيوية، فذلك لن يكون مجدياً بالإضافة إلى أن ذلك سيؤدي إلى فقدان أحد العمال لعمله الذي سيحل جيم مكانه.

أجاب جيم بكتاب إلى الشركة قائلاً - إذا كان شهر واحدٌ غير كاف فهو على استعداد للذهاب لمدة ستة أشهر أو سنة أو حتى إلى أية مدة مهما طالت من أجل الوقوف على شروط العمل ولتحديد فيما إذا كانت هذه المعامل عبارة عن ورشات تستغل عرق الكادحين. وأشار إلى أنه باعتباره يتكلم الإسبانية يمكن لنايكي أن ترسله إلى أحد معاملها في أمريكا الوسطى. أما بالنسبة إلى العامل الذي سيفقد عمله نتيجة إحلال جيم محله وجد جيم، منظمة أهلية في أورغان (حيث كان المركز الرئيسي لنايكي) وافقت على دفع أجرة الطائرة للعامل إلى الولايات المتحدة وإعطائه غرفة، وتوفير الطعام له، ومرتباً يعيش عليه أي عبارة عن إجازة مدفوعة الأجر خلال الوقت الذي يحل فيه جيم مكان هذا العامل.

أجابت نايكي بكتاب تقول فيه: إنهم غير موافقين على عرض جيم.

بعد أن أغلقت نايكي جميع الأبواب في وجه جيم، قررنا أن نقوم بالشيء الوحيد الذي كنا نستطيع أن نفكر به كبديل عن عرض جيم الذي رفضوه وهو:

أن نحيا مع هؤلاء العمال في قريتهم، ونعيش على المرتب نفسه الذي كان يدفع لهم. في عام 2000 ذهبنا إلى مدينة تانجيرانج التي تقع خارج جاكرتا وذلك لكي نحيا مع العمال

الذين يعملون في معمل نايكي مقيدين أنفسنا بالعيش على الأجر نفسه الذي كانوا يتقاضونه وهو 1.25 دولار في اليوم.

فقدت لسلي من وزنها في شهر واحد 10 باوندات وفقد جيم 25 باونداً.

عشنا كما يعيش عمال نايكي في صندوق صغير من الإسمنت يبلغ 9 × 9 أقدام بدون أي أثاث وبدون مكيف في هذه المدينة الاستوائية الحارة. نمنا على حصيرة رقيقة مفروشة على أرض غير مستوية من الإسمنت وكان غطاؤنا مجرد أوراق تغطى بها الرفوف والتي احتوت على طبقة سميكة من الرماد وحبيبات رملية هي بقايا من قاذورات محترقة ودنس المعامل ودخان وقود السيارات. كانت مصارف مياه الحمامات تسيل إلى مجارير مفتوحة على جانبي الطريق، وبسبب هذه المجارير ابتليت القرية بأعداد كبيرة من الصراصير بحجم قبضة اليد وفئران لم أر كحجمها في حياتي. قال لنا بعض الناس: "تستطيع أن تحيا حياة الملوك على 1.25 دولار في مكان مثل أندونيسيا". كانت هذه العبارة مليئة باللامبالاة والمعلومات المضللة، معظم الذين زعموا هذا الادعاء لم يكونوا أبداً قد زاروا أندونيسيا. بمبلغ 1.25 دولارا كنا نستطيع أن نشتري وجبتين من الرز والخضار وموزتين وإذا أردنا أن نشتري صابوناً أو معجوناً للأسنان كان يجب علينا أن نأكل أقل. في أحد الأيام اصطدم جيم بقارورة الكاز فكسرها، وكان علينا أن نستعمل منظف الغسيل من أجل التنظيف. كان ذلك يعني أن نبقى بدون كاز لإشعال الموقد الصغير المتحرك الذي كنا نطبخ عليه وبدون منظف الغسيل لغسل ملابسنا. كانت مصيبة مدمرة، مالياً وبالتالي مؤثرة عاطفية أيضاً.

تخيل أنك في الموقف نفسه الذي كنا نحن فيه، في بداية العشرينات من العمر تعمل من الساعة 8 صباحاً حتى الساعة 8 مساءً ستة أيام في الأسبوع، وأحياناً سبعة أيام طبعاً هذا لا يتضمن الوقت الذي تقضيه ذهاباً وإياباً أو الوقت الذي تحضر نفسك فيه في الصباح. لا تملك النقود لتحتفل بعيد ميلاد صديق، لا تستطيع شراء راديو أو حتى التفكير بشراء تلفزيون، ولم تشتر لنفسك أي شيء جديد لتلبسه بما يزيد على السنتين. وعندما تصل إلى البيت في نهاية اليوم، يجب عليك أن تقضي من 30 إلى 40 دقيقة في غسل ملابسك بيديك. تملك القليل من اللباس، وأي شيء تلبسه سيتسخ بشكل واضح في نهاية اليوم. أما كامرأة، عندما تأتيك الدورة الشهرية تأخذين فقط الاستراحتين المخصصتين خلال يوم العمل للذهاب إلى الحمام المسموحة لكل عامل، لذلك يجب عليك أن تربطي شملة حول خصرك أو تلبسي قميصاً طويلاً لتغطي بقع الدم الموجودة على بنطالك.

مرهق حتى العظام، خائف أن تبدي أي احتجاج لكي لا تفقد عملك. والشركة العالمية التي تعمل فيها تخبر العالم بأنهم قد أجروا تغييرات جدية لتحسين ظروف عمل العمال وليس هناك أي داعٍ للقلق من المستهلكين لأنك أنت أيها العامل سعيد 100٪.

لسوء الحظ، ليس فقط عمال نايكي يعيشون هذه الظروف القاسية وعلى هذه المرتبات التي لا تسد رمقاً. تكلمنا مع عمال ينتجون أديداس، ريباك، كاب، أولد نيفي، تومي هيل فيغر، رالف لورين، بولو، لوتو، فيلا، وليفيس كان جميع عمال تلك الشركات يتقاضون الأجور الضئيلة نفسها التي لا تغني من جوع، وكانوا يعيشون في أحياء مشابهة في الازدحام والفقر، وكان لهم المطالب نفسها من شركاتهم البائعة: أجور أعلى وحرية تشكيل نقابات مستقلة".

كان عمال نايكي يعيشون حياة مخزية، غير صحية، حياة معظم سكان الولايات المتحدة لا يمكنهم تخيلها. لكن أغنياء أندونيسيا والأجانب تمتعوا بحياة جيدة. عندما كنت أعمل كرجل اقتصادي مأجور كان يوجد فقط فندق واحد في جاكرتا ينزل فيه أشخاص مثلي: "انتركونتينانتال أندونيسيا" أما اليوم فقد انتشر الكثير من الفنادق الضخمة ذات خمسة نجوم مثل فورسيزن، ميلينيوم، ماريوت، حياة، هيلتون، كراون بلازا، شيراتون، مندارين، ديتز - كارلتون، والعديد من الفنادق الأخرى. تلك الفنادق هي الأوطان البعيدة عن الوطن الأم بالنسبة لمدراء الشركات الأمريكية الذين يشربون النبيذ الفاخر، ويقيمون حفلات العشاء على شرف تابعيهم الأندونيسيين وزبائنهم. ومن غرفهم العالية فوق تلك المدينة كانوا يطلون على تانجيرانج والضواحي الأخرى حيث يعيش عمال المدينة التعساء حياة البؤس والشقاء.

قد يحاولون إنكار مسؤوليتهم بقولهم أن شركاتهم لا تملك هذه المعامل لكن أين هو ضميرهم كيف تأبى إنسانيتهم، وتتجاهل معرفتهم العميقة بأنهم هم المسؤولون حقاً.

قال جيم: "تضغط نايكي على أصحاب هذه المعامل، وترهقهم دون رحمة، يعلمون في نايكي ما كلفة إنتاج كل ربطة حذاء وكل فردة نعل بالقرش الواحد. يضغطون، ويضغطون، مجبرين صاحب المعمل أن يبقي التكاليف في حدها الأدنى. وفي النهاية يجبرون صاحب المعمل - وهو غالباً صيني - على القبول بجزء قليل جداً من الربح".

قالت لسلي متنهدة: "يتعرض أصحاب هذه المعامل للاستغلال، لكن بالطبع إن أوضاعهم أفضل بكثير من أوضاع العمال. إن نايكي هي التي تتحكم بكل شيء مكدسة الأموال على حساب العمال وأصحاب المعامل أي أنهم في نايكي يأكلون الخميرة والفطيرة كما يقولون".

تابع جيم شارحاً: "نحن نركز على نايكي لأنها هي الصناعة الرائدة، إنها تملك الحصة الأكبر من السوق مقارنة مع الشركات المنافسة الأخرى. إنها ترسم الطريق. إذا استطعنا إجبار نايكي على تحسين شروط العمل فستتبعها الشركات الأخرى بإجراءات مماثلة".

مَعلم آخر من معالم "التقدم" في أندونيسيا كان يشاهده مدراء الشركات التنفيذيون كل مرة يخرجون فيها من فنادقهم الفخمة: البكاك لم تعد موجودة. عربات الأجرة هذه المزينة بصور مرسومة بألوان زيتية غريبة كانت قد حظرت من السير في شوارع جاكرتا الرئيسية في عام 1999، ادعى الرئيس سوهارتو بأن هذه العربات ترمز إلى تخلف البلاد. من المؤسف

أن قراره هذا دفع بعشرات الآلاف من سائقي هذه العربات إلى صفوف البطالة. وبدلاً منها يفاجأ الزائر بالباجاج: هي سيارة أجرة، عبارة عن هيكل معدني برتقالي اللون بثلاث عجلات، وتعمل بقوة المحرك. صُممت الباجاج من شركة فيسبا في الأصل لتعمل في الهند. ووفقاً لسوهارتو فهي تمثل الحضارة والتقدم.

إنها مقلقة بضجيجها، ملوثة للجو، حارة وخطرة. إنها ليست كالبكاك، سيارات الباجاج متطابقة في الشكل فإذا رأيت واحدة منها كأنك رأيت الكل، فقد استبدلت ألوان البكاك المثيرة كقوس قزح بلون الباجاج البرتقالي الكلي الممل.

تضج الآن شوارع العاصمة بحوالي 21000 من هذا النوع الجديد من السيارات. لم يتلقَّ سائقو البكاك أي تدريب ضروري لقيادة الباجاج بالإضافة إلى أن العديد منهم يعمل أيضاً في المعامل.

دعمت الإدارات المتعاقبة في الولايات المتحدة ديكتاتورية سوهارتو. مع ذلك، تعرضت حكومة جاكرتا لانتقادات قاسية من منظمات غير حكومية تقوم بمراقبة الأعمال غير القانونية أو غير الأخلاقية. أدانت منظمات واتش دوك المخالفات الجدية للقانون الدولي والقانون المحلي التي ترتكبها حكومة أندونيسيا، التي كانت مستعدة دائماً للتضحية بالمبادئ الديمقراطية وارتكاب انتهاكات لحقوق الإنسان الأساسية في سبيل إرضاء الشركات العالمية وأعضاء في حلقة الرئيس الداخلية.

كتبت جريدة نيويورك تايمز: "تعتبر اندونيسيا من أكثر البلدان فساداً، وفقاً للتقديرات الدولية".

أخبرني عميل سابق لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA يدعى نيل قائلاً: "لا أستطيع أن أتخيل مدى السوء الذي وصلت إليه الأمور".

لقد حضر إحدى حفلات التوقيع على كتابي "اعترافات" وبعد تردد، دعاني إلى شرب زجاجة بيرة. تحدثنا لعدة ساعات. تقابلنا ثانية بعد بضعة أشهر عندما كنت أزور عائلة زوجتي قرب سان فرانسيسكو. انضم نيل إلى السي آي إيه لأن والديه الصينيين أنشأاه على كره ماوتسي تونغ "كنت مثالياً عندما خدمت في جاكرتا، كان هذا في عام 1981. آمنت بأنه يجب علينا أن لا نسمح لأندونيسيا بأن تقع في قبضة الشيوعيين". أصيب بخيبة أمل خلال الغزو الأمريكي لبنما في عام 1989 وشعر بأن ذلك سيحوِّل الناس حول العالم ضد الولايات المتحدة. وبعد فترة قصيرة استقال من العمل الحكومي وزاول "مهنة خاصة". عاد في عام 2005 إلى أندونيسيا على رأس فريق أمني لحراسة جهود إعادة بناء ما دمره تسونامي ضد المقاتلين الذين يناضلون من أجل حرية واستقلال مقاطعة آكي. "يا إلهي، فتحت هذه الرحلة الأخيرة عيني! بدت جاكرتا كمدينة حديثة كبيرة تتألق بناطحات السحاب والفنادق الضخمة

لكن تحت السطح... كانت الأمور أسوأ من أيما وقت مضى. فساد مستشرٍ. ونحن مَنْ وراء هذا الفساد".

سألته لماذا بعد أن ترك السي آي إيه، تابع العمل في مهنة مشابهة.

أجاب: "هذا كل ما كنت أتقن عمله، إنها لقمة العيش، ومن ثم هناك سبب ثانٍ - ليس أفضل من الأول - كنت أسمع دائماً من العملاء أنه لم يكن يوجد هناك بديلٌ للمتعة التي تحصل عليها من خلال عملك هذا. يقوم المظليون ومتسابقو الدراجات النارية برياضتهم تلك من أجل الصخب والإثارة والثروة وهذا شيء لا يذكر مقارنة بمواجهتك رجلاً يريد قتلك".

أرسلت عبارته هذه قشعريرة في جسدي. فكرت بوالدي وبأبطال الحرب العالمية الثانية الآخرين. يا ترى ماذا كانوا سيشعرون لو عرفوا أن شركاتنا وحكومتنا تشجع رجالاً ليصبحوا مدمنين على القتل، لا لشيء إلا لمجرد القتل؟ في كتابة "اعترافات" تصارعت مع الذنب الفظيع لما قمت به من أعمال، لكنني الآن أكتشف مدى حجم العواقب التي كانت أكثر مأساوية مما كنت قد تخيلت.

7 الولايات المتحدة تدعم المجازر

بعض أسوأ انتهاكات حقوق الإنسان وانتهاكات البيئة بدأت في تيمور الشرقية في الوقت نفسه الذي كنت أنا أعيش في يوجونغ باندانغ. كانت تيمور الشرقية، مثل سولاوسي، جزيرة بعيدة غنية بالنفط وترسبات الغاز، بالإضافة إلى الذهب والمنغنيز. لكن لم تكن مثل سولاوسي جزءاً من أندونيسيا، فلقد حكمها البرتغاليون مدة أربعة قرون. وبينما كان 90٪ من الأندونيسيين هم من المسلمين، كان الكاثوليك هم غالبية السكان في تيمور الشرقية.

أعلنت تيمور الشرقية الاستقلال عن البرتغال في 28 تشرين الثاني 1975. بعد 9 أيام فقط على هذا الإعلان غزت أندونيسيا الجزيرة. ذبحت قوات الغزو ما يقارب 200000 من السكان أي ثلث سكان تيمور الشرقية.

أثبتت الوثائق التي نشرها أرشيف الأمن الوطني بأن الحكومة الأمريكية لم تزود الغزو بالأسلحة التي استخدمت لارتكاب المجزرة فحسب بل دعمت وأيدت الغزو بكل وضوح. وفقاً لتلك الوثائق، التقى كل من الرئيس جيرالد فورد ووزير خارجيته هنري كيسنجر سوهارتو في 6 كانون الأول عام 1975، ووافقا على خطته التي بموجبها شن الهجوم في اليوم التالي. تفضح الوثائق أيضاً إدارة كارتر التي منعت نشر هذه المعلومات في عام 1977.

أجرت إيمي كودمان في برنامجها "الديمقراطية الآن" مقابلة مع جوا كاراسكالاو أخ الحاكم السابق لتيمور الشرقية وهو الآن قائد سياسي منفي خارج البلاد، كان هذا اللقاء بعد 35 عاماً من الغزو. قال: "وصلت جاكرتا قبل أن تهبط طائرة الرئيس فورد وكيسنجر بساعة واحدة، وفي الليلة نفسها بلغني الكولونيل سويانتو - كان ضابطاً كبيراً في حكومة جاكرتا - بأن أمريكا قد أعطت الضوء الأخضر لأندونيسيا لغزو تيمور".

براد سيمبسون، مساعد بروفيسور في التاريخ في جامعة ميرلاند وباحث مساعد لأرشيف الأمن الوطني أخبر إيمي: "هذه الوثائق تفسر 25 عاماً من نمط الغش والخداع الذي كانت تسير عليه الإدارات المتعاقبة في أمريكا. حُجبت تفاصيل الخطة الأندونيسية لغزو تيمور الشرقية عن الشعب الأمريكي وعن المجتمع الدولي، وبشكل مخطط له تم طمس الحقائق والتشكيك في التقارير الموثوقة التي كانت تصف المجازر التي تجري في تيمور الشرقية خلال منتصف الثمانينات، وراوغ الكونغرس الأمريكي حول احتمال حظر توريد الأجهزة العسكرية إلى أندونيسيا للبقاء على خط السلاح الذي لم يتوقف عن التدفق".

بعد مرور عشرين سنة على الغزو، ارتفع اثنان من الأندونيسيين، الأكثر انتقاداً لما يجري، إلى مكانة عالمية. المطران كارلوس فيليب إكسيمنز بلو وجوسيه راموس - هورتا، ناشطا تيمور الشرقية، حصلا على جائزة نوبل للسلام عام 1996. أحدثت الجائزة ضجة كبيرة في جاكرتا وواشنطن وفي دهاليز وول ستريت.

إن مجزرة تيمور الشرقية هي إحدى سياسات الدولة البوليسية التي كانت تُطبق في عهد حكم سوهارتو. كان إرسال الجيش إلى تلك المناطق التواقة إلى الاستقلال قد برر كإجراء ضروري لوقف المد الشيوعي، خلال فترة السبعينات. أما الرغبة الملحة لمعظم الثورات في التخلص من نير نظام سوهارتو القمعي وتوجه الثوار في طلب المساعدات الطبية والعسكرية من دول كالصين كملاذ أخير تم تجاهله من الصحافة الرئيسية ووسائل الإعلام المرئية في أمريكا.

كما تم أيضاً تجاهل الحقيقة بأن دعم سوهارتو كان يخدم حكم تحالف أثرياء المال والشركات فقط. نظرت كل من واشنطن ووول ستريت باهتمام كبير إلى تصميم سوهارتو بالسيطرة على كامل الأرخبيل. حتى على المناطق التي لا تحتوي موارد تشتهيها الشركات الأمريكية. أدركت الشركات المستثمرة أنه يجب عليها أن تدعم رؤية الدكتاتور الأحمق في توحيد أندونيسيا إذا أرادت أن تتمتع باليد الطولى على مناطق تملك الموارد التي تشتهيها.

في أعلى الشمال من جزيرة سومطرة في مقاطعة آكي الغنية بالنفط والغاز قتل الجيش أكثر من 10000 إنسان منذ الوقت الذي أقمت فيه في أندونيسيا. ومات أيضاً الآلاف في معارك جزر المولوكا، كاليمانتيان الشرقية (بورنو)، وإيريان جايا (غوينيا الجديدة).

وحالة بعد حالة، كان الهدف الحقيقي للقوات المسلحة هو ضمان مصالح الشركات العالمية في موارد المنطقة. هذه الشركات التي كانت، في الجوهر، بدورها تموّل حكومة سوهارتو. على الرغم من أن شركات النفط وشركات استخراج المعادن كانت هي الرائدة، لكن كان أيضاً إلى جانبها شركات مختلفة ومتنوعة استفادت من العمالة الرخيصة، الموارد الطبيعية، والأسواق. إن أندونيسيا هي مثال رئيسي لاقتصاد بُني من خلال الاستثمارات التي قامت بها المؤسسات البنكية والمصالح التجارية العالمية.

إن وعود والتزامات السلطة الأندونيسية بتسديد القروض من خلال موارد البلاد الطبيعية أدت إلى إغراق أندونيسيا أكثر فأكثر في الديون من أجل تمويل مشاريع البنية التحتية، التي بدورها خلقت الحاجة إلى بناء فنادق، مطاعم، أسواق تجارية، وأعمال بناء أخرى، والحاجة إلى خدمات بنكية ووسائل اتصال وشبكات نقل.

كسب أغنياء أندونيسيا والشركات الأجنبية بينما كان أغلبية الشعب الأندونيسي يرزح تحت المعاناة. وكانت القوات المسلحة تضرب المقاومين وحركات التمرد في كل مكان.

كما كابد الناس، أيضاً عانت البيئة، واستُنزفت موارد البلاد بشكلٍ فظيع. عرّت المناجم، معامل الورق والمعادن الخام وصناعات الموارد الأخرى، مناطق شاسعة من أكبر الغابات الموجودة في العالم وسدت الأنهر بالنفايات السامة.

وكان الهواء حول المناطق الصناعية وفي المدن مثقلاً بالتلوث. في عام 1997 تصدرت جنوب آسيا الصحف العالمية وذلك عندما كانت مغطاة بسحب الدخان بسبب حرائق الغابات

في أندونيسيا التي كان متعذراً إطفاؤها . هذه كانت عواقب أعمال الرجال الاقتصاديين المأجورين المحرضة على الفساد.

كان من بين ضحايا "المعجزة الاقتصادية" أيضاً قبائل البوغي، دياك، ميلانسيا، وثقافات محلية أخرى. سُرقت أراضيهم، ودُمرت حياتهم وتقاليدهم. هذه الإبادة الجماعية في العصر الذي نعيش فيه لا يمكن أن تقاس فقط بما كان يعانيه الإنسان، إنما كانت أيضاً هجوماً وحشياً على الروح الإنسانية جمعاء، وبشكلٍ خاص غير مشجعة في ضوء الإبادات الجماعية الأبكر، بما فيها التي حدثت في الولايات المتحدة ضد السكان الأصليين والتي تُشجب، وتدان اليوم بينما يعاد تكرار النموذج نفسه وبتمويل من حكومة الولايات المتحدة وشركاتنا الكبرى.

عندما بدأت الأزمة الاقتصادية تنمو، وتؤثر على بلده، أقدم سوهارتو على "التعديلات البنيوية الاقتصادية" المقترحة من البنك الدولي، وقام بتطبيق توصياته بإلغاء الدعم الحكومي للمحروقات والمواد الغذائية الأساسية والعديد من الخدمات الاجتماعية وذلك لتخفيض النفقات. كان هذا اختلالاً فاضحاً بالتوازن لمصلحة الأغنياء، فأدت هذه السياسات إلى زيادة الجوع، المرض، والتناقض الطبقي.

نزلت أخيراً جموع الشعب إلى الشوارع، حتى الموسرين منهم، خوفاً من زيادة الأحوال سوءاً، وطالبوا بالتغيير. أُجبر سوهارتو على الاستقالة في أيار 1998، وقطعت إدارة كلينتون كل تعاون عسكري مع الجيش الأندونيسي. على أية حال، لم تؤد هذه الأحداث بأية طريقة من الطرق إلى نهاية حكم تحالف أثرياء المال والشركات بل على النقيض تماماً من ذلك، فقد قوّت موقفه. قدّم الأندونيسيون الذين كانوا في السلطة أنفسهم كأصدقاء للشعب مُصوّرين أنفسهم على أنهم هم المسؤولون عن خلع الدكتاتور. رحبت الحكومة الأمريكية والشركات العالمية بسقوط سوهارتو، ودعموا النظام الجديد. من ثم وفي 26 كانون الأول 2004 حدثت المأساة الكبيرة التي أعطت الشركات المستثمِرّة فرصاً جديدة لترسيخ نفسها. في اليوم الثاني الذي تلا عيد الميلاد ضرب تسونامي المنطقَة.

مات حوالي ربع مليون إنسان بسبب الأمواج المرتفعة الضخمة، ومع هذا، رأت الشركات التي عملت في إعادة البناء . العديد منها كانت شركات أمريكية . الخراب فرصة ملائمة لتحقيق الأرباح الفاحشة.

تقتل الزلازل، الأعاصير، وتسونامي مئات الألوف من البشر، وتُدَمِّر الملكيات ومع هذا ترفع إجمالي الناتج الوطني. لم تجد إحصاءات وبيانات الموت والخراب طريقها إلى السجلات الاقتصادية، مع ذلك صُرفت البلايين من الدولارات على إعادة البناء خالقةً انطباعاً إيجابياً مضللاً. لا يدرك معظم مواطني الولايات المتحدة الأمريكية بأن الكوارث الطبيعية الوطنية تشبه الحروب: إنها تحقق الأرباح العالية للشركات الكبيرة. خصصت مبالغ طائلة من أموال إعادة البناء بعد الكارثة للمؤسسات الهندسية الأمريكية وللشركات العالمية

والتي هي أيضاً كانت المالكة للفنادق والمطاعم وسلاسل محلات البيع ومؤسسات الاتصال وشبكات النقل والبنوك وشركات التأمين وشركات صناعية أخرى. بدلاً من أن تساعد برامج "المساعدات ضد الكوارث" المزارعين والصيادين وأصحاب الأعمال الصغيرة، والمقاولين المحليين، للإبقاء على مورد رزقهم أعطت هذه البرامج وسيلة إضافية أخرى لتوجيه الأموال لمصلحة بناة الإمبراطورية.

8 استغلال تسونامي

كان 26 كانون الأول يوماً أسوداً ليس بالنسبة لضحايا تسونامي الفظيع مباشرة فحسب، بل أيضاً إلى جميع المؤمنين بالخير والرحمة والمحبة لإخواننا البشر سكان هذا الكوكب. بدأت القصة المأساوية وراء الاستغلال الوقح لهذه الكارثة قبل بضعة أشهر من حدوثها.

انتخبت أندونيسيا رجلاً عسكرياً آخر رئيساً للبلاد في أيلول 2004، هو الجنرال سوسيلو بامبانغ يودهويونو. كان الرئيس الجديد وفقاً لنيويورك تايمز قد "انتقل بشكلٍ هادئ إلى أعلى المراتب في الجيش خلال حكم سوهارتو الاستبدادي..." وكان قد اختير لتلقي تدريب عسكري في قاعدة فورت بيننغ في ولاية جورجيا في عام 1976. أتم جولتين تدريبيتين في الولايات المتحدة ضمن برنامج التدريب والثقافة العسكرية الدولية. أصبح بعد تسونامي القائد الأمثل ليحطم الحركة الاستقلالية في إقليم آكي.

كان دافع الحركة، مثل العديد من الحركات الاستقلالية على امتداد الأرخبيل، الرغبة في الاستقلال عن حكومة استغلالية ونظام قمعي. تلقى شعب آكي القليل من المنافع. بينما عانت ثقافته وبيئته على أيدي الشركات الأجنبية، تقع مؤسسة الغاز الطبيعي السائل في إقليم آكي، وهي أحد أكبر وأهم المشاريع في أندونيسيا ومع ذلك نسبة قليلة جداً فقط من أرباح هذه المؤسسة يوجه إلى المدارس المحلية، المشافي، واستثمارات أخرى تساعد أولئك الذين هم أكثر المتضررين من هذا المشروع.

"كانت هذه المنطقة الغنية بالموارد تتوق إلى الاستقلال عن أندونيسيا على مدى خمسة عقود" هذا ما كتبته ميليسا روسي الحائزة على جائزة الصحافة التي كانت تكتب في نيوزويك، نيوز دي (نيويورك)، اسكواير، جورج، ام اس ان بي سي، ونيويورك أبزورفر. وكانت تبعث لي برسائل شخصية عن طريق البريد الإلكتروني من بقع ساخنة حول العالم. تضيف ميليسا متابعة: "تشكل آبار النفط صفاً على طول السواحل، وهذا ما يفسر إحكام قبضة الحكومة الأندونيسية على إقليم آكي". على الرغم من أن عدة وثائق فقط قد أعلنت للناس، تقول التقديرات بأنه من 10000 إلى 15000 إنسان قُتلوا خلال 30 عاماً من المعارك في الإقليم. وذلك قبل أن يندفع تسونامي خارجاً من المحيط مكتسحاً الأرض. بدأت في عام 2004 محادثات سرية بين الحكومة وحركة تحرير آكي. بدا أن الحركة كسبت موقفاً قوياً في المفاوضات وسُمح لسكان الإقليم أن يشاركوا في بعض أرباح النفط والغاز وموارد محلية أخرى وبالتمتع بدرجة معينة من الحكم الذاتي، وحصلوا على حقوق أخرى ناضل السكان من أجلها لعقود. على كل حال، أتى تسونامي وغيّر كل ذلك.

لأن حركة التحرير في آكي كانت منظمة محلية، تركزت في منطقة دمرتها الأمواج الهائلة وخلقت حالة من الارتباك والتشوش أضعفت الحركة بشكل جدي. مات بعض قادتها أو

عانوا من موت أقرباء لهم، قُطعت وسائل اتصالهم، وخُربت وسائل النقل التي يستخدمونها. فوجهت الحركة نشاطاتها بعيداً عن المقاومة وعمليات التفاوض إلى الاهتمام بضحايا الكارثة وإدارة جهود إعادة البناء. في مقابل ذلك، تحركت الحكومة بسرعة لتستغل هذا الواقع الصاخب المريك. فأرسلت مزيداً من الجنود بالطائرات من جزيرة جاوا ومناطق أخرى في اندونيسيا لم تتأثر بالكارثة. خلال شهر واحد تم تدعيم هؤلاء الجنود بمجموعات عسكرية أمريكية ومرتزقة كمثل عميل السي آي إيه نيل الذي ترأس فريقاً أمنياً لحراسة المتعاقدين الأمريكيين. وعلى الرغم من أن القوات العسكرية كانت هناك تحت ذريعة مساعدة ضحايا الكارثة لكن تضمنت أهدافهم غير المعلنة سحق حركة التحرير في إقليم آكي.

لم تُضيِّع إدارة بوش وقتاً، ففي كانون الثاني عام 2005 أي بعد شهر واحد فقط من تسونامي، ألغيت سياسة المقاطعة التي كانت قد وضعتها إدارة كلينتون، والتي كانت تقضي بقطع كل التعاون العسكري مع الجيش الأندونيسي القمعي. ونقل البيت الأبيض أجهزة عسكرية بقيمة مليون دولار إلى جاكرتا. كتبت نيويورك تايمز في 7 شباط 2005 "تنتهز واشنطن الفرصة التي أتت بعد تسونامي... تحركت وزيرة الخارجية كونداليزا رايس لتقوي التدريب الأمريكي للضباط الأندونيسيين إلى حد بعيد... في آكي، إن الجيش الأندونيسي الذي قاتل الثوار الانفصاليين لمدة 30 عاماً في حالة انتشار كاملة منذ تسونامي... يبدو أن الهم الأول للجيش هو تشديد الخناق على قوات حركة تحرير آكي المسلحة". في تشرين الثاني 2005، رفعت واشنطن المقاطعة العسكرية واستأنفت علاقات كاملة مع الجيش الأندونيسي.

الإنهاك الذي تعرضت له حركة التحرير بسبب الجهود التي بذلتها للمعافاة من الكارثة ومساعدة السكان المحليين في إعادة البناء، والضغوط المتزايدة عليها من الجيش الأندونيسي المدعوم من الجيش الأمريكي، كل هذا قد أجبر الحركة على توقيع اتفاق سلام وضعت شروطه الحكومة الأندونيسية. ومرة أخرى كان - وما يزال - حكم تحالف أثرياء المال والشركات هو الرابح الأكبر.

عملياً، ضمن تسونامي بأن الاستثمار في إقليم آكي سيستمر دون هوادة. كان استغلال البيئة في إقليم آكي من خلال استغلال أوضاع سكانه مثالاً مُفحماً على الطريقة التي يستغل بها حكم تحالف أثرياء المال والشركات الكوارث الطبيعية. أبقت المقاومة المحلية، شركات قطع الأشجار ونشر الأخشاب وشركات النفط، خارج أغنى الغابات في العالم ولمدة ثلاثة عقود. أما الآن فقد سُحقت حركة تحرير آكي، وتم إعادة فتح المنطقة للاستثمار.

كان مايك غريفيس مديراً سابقاً لشركة نفط، ترك عمله العالي الأجر، وكرس نفسه لحماية البيئة في منتصف الثمانينات. ساعد في تأسيس المؤسسة الدولية لحماية البيئة في

عام 1994. وكان دليلاً لبرنامج بعثات راديو ان بي آر إلى آكي في عام 2006. علق المذيع في برنامج "بعثات" مايكل سوليفان في تقريره الإذاعي قائلاً: "سيزيد الضغط على الغابات على الأرجح مع اتفاق السلام، إن التهديد الأكبر - حتى أكبر من تهديد قطع أشجار هذه الغابات الاستوائية القيّمة - هي الطرق". تابع البرنامج الإذاعي شارحاً بأنه حالاً بعد تسونامي بدأت شركات الهندسة وشركات البناء الأمريكية بالعمل على إقناع البنك الدولي ووكالات "المساعَدة" الأخرى لاستجرار الأموال من أجل بناء هذه الطرق. قال مايك غريفيس في إذاعة ان بي آر: "إذا فقدت هذه المنطقة النظام البيئي القائم لن تفقد الفرصة الأخيرة فقط لحياة النمر، القرد الخاص بهذه المنطقة، الفيل، والكركدن، بل ستفقد أيضاً متطلبات الحياة الأساسية من أجل حياة 4 مليون إنسان يعتمدون على هذا المكان في المياه، الحماية من الفيضانات،و حماية التربة من التعرية والتآكل".

العلاقة بين النخبة الحاكمة الأندونيسية، الحكومة الأمريكية، والشركات الدولية هي مؤشر على الأساليب التي استخدمها حكم تحالف أثرياء المال والشركات حول العالم خلال حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية. إن بناء الإمبراطورية قد تمّ وبشكلٍ كبير في السر. وبما أن الديمقراطية تستوجب ناخباً مطلعاً، فإن هذه الأساليب السرية تشكل تهديداً مباشراً لأسمى المبادئ. كما أن هذه الأساليب هي تفسير مقلق لنتائج عملي، وأعمال الكثير من "خبراء التنمية".

تأكدت لي شخصياً طبيعة عملنا الغادر بثلاثة حوادث منفصلة. تكشّفت هذه الحوادث بعد تسونامي، بالرغم من أن جذور كل واحدة منها تعود إلى بداياتي في المهنة.



9 ثمار الفساد

وصفت في كتابي "اعترافات رجل اقتصاد مأجور" علاقتي في أواخر الثمانينات والتسعينات مع شركة ستون و وبستر الهندسية التي كانت في ذلك الوقت الأكبر والأجدر احتراماً في أمريكا من بين الشركات الاستشارية وأعمال البناء، وكشفت عن حقيقة أنهم دفعوا لي مبلغ نصف مليون دولار كتفاهم من أجل أن امتنع عن تأليف كتاب عن حياتي كـ "رجل اقتصاد مأجور". في بعض المناسبات كانت الشركة تطلب مني عملياً أداء خدمة لها.

اتصل بي ذات يوم في عام 1995 مديرٌ ذو مستوى رفيع في شركة ستون و وبستر، وطلب مقابلتي. تحدثنا على الغداء، وبحثنا في مشروع بناء مجمع مُعَامل كيميائي في أندونيسيا. أكد لي بأن هذا المشروع سيكون من أكبر المشاريع في تاريخ الـ 100 سنة من عمر الشركة، وستبلغ كلفته حوالي 1 بليون دولار. "إنني مصمم على بناء هذا المشروع" قال ذلك ومن ثم خفض صوته معترفاً: "لكن لا أستطيع بناءه حتى أجد طريقة لدفع 150 مليون دولار لأحد أفراد عائلة سوهارتو".

هز رأسه: "إنك قضيت وقتاً كثيراً في أندونيسيا، أخبرني كيف أستطيع القيام بذلك؟"

أخبرته بأن هناك أربعة طرق لتقبيض الرجل "رشوة قانونية":

1- تقوم الشركة بترتيبات معينة من أجل استئجار بلدوزرات، رافعات، سيارات نقل ومعدات ثقيلة أخرى من شركات مملوكة له ولأصدقائه، وتدفع الشركة مقابل ذلك أجوراً عالية جداً.

2- تتعاقد الشركة مع شركات، مملوكة له أو تعمل لحسابه، على تنفيذ أجزاء من المشروع مقابل أسعار ضخمة.

3- يستطيعون استعمال الطريقة السابقة نفسها من أجل التعاقد على الطعام، بيوت السكن، سيارات الأجرة، الوقود ومواد أخرى مماثلة.

4- تقوم الشركة بترتيبات في الولايات المتحدة من أجل دراسة أبناء وبنات أصدقائهم الأندونيسيين الحميمين في جامعات كبرى ومشهورة، وتغطي جميع مصاريفهم، وتدفع لهم مرتبات استشارية أو للعمل بعد تخرجهم مباشرة.

لكنني اعترفت له بأن تغطية مثل هذه المبالغ الكبيرة سيتطلب على الأرجح اتباع جميع هذه الطرق الأربعة على امتداد بضع سنوات. أكدت له بأنني قد رأيت استعمال كل هذه الحيل بنجاح كبير ولا أعلم بأية إجراءات قانونية قد اتخذت ضد أية شركة أمريكية أو مدرائها نتيجة ذلك. اقترحت عليه أيضاً أن يفكر في استخدام غانيات على الطريقة اليابانية في المساعدة على عقد الصفقة.

قال لي مع ابتسامة عريضة: "الغانيات، نستخدمهن الآن وهن مثابرات في العمل". وفيما يتعلق بالمسائل الأخرى، عبّر عن قلقه من أن رجل سوهارتو يريد منهم "الدفع مسبقاً".

كان علي أن أعترف بأنني لا أعرف أية وسيلة لجعل مثل هذه المبالغ من الأموال النقدية مبررة "مسبقاً"، على الأقل قانونياً.

شكرني، وبعد ذلك لم أسمع منه شيئاً حول هذه المسألة.

بعد عقد من الزمن، في 15 آذار 2006 تصدر الصفحة الأولى من جريدة بوسطن كلوب في قسمها الاقتصادي العنوان العريض التالي:

"مذكرة الرشوة" وانهيار ستون و وبستر.

روت المقالة، القصة المأساوية حول تاريخ الشركة المجيد الذي بدأ في عام 1889، والذي انهار في النهاية عندما أعلنت إفلاسها في عام 2000، وانتهت إلى أن تكون مملوكة من "شوكروب". وفقاً إلى صحيفة بوسطن كلوب "سُرِّح أكثر من 1000 عامل، وضاعت جميع مدخراتهم في شركة ستون و وبستر". كتب ستيف بلي الصحفي الذي يعمل في كلوب بأن السقوط المفاجئ لهذه الشركة يعود إلى "المذكرة الحرجة التي نشرت تفاصيل غير معروفة سابقاً عن محاولة سرية قامت بها الشركة لدفع مبلغ 147 مليون دولار كرشوة إلى أحد أقارب الرئيس الأندونيسي سوهارتو من أجل ضمان العقد الأكبر في تاريخ شركة ستون و وبستر".

الحادثة الثانية بدأت عندما استلمت رسالة عن طريق البريد الإلكتروني من ابن أحد الموظفين الكبار في حكومة أندونيسيا، والذي كنت قد عملت معه خلال السبعينات، كان يطلب مقابلتي.

قابلت إميل: "هذا ليس اسمه الحقيقي" في مطعم تايلاندي هادئ في نيويورك. أخبرني بأنه قرأ كتابي "اعترافات" وقد تأثر عميقاً بما فيه. كان والده قد قدمه لي في جاكرتا عندما كان عمره حوالي 10 سنوات. تذكر بأن اسمي كان يتردد على مسامعه غالباً. قال بأنه عرف أن أباه كان أحد هؤلاء الموظفين الفاسدين الذين كنت وصفتهم في كتابي. ثم نظر إلي محدقاً في عيني واعترف بأنه قد تابع العمل على منوال أبيه: "الآن، أريد أن أخرج نظيفاً، أريد أن أعترف كما اعترفت أنت". وابتسم برقة متابعاً: "لكن لدي عائلة، وقد يكلفني ذلك ثمناً غالياً، إنني متأكد بأنك تفهم ما أعني".

أكدت له بأنني لن أفشي اسمه أبداً، ولن أفضح هويته بأية طريقة من الطرق.

كانت قصة إميل موضِّحة لأشياء كثيرة تجري في أندونيسيا. أشار بأن الجيش الأندونيسي له تاريخ طويل بجمع الأموال من القطاع الخاص من أجل تمويل نشاطاته. حاول أن يقلل من أهمية ذلك ضاحكاً بغير اكتراث معلقاً بأن مثل هذه النشاطات شائعة في بلدان العالم الثالث. من ثم بدت عليه الجدية وقال: "ساءت الأحوال أكثر منذ سقوط سوهارتو في

1998. كان سوهارتو دكتاتوراً عسكرياً بكل ما في الكلمة من معنى، وكان مصمماً على إبقاء القوات المسلحة تحت سيطرته. عندما انتهى حكمه، حاول كثير من الأندونيسيين جاهدين لتغيير القانون واعطاء المدنيين سلطة أكبر على الجيش. اعتقدوا بأنهم إذا خفضوا الميزانية العسكرية بإمكانهم تحقيق أهدافهم. لكن عرف الجنرالات إلى من يلجؤون في طلب المساعدة: شركات المناجم والطاقة الأجنبية".

أخبرت إميل بأن هذا يذكرني بأوضاع مشابهة في كولومبيا ونيجيريا ونيكاراغوا والعديد من البلدان الأخرى حيث استعملت الميليشيات الخاصة لتكمّل الجيش الوطني.

قال موافقاً: "نعم، لدينا كثير من المرتزقة في أندونيسيا، لكن ما أتحدث عنه هو أسوأ من ذلك. في بضع السنوات الأخيرة أشتُري جيشنا من الشركات الأجنبية. إن مغزى هذا الكلام مرعب لأنه، كما ترى، تملك هذه الشركات الآن قواتنا المسلحة بالإضافة إلى مواردنا".

عندما سألته لماذا يبوح بهذه المعلومات، أدار رأسه، ونظر من نافذة المطعم إلى الخارج، تطلع أخيراً في عيني وقال: "إنني عميل لهذه الشركات، لقد ذهبت في الفساد خطوة أبعد مما كان عليه والدي. أنا أحد هؤلاء الناس الذين يرتبون هذه الأمور، أجمع المال من الشركات، وأمرره إلى الجيش. أشعر بالخزي والعار، وأقل ما يمكن أن أفعله هو التحدث إليك آملاً أن تخبر العالم ماذا يجري".

بعد أسابيع من مقابلتي مع إميل، وبينما أتصفح النيويورك تايمز على الإنترنت وقعت عيناي على مقالة تشرح تفاصيل أنشطة شركة فريبورت - ماكموران للنحاس والذهب التي مركزها في نيوأورلانز. تقول المقالة إن هذه الشركة قد "دفعت 20 مليون دولار لقادة ووحدات الجيش في مقاطعة بابوا في السنوات السبع الأخيرة مقابل حماية مؤسساتها في هذه المقاطعة البعيدة". تابعت المقالة لتؤكد أن "ثلث تمويل القوات المسلحة الأندونيسية فقط يأتي من ميزانية الدولة، بينما الباقي يجمع من مصادر غير معروفة كـ "دفعات حماية" تسمح لكبار ضباط الجيش بالعمل والقيام بمهمات عسكرية بعيداً عن التحكم المالي للحكومة".

قادتني المقالة إلى مقالتين أخريين ظهرتا في التايمز على الإنترنت في أيلول 2004. وصفتا وقائع حديثة في مكان كان لي فيه صولة وجولة، في جزيرة سولاوسي، موثقة مزاعم بأن أكبر شركة إنتاج ذهب في العالم، شركة نيومونت ماينينغ الذي مركزها الرئيسي في دنفر، كانت وبشكل غير قانوني تلقي نفايات من الزرنيخ والزئبق في المحيط عند خليج بايات. عندما قرأت هذه المقالة أدركت بأن عملنا نحن الاقتصاديون المأجورون الذي قمنا به في السبعينات في بناء وتمويل الشبكات الكهربائية، الطرق، الموانئ، وبنى تحتية أخرى قد خلق الشروط التي مكنت نيومونت من مباشرة نشاطها في المناجم وإلقاء السموم في المحيط. كما أشار مدير المشروع شارلي إيلينغورث في رحلتي الأولى، كنا في أندونيسيا لنضمن

لشركات النفط الحصول على كل شيء يحتاجونه. لم يمض وقتاً طويلاً لكي أفهم بأن مهمتنا لم تنحصر فقط بشركات النفط. كانت سولاوسي مثالاً رئيسياً حول كيف أن أموال "المساعدة" أفادت الشركات العالمية.

أشارت مقالة التايمز بأن "القتال مع نيومونت قد صب الزيت على النار. ونمّى الانطباع العام بكون شركات المناجم والطاقة أحكمت قبضتها على النظام المؤسساتي الأندونيسي الضعيف. وقد حمّل الكثيرون مسؤولية ما يحدث للفساد وترهل البناء القانوني غير المتطور الموروث من عهد الجنرال سوهارتو، هذا الديكتاتور الذي انتهى حكمه في عام 1998 والذي قبض الثمن مقابل حماسته في فتح أبواب أندونيسيا للمستثمرين الأجانب".

بينما كنت أمعن النظر في هذه المقالات على الإنترنت فرض كل من محافظ باتسفيل وعامل بناء السفن البوغي نفسيهما بقوة على شاشة الكومبيوتر، وكأنبياء الكتاب المقدس عادوا ليحتلا تفكيري ويقلقا ضميري.

كانت الولايات المتحدة الأمريكية، في الواقع، ترسل خفافيشها ليستغلوا ويلوثوا الأراضي الأجنبية. كانت فرصة البحارين في مراكب شراعية قديمة، مسلحين بالمناجل ضعيفة جداً في الدفاع عن وطنهم ضد جبروت البنتاغون، أو ضد الجيوش الأكثر خبثاً، تابعي الشركات.

10 اعتداء وضرب في أندونيسيا

عندما كنت ألقي كلمات وأقوم بمحادثات كان بعض أفراد الحضور أحياناً يشيرون إلى تقارير إخبارية تقول بأن نايكي وشركات أخرى مشابهة تحسّن شروط العمل. كنت، كمعظم الأشخاص الذين أقابل، أريد تصديق ذلك. نأمل من مؤسس نايكي فيل نايت والمدراء التنفيذيين الآخرين في المواقع القيادية بالقيام بعمل مسؤول. اتصلت بليسلي وجيم، الزوجين اللذين حاولا أن يعيشا كما يعيش عمال نايكي في اندونيسيا، وهما الآن ينتجان فيلماً وثائقياً حول معامل الشركة. بعثا لي برسالة إلكترونية لم تكن مطمئنة:

"عدنا مرتين إلى أندونيسيا منذ رحلتنا الأولى عام 2000، وبقينا على اتصال مع العمال ومنظمي نقابة العمل. قد أُدخلت تغييرات هامشية على الأكثر، لكن القضايا الجوهرية المتعلقة بالأجور وبتشكيل نقابات مستقلة هي ليست أحسن حالاً الآن مما كانت عليه عام 2000، على الرغم من محاولات نايكي لجعل الجمهور يظن عكس ذلك.

رفعت الحكومة الأندونيسية الحد الأدنى للأجور، لكن أسعار المواد الغذائية، الماء، زيت الطبخ، الملابس، البيوت والمواد الضرورية الأخرى قد ارتفعت بالمستوى نفسه. ما يزال العمال يُجبرون على اتخاذ قرارات مثل: (آكل أنا أو أدع ولدي يأكل). آخر مرة كنا في أندونيسيا أتت إحدى العاملات لترحب بنا، كنا قد أجرينا معها مقابلة عام 2000، كانت تعمل في نايكي لمدة 8 سنوات، رحبت بنا. عانقتنا ببرود، وبابتسامة متكلفة قالت: (لم يتغير شيء).

الذي تغير هو سعر النفط وبالتالي أجور النقل من وإلى العمل. يدفع الآن العمال 30٪ من دخلهم، الذي لا يسد حاجاتهم الأساسية في الأصل، أجور نقل. من أين يأتون بهذه النقود لتغطية الزيادة في أسعار النقل؟ يعمل النساء والرجال من 6 – 7 أيام في الأسبوع لمصلحة الشركات التي تملك بلايين البلايين من الدولارات، يأكلون في أحيان كثيرة فقط الرز مع الملح في الوجبتين خلال يومهم.

أجابت نايكي في أواخر التسعينات على انتقادات حول شروط العمل في معاملها: " لا يعرف المنتقدون عماذا يتحدثون، إن نايكي لا تملك هذه المعامل بل هي ملك لأشخاص آخرين بموجب عقود فرعية، لذلك لا تملك نايكي السلطة في القيام بأية تغييرات". في عام 2000 أجابت نايكي بالقول "قضية محقة... الشركة الخطأ". بحلول عام 2002 كان مدراء نايكي التنفيذيون يلاحقوننا في جولاتنا في جامعات ومدارس الولايات المتحدة حيث كنا نحاضر حول هذا الموضوع. كانت رسائلهم ونشراتهم تسبقنا إلى هذه الأماكن، تشجب ما كنا سنقوله، ثم يتبعونها بافتتاحية في جريدة الطلبة زاعمين بأننا لا نملك كل الحقائق. تشمل

استراتيجية نايكي الآن حضور مؤتمرات المسؤولية الاجتماعية. ويعترفون بأنه توجد بعض المشاكل لكن تقع الحلول عند جميع مالكي الحصص العاملين معاً "حسب تعبير نايكي".

في غضون ذلك، المشاكل عينها التي تكشّفت في التسعينات استمرت في الحدوث في معامل نايكي الموجودة حول العالم، من الأجور التي لاتغني من جوع الى محدودية الاستراحة للذهاب الى الحمام بمرتين فقط في اليوم الى الشتم والضرب والتحرش الجنسي الى التهديدات وأعمال العنف الواقعة ضد مسؤولي النقابات العمالية.

لو ضاعفت نايكي أجور كل عمالها في أندونيسيا "تقريباً سدس قوة العمل في هذا البلد" سيكلفهم ذلك حوالي فقط 7٪ من ميزانية الدعاية التي تبلغ 1.63 بليون دولار. إذا وجهت نايكي جزءاً من ميزانية الدعاية لرفع أجور عمالها بإمكاننا أن نرى زوال معظم شروط العمل السيئة التي يعاني منها هؤلاء العمال".

إن ليسلي وجيم على النقيض تماماً من الرجال الاقتصاديين المأجورين لكنهما ليسا بعيدين عن متناول العملاء. أخبروني في أحد لقاءاتنا عن ليلة سوداء عندما طوردوا ومصورهم جويل وسائقهم ومترجمهم الأندونيسيين من مجموعة من قطاع الطرق المسلحين.

قال جيم: "طوقوا سيارتنا بالموتورات، أسرع السائق إلى نقطة مراقبة عسكرية، لكن الجندي هناك لوح ببندقيته لنا بالعبور".

أضافت ليسلي: كان كالمسعور وهو يحاول التخلص منا، ما كان لهذا الجندي أن يقطع طريق هؤلاء الرجال الذين يعتبرون كمافيا في أندونيسيا. أجبروا سائقنا على التوقف، أخرجونا من السيارة وهددونا ببنادقهم. ظننت لا محالة بأننا هالكون وسنسجل في عداد المفقودين".

لقد ظلوا على قيد الحياة لكن تعرض سائقهم للضرب المبرح. تمتم جويل: "كإنذار".

سألتهم: "هل وصلتكم رسالتهم".

أجاب جيم: "سنكون أكثر حذراً في المستقبل، نراقب إلى أية مناطق نذهب وفي أي وقت. لكن سنعود وسنكمل هذا الفيلم الوثائقي، وندع العالم يشاهده".

قراءتي مقالات حول شركات ستون و وبستر، فريربورت، ماكموران، ونيومونت، وسماعي جيم وليسلي وجويل حول تجربتهم كل هذا وضعني مرة أخرى في مواجهة قاسية مع ماضيّ مفكراً بعواقب أعمالي وبالناس الذين يشترون منتجات هذه الشركات المستغلة. قصة أندونيسيا هي قصة تتكرر مرة بعد مرة: إنها قصة التاريخ السري للإمبراطورية الأمريكية.

من المؤسف أن هذه الإمبراطورية التي أسست نفسها كمعيار جديد، كنموذج، بالرغم من إخفاقه الواضح فإنه يُحاكى ويُقلّد. علمتني رحلتي إلى التيبت في عام 2004 أن الصين لديها صنف خاص بها من الرجال الاقتصاديين المأجورين. قد يثبت في النهاية أن نموذجهم أكثر فعالية وهدماً من نموذجنا.

11 لا تصبح بوذياً

تشتهر التيبت بأنها وطن الدالاي لاما، الزعيم الروحي الذي يمثل - ربما أكثر من أي شخص على قيد الحياة - الإيمان باللاعنف. مع ذلك لم تتمتع التيبت دائماً بتلك السمعة. بين عام 609 و649 ميلادية شكل ملك التيبت سونغتسين كامبو أحلافاً بين زعماء القبائل المتحاربين بهدف إخضاع الإقطاعات المجاورة. مكّن ذلك الملك من تشكيل إمبراطورية كبيرة.

غزا في وقت لاحق جنكيز خان المنطقة، وأصبحت جزءاً من إمبراطورية سقطت في التاريخ كنموذج للوحشية.

في حزيران 2004 قدت مجموعة من 34 شخصاً إلى التيبت.

قادنا الباص خلال مناطق الريف باتجاه استراحتنا الأولى من مدينة تسيدانغ، كان من الواضح أن مرشدتنا لا تعرف إلا القليل عن التيبت وبالكاد تتكلم لغتها - في الحقيقة كانت سوزي تتكلم الإنكليزية غير المتقنة بأفضل مما تتكلم التيبية. انتشرت إشاعة بسرعة بأنها كانت جاسوسة صينية، ويجب علينا أن نكون حذرين فيما نقول. أكد هذا الظن دليلنا النيبالي، وأسرَّ بذلك إلى البعض منا، وطلب أن ننقل ذلك إلى الآخرين. ذات مرة، عندما نزلت سوزي من الباص في الاستراحة، أخبرنا بأنه يجب علينا دائماً أن نفترض أن أحداً ما يصيخ السمع لما نقول.

سألته امرأة: "حتى في الأديرة والكنائس".

أجاب: "بشكل خاص في تلك الأماكن".

تقع مدينة تسيدانغ في السهل المرتفع من التيبت مطلة على قمم جبال الهمالايا المغطاة بالثلوج. إنها أحد المراكز الأقدم للحضارة في هذه البقعة من العالم. نزلنا في فندق صيني متواضع. وضعت حقائبي في الغرفة، وخرجت. شعرت بالحاجة إلى الابتعاد عن المجموعة لفترة قصيرة، ولأتكيف مع هذا الارتفاع الشاهق مستعيداً نشاطي بعد عدة ساعات من الخمول في الطائرة، وبالطبع لأختبر التيبت. وبينما كنت أتجول في وقت متأخر من بعد الظهر، ارتعبت من اكتشافي بأنني لو لم أستقر في شوارع تسيدانغ قرب بساط غريب ساحر، لم يكن بمقدوري أن أخمن بأنني قد وصلت إلى التيبت القديمة. بدلاً من ذلك كنت سأظن بأنني وصلت إلى قاعدة عسكرية صينية.

كان يوجد هناك جنود يسيرون على الأرصفة الإسمنتية الجديدة. أسواق مفتوحة ودكاكين صغيرة تبيع منتجات صينية. باعة الأرصفة ينادون لبيع أوعية بلاستيكية مزخرفة الألوان وسطول وألعاب. بينما بقيت بعض الأبنية القديمة فقد تم استبدال العديد منها بأبنية إسمنتية رمادية اللون. وقف التيبتيون بلباسهم التقليدي كأشياء غريبة في متحف من القرن الخامس عشر كانوا يبدون بقبعاتهم الفرو وأحذيتهم ومعاطفهم كغرباء على أرضهم.

نظر الجنود إليهم بقرف كما لو أنهم كانوا يعاملون شحاذين مخبولين. تموج توتر شديد عبر هواء الهمالايا العليل.

شعرت بالإرهاق وأنا أسير، وكان التعب يشتد مع كل خطوة. وضعت اللوم في البداية على الارتفاع الشديد المشابه لانديز وكشمير. تحول التعب حالاً إلى دوخة، وشعرت بالغثيان. اتجهت إلى مقعد إسمنتي، وجلست عليه. طنَّ في أذنيَّ شعار "تيبت الحرة" وأدركت بأنني كنت أعاني عاطفياً كما كنت أعاني أيضاً نفسياً. أجبرت نفسي على التركيز على ما يدور حولي. كان الناس يعدون مسرعين وبدا أن العديد من الصينيين والتيبتيين الذين يجتازونني مسرعين لم يلاحظوني. شعرت بأنني مرئي ومكشوف على الرغم من أنه لم يرني أحد حيث كنت أجلس. شعرت بأنني كنت مثلما بدا هؤلاء الباعة التيبتيون شحاذاً مخبولاً.

عندما بدأت أسترد عافيتي، تذكرت صورة الدالاي لاما التي كنت أحملها في جيبي. وبحذر مددت يدي إليها عالماً أنه مجرد امتلاك هذه الصورة قد يكون سبباً لوضعي في السجن. كانت صور هذا الرجل غير شرعية في التيبت الجديدة، بالرغم من واقع أن الملايين هناك مازالوا يعتبرونه زعيماً لهم. هرَّبت هذه الصورة في الماضي متجاوزاً حراس الأمن الصينيين في المطار، كنت قمت بذلك، إلى حد ما، تحدياً، لكن بشكلٍ أكبر لأكرِّم الوقت الذي قد قضيته مع قداسته منذ حوالي خمس سنوات مضت.

شينا سينغ منظمة هذه الرحلة كانت هي أيضاً التي نظمت رحلة 1999، التي زرنا فيها المحمية الهندية لاداخ في منطقة كشمير الواقعة بين باكستان والهند والتي تكتظ الآن بآلاف اللاجئين التيبتيين المصممين على المحافظة على تقاليدهم المحظورة في وطنهم. شاء القدر أن يكون الدالاي لاما في لاداخ ذلك الأسبوع نفسه. كانت شينا تعرف اهتمامه بالثقافات الوطنية لسكان المناطق الأصليين فأرسلت إليه أحد كتبي عن هذا الموضوع مع طلب تسأله فيه مقابلة خاصة لمجموعتنا. بعد يوم واحد وصل إلى فندقنا عدد من مساعديه يحملون جواباً لبقاً شارحين بأن وقته مليء، وقدموا لنا علبةً تحتوي على بطاقات بتوقيعه.

في صباح اليوم الأخير في التيبت، وبينما كنا ننتظر للصعود إلى الطائرة التي ستقلنا إلى شمال الهند، تفاجأنا برؤية الدالاي لاما ومساعديه يدخلون المطار الصغير. اقتربت شينا من سكرتيره فجأة وتحدثت إليه. بدأت إجراءات الصعود إلى الطائرة، وقبل أن أعي ماذا حدث، وجدت نفسي صاعداً سلم الطائرة بسرعة، قالت لي دليلتنا الهندية أن العرف يقضي بتقبيل حذاء الدالاي لاما، وقادتني إلى الصف الأول من طائرة البوينغ 737. تبسم لي الدالاي لاما، وربت على المقعد الذي بجانبه. بدت فكرة تقبيل الحذاء، في الواقع، غريبة، لكن علمت منذ زمن طويل أهمية احترام التقاليد والأعراف المحلية. بدأت بالانحناء بشكل أخرق من فوق المقعد باتجاه قدمه.

ضحك الدالاي لاما ضحكة صغيرة، ووضع يده تحت ذقني ورفع رأسي بلطف "ليس من الضروري" قال ذلك بصوت هادئ أحبه العالم، تخللته ضحكته الخافتة المعهودة. ربت على المقعد ثانية: "تفضل بالجلوس".

نقر بإصبعه حافة كتاب كان يمسكه في حضنه "رائع". قال ذلك محركاً صفحة الكتاب الأولى من كتابي باتجاهي مضيفاً "أحب أن أعرف المزيد".

تحدثنا مطولاً عن الناس الفطريين وحياتهم المتوازنة. أخبرته بأن السبب الذي حدا بقبائل الشور في الأمازون بالذهاب إلى الحرب متحولين إلى غزاة وقاطعي رؤوس كان، حسب أسطورتهم نفسها، لأنهم سمحوا لسكانهم أن ينمو خارج سلطتهم، مما أدى إلى فقدان التوازن بينهم وبين البيئة التي عاشوا فيها، وهذا شكل تهديداً بقتل العديد من أشكال الحياة؛ وبالتالي إن الله أمرهم بتحمل نتائج أعمالهم حتى ولو تطلب ذلك "قلع أعشابهم الضارة بأيديهم". (قتل رجال آخرين).

بدا الدالاي لاما متأثراً بهذه القصة. وعلّق بأنه بينما هو لا يغفر العنف، والسلام يأتي فقط عندما يُظهر الإنسان الرحمة الحقيقية لأخيه الإنسان، وعندما نتحمل جميعاً أفراداً وجماعات المسؤولية من أجل الإدارة الصالحة لهذا الكوكب، لكن أشار إلى أن التطور الاقتصادي عادةً يحطم أشكالاً أخرى من الحياة ويخلق عدم توازن جاعلاً الأغنياء أكثر غنى والفقراء أكثر فقراً. ناقشنا مطولاً أهمية التحرك لجعل هذا العالم عالماً تسوده الرحمة، وليس ببساطة فقط الحديث عنه أو الصلاة من أجله.

بعد وصولنا، دعاني الدالاي لاما إلى بيته في مدينة داهار ماسلا في الهند. بعد ترحيب ودي حار، قال شيئاً بدا غير عادي إذا أخذنا بعين الاعتبار موقعه كزعيم حركة روحية: "لا تصبح بوذياً. إن العالم لا يحتاج إلى مزيد من البوذيين. كن رحيماً. إن العالم يحتاج إلى مزيد من الرحماء".

عاد صدى هذه الكلمات في فكري بينما كنت جالساً على ذلك المقعد في مدينة تسيدانغ واضعاً تلك الصورة في يدي. لم أتخيل سماع هذه النصيحة من البابا ولا من رئيس الدولة الصينية ولا من رئيس الولايات المتحدة الأمريكية. كانت دحضاً مباشراً لأفكار الهداية الدينية والحزبية ولكل أشكال الإمبريالية. محدقاً في صورة الدالاي لاما، ومفكراً ملياً بإصراره على أن لا يدخل تابعوه حلقة العنف التي يمكن لها أن تصبغ الأجيال القادمة، شعرت بأن غضبي غير ملائم.

حالاً في ذلك الزمان والمكان، أقسمت أن أكرّس بقية حياتي للعمل على تغيير الأشياء نحو الأفضل. سأكتب وأتكلم حول مخاطر العالم المبني على الاستغلال، الخوف، والعنف. سأبحث عن حلول حقيقية محاولاً أن أُلهب الناس لكي يتخذوا مواقف صلبة. وفهمت في الوقت نفسه

بأنه يجب علي أن أقوي موقفي بالذات. أدركت بأنه لا يكفي أن نستبدل إمبراطورية بأخرى، لا يكفي أن نقاتل الخوف بمزيد من الخوف، يجب علينا تحطيم تلك الدورة.

12 ضرورة بيولوجية

صعدنا في موكب من 8 سيارات تويوتا لاندكروزر للتعرف على التيبت. وبينما كنا نجتاز فلاحين يمشون مجهدين تحت أحمال ثقيلة لم أستطع أن أبعد التفكير بأنه يجب علينا التخلي عن الإيحاء بشعورنا بالتفوق، وبأننا شعب الله المختار. عندما توقفنا في استراحة للذهاب إلى الحمام في طريقنا إلى أعالي الجبال، تجولت على المجموعة مازحاً بأنه يجب علينا أن نظهر بمظهر موكب ملكي.

قال أحد الرجال ساخراً: "أتمزح، بحق الجحيم، ما هذه الرحلة. لا يستطيع سائقنا أن ينقّل جهاز السرعة بطريقة صحيحة، صرير في ناقل السرعة، كل الوقت، يتسرب زيت المحرك من السيارة التي أمامنا" وأشار إلى غيمة من الغبار على الطريق خلفنا: "وتلك السيارة لا تستطيع أن تحافظ على مسافة معقولة لكي لا تتخلف عن بقية السيارات. لا أظن أن موكباً ملكياً يسمح بذلك".

كان ذلك صحيحاً، فإن الرحلة كانت شاقة بالمقاييس الأمريكية. كانت السيارة تشق طريقها بصعوبة عبر طرق ملتوية ضيقة. لم تكن أكثر من أخاديد لمجاري نهرية وكان هواء الهمالايا البارد يصفع الناس والسيارات. غُمرنا في أحد الاستراحات بغيوم من الحشرات القارصة. لكن من ناحية أخرى، كان المنظر أخاذاً يفوق التخيل، وتمتعنا بأسرّة نظيفة وطعام لا بأس به. تحدثنا إلى البدو الذين تحدوا أوامر الصينيين بعدم التكلم مع أجانب. قام مرشدونا بواجبهم وأرونا منزل بانشين لاما الذي كان قد اختطف بعمر الست سنوات من الصينيين لاستبداله، حيث أنه كان قد تم اختياره من قبل الدالاي لاما الذي هو الآخر كان قد اختفى. وبما أن بانشين لاما كان يجب عليه أن يعين الدالاي لاما اللاحق فاحتج على اختطافه الرهبان البوذيون وعموم البوذيين ونزلوا إلى الشوارع متظاهرين. قُمعت مظاهراتهم، وأودع الكثير منهم السجون، وتعرضوا للنفي والإعدام. كنا نتوقف في مسيرنا لتقديم الاحترام للعديد من الأديرة التي تهدمت خلال زمن الثورة الثقافية.

كنا نشاهد الاضطهاد الصيني مرة بعد مرة في رحلتنا حول التيبت، كان له تأثيره العميق مذكراً بشكل دائم بأن التيبت هي أرض محتلة، استُعبد ناسها، واستُغلت مواردها الطبيعية الغنية. ناقشنا فكرة أن الولايات المتحدة سلكت الطريق نفسه في استغلال البلدان التي تحتوي على الموارد التي تفتح شهية شركاتنا. كان بضع من أفراد مجموعتنا قد سافروا معي إلى الأمازون وشاهدوا الإبادة الفظيعة للثقافات والغابات على يد شركاتنا. سمعوا أصوات السكان المحليين الأصليين مصممين على الموت، إذا دعت الضرورة، لحماية شعبهم ضد أطماع المعتدين. شاهدوا الجنود الأمريكيين في شوارع الأمازون، بطريقة مشابهة لوجود الجنود الصينيين في التيبت. قارن البعض الوجود الصيني هنا مع وجود حكومة الولايات

المتحدة وشركاتها في الأمازون، الشرق الأوسط، أفريقيا، وآسيا ومع حروب الاحتلال الأمريكي في أفغانستان والعراق.

في طريق العودة إلى لاهاسا، ومع معرفتنا بأننا سنرحل إلى نيبال في صباح اليوم التالي، قدنا السيارات عبر الطرق الجميلة لمدن كارولا وخامبالا. توقف الموكب على علو 17000 قدم للنظر إلى نهر الجليد. شرح لنا أحد مرشدينا بأن ارتفاع نهر الجليد قد وصل تقريباً إلى حافة الطريق منذ عقدين، لكن التغييرات المناخية سببت تراجع الجليد إلى ربع ميل أو أكثر. كانت خرفان وثيران التيبت الضخمة ترعى إلى القرب من سياراتنا يفصلها عن الجليد عدة خيم سوداء مثبتة بإحكام إلى الأرض بأشرطة متينة تتقاطع في الأعلى مع أعمدة الخيم. وكان الدخان يصعد من خلال أسقفها. كان يوجد خلف الخيم أعلام ملونة بالأحمر والأزرق والأصفر والأخضر والأبيض متدلية من سلسلة الأعمدة الطويلة المترابطة بشبكة مزدوجة وكانت هذه الأعلام ترفرف في هذا الهواء البارد الذي يهب باتجاه نهر الجليد.

حالما نزلنا من السيارات، اندفع التيبتيون خارجين من خيمهم. لبس الرجال بناطيل فضفاضة من الصوف وجواكيت سميكة وقلنسوات، ولبست النساء فساتين طويلة تغطيها مآزر زاهية الألوان. شرح مرشدونا بأن هؤلاء هم قبائل النوماد، وهم جماعة رُحَّل يعيشون كما عاش أجدادهم قبل زمن الميلاد. أخبرنا النوماد من خلال مترجمينا بأن الرجل الثلجي كان يعيش على نهر الجليد، وأكدوا لنا بأنهم وإلى زمن قريب كانوا قد رأوا الرجال الثلجيين بضع مرات في السنة. لكن مع تراجع نهر الجليد في السنوات العشر الأخيرة اختفى الرجال الثلجيون.

وبينما كنا نتحدث عن التأثير المدمر لارتفاع درجة حرارة العالم على أنهار الجليد، لاحظ أحدنا أن النوماد قد أقاموا طاولة صغيرة يبيعون عليها بعض الأشياء، أسرعت إحدى النساء من مجموعتنا تعدو باتجاهنا، وأبلغتنا أن النوماد يبيعون كريستال كانوا قد وجدوه في الأرض التي انكمش عنها الجليد. أسرع معظمنا إلى حيث تباع هذه الأشياء فهذه كانت فرصتنا الأخيرة للشراء مباشرة من هؤلاء الناس بدلاً من الشراء من حوانيت مدينة لاهاسا.

عندما سألت مرشدنا حول أصالة الكريستال، تمتم على أنه لا يريد أن يتدخل بمورد رزق النوماد، ثم هز رأسه وأضاف بأنه سمع عن مصنع في الصين ينتج مثل تلك الأشياء.

وقفت مع اثنين آخرين نراقب بينما كانت المجموعة تساوم على الشراء من التيبتيين.

علق أحد الاثنين: "إن هذا لكثير بالنسبة إلى ارتفاع درجة حرارة هذا العالم".

قال الآخر: "يوجد ذلك النهر الرائع، وهذه الخيم، الناس، الثيران... ومجموعتنا قد أغراها ذلك الكريستال الذي قد يكون لا شيء إلا مجرد زجاج".

طلبت من أحد المترجمين مرافقتي، اقتربت من رجل وامرأة عجوزين وفتاة صغيرة كانوا يجلسون بالقرب منا. كان الرجل يمسك حبلاً طويلاً حول رقبة أحد الثيران المغطى ظهره

بالوبر الخشن وعليه بطانية جميلة مزينة بمثلثات بنية وبرونزية ملقى عليها سرج صغير، خمنت بأنه من أجل الفتاة الصغيرة. ابتسموا لي بود. وقفت المرأة، وجلبت الثور إلى جانبي مشيرة لكي أربت على ظهره، ثم عادت وجلست ودعتني ومترجمي للانضمام إليهم.

بعد التعارف الذي قام به المترجم سألت: "ما شعورهم تجاه الصينيين؟" نظر كل واحد منهم إلى الآخر. خبأت الفتاة وجهها بين يديها، ونظرت إلينا من خلال أصابعها المنفردة، عبست بوجهي في البداية، ومن ثم بدأت بالضحك.

تكلم العجوز مبتسماً بلا أسنان: "نحن اعتدنا على الحكام من أراض أخرى، تعود حكاياتنا إلى ما قبل أجداد أجدادنا، إنها حكايات الملوك الذين أتوا أرضنا غازين. نطلق على جنودهم اسم "قاتلي النوماد" أضاف، وهو يربت على كتف الفتاة الصغيرة: "لماذا يجب أن تكون الأشياء مختلفة في زماننا؟"

تابعت المرأة العجوز: "بدأت المشاكل عندما تسلُّم الرجال القيادة".

سألت ماذا عَنَتْ بذلك.

أجابت: "انظر، اليوم كل شيء يُدار من الرجال. عشت مرة في المدينة، وحاولت إتباع البوذية، لكنني رأيت كل الأعمال الهامة هناك، تماماً مثل الحكومة، كان يقوم بها الرجال".

قال الرجل: "أوافق على ما قالته، كانت النساء دائماً في الأزمنة الغابرة تكبح جماح الرجال". ابتسم مضيفاً: "قد نصبح أحياناً متوحشين، نصطاد، ونقطع الغابات، ونقوم بمثل أنواع تلك الأعمال دون رادع. لكن كانت النساء في الماضي تقول لنا قفوا هذا يكفي".

ذكرني هذا الحديث بقبيلة الشور في الأمازون. إنهم يؤمنون بالمساواة بين الرجال والنساء مع أدوار مختلفة لكل منهم. يصيد الرجال من أجل الطعام، يقطعون الأشجار للتدفئة، ويقاتلون الرجال الآخرين. بينما كانت النساء تقوم برعاية الأطفال، تزرع وتجمع الغلال، تهتم بتدفئة المسكن، وتقوم بأهم عمل وهو إخبار الرجل متى يكون عمله كافياً ومتى يجب عليه أن يتوقف. توضح قبيلة الشور بأن الرجال كانوا يستمرون بصيد الحيوانات وقطع الأشجار حتى عندما يكون هناك كفاية من اللحوم والأخشاب إلا إذا كبحت جماحهم النساء. عندما قامت جماعة من الشور بزيارة الولايات المتحدة صدموا ليشاهدوا كيف كانت الطبيعة تدمر بالطرق الرئيسية المعبدة قاطعة المدن الكبيرة وبالأسواق الضخمة. سألوا: "أين النساء؟ ماذا حصل لهن؟ لماذا لم يضعوا حداً لأعمال الرجال؟ لماذا تريد نساؤكم دائماً شراء مزيد من الأشياء؟".

كان مدهشاً أن تجد الشعور الوجداني نفسه بين قبائل في أعماق الأمازون وبين النوماد في أعالي قمم جبال الهمالايا. لازمني تفكير في طريق عودتنا إلى مدينة لاهاسا بأنه ربما تكون تلك المجموعات القبلية تمثل قيم الإنسان الحقيقية، وكل ما يجب علينا فعله لتغيير العالم هو أن نقيم التوازن بين الرجال والنساء. بتحديد ذكورية حكم تحالف أثرياء المال

والشركات، ومصالحه في تشجيع الاستهلاك الكبير الواسع فإن الـ "كل ما كان يجب أن نفعله" كان "كلٌ" ضخماً جداً: مع ذلك إن تحديده جعل المهمة تبدو أقل رهبة. إن الحقيقة الهامة كانت تكمن في أن بنية حكم تحالف أثرياء المال والشركات مؤسَّسةٌ على النفوذ الذكوري، وتتمحور سلطته حول استعدادنا لكي نقبل كـ "شيء طبيعي" شكل متطرف من الرفاهية وحب المادة. أدركت أيضاً أنه كان يجب علينا العمل لتخليص الجنسين، رجالاً ونساءً، من إدمان التسوق والشراء.

عبر رئيس الولايات المتحدة بوضوح عن حالة الإدمان هذه عندما حث المواطنين الأمريكيين بعد 11 أيلول للذهاب إلى الأسواق والشراء للتقليل من الضغط النفسي، لتدعيم الاقتصاد، ولتحدي الإرهابيين. وصلت الرسالة حتى إلى هؤلاء رعاة الثيران في التيبت البعيدين عن عالم الأسواق الكبيرة، فعلى الرغم من نمط حياتهم غير الاستهلاكي، كانوا يبيعون بضاعتهم إلينا.

تذكرت كتاب الدكتورة جوديث هاند "النساء، السلطة، وبيولوجية السلام". أشارت في هذا الكتاب إلى أن الحروب كانت تاريخياً تعطي الوسيلة للرجال لكي يقوموا بضرورة بيولوجية في بذر ونشر منيِّهم، بينما كان الاستقرار الاجتماعي من أولويات النساء، اللواتي كن مسؤولات عن الولادة، الرعاية، وتربية الأطفال. أكدت بأنه من أجل إدراك مجتمعات أكثر سلماً وأمناً يجب على النساء أن تلعبن دوراً أكبر في عملية صنع القرار. بدا أن ما سمعته الآن من النوماد يؤكد استنتاجات الدكتورة هاند.

ظهر لي بما أن النساء هن المتسوقات الرئيسيات في العائلات العصرية فإن من الهام مساعدتهن على إدراك أن معاناة العالم اليوم سببها حكم تحالف أثرياء المال والشركات، ومن أجل تعزيز السلام في العالم يجب عليهن تغيير نظرتهن الاستهلاكية كما يجب عليهن أيضاً مطالبة الشركات التي تنتج البضائع التي يشترينها بأن يعاملوا مستخدميهم - بغض النظر عن المكان الذي يعيش فيه هؤلاء المستخدمون - بعدالة وإنصاف.

لكن سأتعلم درساً مختلفاً تماماً في المدينة التي نشأ وترعرع فيها الدالاي لاما.

13 الديكتاتوريات المالية

كانت لاهاسا المدينة التي قضينا فيها الوقت الأكبر في التيبت. إن قصر بوتالا حيث نشأ، وترعرع الدالاي لاما، الممرات الملتوية المشجرة، المعابد البوذية ذات الأسقف المتعددة، الأبراج الضخمة على شكل هرم مخروطي، ومقامات بهيجة كل هذا أوحى بإحساس من السكون كنت قد شعرت فيه منذ خمس سنوات في مدينة لادخ وفي المناطق الريفية في التيبت، لكن هذا كان مفتقداً في تسيدانغ والمدن الأخرى. رغم ذلك كان الصينيون حاضرين دائماً. كان الجنود يختالون في الشوارع وكانت الكتابة الصينية تملأ الرايات ولوحات الإعلانات. وتنتشر المنتجات البلاستيكية في كل مكان معبرة عن المجتمعات الصناعية الحديثة.

نزلنا في فندق رائع، ألقيت بنفسي على السرير المكدس بوسائد ملونة. استعرضت ملاحظات كنت قد وضعتها في كومبيوتر جيبي صغير أحمله معي. كنت أريد أن أكتب أفكاراً جديدة حول حب المادة والروح التجارية ودور الشركات العالمية في الكارثة الاقتصادية التي حدثت في عام 1997 وجلبت المعاناة لآسيا. لكن كوني في التيبت، أرى، وأشعر بالاستغلال الصيني لهذه البلاد وضع مأساة 1997 بمنظور جديد.

ما عرف فيما بعد بـ "أزمة صندوق النقد الدولي" ضرب بشدة كوريا الجنوبية وتايلاند وبشكلٍ خاص أندونيسيا، وكان له أيضاً مضاعفات مدمرة على كثير من الناس ـ الفقراء بشكلٍ خاص ـ في لاووس والفلبين. لقد نفذت كل من هذه البلدان إيديولوجية صندوق النقد الدولي والبنك الدولي.

في وقفة امتحان للضمير وتوجيه أصابع الاتهام التي تلت الأزمة وُجِّه الانتقاد إلى صندوق النقد الدولي لما أشار إليه العديد من الاقتصاديين بـ "الطريق الرأسمالي السريع" ـ إلغاء القيود على الرأسمال المتدفق، تشجيع الخصخصة، المحافظة على معدلات مرتفعة للفائدة كوسائل لاجتذاب المستثمرين الأجانب والرأسمال البنكي إلى أسواق آمنة، ومحاولة الحد من مخاطر التداول النقدي بتثبيت العملات الوطنية بالنسبة للدولار الذي خدم الهدف غير المعلن بتعزيز قيمة الدولار. في الوقت نفسه كانت تتزايد بشكلٍ مستمر أسعار السلع والخدمات بسبب التضخم المالي والمعدلات المرتفعة للفائدة التي فرضها صندوق النقد الدولي. كان وضعاً متعذراً تبريره أو الدفاع عنه. بينما كانت هذه البلدان تنهار اقتصادياً الواحدة تلو الأخرى، كانت الشركات المحلية والحكومات الوطنية غير قادرة على سداد القروض التي كانت تتراكم بالدولار الأمريكي، واكتشفوا أن دخلهم المتحقق، الذي كان يتقلص باستمرار وكان يُدفع بالعملات الوطنية، قد انخفض إلى حد بعيد. تلاعب صندوق النقد الدولي بتلك البلدان، وجعلها تدفع ضريبة باهظة وكان المستفيد الأكبر من ذلك كله هو الشركات العالمية الكبرى.

عندما استمر الوضع بالتدهور، اختلق صندوق النقد الدولي ما سماه "خطة إنقاذ" عرض على هذه البلدان قروضاً جديدة لتفادي العجز عن دفع الدين. لكن كانت هذه القروض مشروطة توجب على كل بلد قبول "حزمة التغييرات البنيوية" المشابهة للحزمة التي فرضت على اندونيسيا سابقاً. في الجوهر، كان المطلوب من كل بلد أن يسمح للبنوك والمؤسسات المحلية بإشهار إفلاسها، خفض النفقات الحكومية بشكل كبير، رفع الدعم الحكومي عن الغذاء والمحروقات وعن خدمات أخرى يستفيد منها الفقراء، ورفع معدلات الفائدة. طُلب منهم أيضاً، في كثير من الحالات، خصخصة وبيع مقدار أكبر من الملكيات العامة إلى الشركات العالمية. كنتيجة مباشرة لذلك مات الكثير من البشر، وخصوصاً الأطفال، بسبب سوء التغذية، الجوع، والمرض، وعانى الكثيرون العواقب الوخيمة على المدى الطويل من فقدان الطبابة، والتعليم، والمسكن، وفقدان خدمات اجتماعية عديدة أخرى.

انتشر الانهيار الذي بدأ في آسيا إلى أجزاء أخرى من العالم محدثاً ركوداً اقتصادياً في أوروبا، أمريكا الجنوبية والولايات المتحدة الأمريكية، وكان درساً في كيفية عدم تطبيق السياسة الاقتصادية بالشكل الذي طُبِّقت فيه، هذا إذا كان الهدف هو مساعدة الناس المحليين ومساعدة اقتصاديات بلدانهم. وبعث برسالة قوية حول سياسات صندوق النقد الدولي والبنك الدولي.

أكد المحللون الاقتصاديون أن البلدان التي رفضت الإذعان لمطالب صندوق النقد الدولي كان وضعها أفضل بكثير. كانت الصين مثالاً رئيسياً على ذلك. على الرغم من اتباعها سياسات تشجيع المستثمرين الدوليين، لكن أخذت بكين طريقاً مختلفاً تماماً عن الطريق الذي أيده، وحض عليه صندوق النقد الدولي. حصرت الاستثمار الأجنبي في المصانع بدلاً من العمل في مجال السندات المالية. فحصن هذا البلاد ضد هروب الرأسمال في المستقبل، وأوجد فرص العمل وفوائد أخرى نتيجة دورة رأس المال الصناعي. تحدت كل من الهند، تايوان، وسنغافورة صندوق النقد الدولي فبقيت اقتصادياتها قوية. بينما أذعنت ماليزيا لشروط صندوق النقد الدولي فعانت أزمة الركود الاقتصادي ومن ثم أدارت ظهرها لـ "حزمة التغييرات البنيوية" ونهضت من أزمتها.

أحد أشد منتقدي صندوق النقد الدولي كان جوزيف ستيغليتز الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد ولسخرية القدر كان أيضاً فيما سبق الرئيس الاقتصادي الأول للبنك الدولي.

كنت قد حملت معي إلى التيبت كتاب ستيغليتز "العولمة والساخطون".

خرجت في وقت متأخر من بعد الظهر أتنزه وحدي في شوارع مدينة لاهاسا المتعرجة. وصلت إلى منطقة مزدحمة بالعابرين، تابعت السير إلى حديقة عامة صغيرة وجلست على مقعد خشبي قديم لأنعم بدفء الشمس الغاربة.

بدأت أتصفح كتاب ستيغليتز، أدهشني كيف أن انتقاداته تتشابه مع انتقاداتي في "اعترافات". كتب ستيغلتز من وجهة نظر أكاديمية بينما كتبت أنا قصة شخصية: مع ذلك كانت العديد من استنتاجاتنا متطابقة. مثال على ذلك، بينما وصفت أنا كيف أني اختلقت خططاً اقتصادية مدعّمة بتفاؤلات كاذبة لتطبيقها في بلدان العالم الثالث، كتب هو:

"كان يجب تعديل التنبؤات والخطط الاقتصادية من أجل أن تكون على انسجام وتوافق مع برامج صندوق النقد الدولي وأرقامه، فتبدو برامجه "صحيحة" وأرقامه "متزايدة". لا يدرك العديد من مستخدمي هذه الأرقام بأنها لا تشبه خططاً عادية: في هذه الحالات فإن تنبؤات الناتج المحلي الإجمالي غير مبنية على نموذج إحصائي معقد، أو حتى على أفضل تقديرات أولئك الذين يعرفون الاقتصاد جيداً. إنها مجرد أرقام كان قد تم التفاوض عليها كجزء من برنامج صندوق النقد الدولي".

وضعت الكتاب المفتوح على إحدى ركبتي مراقباً جماعة من الجنود كانوا يعبرون من أمامي. أشار أحياناً ستيغليتز إلى "الديكتاتوريات القديمة للنخب الوطنية"، تعليقه هذا جعلني أفكر بأن الاحتلال الصيني للتيبت كان أشرف بكثير من اغتصاب السلطة من قبل ما أطلق عليهم ستيغليتز تعبير "الديكتاتوريات المالية الدولية الجديدة". إن الصينيين، مثل الرومان والإسبان والبريطانيين من قبلهم، قد غزوا واخضعوا التيبت علناً، دون مكر وخداع. إن الإمبراطوريات القديمة قد تضع أعمالها في إطار من التعابير النبيلة - تعجيل التقدم الحضاري، تحفيز النمو الاقتصادي، تمهيد الطريق من أجل التقدم والتطور - لكن لا يوجد أدنى شك بأنهم غزاة يهدفون إلى الاستعمار. لكن من ناحية ثانية فإن حكم تحالف أثرياء المال والشركات باستعماله أدوات مثل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، ومدعوم من السي آي إيه والعملاء، إذا اقتضى الأمر، كان يمارس شكلاً جديداً لإخضاع الشعوب إنه الإمبريالية من خلال الحيلة والمكر والخداع. عندما تغزو بالجيوش الجرارة فإن الجميع يعرف بأنك تغزو وتحتل لكن عندما تغزو برجال اقتصاد مأجورين مرتزقة فإنه يمكنك أن تفعل ذلك سراً. إن هذا طرح سؤالاً بدأت أسأله لنفسي مراراً حول ضريبة هذا الكتمان الذي يمارسه حكم تحالف أثرياء المال والشركات والذي تتحمله الديمقراطية التي تتطلب ناخبين مطّلعين.

إذا كان الناخبون يجهلون قادتهم، الأدوات الأهم في الديمقراطية، فهل يمكن لأمة هذا حال ناخبها، الادعاء بالديمقراطية؟

14 العملاق الهادئ

في 22 حزيران 2004 ركبنا الطائرة متجهين من التيبت إلى النيبال. بطريقة غريبة نوعاً ما شعرت بالارتياح بأنني كنت أترك خلفي إحدى تلك المرايا المضحكة التي تجعلك تبدو سميناً جداً أو نحيفاً جداً. كانت التيبت الصينية صورة مشوهة عن كثير من المناطق في العالم التي خدمت فيها كرجل اقتصاد مأجور ـ مشوهة لكنها مع ذلك، انعكاس لما يجري في مناطق عديدة من العالم. كان يوماً صافياً. مال الطيار قريباً جداً من قمة جبل أفريست، لمحت الثلج يدور على شكل قمع، كإعصار أبيض بين قمتي جبلين جليديين ضخمين. أثر ذلك في نفسي كرمز مناسب للمكان الذي كنا نقصده.

النيبال هي المملكة الهندوسية الوحيدة في العالم، بلدٌ قُزّم بين عملاقين، الهند والصين ـ اللذين اغتصبا مياهه مع ما تحمله من مصدر محتمل من مصادر الطاقة الكهربائية ـ إنها كانت أرض تدور في دوامة العنف والاضطراب. بدأ الثوار الماويون في عام 1996 حملة لتأسيس "جمهورية النيبال الشعبية". رد الملك بإعلان الحرب على الشيوعيين. في حزيران 2001 أطلق ولي العهد الأمير ديباندرا النار على والده الملك بيرندرا فقتله مع أفراد آخرين من العائلة المالكة. على الرغم من أنه قتل نفسه أيضاً، سادت إشاعات بأنه كان عميلاً صينياً. انفجر عصيان مدني، فأعلن الملك الجديد جيانيندرا قانون الطوارئ، حل الحكومة، وأرسل الجيش في جولة جديدة للهجوم على الماويين. في الوقت الذي وصلنا فيه إلى النيبال كان قد مات في هذه الحرب حوالي 10000 إنسان وشرد من 100000 إلى 150000 إنسان من بيوتهم.

كانت تعتبر هذه الرحلة بالنسبة لنا زيارة قصيرة، نوعاً من الانتقال إلى الوراء إلى داخل العالم النامي. بينما كان الباص الذي نركبه يسرع في شوارع كاتماندو، أعلنت شينا بأنها ستقدم لنا هدية في ليلتنا الأخيرة وتحجز لنا للنزول في فندق داوريكا الفخم، قمة الفنادق الذي يعد فندقاً عالمياً من الدرجة الممتازة. هللنا جميعاً فرحاً وابتهاجاً.

لم يكن داوريكا مخيباً للآمال. كان يقع خارج كيبلنغ مباشرة، فندق أنيق وفاتن وهو أيضاً أثر من آثار الإمبراطوريات الاستعمارية الذي ذكّرني بأماكن كنت قد نزلت فيها خلال أيام عملي كرجل اقتصادي مأجور.

نزل معظم أفراد مجموعتنا في رحلة تسوق أخيرة إلى مكان قريب اعتبره مرشدونا آمناً. أما أنا فبقيت في الفندق. كنت أحتاج إلى وقت للتأقلم والتفكير في تجارب التيبت. جلست في غرفتي وسجلت بعض الملاحظات. من ثم نزلت أتجول في الحدائق الخضراء التي كانت تشبه إلى حد غريب الحدائق التي شاهدتها في فندق انتركونتينانتال أندونيسيا جعلني هذا أستغرق في ذكرياتي حول الغانية التي ظننتها زوجة أحد المدراء التنفيذيين لشركة نفط. جلست على

مقعد من الحديد المزخرف، وتذكرت تلك الليلة عندما انفطر قلبي حزناً لغيابها، ومشيت إلى جسر المشاة في جاكرتا، وانتهيت إلى ذلك المطعم حيث وجدتها تجلس مع امرأة أخرى. قالتا شيئاً ما، خلق في نفسي انطباعاً عميقاً بقي معي خلال كل هذه السنوات:

"هذه هي الثروة الأكبر في التاريخ. الحصص المالية ضخمة، فهل يجب علينا أن نتفاجأ بأن الرجال مستعدون للمخاطرة بكل شيء للتحكم بها؟ يخونون ويسرقون، يبنون الأساطيل، ينتجون الصواريخ، ويرسلون الآلاف - مئات الآلاف من الجنود الشباب لكي يموتوا من أجل النفط".

ها نحن، بعد ربع قرن، انتهت الحرب الفيتنامية منذ فترة طويلة، ونقاتل الآن في حرب جديدة في العراق. يموت الرجال والنساء من أجل السبب نفسه "الثروة الأكبر في التاريخ". الإمبراطور - حكم تحالف أثرياء المال والشركات - هو أغنى ما يكون عليه اليوم من أي وقت مضى. ومعظم الأمريكيين ليست لديهم أدنى فكرة عن ذلك على الإطلاق.

بدا لي أن ما جرى في آسيا هو صورة رمزية لهذا الأسلوب الجديد في بناء الإمبراطورية. لم يجلب الأسلوب القديم في فيتنام النتائج المتوقعة، بينما نجح الأسلوب الجديد في أندونيسيا وكثير من البلدان الأخرى. ومع ذلك كان رؤساء الشركات يكافؤون بسخاء حتى عندما ظهر أن السياسات الاقتصادية المتبعة هي سياسات فاشلة.

سببت "أزمة صندوق النقد الدولي" الآسيوية الفقر المدقع والموت، وفي النهاية كان حكم تحالف أثرياء المال والشركات هو الرابح الوحيد الذي يتحكم بالحكومة الأندونيسية وبمعظم الآخرين الذين عانوا واكتووا بألسنة لهيب نار سياسات صندوق النقد الدولي والبنك الدولي. بالرغم من الفشل العسكري الذريع في الحرب الفيتنامية حققت الشركات الأمريكية ربحاً كبيراً من مبيعات الأسلحة، توسيع الأسواق، اتفاقيات العمل، وأوجدت نماذج جديدة مبتكرة من عمليات الإنتاج في معامل الكد والكدح، مستفيدة من العمالة الرخيصة، حتى أنها وجدت طرقاً لتستغل بها الكوارث الطبيعية محققة الأرباح الضخمة على حساب المنكوبين.

كنت دائماً أعود للتفكير في الصين، العملاق الهادئ الذي يترصد بعيداً عن الأضواء. ألقت التيبت الضوء على حقيقة أنه بالرغم من أن الصين قد نشرت جنودها في هذه المنطقة إلا أنها لاحظت أيضاً عن كثب التقنية الجديدة في بناء الإمبراطورية. لقد استفاد اقتصاديوها المأجورون وعملاؤها من أخطائنا.

تجنبت الصين تاريخياً الطريق الذي سلكته القوى الاستعمارية التقليدية. فلم ترسل جيشها إلى بلدان بعيدة بل ركزت على مناطق اعتبرتها جزءاً لا يتجزأ من أرضها، وكان من ضمن هذه المناطق كل من التيبت وتايوان. فكانت الصين فيما يتعلق بهاتين المنطقتين تحاكي الولايات المتحدة الأمريكية.

عندما كلف توماس جفرسون كلاً من لويس وكلارك لاكتشاف الأرض الواقعة غرب الميسيسبي، بعث هذا رسالة كانت تعني بأن جميع أجزاء القارة واقعة ضمن نطاق سيادة الدولة. كما الحال في التيبت وتايوان بالنسبة للصين. شراء لويزيانا، ضم تكساس، وإلحاق ألاسكا بُرِّر في إطار هذا المضمون. وفُسِّر فيما بعد البيان الرسمي بالأهداف والدوافع النهائية، بالوصول إلى ما بعد أمريكا الشمالية، وقد طبق على جزر الكاريبي والمحيط الهادي، وكان أساساً في تبرير غزو المكسيك وكوبا وباناما وبعد ذلك في التدخل في السياسة الداخلية لبلدان أمريكا اللاتينية. حاولت واشنطن تجنب الأعمال العلنية التي كانت مخالفات صريحة لمبادئ المؤسسين الأوائل ومع ذلك كانت الإدارات المتعاقبة في الولايات المتحدة تحرص على اتباع الطرق السرية في بناء الإمبراطورية. تعلمت كل إدارة من أخطاء ونجاحات سابقاتها. بدا الآن أن الصين كانت تتفوق حيلة ودهاءً على واشنطن.

بعد مدة طويلة من عودتي من رحلتي إلى التيبت والنيبال، اكتشفت بأنني لست الوحيد الذي قام بهذه المقارنة. في 18 أيلول 2006، قبل يوم من اجتماع هام للبنك الدولي في سنغافورة، نشرت نيويورك تايمز مقالاً حمل العنوان التالي: "الصين تنافس الغرب في مساعدة جاراتها". أكدت كاتبة المقال جين بيرليز، الصحفية في نيويورك تايمز، أن الصين، التي هي العميل الأكبر للبنك الدولي، "تعيد بصمت تنظيم أعمال المساعدة في آسيا، مستخدمة نفس لعبة البنك الدولي في منافسته". استخدم المقال أمثلة على ذلك كل من كمبوديا، لاووس، مايا نمار، والفلبين، نص المقال بأن "القروض الصينية هي غالباً ما تكون أكثر جاذبية من القروض الغربية المعقدة". أدرجت بيرليز عدداً من الأسباب لذلك: من ضمنها حقيقة أن بكين لا تربط بقروضها شروطاً لتحقيق مقاييس بيئية واجتماعية معينة أو عقوبات على الفساد". ركز المقال بشكلٍ خاص على سياسة الصين التي تتفوق على السياسات الأخرى بالسماح لرجالها الاقتصاديين المأجورين أن يبسطوا سلطتهم على العديد من البلدان. علقت السيدة بيرليز شارحة بأنه "من النادر أن تحتوي متطلبات الصين على الأجور الإضافية المرتفعة للمستشارين التي هي تدابير شائعة لمشاريع البنك الدولي". من بين المناطق الأربع التي بحثت في هذا الكتاب، تبدو التحديات في آسيا الأقل خطراً - والأكثر قابلية لإدارتها والتحكم بها - بمنظور معظم الأمريكيين.

لقد ترسخت في عقولنا صور من الحربين الكورية والفيتنامية، بينما لم تكن نتائج هاتين الحربين النصر العسكري، لكن لقد انتهتا بطريقة سمحت لنا أن نتابع حياتنا كالمعتاد، ودفعت بعجلة الاقتصاد الأمريكي بقوة إلى الأمام. تقديرنا للهندسة والإبداع اليابانيين شجعنا على شراء سيارات، تلفزيونات، وكومبيوترات منهم. اكتظت محلاتنا بالسلع المنتجة في العديد من بلدان آسيا. عندما نرفع سماعة الهاتف، وندق الرقم الذي يبدأ بـ 800 طالبين خدمة الزبائن سنتحدث، على الأرجح، مع شخص ما في آسيا. حتى التهديد العسكري -

بشكل رئيسي من الصين وكوريا الشمالية ـ يبدو أنه طريقة قديمة بشكل يبعث على الارتياح بغرابة لأنه يذكر بالحرب الباردة التي ربحناها. ربما نخاف من الأسلحة الذرية لكن، ليس كالمفجرين الانتحاريين، تعاملنا بنجاح مع الضغوط النووية منذ أكثر من نصف قرن. ربما أنه أهم من هذا كله، أن آسيا قبلت نموذجنا الرأسمالي الذي يدعم السلطة التسلسلية بادئاً من الأعلى إلى الأدنى، ويعزز المضاربة بين الشركات الكبيرة والحكومة، وينشر ظاهرة الاستهلاك وحب المادة والإيمان بأن الوفرة في الطبيعة قد وُجدت لكي تُستغل من القلة النسبية.

إن أمريكا اللاتينية مختلفة. عندما ظننا بأننا قد روضناها، وتخلصنا من الليندي في تشيلي ونورييغا في بنما والساندين في نيكاراغوا، وعندما توقعنا نهاية كاسترو في كوبا اكتشفنا أنه كانت توجد هناك ثورة هادئة تكتسح المنطقة وتصوب باتجاهنا. نهض اللاتينيون يتحدون الإمبراطورية الأمريكية ومن خلال عملهم هذا كانوا يفضحون تاريخنا السري.

بينما كنت أفكر ملياً في الدروس والعبر التي عرضتها هاتان المنطقتان ـ آسيا وأمريكا اللاتينية ـ ذهب تفكيري إلى ذلك الرجل المسن الذي قابلته عند نهر الجليد، وتذكرت كلماته وهو يصف الغزاة الذين حلوا بأرضه بـ "قتلة النوماد". لقد كانت كلماته رجع صدى لأعمال مالكي المصانع في غواتيمالا. إن هذين النوعين من الناس عاشا على طرفين متقابلين من الكرة الأرضية، أحدهما كان فقيراً والآخر غنياً، أحدهما مُستغَلاً والآخر مستغلاً، مع ذلك لقد فهما شيئاً جوهرياً وحيوياً حول العالم الذي سيرثه أولادهما. الغواتيمالي تفاخر بأن حراسه الشخصيين الذين حموه ـ وحموني ـ كانوا "قتلة المايا".

الجـزء الثاني: أمريكـا اللاتينيـة



15 بنادق مأجورة في غواتيمالا

فتح باب المصعد، كان ثلاثة رجال يقفون في الداخل يرتدون سراويل فضفاضة وكنزات وكان أحدهم يرتدي جاكيتاً جلدياً. لفت انتباهي بنادق الـ إيه كي 47 التي كانوا يحملونها.

قال لي بيبي وهو يقودني باتجاه المصعد: "من سوء الحظ، أصبحت هذه ضرورة في غواتيمالا هذه الأيام، على الأقل بالنسبة لنا نحن أصدقاء الولايات المتحدة، أصدقاء الديمقراطية. هنا نحتاج إلى حراسنا الشخصيين"قاتلي المايا"".

كنت قد ركبت الطائرة من ميامي إلى مدينة غواتيمالا قبل يوم واحد، ونزلت في الفندق الأفخم في المدينة. كانت هذه إحدى تلك المناسبات التي طلبت فيها مني شركة ستون و وبستر أن أقوم بعمل ما لأجلهم، طبعاً بالإضافة لطلبهم السابق مني في الإحجام عن الكتابة حول عملي كرجل اقتصاد مأجور. كان بيبي جاراميللو (هذا ليس اسمه الحقيقي) قد وَقّع عقداً مع شركة ستون و وبستر يقضي بتقديمه المساعدة للشركة لإنشاء محطة ذات ملكية خاصة لتوليد الطاقة الكهربائية في بلده غواتيمالا. كان أحد أقوى الأعضاء في مجموعة صغيرة من أغنى الطبقات التي كانت تتحكم في البلاد منذ الغزو الإسباني. كانت عائلة بيبي تملك مناطق صناعية، مكاتب، مجمعات سكنية، وأراضي زراعية شاسعة يصدرون منها إلى الولايات المتحدة الأمريكية. كان أهم شيء في نظر شركة ستون و وبستر هو نفوذ بيبي السياسي الضروري لإنجاز الأعمال التي تباشرها في غواتيمالا.

كنت قد زرت غواتيمالا في منتصف السبعينات كرجل اقتصاد مأجور. كانت مهمتي هي أن أعمل على إقناع الحكومة بقبول قرض من أجل تطوير قطاع الكهرباء. من ثم وفي أواخر الثمانينات دعيت للانضمام إلى مجلس مديري منظمة غير حكومية لمساعدة قبائل المايا، سكان البلد الأصليين، في تنظيم بنوك للتسليف الشعبي وبذل مساعٍ أساسية أخرى لمساعدتهم في انتشال أنفسهم من الفقر. مع مرور السنوات أصبحت معتاداً على أعمال العنف المأساوية التي مزقت هذا البلد خلال أواخر النصف الثاني من القرن العشرين.

كانت غواتيمالا قلب الحضارة المايانية التي ازدهرت ما يقارب الألف سنة. أرجع العلماء انهيار هذه الحضارة لفشلها في التغلب على الأضرار البيئية الناتجة عن نمو مراكز مدنها الضخمة، عندما غزاها الفاتحون الإسبان في عام 1524. حالاً بعد ذلك أصبحت غواتيمالا القاعدة الرئيسية للسلطة العسكرية الإسبانية في أمريكا الوسطى، وقد بقي هذا الموقع حتى القرن التاسع عشر ونتج عنه معارك متكررة بين المايانيين والسكان الإسبان.

في نهايات القرن التاسع عشر، أسست شركة يونايتد فروت نفسها كأحد أقوى السلطات في أمريكا الوسطى، وغلبت الإسبان مستعملة نفس حيلهم، فحكمت كسلطة عليا أساسية بلا منازع حتى أوائل الخمسينات من القرن الماضي، عندما رشح جاكوبو آربينز نفسه

لرئاسة البلاد طارحاً برنامجاً وأفكاراً تذكر بالمثل والمبادئ التي قامت عليها الثورة الأمريكية. أعلن آربينز بأنه لن يسمح بعد الآن للشركات الأجنبية أن تستغل البلاد وشعبها وبأنه يجب أن يستفيد الغواتيماليين من موارد البلاد. قوبل انتخابه في العالم كنموذج للعملية الديمقراطية. حينذاك كان فقط 3٪ من الغواتيماليين يملكون 70٪ من الأرض، فوضع آربينز برنامجاً إصلاحياً شاملاً للأرض شكل خطراً كبيراً مباشراً على عمليات شركة يونايتد فروت. تخوفت الشركة من أن يصبح نجاح آربينز مثلاً يحتذى للآخرين الذين قد يسيرون على خطاه في المنطقة وربما في العالم.

بدأت يونايتد فروت حملة دعائية كبيرة في الولايات المتحدة، وأقنعت الجمهور الأمريكي والكونغرس على أن آربينز قد حول غواتيمالا إلى قاعدة تجسس سوفييتية، وأن برنامجه للإصلاح الزراعي كان مؤامرة روسية لتحطيم الرأسمالية في أمريكا اللاتينية. خططت السي آي إيه لانقلاب في غواتيمالا عام 1954. وأمطرت الطيارات الأمريكية العاصمة بوابل من القنابل، أطيح بالرئيس المنتخب ديمقراطياً، واستبدل بديكتاتور يميني عسكري وحشي هو الكولونيل كارلوس كاستيلو آرماس. وفي الحال، أبطلت الحكومة الجديدة عمليات الإصلاح الزراعي، ألغت الضرائب المدفوعة من الشركة، أزالت الاقتراع السري، وألقت بالآلاف من منتقدي كاستيلو في السجون. انفجرت حرب أهلية في عام 1960 محرضة ضد الحكومة جماعة من الفدائيين المعروفة بالنقابات الثورية الوطنية الغواتيمالية، والتي بدأت عملياتها ضد الجيش المدعوم من الولايات المتحدة وضد فرق الموت اليمينية. اشتد العنف خلال الثمانينات وأدى إلى مقتل مئات الآلاف من المدنيين غالبيتهم من المايانيين. وألقي في السجون، وتعرض للتعذيب أكثر من ذلك.

في عام 1990 ذبح الجيش المدنيين في مدينة سانياغو آتيتلان التي تقع قرب بحيرة آتيتلان المرتفعة والمشهورة كأجمل بقعة في أمريكا الوسطى. على الرغم من أنها لم تكن المجزرة الوحيدة، لكنها تصدرت عناوين الصحف العالمية لأنها حدثت في مكان مشهور يؤمه كثير من السياح الأجانب. بدأت قصة هذه المجزرة، وفقاً لتقارير شهود عيان، عندما اتجهت مجموعة من المايانيين في مسيرة إلى بوابات القاعدة العسكرية، كان أحد جيرانهم قد اختطف من الجيش فاعتراهم الخوف من أنه سينضم إلى صفوف الآلاف من المفقودين. طالبوا بإطلاق سراحه ففتح الجيش النار على جماهير المحتشدين قاتلاً وجارحاً العشرات من الرجال والنساء والأطفال.

كانت رحلتي لزيارة بيبي جاراميللو عام 1992 بعد هذه المجزرة بفترة قصيرة. أراد أن يشارك شركة ستون و ويستر، ويحصل على التمويل من البنك الدولي. أعلم بأن المايانيين يعتقدون بأن الأرض هي روح حية وأن تلك الأماكن التي ينبثق منها البخار تعتبر أماكن مقدسة. توجست من أن أية محاولة لبناء محطة توليد كهربائية فوق أراضي الينابيع الحارة

سيؤدي إلى العنف. بالاستناد إلى تجارب يونايتد فروت . بالإضافة إلى التجارب الأحدث والتي كنت مطلعاً عليها تمام الاطلاع في إيران، تشيلي، أندونيسيا، الأكوادور، بنما، نيجيريا، والعراق - أستطيع القول بأنه إذا طلبت شركة أمريكية ما مثل ستون و وبستر المساعدة في مكان مثل غواتيمالا فإن السي آي إيه ستلبي الطلب حالاً وترسل رجالها. قد تزداد حدة العنف، وقد يرسل البنتاغون المارينز. لقد كان ضميري مثقلاً بما يكفي من الدماء التي أهرقت: فكنت مصمماً لفعل كل ما أستطيع القيام به للحيلولة دون وقوع المزيد من الألم والمعاناة.

في ذلك الصباح، أقلتني سيارة من الفندق، وقادتني في طريق دائري عبر المدينة الغواتيمالية ذات الأبنية العالية الحديثة المثيرة للإعجاب. قادني بوابان مسلحان إلى الداخل. رافقني أحدهما في المصعد إلى الطابق العلوي. شرح لي بأن عائلة بيبي تملك هذا البناء، ويشغلون جميع طوابقه الأحد عشر، يقع مصرفهم التجاري في الطابق الأرضي، مكاتب لأعمال مختلفة تحتل الطوابق من الثاني إلى الثامن، وتقيم العائلة في الطوابق التاسع والعاشر والحادي عشر. قابلني بيبي عند المصعد. بعد أن شربنا القهوة وتحادثنا لفترة قصيرة، أخذني في جولة سريعة في البناء ما عدا الطابق التاسع الذي قال عنه بأنه محجوز من أجل خصوصية والدته الأرملة (شككت بأن هناك أسباباً أخرى أيضاً). إذا كانت هذه الجولة لإثارة إعجاب ممثل شركة ستون و وبستر، فإنها كانت ناجحة. بعد اجتماعي معه وبعضاً من مهندسيه في الطابق الخامس لتعريفي على مشروع المحطة الحرارية، تناولنا الغداء مع والدته، أخوه، وأخته في الطابق الحادي عشر. من ثم توجهنا إلى المصعد لزيارة الموقع المقترح. دخلنا المصعد مع رجال يحملون إيه كي - 47.

أغلق باب المصعد، ضغط الرجل الذي يرتدي جاكيت الجلد زر الطابق الأول، صمت الجميع بينما كان المصعد يهبط. فكرت بهذه البنادق. أدركت بأنها كانت لحمايتي وبيبي من المايا، الناس أنفسهم الذين كنت أساعدهم خلال عملي في المنظمة غير الحكومية. تساءلت ماذا سيكون رأي أصدقائي المايانيين حولي الآن.

توقف المصعد، كنت أتوقع عندما سيفتح الباب بأنني سأرى ضوء ما بعد الظهر من خلال الممر ذي الأعمدة الذي يوصل إلى باب المبنى الذي دخلت فيه صباحاً، لكن بدلاً من ذلك رأيت كراجاً ضخماً من الإسمنت متوهجاً بالأنوار وتفوح منه رائحة الرطوبة.

أمسك بيبي كتفي بيده، "ابق هنا"، أمرني ذلك بصوت خافت.



16 مهووسون بالغضب

خطا اثنان من الحراس في المدخل أمامنا أنا وبيبي مصوبين بندقيتيهما إلى داخل الكراج.

انحنى الثالث المرتدي جاكيت الجلد، وتحرك خارجاً، محركاً رأسه وبندقيته من جانب إلى آخر، متفحصاً المنطقة أمامه.

تحرك حرسانا أيضاً، وأخذ كل منهما وضعاً إلى جانب باب المصعد المفتوح. أستطيع الآن أن أرى الكراج بوضوح. متفاجئاً من وجود ست سيارات فقط، جميعها من صنع أمريكي من نوع شافروليه وفورد. خمس منها كانت سيارات سوداء ستاشين واغن، والسادسة كانت بيك آب أحمر. حمل صاحب الجاكيت الأسود بيلاً كهربائياً وبدأ يفحص به داخل وتحت كل سيارة. عندما انتهى، ألقى نظرة فاحصة مرة أخرى على كامل الكراج. بعد أن بدا أنه راضٍ وكل شيء على ما يرام، فتح باب أحد السيارات السوداء، وجلس على كرسي السائق وشغل المحرك. من ثم قاد السيارة ببطء باتجاهنا إلى حيث كنا ننتظر.

فتح أحد حراسنا الاثنين باب السيارة الخلفي، صعد كلاهما إلى داخلها، وجلسا في المقعد الخلفي المعاكس لجهة السير.

قفز صاحب الجاكيت الأسود من السيارة وعلى جانبه تتدلى بندقيته الـ إيه كي — 47. صعد بيبي إلى جانبي في المقعد الثاني، أغلق صاحب الجاكيت الأسود بابنا، أطلق صفرة حادة، وعاد إلى مكانه خلف المقود. صعدت السيارة منحدراً مرتفعاً وعندما اقتربت من نهايته ارتفع باب معدني لنرى ضوء الشمس من خلاله.

كان يقف بانتباه في الخارج ثلاثة رجال يحملون بنادق إيه كي — 47 ألقوا التحية علينا عندما مررنا بجانبهم. وقفت السيارة، فتح أحد الرجال الثلاثة باب السيارة الأمامي وصعد الى جانب السائق، تكلم بجهاز لاسلكي. بعد لحظات، قدمت سيارتان إحداهما بيضاء والأخرى فضية ووقفتا في المنعطف أمامنا. كان من المتعذر أن أرى ما بداخلهما بسبب النوافذ المظللة لكليهما.

لوح بيده الرجل الذي يجلس إلى جانب السائق. اتجهت السيارة البيضاء خارجة إلى الشارع. لحقناها والسيارة الفضية وراءنا.

ربت بيبي على ركبتي وكسر الصمت: "بغيض، أليس كذلك، بغيض لتجبر أن تعيش بهذه الطريقة؟"

"غير معقول. لكن يبدو أن رجالك يتقنون عملهم".

"إنهم أغلى ثروة يمكنك أن تشتريها، جميعهم تدربوا في مدرستكم الأمريكية".

تجهم وجهه مضيفاً: "فقط الأسبوع الماضي هاجم المايانيّون سيارة كانت تقل أختي. حمداً لله كل سياراتنا مجهزة بنوافذ ضد الرصاص، هذا وحراسها الشخصيون قد أنقذوا حياتها".

سألت: "هل لحق الأذى بأي شخص؟"

هز كتفيه بلا مبالاة وأجاب: "قال الحراس بأنهم قد أصابوا اثنين من هؤلاء أولاد الحرام، لكن أصدقاءهم حملوهم وفروا. رجالنا أذكياء بما فيه الكفاية لكي لا يطاردوهم. هذا ما حدث لأحد شركائي من رجال الأعمال. طارد حراسه، المهاجمين، ووقعوا في شرك. قتل أحدهم والآخر جرح".

تطلع من خلال نافذته إلى الشارع العريض المشجر على جانبيه الذي كنا نجتازه.

"لقد كانت مدينة جميلة" أضاف متأملاً "كانت أغلب أعمال العنف تقع في الريف" تطلع باتجاهي "الأمر ليس كذلك الآن. اللعنة على هؤلاء المايانيين لقد أصبحوا الآن كالمسعورين".

حدق مرة ثانية الى الخارج من خلال نافذة السيارة، وعاد بنظره إلي، وضحك ضحكة خافتة: "إذا كنت مكاني ممن تخاف أكثر؟"

"ماذا تعني؟"

"من الذي يملك الفرصة الأكبر لقتلك؟"

تذكرت توريجوز في بنما، حيث كانت تقول الإشاعات بأن أحد حراسه الشخصيين قد أعطاه مسجلاً صغيراً يحتوي على قنبلة موقوتة، قبل قليل من ركوبه تلك الطائرة المشؤومة.

"حراسك"

"بالطبع" أسند ظهره للخلف، وغاص في مقعده. "يجب عليك أن تجد الأفضل، وتدفع لهم مرتباً جيداً. لدينا قوة أمنية كبيرة. وقبل أن يكلف أي شخص بمهمة حماية عائلتي، مثل هؤلاء الرجال الذين تراهم الآن" وأشار إلى السيارات التي أمامنا والتي خلفنا "يقضون سنوات في تلك القوة الأمنية - في أحد معاملنا، مصارفنا أو مزارعنا، لا يسمح لهم الاقتراب مني أو من عائلتي حتى يثبتوا جدارتهم وإخلاصهم".

"كيف يثبتون ذلك؟"

"يثبتون إخلاصهم؟" هز برأسه وتبسم: "يجب عليهم أن يضعوا حياتهم على المحك، يلقونها في نيران المعركة، يظهرون بأنهم يملكون الشجاعة والولاء".

ذكرتني كلماته ما الذي حدث في العراق، ليدفع الولايات المتحدة لغزوه في السنة الماضية في 1991. عندما ذكرت ذلك، هز بيبي برأسه وقال: "أخبرني المزيد عن ذلك".

"حاول تابعونا أن يغتالوا صدام حسين، لكن حراسه الأمنيين كانوا كفوئين ومخلصين. إلى جانب أنه كان لديه العديد من الرجال الذين يشبهونه تماماً. تخيل إذا كنت أنت أحد حراسه الشخصيين وسولتك نفسك أن تقبل رشوة. أنت تعرف إذا أطلقت النار على أحد هؤلاء

الذين جعلهم صدام يشبهونه، ستموت أنت وعائلتك موتاً بطيئاً وشنيعاً. لذلك أرسل الرئيس بوش الجيش".

"هذا ممتاز" ضحك، وتابع القول: "يجب أن ننشر هنا مثل ذلك الخبر، بأننا نستطيع أن نرتب موتا بطيئا لأي من حراسنا في حال سوّلت له نفسه محاولة القيام بأي عمل كهذا."

غادرنا المدينة متجهين صوب بركان مهيب. كانت السماء زرقاء صافية. في حينها فقط أدركت بأن العاصمة كانت قد غلفت بغشاء من الدخان.

كان النهار خارج نطاق المدينة جميلاً جداً. مررنا ببحيرة صغيرة، واتجهت السيارة في طريق ترابي. شرح لي بيبي بأن السكان الأصليين هنا قد قطعوا كل الأشجار لاستعمالها في التدفئة وتحضير الطعام.

حفرت الأخاديد سفوح التلال نتيجة عمليات التعرية.

قال بيبي: "تعتقد، بأنهم قد تعلموا الدرس. دمر أسلافهم أنفسهم بسبب قطعهم أشجار الغابات وبناء الأهرامات. والآن هم يعملون الشيء نفسه. شعب غبي بلا رجاء".

كنت على وشك أن أشير بأن تلوث المدن كان أكثر دماراً على المدى الطويل، إن تلك المصانع والسيارات التي نعتمد عليها هو وأنا كانت هي الجرائم الأبشع. وأن سياساتنا هي التي أجبرت هؤلاء الناس على حرق أشجارهم. لكن خمنت بأنه سيوصمني كـ "محب للهنود" ومتطرف في حب البيئة، لذلك سأكون في نظره شخصاً غير جدير بالثقة. حدقت خارجاً من خلال النافذة.

منظر الأرض القاحلة ذكرني بالزمن الذي قدمت فيه إلى هذا البلد لأتحدث مع أحد الزعماء الروحيين للمايانيين. كانت المنظمة غير الحكومية قد أرسلتني لأسأل هذا الزعيم لإقامة حفلات افتتاح للاجتماعات القادمة لمجلس هيئة المنظمة. كان برفقتي ليني تويست، جامع التبرعات ومؤلف كتاب "روح المال". صادفتنا ممانعة كبيرة بينما كنا نحاول أن نرتب لهذه الاجتماعات. أصبح من الواضح أن الاضطهاد الذي عاناه المايانيون على أيدي الحكومة، والذي كان مدعوماً من واشنطن كان حائلاً أمام جهودنا.

أخيراً، وجدنا أنفسنا في بيت طيني صغير حيث كان يعيش الزعيم الروحي المشهور. كان يلبس بنطالاً من الجينز وقيمصاً تقليدياً مطرزاً، ويعصب منديلاً حول رأسه. كانت تفوح من البيت، الواقع في أعالي جبال جرداء أتلفت أشجارها، رائحة الحطب المحترق والأعشاب.

أنصت بانتباه بينما كنا نشرح له رغبتنا في مشاركته لنا في اجتماعاتنا، لحثه على مساعدتنا وتمكيننا من العمل عن كثب مع مواطنيه.

تكلمت بالإسبانية إلى المترجم الذي كان يردد كلماتي باللهجة المايانية المحلية. عندما انتهيت من الحديث، بدأ الزعيم حديثه غاضباً وقد كان يومئ بحماس وانفعال قال بصوت عالٍ: "لماذا يجب علي أن أساعدك؟ إن مواطنيك كانوا يقتلون شعبي خلال 500 سنة، ليس

فقط الإسبان فعلوا ذلك خلال أحقاب الاستعمار. بل أتذكر أيضاً حكومتك التي أرسلت عملاء سريين وجنوداً إلى هنا خلال حياتي، ومازالت تعمل هذا حتى الآن. هاجمت عاصمتي وأسقطت آربينز، الرئيس الوحيد الذي حاول مساعدتنا، دربتم الجنود الغواتيماليين لتعذيب المايانيين. والآن تأتي أنت لتسألني المساعدة؟".

قال بيبي وكأنه عرف ما يجول في خاطري: "هؤلاء المايانيين مهووسون بالغضب. يلقون بالمسؤولية علينا من أجل كل مشاكلهم. نعطيهم العمل، فيتذمرون بأننا نستعبدهم. وعندما لا نستخدمهم. إن عائلتي تستقدم الهيتيين الذين يعملون بالقروش. يتظاهرون ويحاولون قتلنا، وهذا ليس فقط هنا إنما الأشياء نفسها تحدث على امتداد العالم في الأنديس، الأمازون، المكسيك، البرازيل، الأكوادور، البيرو، فنزويلا، بوليفيا، وكولومبيا. سم أي بلد شئت جنوب ريوغراند. أنتم البيض لا تستطيعون فهم ذلك لأنكم قتلتم كل هنودكم. كان يجب علينا أن نأخذكم مثلاً لنا ونعمل الشيء نفسه مع هؤلاء الهنود". ربت على كتفي مؤكداً: "اصغ إلى كلماتي، وسأذكرك بذلك، تحدي بضع العقود اللاحقة سيكون هو الإبقاء على هذا الشعب الأصلي - الهنود - تحت السيطرة، يمكنك الحديث ما شئت عن الديمقراطية، لكن هذه البلدان ستحتاج إلى قادة أقوياء لتبقي هؤلاء الهنود في أماكنهم، صدقني لا المايانيون ولا الكويشيا ولا الآخرون من هذه القبائل الهندية يأبهون بالديمقراطية، إذا واتتهم الفرصة سيذبحوننا حتى آخر واحد منا".

لم أخبره عن تجربتي مع الزعيم الروحي المياني، الذي وافق في النهاية على العمل معنا.

وصلنا إلى حل معه عندما أخبرته بأن السبب الوحيد الذي يمكنني التفكير فيه لأطلب مساعدته هو بأننا معاً يمكن أن نبني جسراً بين شعبينا: "كثير في الولايات المتحدة يشاركونك شعورك بالرفض حول الطرق التي تعامل بها حكومتنا شعبك. نريد أن نتغير". فتحت كيساً يحتوي على مجموعة من الأحجار كانت قد قدمت لي من زعماء قبيلة كويشا في الأكوادور: "نحاول أن نمد جسوراً بين شعوبنا، ونفعل أشياء مشابهة في أجزاء أخرى من أمريكا اللاتينية".

بعد ذلك كانت دهشتي كبيرة عندما تحول فجأة ليتكلم بالإسبانية التي كان يتقنها بطلاقة.

في الوقت الذي وصل موكب بيبي إلى موقع الينابيع الحارة، كنت قد وصلت إلى قرار حول ماذا سأقدم من توصيات إلى شركة ستون و وبستر.

هذا المشروع لم يكن فقط حول الاستفادة من الاعتمادات المالية الذي سيقدمها البنك الدولي لجعل الأغنياء أكثر غنى وترك الفقراء يغرقون في الدّين. إنه أيضاً يغتصب من المايانيين حقوقهم المقدسة.

عندما وقفت السيارات الثلاث في استراحة على الطريق، أبقاني بيبي مرة ثانية داخل السيارة حتى فحص رجاله - الذين بلغ عددهم اثني عشر - المنطقة.

كان الطقس في الخارج مشبعاً بغيوم البخار المنبثقة من الأرض.

وبينما كنا أنا وبيبي نتجول، تلا بيبي بعض الإحصاءات الهندسية حول احتباس الضغط، الكيلوواط، وتكاليف البناء.

وقفنا على حافة حوض يبقبق ماؤه، مستنشقين بخار الكبريت. أشار من خلال البخار باتجاه السفح إلى واد ووصف منتجع المياه المعدنية الذي قد تخيلته أخته هناك.

شعرت بأن لا خيار لي إلا التصريح بشيء مؤكد: "بالتأكيد، المايانيون سيقاتلونكم بأسنانهم وأظافرهم".

قال: "آها، أنت هنا على خطأ، قد يكون المايانيون أغبياء، لكن يعرفونني ويعرفون عائلتي..." أصبح صوته أجشاً وأصر بأسنانه: "أنا متأكد بأننا نستطيع أن نصل إلى اتفاق معهم ولن يكلف ذلك الكثير، فقط أجر زهيد، حقاً، هذا كل ما يحتاجون إليه. هذا هو السبب الذي يحتم عليكم بأن يكون لكم شركاء كعائلتي. ادعوا فريقاً من البيض منكم لمفاوضتهم، وقل السلام، ولن يكون هناك لا اتفاق ولا من يحزنون. نحن من ناحية ثانية، نعرف كيف نتعامل معهم".

تقابلت أعيننا: "أظن بأنك عرفت قصدي".

هززت برأسي، واستدرت إلى الجهة الأخرى.

بالطبع، لقد فهمت، وأحنقني ذلك. سرت إلى الجانب الآخر من الحوض، والتقطت حجراً صغيراً رميته إلى الماء الذي يعلوه الزبد. أرسلت معه احترامي إلى أرواح المايانيين أو إلى أية قوة قد أبدعت هذه الظاهرة المدهشة.

تأخرنا في طريق العودة بسبب ازدحام حركة السير فتأخرت عن موعد الطائرة. لم يقلق بيبي لذلك، دعا طياريه فأخذوني بسيارتهم التي أقلتني إلى طائرته الخاصة. كان من سخرية القدر أن طيارَيْن تحت تصرفي وطائرة ستكلف آلاف الدولارات لتعبئتها بالوقود ستقلني من غواتيمالا إلى ميامي، من أجل ماذا؟

لأخمد صوت بيبي، وأمرغ مشروعه في الوحل.

شعرت بالإثم، في البداية، لأقبل هذه الطائرة، من ثم شعرت براحة ضمير وخمنت كم سيكون زعيم المايانيين وأرواح هذه الينابيع الحارة مندهشين وشاكرين يغمرهم الإحساس بالعرفان بالجميل.

كان بيبي قد قال شيئاً حفر في ذهني لسنوات:

"اصغ إلى كلماتي، وسأذكرك بذلك، تحدي بضع العقود اللاحقة سيكون هو الإبقاء على هذا الشعب الأصلي - الهنود - تحت السيطرة".

أخذت تلك الكلمات منحى جديداً بينما كنا نقترب لندخل الألفية الثالثة.

في بداية عام 1998، سبع بلدان في أمريكا اللاتينية، أكثر من 300 مليون إنسان في القارة التي يبلغ عدد سكانها 370 مليوناً قد صوتوا لرؤساء نادوا بالوقوف ضد الاستغلال الأجنبي. على الرغم من مزاعم إعلامنا وسياسيينا، هذه الأصوات لم تكن أصواتاً للشيوعية أو الفوضوية أو الإرهاب، كانت أصواتاً من أجل حق تقرير المصير. من خلال عمليات الانتخاب الديمقراطية بعث جيراننا لنا برسالة قوية: لا يريدون غيرتنا عليهم، وحبنا لهم، ببساطة، إنهم يريدون من شركاتنا أن تتركهم وشأنهم وتتوقف عن استغلالهم واستغلال أرضهم.

أمريكا اللاتينية تمشي على خطا كل من باين وجفرسون والرئيس واشنطن وكل الشجعان من رجال ونساء وأولاد الذين وقفوا في وجه الإمبراطورية البريطانية في السبعينات من القرن الثامن عشر.

إنه تحول مذهل في التاريخ، إن طليعة الثورة هذه الأيام ضد الإمبراطورية هم الشعوب الأصلية في أمريكا اللاتينية والجنوبية.

بينما أجدادنا الأوائل أسسوا حكومتهم الجديدة على مبادئ قبائل الإيراكوا الهندية، وبينما جيشنا، جيش الولايات المستعمرة، استخدم الهنود كجنود وفرق استطلاع، كافأت أمتنا بالنهاية هؤلاء الهنود بالإقصاء والإبادة الجماعية. أما بالنسبة للعديد من بلدان أمريكا الجنوبية فقد شكل هؤلاء الهنود طليعة الحركة الثورية.

يظهر الآن جيل جديد من الأبطال. على الرغم من أن أصولهم تعود إلى ما قبل الحضارات الكولومبية، دافع هؤلاء القادة عن جماهير الفقراء والمحرومين بغض النظر عن العرق أو الأصل أو الدين أو فيما إذا كانوا يعيشون في أحياء فقيرة مكتظة أو على مزارع بعيدة. يظهر هذا في بوليفيا أكثر وضوحاً من أي مكان آخر.

عندما كنت أتابع الانتخابات الرئاسية في بوليفيا عام 2005 فكرت بماذا كان يشعر بيبي، كيف كانت ردة فعله عندما انتُخب أحد المزارعين الهنود من بيئة متواضعة - من قبيلة الايمارا الهندية - رئيساً للبلاد من غالبية الشعب الساحقة.

كان النصر الذي حققه إيفو مورالس، بالتأكيد، كابوساً مرعباً لبيبي.

بينما كنت أشاهد التغطية التلفزيونية للاحتفالات بعد انتهاء الانتخابات، انتقل تفكيري إلى الوقت الذي عرض فيه علي عمل هو الأقوى نفوذاً في ذلك البلد. وتوضح الطريقة التي حدث فيها ذلك مواقف وأعمال حكم تحالف أثرياء المال والشركات.

17 تجنيدي كرئيس لشركة الطاقة البوليفية

"تمثل بوليفيا صورة عن استغلال الأرض من الإمبراطوريات".

تفوه بهذه الكلمات أحد أساتذتنا عندما كنت في مخيم تدريب لفرق السلام في مدينة اسكونديدو في كاليفورنيا في عام 1968. كان هذا الأستاذ قد عاش في بوليفيا، وكان يطبع في أذهاننا دائماً صورة قرون من الاضطهاد عاناها هذا البلد.

بعد أن أنهيت تدريبي، وبينما كنت أخدم متطوعاً في الإكوادور، كنت أفكر غالباً حول بوليفيا. كنت مفتوناً بهذه الأرض. بلد مغلق، يظهر على الخريطة، وكأنه ثقب في قطعة حلوى مدورة، تشمل البيرو، وتشيلي، والأرجنتين، والبارغواي، والبرازيل. خلال جولتي كمتطوع في فرق السلام زرت جميع هذه البلدان ما عدا البارغواي إحدى جارات بوليفيا. تجنبت زيارة هذا البلد كاحتجاج شخصي ضد حاكمها الجنرال الفريدو ستراوسنر وضد سياسته بإيوائه ضباط نازيين. وتحاشيت عمداً زيارة بوليفيا لأن شباباً أمريكيين شماليين كنا نشير إليهم كـ "سائرين على أثر بيض أمريكا" والذين كانوا يبقون معي أحياناً، وصفوا بوليفيا بأنها تعامل هنودها بأكثر وحشية مما تعامل الإكوادور هنودها.

في ذلك الوقت كان يبدو مستحيلاً وجود أي مكان يفوق وحشية الإكوادور في تعاملها مع الهنود. كانت النخب الغنية في الاكوادور تعتبر الشعب الأصلي دون البشر، كان سكان البلد الأصليين، كما كان الأفارقة الأمريكيين في الولايات المتحدة في بضع العقود السابقة، محرومين من الحقوق المدنية. كثرت الإشاعات حول نوع من "الرياضة" كان يمارسها الشبان الأغنياء، يقبضون على أحد الهنود وهو يفعل شيئاً ما غير قانوني - مثل التقاط حبوب ذرة من أجل إطعام عائلته لكي لا تموت جوعاً - يأمرونه أن يركض وبعدها يطلقوا بنادقهم عليه ويردونه قتيلاً. كان قراصنة شركات البترول في الأمازون ينفذون طرق الإعدام نفسها. على الرغم من أنهم نفوا بأن تكون هذه مجرد رياضة، بل برروا ذلك بأنهم كانوا يقاتلون الإرهابيين. مع ذلك ورغم كل هذا الاضطهاد الذي كان يجري في الإكوادور، فإن ما كان يحدث في بوليفيا أسوأ وأبشع.

هذا كان بسبب حقيقة أن تشي غيفارا، الطبيب الأرجنتيني الذي قرر أن يناضل ضد الظلم والاضطهاد، قد اختار بوليفيا كجبهة قتال أمامية، فاستنجدت الطبقة الحاكمة بطلب المساعدة من واشنطن. صنف تشي غيفارا بمنزلة أسوأ من منزلة دون البشر أو أسوأ من إرهابي لأنه كان يدعم من كوبا، لقد صنف على أنه شيوعي مسعور.

أرسلت واشنطن أحد أمهر ثعالبها للتفتيش عنه وقتله.

أسر عميل السي آي إيه فيليكس رودريجوز تشي في الأدغال قرب لاهيغورا في بوليفيا في أكتوبر عام 1967. بعد ساعات من الاستجواب، وتحت ضغط الحكومة البوليفية أمر

رودريجوز الجيش البوليفي بإعدام تشي غيفارا. بعد ذلك ضيقت قبضة الاحتكارات الخناق حول بوليفيا - ضغطت قطعة الحلوى المدورة على الثقب.

قبل سفري إلى بوليفيا كرجل اقتصاد مأجور في منتصف السبعينات، قمت بالتحريات وجمع المعلومات عن هذا البلد. اكتشفت بأن الاضطهاد هناك قد تجاوز كل حدود توقعاتي، وأن أستاذي عندما كنت في فرق السلام، وهؤلاء المهاجرون الشماليون البيض لم يروا الشيء الأفظع الذي كان يجري تحت السطح.

بُليت البلاد بالعنف منذ بدايات التاريخ المكتوب.

بوليفيا كانت ضحية لإمبراطوريات متعاقبة أو حكام طغاة واحد بعد آخر لا يرحمون. أخضع الإينكاس سكان البلد الأصليين في القرن الثالث عشر. وفي الثلاثينات من القرن الرابع عشر وصل الغزاة الإسبان وبسطوا نفوذهم على المنطقة، وأخضعوا الإينكاس، وذبحوا الآلاف بدم بارد وحكموا البلاد بيد من حديد حتى عام 1825.

في سلسلة من الحروب خلال الفترة الواقعة بين عامي 1879 و1935 فقدت بوليفيا منفذها على المحيط الهادئ لمصلحة تشيلي، ومنطقتها الغنية بالنفط والفحم لمصلحة الباراغواي، وغاباتها الغنية بالمطاط لمصلحة البرازيل. خلال الخمسينات قاد فيكتور باز استينسورو حكومة إصلاحية وبدأ برامج لتحسين الأوضاع المعاشية للهنود الذين يشكلون الأغلبية في البلاد. وأمم مناجم القصدير التي كانت مستغلة من الشركات الأجنبية.

استبد الغضب بالشركات العالمية، وعملت على الإطاحة بحكومة استينسورو في عام 1964 من عصبة من العسكر. ولم يكن عجباً تورط السي آي إيه في هذا الانقلاب. عانت البلاد من الانقلابات الواحد إثر الآخر حتى السبعينات.

حتى الجغرافيا عانت الجور والاضطهاد. قسمت البلاد إلى منطقتين. وبشكل مفرط وزع جبل اندين الوعر إلى ثلاث مناطق متميزة:

القسم الجاف المجدب شكل النجد الواسع العالي الارتفاع غير المأهول الذي يدعى آلتيبلانو. والقسم الثاني منطقة الوديان شبه الاستوائية في الغرب. والقسم الثالث الأراضي المنخفضة وغابات المطر الضخمة في الشرق.

يبلغ تعداد سكان بوليفيا 9 ملايين غالبيتهم من الهنود الذين يعيشون على مزارع صغيرة تتشبث بسفوح جبل أندين المنحدرة التي تعصف بها الرياح.

يوجد في بوليفيا ثلاث لغات رسمية تعكس التنوع العرقي في هذا البلد: لغة الكويشو، لغة الإيمار، واللغة الإسبانية. وعلى الرغم من غنى البلاد بالخيرات والنعم من الموارد الطبيعية الوافرة - الفضة، القصدير، الزنك، النفط، الطاقة المولدة للكهرباء، وثاني أكبر احتياطي للغاز الطبيعي في أمريكا الجنوبية (بعد فنزويلا) - بوليفيا هي أحد أفقر بلدان العالم. وكانت أول

من اتبع توصيات صندوق النقد الدولي، وطبقت حزمة برامج التكييف الهيكلي، هنا لا يمكنني أن أعفي نفسي من بعض المسؤولية عن ذلك.

في الوقت الذي وصلت فيه إلى بوليفيا في منتصف السبعينات، الخوف الذي تركه إرنستو تشي غيفارا النضالي قد أقنع التحالف الذي شكل بين النخبة الاقتصادية والعسكر للتعامل بوحشية مع جماعات السكان الأصليين. كان عملي هو إيجاد طرق نستطيع فيها نحن الرجال الاقتصاديون المأجورون إقناع التحالف بالاندماج بشكل أوسع مع حكم تحالف أثرياء المال والشركات.

خلال الاجتماعات مع طيف واسع من البوليفيين، استنبطت مجموعة من الأفكار تشبه تلك التي تحولت فيما بعد إلى ما عرف بـ "حزمة برامج التكييف الهيكلي" إس إيه بي، والتي وافقت عليها العديد من البلدان في الثمانينات والتسعينات. ومثل أندونيسيا سوهارتو، كان حكام بوليفيا مهيئين لتبني برامج أدت إلى بيع موارد بلدهم إلى الأجنبي.

كان لهم باع طويل بالإذعان لشركات المناجم الأجنبية والاغتناء من خلالها، راكموا الديون الكبيرة على بلدهم، وشعروا بأنهم غير محصنين تجاه أعدائهم التقليديين بلدان الجوار، بالإضافة إلى خوفهم من مواطنيهم سكان البلد الأصليين، فرغبوا في ضمان وعود واشنطن بالحماية، بينما يزدادون غنى خلال ذلك.

وتبعوا خطا سوهارتو في استثمار أموالهم المكدسة في الولايات المتحدة وأوروبا، وهذا يكسبهم مناعة ضد الأزمات الاقتصادية المستقبلية في بوليفيا.

في الاجتماعات التمهيدية في السبعينات، استنتجت بأن بوليفيا كانت ناضجة لبدء عمليات الخصخصة. كان رجال الأعمال والسياسيون في مدينة لاباز متلهفون لتوسيع ونشر النموذج الذي قد بدأته شركات المناجم.

على الرغم من أن ذلك أدى إلى بيع كامل السيادة الوطنية لبلدهم، فقد أعفاهم من وطأة جمع الأموال من خلال فرض الضرائب، وأسواق المال، وحساباتهم الشخصية في البنوك لتطوير مؤسسات المياه والصرف الصحي والكهرباء، ووسائل المواصلات والنقل العام، وشبكات الاتصالات، وحتى المؤسسات التربوية والثقافية وأنظمة القوانين.

ساعدت على إفهامهم بأنهم سيحصلون على عقود أعمال فرعية رابحة، وسيكافأ أبناؤهم وبناتهم بالدراسة المدفوعة أجورها مسبقاً في جامعات الولايات المتحدة وسيعينون بعد التخرج متمرنين برواتب عالية في أكبر وأهم شركات الهندسة والبناء.

أقروا بحماس الإعفاءات الضريبية للمستثمرين الأجانب، ووافقوا على إلغاء حواجز التجارة لتشجيع الاستيراد من الولايات المتحدة، بينما قبلوا بحواجز فرضناها على المنتجات البوليفية. في الجوهر، بدا التحالف الاقتصادي العسكري جاهزاً لبيع البلاد إلى ما يعتبر شكلاً جديداً من الاستعمار طالما كان ذلك مصاغاً حسب لغة صندوق النقد الدولي كـ "

سياسة جديدة"، "يبدو أنه اقتصادي مربح قابل للاستثمار" و"تكييف هيكلي". بعدما أقرت الحكومة تشريع لإنشاء سوق للأوراق المالية يسمح بالمضاربة واجتذاب الرأسمال الأجنبي، وإلغاء القيود على تحويل العملة، لم يمض وقتاً طويلاً لخصخصة أكبر خمس شركات في البلاد.

علاوةً على ذلك أعلنت الحكومة في عام 1990 خططاً لبيع 150 شركة حكومية إلى مستثمرين أجانب.

وكان من تحولات القدر - كالباب الدوار - اندفع العديد من صانعي القرار في حكومة الولايات المتحدة إلى الحصول على مناصب هامة ومكسبة في الشركات المستثمرة - لقد عرض علي منصب الرئيس، للشركة الأقوى في بوليفيا، شركة الطاقة البوليفية.

في عام 1990 تعاقدت معي شركة لوكاديا الوطنية، شركة أمريكية، وسألتني إذا كنت راغباً في منصب الرئيس للشركة التي تملكها، شركة الطاقة البوليفية. اشتهر عن لوكاديا بأنها تشتري الشركات التي تعاني من مشاكل وتحولها إلى مراكز للربح. (لوكاديا ستصبح مشهورة في عام 2004 عندما سعت لمقاومة بيع الأسهم بأسعار مخفضة من الشركات المالية الضخمة "التروستات" واشترت أكثر من 50٪ من الأسهم في شركة إم سي آي الشركة التي تحتل المرتبة الثانية في أمريكا بتزويد خطوط الاتصالات البعيدة والخارجية).

أبلغني ممثلو الشركة بأنني وبشكل استثنائي أبدو الشخص المؤهل لإدارة شركة الطاقة البوليفية. إضافة إلى انني كنت قد ساعدت في وضع وتنفيذ برامج التكييف الهيكلي في بوليفيا، كنت أيضاً:

1- رئيساً لشركة طاقة مستقلة وناجحة في الولايات المتحدة. (أسست هذه الشركة بعد تركي لعملي كرجل اقتصاد مأجور والذي أفادني بشكل كبير حيث كنت دائناً بخدمات كنت قدمتها كرجل اقتصاد مأجور.
2- إتقاني الإسبانية ومعرفتي بثقافات وتقاليد أمريكا اللاتينية.
3- وكاقتصادي مأجور سابق كنت في موقع مثالي لأضمن الموافقة على القروض التي سنحتاجها من البنك الدولي وبنك الإنماء الأمريكي لتوسيع نظام شركة الطاقة البوليفية.

بعد عدة مقابلات على الساحل الشرقي. ركبنا الطائرة، التي خصصتها شركة لوكاديا لي ولزوجتي وينفرد وابنتي جاسيكا ذات السبع السنوات، إلى بيت ريفي يقع في مدينة البحيرة المالحة حيث كان رئيس الشركة إيان كامينغ وزوجته يقضيان معظم أوقاتهما.

بعد المقابلات التمهيدية والتعارف مع عدة مدراء تنفيذيين، انضممنا إلى عائلة كامينغ في غرفة الطعام الرسمية لتناول خمسة أصناف من وجبات الطعام المحضرة بعناية فائقة من طباخ العائلة الخبير ومساعديه.

من ثم انسحبنا أنا وإيان إلى مكتبه لحديث خاص. بينما كنا نتحدث قاطعنا معتذراً أحد المساعدين وشرح لنا بأنه قد استلم فاكساً من مدينة لاباز، مكتوب فيه بأن المترجم الإسباني قد اضطر للمغادرة من أجل موعد مع الطبيب. وسألني آملاً إذا كان في مقدوري المساعدة. بينما كنت أقرأ الرسالة بصوتٍ عالٍ بالإنكليزية اعتراني الشك بأنهم كانوا يريدون امتحان قدراتي اللغوية.

كما كان واضحاً، أنني قد اجتزت هذا الامتحان والامتحانات الأخرى.

حالما انتهيت من زيارة مدينة البحيرة المالحة، رتبت شركة لوكاديا رحلة إلى بوليفيا لي ولعائلتي.

18 تحقيق أكبر قدر من الأرباح في لاباز

هبطنا في مطار ايل ألتو، أحد أعلى المطارات التجارية في العالم، يقع في سهل واسع على ارتفاع حوالي 13000 قدم عن سطح البحر. بعد إنهاء إجراءات الخروج، قابلنا رئيس شركة الطاقة البوليفية الذي كان على وشك التقاعد وزوجته. عاملنا هو والمدراء الآخرون معاملة فخمة خلال مدة بقائنا هناك. أخذونا إلى أسواق محلية تعج بالألوان، متاحف، كنائس من زمن الحقبة الاستعمارية، المدرسة الأمريكية الوحيدة التي ستدرس فيها ابنتي جاسيكا، نادي النخب والطبقات الراقية الذي كان تواقاً للترحيب بنا كأعضاء جدد، ومواقع المناظر الطبيعية الخلابة المثيرة في الجبال المحيطة بلاباز، وأرونا منحوتات الأحجار الرملية وتكويناتها العجيبة الواقعة في موقع وادي القمر. قادونا عبر محطات لتوليد الطاقة الكهربائية ومحطات فرعية أخرى، واقترحوا علينا في الحال شبكة من خطوط النقل.

بعد ظهر أحد الأيام الباردة الماطرة، جاء أحد المدراء التنفيذيين وأعلن بأنه سيرينا "قلب وروح عمليات شركة الطاقة البوليفية". توقعت أن أرى عرضاً فنياً لأعجوبة هندسية. قادنا سائقه خلال قطرات الرذاذ المجمدة إلى مصرف تجاري في قلب لاباز.

امتد صف طويل من الهنود بأسمال بالية من جانب باب المصرف والتفوا حول البناء، وتجمعوا على بعضهم لاتقاء المطر. أمسك العديد منهم بجرائد مفتوحة فوق رؤوسهم، وقد ارتدوا الملابس التقليدية: بناطيل صوفية، تنانير، ومعاطف. أنزلت نافذة السيارة قليلاً فاستقبلت نسمة هواء باردة ورائحة صوف مبلل، وأجسام غير مغتسلة.

كانوا صامتين، كبقية أثر من تلك الأيام عندما رصهم الغزاة الإسبان في صفوف للعمل في مناجم القصدير، كانوا، ببساطة، يقفون هناك، يحدقون، وأحياناً يأخذون خطوة إلى الأمام باتجاه أبواب المصرف الكبيرة حيث كان يراقبهم حراس مسلحون. انتشر العشرات من الأولاد على طول الصف، وكان هناك العديد من النساء يحملن أطفالاً ملفوفين بشملات مبللة تقطر ماءً تتدلى من أكتافهن. شرح المدير قائلاً: "إنهم هنا ليدفعوا فاتورة الكهرباء".

تمتمت وينفرد: "يا لها من قساوة".

صحح المدير: "على النقيض تماماً، إنهم محظوظون على عكس أنسبائهم القرويين، إنهم موصولون بالشبكة، ويتمتعون بالكهرباء".

بينما نحن في طريق العودة إلى المكتب، استدار المدير في مقعده قرب السائق باتجاهي، وشرح لي بأن شركة الطاقة البوليفية أرسلت بشكل دوري أكياساً معبأة من النقود إلى الولايات المتحدة عبر سفارتنا. نقود كان هنود الأيمارا والكويشا يقفون في الصفوف الطويلة ليدفعوها. أضاف بمرح: "إن هذه الشركة هي البقرة الحلوب بالنسبة إلى شركة لوكاديا".

علمت في وقت لاحق بأنه على الرغم من أن استعمالهم الكهرباء قد يكون محدوداً في لمبة منفردة لكن، وبسبب افتقارهم إلى حسابات بنكية وشيكات وبطاقات اعتماد فإنهم يقومون برحلة إلى البنك مرة كل شهر، ليدفعوا فواتيرهم نقداً.

عندما عدنا في تلك الليلة إلى عزلة غرفتنا في الفندق، سألتني زوجتي وينفرد لماذا تقوم سفارتنا بتهريب هذه الأموال لمصلحة شركة خاصة. لم أكن أملك إلا إجابة وحيدة واضحة بأن المهمات الدبلوماسية للولايات المتحدة حول العالم توجد بشكل رئيسي من أجل خدمة حكم تحالف أثرياء المال والشركات. كما أننا أيضاً تساءلنا بدهشة لماذا ذهب المدير إلى ذلك الحد ليرينا هؤلاء الناس المتراصين أمام المصرف. قالت وينفرد: "يبدو أنه كان فخوراً بذلك، ما هذا الإحساس بالمال المضلل".

في صباح اليوم التالي أوجز لنا شرح حول مشروع نهر زونغو. ظهر لي بأن هذا المشروع هو الذي يجب أن يكون فعلاً "قلب وروح عملياتنا". كان مشروعاً مشهوراً بين مدراء ومهندسي الطاقة الأمريكيين اللاتينيين. يتألف من سلسلة مواقع لتوليد الكهرباء بقوة الماء، تبدأ من قرب أعالي أنديس نازلة في ممر ضيق لتصل إلى الوادي الاستوائي. إنه نموذج للفعالية وحسن الإدارة البيئية. أكد لنا أحد المهندسين أن مشاهدة هذا المشروع تستحق عناء هذه الرحلة. هزَّ أحدهم رأسه بحزن: "لن يحدث مثل هذا المشروع مرة ثانية أبداً". أضاف نادباً: "كلنا نحب زونغو لأنه مثال جميل لإنجاز الأمور بطريقة صحيحة. لكن المؤسسات المالية الحديثة، وغني عن القول إن البنك الدولي في مقدمتها، لن تمول، وتستثمر الأموال في مثل هذه المشاريع الهندسية الصغيرة الرائعة. لو كان لهم أن يعيدوا بناء هذا المشروع من جديد، سيصرون على بناء سد كبير وغمر الوادي بأكمله بالمياه".

عرض علينا رئيس شركة الطاقة البوليفية وزوجته الخروج من الفندق لمشاهدة نهر زونغو. جاؤوا قبل فجر صبح أحد الأيام، وأخذونا من الفندق بسيارتهم الستيشن واغن التي تعمل بقوة شد أربعة دواليب. اتجهنا خارج المدينة صاعدين إلى آلتيبلانو. غطت طبقة رقيقة من الثلج ذلك النجد المجدب الذي كان نسخة قاحلة عن التندرة: السهل الأجرد في المنطقة القطبية الشمالية. انبلج الصبح فجأة فشاهدنا شروق الشمس الرائع على طول السلسلة الجبلية الضخمة الملقبة بـ "الهمالايا الأمريكية". تحتوي سلسلة جبال الأندين هذه على اثنتين وعشرين هضبة مغطاة بالجليد وترتفع 19000 قدم عن سطح البحر.

بعد عدة ساعات، وبينما كنا نعبر ممراً جبلياً على ارتفاع حوالي 17000 قدم، أتيحت الفرصة لابنتي جاسيكا أن ترى نهر الجليد لأول مرة. كانت قطعان الألباكا تطوف في المرعى الذي يفصل بيننا وبين سطح الجليد الهائل. وقفنا على جانب الطريق. ركضت جاسيكا عبر الطريق لتلقي نظرة عن قرب، اسودت شفتاها بسبب نقص الأوكسجين، ونزلت على ركبتيها وبدأت تتقيأ بشدة. أسرعنا أنا ووينفرد إليها، وعدنا بها إلى السيارة، وتعجلنا في الحال

بالهبوط لنخفض الارتفاع. وصلنا عند منتصف الظهيرة إلى أول مواقع توليد الطاقة الكهربائية.

شكل سد صغير عبر نهر زونغو المرفود بذوبان الجليد خزان من الماء جرت مياهه في أقنية حفرت بعمق على جانب الجبل إلى بوابة الخزان خلال أنفاق منتهية إلى محطة توليد الطاقة حيث كانت تنتج الكهرباء كانت هذه العملية تتكرر عدة مرات، نظام بارع صمم لإنتاج أكبر طاقة ممكنة من النهر مع الحفاظ في الوقت نفسه على وحدة وجمال المنظر الطبيعي. بينما كانت السيارة تتجه عبر الممر المتعرج، أبدت جاسيكا التي كانت قد تماثلت للشفاء ملاحظة عبرت فيها عن شعوري: "إنني سعيدة لأنهم لم يبنوا سداً كبيراً، ولم يغمروا كل الوادي بالماء، إنه جميل جداً هكذا".

وقفنا في النهاية عند كوخ طريف، أُخْبرنا بأنه سيكون استراحتنا الشخصية عندما أصبح رئيساً للشركة. بعد أن استقرينا، صعدنا أنا ووينفرد وجاسيكا إلى شلالات قريبة. على ارتفاع 8000 قدم شعرنا بالنشاط ثانية بعد اجتيازنا للهواء البارد في لاباز والجبل. تسلقنا منحدراً صخرياً قرب الشلال. راقبنا من خلال الأوراق المزهرة غروب الشمس خلف الجبال عبر الوادي الضيق. من ثم نزلنا وانضممنا إلى مضيفينا في استراحة الكوخ. قدم لنا المكلف بالعناية في تلك الاستراحة طبقاً شهياً من اللازانيا* كان لها مذاق طيب جداً، وكأنها قد وصلت للتو بواسطة ساعٍ من روما.

في المساء ذهبت جاسيكا للنوم وبقينا نحن الأربعة نتحادث، ونشرب كوكتيلاً معداً من خمور مختلفة. كان واضحاً أن رئيس شركة الطاقة وزوجته، تمتعا بعملهما وجولتهما في بوليفيا وكان أيضاً جلياً بأنهما الآن تواقان لأخذي مكان الرئيس وبذلك يتسنى لهما العودة إلى الوطن. رددا على مسامعي محاسن هذا العمل: سنعيش في قصر، نسافر في شوارع لاباز في سيارتنا التي يقودها سائقنا الخاص، وسنكون في حماية حراس شخصيين، ونكون مدللين من طباخينا، خادماتنا، وبستانيينا الخصوصيين، وسنتمتع بحسابات بنكية إنفاقية مستورة لاستضافة وتكريم الأرستقراطية البوليفية. أشاروا بأنني سأكون ثاني أقوى رجل في بوليفيا، بعد رئيس البلاد. وسأكون الأقوى كلما يحدث انقلاب باعتباري أتحكم بإمداد الكهرباء إلى كل من القصر الرئاسي والقواعد العسكرية وستتطلع السي آي إيه إلي في دعم فريقهم المفضل.

بينما كنا مستلقين على السرير، أثنت وينفرد على مشروع الطاقة الكهربائية "لم أر أبداً أي شيء لمقارنته بهذا المشروع، إنني أفكر لو أن باستطاعتك استخدامه كنقطة بداية من أجل نوع من الثورة في تقديم الخدمات في أمريكا اللاتينية. تخلص من هذا الصف البغيض الذي يجب على هؤلاء الهنود أن يقفوا فيه من أجل دفع فواتيرهم، اجعل الكهرباء متوفرة بأثمان

* طبقات من المكرونة محشوة بالجبن ودبس البندورة" (المترجم).

مخفضة يقدر عليها سكان الريف، طوّر مشاريع أكثر مثل هذا الذي شاهدناه اليوم على نهر زونغو بدلاً من الاستعانة بقروض البنك الدولي لبناء محطات الطاقة الكهربائية، ضع شروطاً على الشركة لحماية البيئة".

استمعت بانتباه لما قالته وينفرد. في اليوم التالي وبينما كنت في طريق العودة إلى لاباز وخلال المدة الباقية لوجودنا هناك، فكرت ملياً بهذه الأفكار، وناقشتها في مناسبات عدة مع المدراء التنفيذيين ومهندسي الشركة. كان العديد منهم قد قدموا من الأرجنتين، تشيلي، والبارغواي، بلدان لها تاريخ طويل بالديكتاتوريات العسكرية التي خدمت رغبات حكم تحالف أثرياء المال والشركات. لذلك لم يفاجئني تشاؤمهم. كانت تعليقاتهم رجع صدى لأولئك المهندسين البيروفيين الذين عملوا في شركة الطاقة البوليفية لأكثر من عشر سنوات. علق أحدهم بصراحة: "تنتظر لوكاديا غنائمها مليئة بأكياس النقود".

كلما فكرت بذلك أكثر كان يزداد غضبي. أصبحت أمريكا اللاتينية رمزاً لهيمنة الولايات المتحدة. غواتيمالا تحت حكم آربينز، البرازيل تحت حكم غولارت، بوليفيا تحت حكم استنسورو، تشيلي تحت حكم الليندي، الإكوادور تحت حكم رولدوس، بنما تحت حكم توريجوز، وكل البلدان الأخرى في المنطقة التي كانت تنعم بالموارد التي استولت عليها شركاتنا والتي حكمها قادة وطنيون صمموا على استعمال موارد بلادهم في خدمة شعوبهم، كانت قد سلكت الطريق نفسه. كما أن كل بلد من هذه البلدان قد رأى كيف يتم إبعاد هؤلاء القادة بالانقلابات أو الاغتيالات، ينصب مكانهم حكومات تكون ألعوبة في أيدي واشنطن. لقد قمت بدوري في هذه اللعبة مدة عشر سنوات كرجل اقتصادي مأجور. مرّ عقد من الزمن منذ تركي لتلك الصفوف ومع ذلك مازال يطاردني الشعور بالذنب والغضب. إنني تخليت عن المبادئ التي نشأت على احترامها من أجل خدمة حكم تحالف أثرياء المال والشركات ولتوقي في إشباع رغباتي وشهواتي الشخصية. أحنقني متاجرتي بشرفي ومبادئي، وأغاظني أيضاً شكوكي بأن أية جهود أبذلها الآن لتغيير شركة كشركة الطاقة البوليفية ستكون، على الأرجح، دون جدوى. لكن مع ذلك قطعت عهداً على نفسي في المحاولة.

عندما عدنا إلى الولايات المتحدة، اتصلت بالمدير التنفيذي لشركة لوكاديا الذي كان قد أوكل إليه مهمة أن يعرض علي منصب رئيس شركة الطاقة البوليفية. أبلغته بأنني سأفكر في قبول الوظيفة في حال السماح لي في تحويل الشركة إلى نموذج للمسؤولية الاجتماعية والبيئية. شرحت له الأثر العميق الذي تركه في نفسي مشروع نهر زونغو لتوليد الطاقة الكهربائية، وكيف أن الشركة تتمتع بموقع فريد وقوي لتكون وسيلة تغيير، وعلى هذا الأساس تملك الفرصة لتزويد بعض أفقر شعوب المنطقة بالكهرباء.

بعد وقفة طويلة من الصمت. أبلغني بأن عليه أن يراجع إيان كامينغ. قال: "على كل حال، لا تتوقع الكثير. فمدراؤنا يعملون وفق مصالح مالكي الأسهم. يتوقع من رئيس شركة الطاقة

البوليفية العمل على تحقيق أكبر قدر من الأرباح". بعد وقفة صمت أخرى أضاف: "هل تريد أن تراجع تفكيرك".

أعطت كلماته هذه قوة أكبر لقراري. أجبته: "بالتأكيد، لا، دون أي شك".

لم أسمع منهم بعد ذلك مرة ثانية أبداً.



19 تغيير الحلم

كلما فكرت أكثر حول الاستغلال الذي تتعرض له بوليفيا من الشركات الأجنبية والدور الذي كنت قد لعبته أنا في ذلك كرجل اقتصادي مأجور، كان يزداد غضبي، وأصبح أكثر غماً. فكرت بالعودة إلى لاباز أو إلى كولومبيا أو إلى أحد البلدان الأخرى التي تتكلم الإسبانية والانضمام إلى حركة المقاومة فيها.

لقد دار في ذهني سؤال: لو أن توماس باين موجوداً الآن ماذا كان سيفعل؟ ثم أدركت بأنه بدلاً من أن يحمل بندقية كان سيشهر قلماً.

سألت نفسي كيف لي أن أكون أكثر فاعلية. بدأت الإجابة عن هذا السؤال تتشكل خلال إحدى رحلاتي مع المنظمة غير الحكومية التي عملت في غواتيمالا. كنت أتحدث إلى زعيم مایاني، فقررت العودة إلى إقليم شور في الإكوادور، حيث عملت هناك كمتطوع في فرق السلام منذ أكثر من عشرين سنة. أرى الآن أنني كنت حينذاك مشوشاً، ممزقاً بين ولاءاتي القديمة إلى زملائي الاقتصاديين المأجورين، ضمير آثم، رغبة لفضح الأخطاء التي ارتكبتها، والإدمان على النقيصة التي استفحل انتشارها في مجتمعنا ألا وهي حب المادة فوق كل اعتبار.

كمنت فكرة في مكان ما في ساحة اللاشعور لدي بأن ذهابي إلى إقليم شور في الإكوادور سيساعد على استقامتي.

ركبت طائرة الخطوط الأمريكية إلى كويتو في الإكوادور، وبرفقتي صديقي وناشر كتبي عن "ثقافات السكان الأصليين" ايهود سبيرلينغ. وركبنا طائرة صغيرة من هناك فوق جبال الإنديز إلى مدينة كوينكا. قضينا ليلتين في هذه المدينة التي تقع في أعالي الجبال حيث عشت هناك بعد رحلتي في غابات المطر. بعد ذلك استأجرنا سيارة جيب مع سائقها وغادرنا باكراً جداً في الصباح. رحلنا في طرق جبال تريشيروس المتعرجة باتجاه مدينة ماكاس المحاطة بالأدغال.

كانت رحلة رائعة، تهبط من قمة الأنديز خلال سلسلة غير متناهية من الطرق المتعرجة المنحدرة. كانت هي نفسها الطرق المحفورة التي أتذكرها منذ عقدين سابقين. مجرد منحدرات صخرية ترتفع على أحد جانبي الطريق وممرات ضيقة عميقة لسلسلة من الشلالات الصغيرة في الجانب الآخر.

بضع شاحنات صغيرة صاعدة قادمة من خارج الأدغال أجبرتنا إلى أخذ أحد جانبي الطريق إما قريباً من الجدار الصخري أو من المنحدر في الجانب الآخر. ما عدا ذلك كان الطريق مفتوحاً لنا.

إنه حقاً كان عالماً آخر، بعيد جداً عن حياتنا المعتادة في الولايات المتحدة.

فكرت كيف استطعت أن أتحول إلى رجل اقتصادي مأجور. كان الجواب بسيطاً: حينها كنت شاباً صغيراً ورجلاً محبطاً ترعرع في ريف نيوهامشر. كنت أشتهي الإثارة والمال اللذين كانت تعد بهما الوظيفة. كالسمكة، وقد أغراها طعم مضيء في صنارة صيد من خلال الماء، لقد أكلت الطعم.

قادتنا السيارة حوالي الظهر إلى حي صغير حيث كان الطريق قد انتهى. والآن تابعنا في طريق جديد أقسى، وأوحل، مبلل بالأمطار التي اندفعت من حوض الأمازون باتجاه مدينة ماكاس.

أخبرت ايهود بماذا شعرت عندما زرت ماكاس أول مرة في عام 1969، هذا قادنا إلى الحديث حول الدور الذي لعبه بلدنا في تاريخ العالم.

مثلت الولايات المتحدة الديمقراطية والعدالة حوالي مائتي عام. بيان الاستقلال والدستور ألهم حركات التحرر في كل القارات. قدنا الجهود لخلق مؤسسات عالمية عكست مثلنا ومبادئنا. ازدادت نزعة قيادتنا خلال القرن العشرين إلى تعزيز الديمقراطية والعدالة - ساعدنا في تأسيس محكمة العدل الدولية الدائمة في هيغ، ميثاق عصبة الأمم، دستور الأمم المتحدة، الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والكثير من الاتفاقيات الدولية. ولكن منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية تغير موقعنا القيادي، تقوض النموذج الذي قدمناه إلى العالم بسبب النزعة الجهنمية لحكم تحالف أثرياء المال والشركات في بناء الإمبراطورية. عندما كنت متطوعاً في فرق السلام كنت أعلم بأن المواطنين الأكوادوريين ومواطني البلدان المجاورة كانوا غاضبين على قسوتنا، حائرين بسبب تناقضنا الصارخ في سياستنا. زعمنا بأننا ندافع عن الديمقراطية في أماكن مثل فيتنام وفي الوقت نفسه أسقطنا وقمنا باغتيال رؤساء منتخبين ديمقراطياً.

أدرك طلاب المرحلة الثانوية في كل أمريكا اللاتينية بأن الولايات المتحدة قد أسقطت الليندي في تشيلي، ومصدق في إيران، وآربينز في غواتيمالا، وجولارت في البرازيل، وقاسم في العراق، بينما لم يكن طلابنا في الولايات المتحدة يعرفون بأشياء كهذه.

نقلت سياسات واشنطن رسائل محيرة إلى العالم. ثلمت أعمال وشوهت أقدس وأجل مثلنا.

مارس حكم تحالف أثرياء المال والشركات السيطرة والتحكم بدعم وتمكين حكومات استبدادية فاسدة في أمريكا اللاتينية خلال السبعينات.

اختارت هذه الحكومات سياسات اقتصادية عادت بالنفع على المستثمرين الأمريكيين والشركات العالمية. وبشكل عام انتهت إلى الفشل بالنسبة لاقتصاديات تلك البلدان المحلية: ركود اقتصادي، تضخم مالي، بطالة، وميزان اقتصادي إنمائي سلبي. وعلى الرغم من تعاظم

المعارضة كانت واشنطن تثني على أولئك القادة الفاسدين الذين عملوا على إفلاس بلدانهم وإفقار شعوبهم بينما هم كانوا يكدسون الثروات الشخصية.

ولتجعل الأمور تزداد سوءاً، دعمت الولايات المتحدة اليمينيين الديكتاتوريين وتشكيلهم لفرق الموت في غواتيمالا، السلفادور، ونيكاراغوا.

في الثمانينات اكتسحت القارة موجة من الإصلاحات الديمقراطية. تطلعت الحكومات الجديدة المنتخبة إلى الخبراء في صندوق النقد الدولي وإلى البنك الدولي من أجل حلول لمشاكلها.

أقنعوا بتبني مجموعة "برامج التكييف الهيكلي"، وطبقوا إجراءات لا تحظى بجماهيرية تشمل خصخصة مؤسسات الخدمات العامة، وإلغاء بعض الخدمات الاجتماعية. وقبلوا بقروض كبيرة استخدمت لتطوير مشاريع هيكلية كانت جميعها على الغالب تخدم الطبقات العليا، بينما تترك البلاد تغرق في الديون.

كانت النتيجة كارثية. تدهورت المؤشرات الاقتصادية إلى أعماق جديدة.

فقد الملايين من البشر الذين كانوا يعتبرون طبقة وسطى أعمالهم، وألحقوا بصفوف الفقراء. كانوا يشاهدون التدهور في الضمانات الاجتماعية، معاشاتهم التقاعدية، العناية الصحية والمؤسسات التربوية الثقافية ملاحظين في الوقت نفسه كيف كان ساستهم يشترون العقارات في فلوريدا بدلاً من استثمار هذه الأموال في مشاريع محلية.

لم تصمد الحركة الشيوعية في الخمسينات والستينات ما عدا فيدل كاسترو في كوبا، مع ذلك اكتسحت القارة موجة جديدة من الاستياء والرفض ضد حكم تحالف أثرياء المال والشركات والعملاء الفاسدين في أمريكا اللاتينية.

قبل أن أتوجه وبصحبتي ايهود إلى الإكوادور بأقل من سنة اتخذت إدارة بوش الأب قراراً كان له تأثير سلبي مستمر على علاقات الولايات المتحدة بأمريكا اللاتينية: أمر الرئيس القوات المسلحة بغزو بنما. كان هجوماً من طرف واحد وبلا استفزاز من أجل خلع حكومة رفضت أن تنصاع لشهوات واشنطن في استغلال قناة بنما والتوقيع على معاهدة جديدة.

قتل الغزو أكثر من ألفي مدني بريء وأرسل موجات من الذعر عبر كل البلدان جنوب الريوغراندي. وبسرعة انقلب الخوف إلى غضب شديد.

أمعنت النظر ملياً في هذه الأشياء، وناقشتها مع ايهود في طريقنا بالسيارة إلى ماكاس. سألته فيما إذا فكر بوجود أي بديل لوباء الفساد الذي يعم هذه القارة. قال مؤكداً: "بالطبع يوجد حل، الحل هو جماهير حاشدة تطالب بالتغيير، هذا هو كل ما تحتاجه".

سألني كيف سافرت إلى ماكاس في تلك الأيام حيث لم يكن الطريق قد تحسن بالشكل الذي هو عليه الآن.

"يمكنك أن تخوض في الماء والوحل عبر الأدغال مدة أسابيع. أو يمكنك أن تركب "طائره تعتمد على ساعة التوقيت" من مخلفات الجيش في الحرب العالمية الثانية دي سي . 3. كان ركوب تلك الطائرة عملية انتحار تقريباً، لكن هذا ما فعلته".

"طائرة تعتمد على ساعة التوقيت؟"

"تلك الطائرة لا تستطيع أن تعلو فوق قمة جبل انديز، كان يجب عليها أن تطير على طول وديان النهر. لم يكن هناك أية رادارات. لم يعرف الطيار أبداً متى تبتلعه الغيوم، لذلك حالما أقلع الطيار عن الأرض، غيّر ساعة التوقيت. وبعد ثلاثين ثانية دار عشر درجات إلى اليمين، وبعد خمس وأربعين ثانية أخرى مال خمس عشرة درجة إلى اليسار... كان ذلك مرعباً، وفقد الكثير من الطائرات في تلك الأيام. لكن ذلك كان أفضل وأكثر أماناً من رحلة شاقة ومعقدة عبر الأدغال".

"لذلك أنشؤوا الطريق" صمت برهة، ومن ثم تساءل "لماذا؟" أعطاني حاجباه المقوسان مفتاح الجواب:

"الجماهير الحاشدة؟"

"بالضبط".

طالب الناس بالتغيير وعندما وصل التذمر إلى حد معين، حدث التغيير. في هذه الحالة، فتح التغيير حوض الأمازون لمصلحة التطور التجاري. عرفت بأن تلك الجماهير الحاشدة كانت بشكل كبير متأثرة بشركات النفط.

عند دخولنا ماكاس، رأيت أن الطريق حول مركز الأدغال الهادئ إلى مدن صاخبة مزدهرة. مع ذلك أستطيع أن أتنبأ أنه كلما أصبحنا أكثر إدراكاً بالخطر على مستقبلنا يمكن للجماهير الحاشدة أن تكون الأساس في التغيير والتحول إلى مشاريع تؤكد على السلام والقدرة على مد الناس بأسباب الحياة.

نزلنا في فندق كان يوجد فيه شيئان لم أر أبداً مثلهما في هذه البقعة من العالم: مرحاض إفرنجي ودوش. أضْحَكَ الدوش إيان بسبب وجود مأخذ كهرباء بجانب الحنفية. أكدت له: "من أجل آلة الحلاقة الكهربائية".

أجاب: "لكي تقتل نفسك!"

في صباح اليوم التالي ركبنا طائرة صغيرة. سأل ايهود الطيار عن "ساعة التوقيت" ابتسم باستهزاء وقال: "عمي كان يستعمل واحدة، أما أنا فيوجد معي رادار".

هبطت بنا الطائرة على مدرج موحل يمتد عميقاً في الغابة. تجمع مجموعة رجال من الشور عند حدود أرض مقطوعة الأشجار. كانوا يبدون تقريباً كما كنت أتذكرهم عضلات بارزة، لون أصفر برتقالي، ضاحكين، أناس سعيدون، ما عدا أنهم الآن يرتدون قمصاناً

قديمة وسراويل داكرون وهي نسيج من خيوط صناعية شديدة المرونة أصر عليهم المبشرون ارتداءها للتكفير عن خطيئة العري.

بينما كانوا ينزلون مواداً من الطائرة، كنا قد حملناها معنا، اقترب مني رجل مسن، عندما أعلنت له رغبتي في مساعدة شعبه لإنقاذ هذه الأدغال من الدمار ذكرني بأننا نحن من سبَّبَ هذه المشاكل وليس شعبه. قال لي: "العالم هو كما تحلم به، مواطنوك حلموا بمصانع كبيرة، بأبنية عالية، بسيارات على عدد قطرات المطر المتساقطة في هذا النهر. الآن تستطيع أن ترى بأن هذا لم يكن حلماً بل إنه كابوس".

سألت ماذا يمكن لي أن أفعل للمساعدة.

أجاب: "هذا بسيط، كل ما يجب عليك أن تفعله هو تغيير الحلم.... تحتاج فقط أن تزرع بذوراً مختلفة، علم أولادك أن يحلموا أحلاماً جديدة".

سمعنا خلال اليومين التاليين أشياء مشابهة من أفراد آخرين.

كنا كلانا أنا وايهود متأثرين بحكمة أولئك الناس وتصميمهم على حماية بيئتهم وثقافتهم. بعد عودتي إلى الولايات المتحدة، اقترحت إجراءات لخلق منظمة مكرسة من أجل تغيير الطريقة التي تنظر فيها البلدان الصناعية للأرض وعلاقتنا معها. لم أدرك حينها أنني كنت أسعى إلى عكس العملية التي كنت قد عززتها كرجل اقتصاد مأجور. في النهاية أسسنا منظمة غير حكومية أطلقنا عليها اسم "تغيير الحلم" احتراماً للرسالة التي وصلتني ذلك اليوم في إقليم شور في الإكوادور.

من خلال هذه المنظمة، قمنا برحلات وحلقات دراسية وبرامج عملية. أخذنا الناس ليعيشوا مع معلمين من السكان الأصليين، وجئنا بهؤلاء المعلمين إلى الولايات المتحدة. أنتجنا ونشرنا كتباً، أقراص تسجيل، وأفلاماً هدفت لبناء جسر وردم هوة بين عالمين.

وتأسست نتيجة لإحدى رحلاتنا مؤسسة أخرى غير حكومية تدعى تحالف الباشاماما. جمعت هذه المنظمة الملايين من الدولارات من أجل مساعدة السكان الأصليين في تمويل معاركهم القانونية ضد شركات البترول.

إنني أشكر تجربتي مع شركة الطاقة البوليفية، فأنا الآن أمتهن عملاً آخر.

تكرر سفري إلى امريكا اللاتينية خلال التسعينات وإلى السنوات المبكرة من الألفية الجديدة وقضيت معظم وقتي هناك مع الشعوب الأصلية في الأمازون والأنديز. كنت متأثراً جداً بتعهدهم وعملهم في إدارة وحماية البيئة وبقيمهم الروحية التي تفوقت على أي شيء شهدته في أديان العالم الكبيرة.

بدا هؤلاء الناس على أنهم مصممون على جعل هذا العالم عالماً أفضل.

بصفتي عضواً في هيئة تحالف الباشاماما قابلت محامين وسياسيين وعمالاً في شركة النفط. ذات ليلة وأنا أتناول العشاء مع مجموعة من هؤلاء في كويتو سمعت لأول مرة حول

هوغو شافيز في فنزويلا. كان ممثلو شركة النفط يحقدون على ضابط الجيش هذا الملتهب حماسة، والذي أسس حركة الجمهورية الخامسة ضد حكم تحالف أثرياء المال والشركات، لكن كان السياسيون مفتونين بسحر شخصيته. وكان أصدقائي من السكان الأصليين متشجعين لأن أسلافه كانوا من الهنود والأفارقة والإسبان أيضاً، وبكونه يقف بشكل دائم ضد الأثرياء واعداً بمساعدة الفقراء من أجل حياة أفضل.

20 فنزويلا شافيز

أخذ نجم شافيز بالصعود والشهرة في شباط 1992. عندما كان برتبة مقدم في الجيش الفنزويلي، قاد انقلاباً ضد الرئيس كارلوس اندريس بيريز الذي كان اسمه قد أصبح مرادفاً للفساد، وأغضب شافيز ومناصريه باستعداده لبيع وطنه للبنك الدولي وصندوق النقد الدولي والشركات الأجنبية. وبشكل كبير كنتيجة لعمالة كاراكاس مع الشركات المستغلة، انخفض معدل دخل الفرد الفنزويلي إلى أكثر من 40٪ وما كان يعد سابقاً الطبقة الوسطى الأكبر في أمريكا اللاتينية هبط إلى صفوف الفقراء.

لم ينجح انقلاب شافيز، لكن وضع الأساس لمستقبل عمله السياسي.

بعد اعتقاله سمح له بالظهور على شاشة التلفزيون لإقناع جنوده لوقف الأعمال العدائية. وبتحدٍ أعلن لأمته بأنه فشل الآن في هذه الجولة "Porahora". رفعته شجاعته ليصبح رمزاً وطنياً. سجن لمدة سنتين وخلال تلك المدة خلع الرئيس بيريز. وبزغ نجم شافيز مع شهرته بالإقدام والاستقامة والدفاع عن جماهير الفقراء وتصميمه على تحطيم الأغلال التي وضعها المستغلون الأجانب لقرون عديدة لاستعباد بلده وقارته.

انتخب هوغو شافيز رئيساً لفنزويلا في عام 1998 بنسبة تثير الإعجاب، وحصل على 56٪ من الأصوات. حالما أصبح رئيساً لم يحن هامته للفساد كما فعل سابقوه من الرؤساء. بدلاً عن ذلك كرم رجال مثل آربينز في غواتيمالا، الليندي في تشيلي، توريجوز في بنما ورولدوس في الإكوادور، جميع هؤلاء كانوا قد اغتيلوا أو أسقطوا بواسطة وكالة الاستخبارات الأمريكية سي آي إيه. قال إنه سيسير على خطا هؤلاء، وفعل ذلك برؤيته الخاصة وجاذبية شخصيته والقدرة على الصمود الممنوحة لقائد بلد يفيض بالنفط.

ألهم، انتصاره وتحديه لواشنطن وشركات النفط، الملايين في أمريكا اللاتينية. كان شافيز على العهد بمساعدة فقراء المدن والريف. بدلاً من إعادة حقن صناعة النفط بأموال جديدة، وبمزيد من الأرباح، استثمر الأموال في مشاريع هدفت إلى محو الأمية وإزالة سوء التغذية ومقاومة الأمراض ولحل مشاكل اجتماعية أخرى بدلاً من تعزيز وزيادة الحصص الكبيرة للمستثمرين. ساعد الرئيس الأرجنتيني كيرشنر على شراء مديونية بلاده لصندوق النقد الدولي والتي بلغت أكثر من 10 بلايين دولار، وباع النفط بسعر الحسم إلى هؤلاء الذين لا يقدرون على الشراء بالأسعار الجارية بمن فيهم جماعات في الولايات المتحدة. خصص جزءاً من عائدات النفط لتستطيع كوبا إرسال أطباء إلى المناطق الفقيرة في القارة. صاغ قوانين تعزز حقوق الشعب الأصلي بما فيها حقوق اللغة وملكية الأرض. ناضل من أجل تأسيس منهاج دراسي أفرو- فنزاويلي في المدارس العامة.

رأى حكم تحالف أثرياء المال والشركات في شافيز خطراً مهلكاً. هو لم يتحد شركات البترول والشركات العالمية الأخرى فحسب بل أيضاً كان يتحول إلى قائد جماهيري يمكن أن يحاول الآخرون محاكاته.

رأت إدارة بوش في شافيز وصدام حسين رئيسي دولتين عنيدين، وقد تحولًا إلى كابوسين كان يجب التخلص منهما.

فشلت في العراق الجهود الخبيثة لرجال اقتصاد مأجورين والثعالب العملاء، وكان يجري التحضير في الطريق من أجل حل بديل: الغزو.

في فنزويلا استبدل رجال الاقتصاد المأجورين بالثعالب العملاء، وأملت واشنطن بإمكانيتهم لحل المشكلة.

استخدم تكتيكاً كان قد طبق في إيران، تشيلي، وكولومبيا، دفع العملاء بآلاف الناس إلى شوارع كاراكاس في 11 نيسان 2002، اتجهوا في مسيرة إلى مراكز شركة البترول الحكومية، وتابعوا إلى ميرافلوريس، القصر الرئاسي، وهناك تقابلوا مع متظاهرين مناصرين لشافيز الذين اتهموا قادة المسيرة بالعمالة للاستخبارات المركزية الأمريكية.

فجأة وبشكل غير متوقع أعلنت القوات المسلحة بأن شافيز قد استقال كرئيس دولة وهو الآن قيد الاعتقال في إحدى القواعد العسكرية.

احتفلت واشنطن، لكن كان الابتهاج بالنصر قصير الأجل. دعا الجنود الموالين لشافيز إلى مسيرات مؤيدة ضخمة وإلى انقلاب مضاد، تدفقت حشود الجماهير الفقيرة إلى الشوارع وفي 13 نيسان استعاد شافيز القيادة وتابع رئاسته للبلاد.

قررت التحقيقات الرسمية الفنزويلية بأن الانقلاب كان مخططاً له ومدعوماً من حكومة الولايات المتحدة. اعترف البيت الأبيض عملياً بالمسؤولية، وكتبت صحيفة لوس أنجلوس تايمز "اعترف الثلاثاء موظفو إدارة بوش بأنهم كانوا قد ناقشوا لشهور إزاحة الرئيس الفنزويلي هوغو شافيز بواسطة عسكريين ومدنيين من فنزويلا". لسخرية القدر، قدم غزو العراق في عام 2003 هبة إلى شافيز. ارتفاع أسعار النفط المفاجئ ملأ صندوق الخزينة الفنزويلي، وأصبح التنقيب عن النفط الخام الثقيل ملائماً في منطقة أورنيوكو من البلاد. أعلن شافيز بأنه عندما يصل سعر برميل النفط إلى 50 دولاراً – وبوفرة النفط الخام الثقيل – ستتفوق فنزويلا على كل الشرق الأوسط لتصبح البلد الأول في احتياطي البترول. قال شافيز بأنه استند في هذا التحليل على تقديرات إدارة الطاقة في الولايات المتحدة الأمريكية.

كانت بقية أمريكا اللاتينية تراقب عن كثب لترى كيف ستتعامل إدارة بوش مع شافيز بعد فشل محاولة الانقلاب ضده. الذي شاهدوه هو رئيس للولايات المتحدة وجل ومروّع.

أدرك البيت الأبيض بأنه يجب عليه أن يحسب خطواته بحذر.

تحتل فنزويلا المرتبة الثانية في تزويد الولايات المتحدة بالبترول ومشتقاته. (المرتبة الرابعة في التزود بالنفط الخام). حقول البترول الفنزويلية أقرب بكثير من تلك التي في الشرق الأوسط. ومن خلال ملكيتها لشركة سيتكو كان تأثير فنزويلا كبيراً على الكثير من الأمريكيين، عمال، سائقين، وعلى عدد كبير من الشركات التي تبيع أو تشتري من سيتكو. بالإضافة إلى أن كاراكاس كانت حليفنا في كسر الحظر على بيع النفط الذي فرضته أوبك في السبعينات.

كانت خيارات إدارة بوش بالتدخل العسكري محدودة نتيجة الحرب في العراق وأفغانستان، والانهيار في عملية السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وتعاظم انهيار شعبية العائلة المالكة في السعودية، والمشاكل السياسية في الكويت، والعسكرة الإيرانية. وأعطى أيضاً الانتصار الساحق الذي حققه لويز إيناكيو "لولا" داسيلفا في البرازيل عام 2002 زخماً جديداً للحركات الوطنية.

أسس لُولاً حزب العمال التقدمي في عام 1980 وكسياسي كان له تاريخ طويل في النضال من أجل الإصلاح الاجتماعي نادى لتكريس الموارد الطبيعية للبلاد من أجل مساعدة الفقراء، وأصر على مراجعة وتدقيق ديون البرازيل لصندوق النقد الدولي وادعى بأن هذه الديون غير قانونية.

بعد انتصاره بالانتخابات حائزاً على أكثر من 60٪ من الأصوات انضم لولا إلى شافيز في الموجة الجديدة التي اكتسحت المنطقة كأحد الزعماء الأسطوريين الأحياء في القارة. وكانتشار النار في الهشيم انتشر النبأ ووصل إلى أبعد القرى على قمة الأنديز وإلى داخل أعماق غابات المطر بأن هؤلاء الذين حُرموا في الماضي من حقوقهم الشرعية كانوا الآن في طريقهم إلى السلطة. تشجعت أمريكا اللاتينية، ورأت شعوبها أول مرة في التاريخ الحديث أن الفرصة سانحة ليخرجوا من تحت نير هيمنة الولايات المتحدة.

تأثرت بشكل خاص اثنتان من بلدان أمريكا اللاتينية بنجاح شافيز ولولا، وهما الإكوادور وبوليفيا واللتان يعيش فيهما عدد كبير من السكان الأصليين، ويملكان موارد من النفط والغاز كانت محطة شهوة حكم تحالف أثرياء المال والشركات. كما أنهما أيضاً من البلدان التي يوجد لي فيها علاقات وصلات شخصية قوية.

21 الإكوادور: خيانة الرئيس

وصفت في كتابي "اعترافات رجل اقتصاد مأجور" علاقتي مع جيم رولدوس أكويليرا المدرِّس في الجامعة والمحامي والذي أصبح في عام 1979 أول رئيس منتخب ديموقراطياً للإكوادور بعد صف طويل من الديكتاتوريين المدعومين من حكم تحالف أثرياء المال والشركات. حالما بدأ عمله كرئيس للبلاد احترم عهوده وبدأ بالوفاء بوعوده الانتخابية بكبح جماح أطماع شركات البترول واستخدام الموارد الطبيعية لمصلحة فقراء البلاد. شعرت بالخوف عليه حينها لكونه لم يذعن لرغبات رجال الاقتصاد المأجورين وهذا سيجعله هدفاً للثعالب المرتزقة.

مخاوفي كانت في محلها. في 24 أيار 1981 مات رولدوس بحادث تحطم طائرة.

تصدرت الصفحات الأولى من الصحف اللاتينية أخباراً تحت عناوين رئيسية مثل "اغتيال من الـ سي آي إيه".

الآن وبعد عقد من الزمن بدا أن الأوضاع في البلاد كانت مختلفة لكن السياسات لم تتغير. بعد رحلتي برفقة إيهود إلى الشور، وتشكيل منظمة تغيير الحلم، وتحالف الباشاماما، أصبحت أكثر إدراكاً للاضطراب الذي كان يتخمر تحت السطح في التسعينات. تخلص العملاء من رولدوس، لكن لم تفعل الولايات المتحدة شيئاً لإيجاد حل للمشكلة الحقيقية.

عندما أصبحت الإكوادور في المرتبة الثانية في تصدير النفط إلى الولايات المتحدة (بعد فنزويلا)، اتسعت الهوة بين الأغنياء والفقراء، وزاد تخريب البيئة وإهمال الثقافة والتعليم، وتدهورت العناية الصحية والخدمات الاجتماعية الأخرى.

أشد ما تأثر بتدهور هذه الأوضاع هم السكان الهنود، سكان البلاد الأصليون. حاولت الحكومة وشركات البترول أن تجبرهم على النزوح من أرضهم، وإذا رفضوا الرحيل كانوا يشاهدون كيف كانت أشجارهم تستبدل بهياكل معدنية ومضخات لرفع البترول وكيف كانت أنهارهم تلوث وتغطى بالنفايات.

أخذت الضغوط أشكالاً مختلفة. كان أحد هذه الضغوط يوضح لما يجري. فعندما كنت في زيارة للأمازون أبلغني أحد الشبان من الشور اسمه توندام بأنه يفكر بمغادرة المنطقة. شرح لي: "إنني أتكلم اللغات بشكل جيد، خبراء شركات البترول قالوا لي ذلك. سيرسلونني إلى المدرسة لتعلم الإنكليزية وبعد ذلك سيدفعون لي مرتباً جيداً مقابل العمل معهم".

ثم قطب حاجبيه "لكنني قلق، تسينتساك فعل الشيء نفسه. الآن اسمه جوول، وليس تسينتساك. طلبوا منه أن يكتب مقالات صحفية ضدك وضد منظماتكم تغيير الحلم والباشاماما وضد الآخرين الذين حاولوا مساعدتنا في خلافنا مع شركات البترول. طلبوا

منه أن يدعي بأنه ممثل منتخب عن الشور وليوقع أوراقاً بصفته هذه تعطي أرضنا للشركة. وعندما حاول أن يرفض قالوا له بأنهم سيضعونه في السجن".

"ماذا فعل؟"

"ماذا كان يستطيع أن يفعل؟ يكتب تلك المقالات، ويوقع على تلك الأوراق".

سألت تاندوم فيما إذا كان يريد أن يحصل له ذلك.

هز كتفيه "أريد تعلم الإنكليزية، وكسب المال الكثير".

مدَّ ذراعيه باتجاه الغابات "كل هذا يختفي. أخبرنا المبشرون بأنه يجب علينا أن نصبح أكثر عصرية، لا يمكن أن نعيش كصيادين بعد الآن".

مثل هذه القصص قوت عزيمتي لمساعدة الشور وجيرانهم، الهوراني، أنشور، كيشوا، شيوايارا، وزاباره.

مأزق هؤلاء الناس أيضاً أثار اهتمامي بالانتخابات الرئاسية في الإكوادور.

منذ رولدوس ولأول مرة ظهر مرشح رئاسي فكّر جدياً بقضايا وهموم الشعب الأصلي بينما وفي الوقت نفسه وقف ضد شركات البترول الكبيرة.

كنت في شل، المدينة التي تقع في الأدغال والتي سميت على اسم شركة البترول، منتظراً لأركب الطائرة إلى إقليم شور وبرفقتي مجموعة من منظمة تغيير الحلم، كان ذلك في اليوم المقرر نفسه لزيارة مرشح الرئاسة لوسيو غوتييريز للمنطقة.

إلى ذلك الوقت كان غوتييريز قد شكل تحالفاً فريداً يشمل القوات المسلحة الإكوادورية وأقوى منظمات الشعوب الأصلية. دعمته القوات المسلحة لأنه كان واحداً منهم، كولونيل متقاعد من الجيش ودعمه السكان لأنه رفض إعطاء الأوامر لجنوده في مهاجمة تظاهراتهم عندما اقتحموا القصر الرئاسي في عام 2000 مجبرين الرئيس جميل معهود للتخلي عن رئاسته. بدلاً عن ذلك، أقام الكولونيل مطابخ عسكرية لإطعام المحتجين، ومن ثم سمح لهم باحتلال مقر الهيئة التشريعية. عدم إطاعة غوتييريز لأوامر رئيسه ساعد على إسقاط رجل كان مكروهاً من الفقراء بسبب دعمه الصريح لسياسات صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، ومن ضمن هذه السياسات دولرت العملة الوطنية الإكوادورية "اي احلال الدولار محل العملة الوطنية الاكوادورية". كان لهذا العمل عواقب سلبية وخيمة على كل مواطن إكوادوري ما عدا الأغنياء منهم الذين كانوا يستثمرون أموالهم في حسابات في البنوك الأجنبية وفي الأسهم في وول ستريت والعقارات في الخارج.*

---

* – كان تحويل العملة الإكوادورية "السوكر" إلى الدولار قضية سياسية. لم تكن فقط نسفاً للعزة الوطنية، بل أيضاً كانت تعني بأن من كان لديه من الإكوادوريين حسابات بنكية بالدولار قد حقق أرباحاً كبيرة بين يوم وليلة بينما شاهد بقية السكان كيف انهارت أية ودائع نقدية كانوا قد جمعوها. عندما تسلم جميل معهود الرئاسة في 1998 كان الدولار يساوي 6500 سوكر، في عام 2000 كان سعر الصرف الرسمي للدولار يساوي 25000

بدت مدينة شل مكاناً مناسباً للمرشح الرئاسي لمقابلة الناس من منطقة الأدغال. قطعت المدينة من الغابة منذ عشر سنوات من أجل إقامة محطة لعمليات النفط. قاومت جماعات السكان الأصليين ذلك وكانت المقاومة تأخذ أشكالاً عنيفة أحياناً.

أرسلت كويتو وبدعم من البنتاغون آلاف الجنود، وأقاموا قاعدة عسكرية كبيرة تبدأ من مركز المدينة، وتمتد لتصل إلى حدود الغابات، كانت الطرق المعبدة لهذه القاعدة العسكرية نادرة في هذا الجزء من العالم واحتوت أبنيتها على أعقد أجهزة التنصت على الأرض. قيل بأن اختصاصي الاتصالات من الولايات المتحدة ومن الإكوادور، وهم جالسون في مكتب قرب الشارع الرئيسي في مدينة شل يستطيعون أن يتنصتوا على محادثات تعقد في كل مجلس من مجالس الهنود في أعلى وأبعد مناطق الأمازون. كثرت الإشاعات حول مجموعة من المبشرين الذين يقبلون ملايين الدولارات من المؤسسات الوقفية الممولة من شركات النفط مقابل زرع ميكروفونات مخفية في سلال الطعام وفي صناديق الأدوات الطبية التي كانوا يوزعونها بسخاء على الناس. وفي كل مرة كان مجلس القبيلة يقرر إرسال محاربين من أجل تعطيل مخيم للنفط، كانت وحدات الجيش المعززة بالطائرة المروحية تخرج من مدينة شل لتصل إلى هناك أولاً.

في ذلك اليوم المقرر لزيارة غوتييريز للمنطقة، تجمع الناس في الشوارع الموحلة آملين بمصافحة مرشح الرئاسة. كان زعماء الشور يرتدون تيجاناً تقليدية من ريش طائر الطوقان وبينهم جنود القوات الخاصة من الولايات المتحدة في قبعاتهم الخضراء، عمال تنقيب، ومغاوير إكوادوريون. كان جواً احتفالياً، وضعت الأحقاد القديمة جانباً. بدا أن سلاح الفرسان والهنود قد تعاهدوا على المضي قدماً جنباً إلى جنب لإنقاذ أمة غرقت لسنوات في فوضى الفساد، والتضخم، والاستغلال.

جاءت زيارتي لمدينة شل بعد بضع شهور من 11 أيلول 2001. هذه الحادثة المأساوية بالإضافة إلى فشل إدارة بوش في زعزعة الثقة بشافيز وإسقاطه كان لهما تأثير كبير على الحملة الانتخابية الرئاسية في الإكوادور.

جسدت رسوم كرتونية في إحدى الصحف موقف السكان المحليين، رسوم مبنية على أساس فكرة غريبة قديمة، تصوّر رجلين متقابلين في مبارزة بالمسدسات:

يظهر الرسم الأول شافيز مرتدياً قبعة راعي بقر، وتتدلى قرابة من على خصره تحوي مسدساً، ويقوم بدورية جيئة وذهاباً في شوارع المدينة. الرسم الثاني احتوى على جورج بوش

سوكر، هذا يعني أن من كان يملك ما قيمته دولاراً واحداً من السوكر منذ سنتين يملك الآن 26 سنت، 0.26 دولار، بينما الرجل الثري بما يكفي أن يكون لديه حسابات بنكية بالدولار في مصرف خارجي قد ازداد غنى نسبة إلى السكان المحليين بمقدار 400٪. كان هذا تغييراً ثابتاً بينما كان السوكر يسحب من التداول ليحل محله الدولار.

يحمل مسدساً خارجاً لمواجهة شافيز. الرسم الثالث يصور شافيز من الخلف وهو يقف في مواجهة بوش الذي كان وجهه في حالة من العزم والعنف. كان خلف رئيس الولايات المتحدة طيف لصورة برجين تضطرم فيهما النيران.

في الرسم الأخير كان شافيز منقلباً على عقبيه من الضحك بينما كان بوش يولي الأدبار، يعلو الغبار من تحت قدميه وقبعته ملقاة على الأرض وغوتييريز يتكئ على جدار حانة مصفقاً.

على الرغم من وصول طائرتنا ووجوب مغادرتنا مدينة شل قبل مشاهدة غوتييريز، لكن تلك الزيارة القصيرة ساعدتني على الفهم بنحو أفضل لماذا كانت هذه الانتخابات مهمة جداً لسكان الإكوادور الأصليين، إن هؤلاء مثل أخوانهم في بوليفيا والبرازيل وفنزويلا عانوا لقرون من الاستغلال الأجنبي، وأنهم الآن مصممون على إنهاء هذا الظلم.

انتخب غوتييريز رئيساً للإكوادور في تشرين الثاني عام 2002. دهش السكان الأصليين بانتصار مرشحهم. لم يكونوا يتوقعون ذلك وإنما توقعوا مزيداً من الأوقات العصيبة.

قالت إذاعة بي بي سي:

"الانتصار الذي حققه قائد انقلابي سابق لوسيو غوتييريز... هو إلى حد بعيد استمرار لنهج زعيم حزب العمال البرازيلي، لُولاً، ومذكراً بانتخاب هوغو شافيز في فنزويلا. انتصر كل واحد من هؤلاء الرجال في انتخابات ديمقراطية طارحين برامج تنادي بالتغيير ومعايير جديدة في التفكير الاقتصادي والقضاء على الفساد... في الجولة الانتخابية الأولى الشهر الماضي فاجأ غوتييريز الجميع بتصدره قائمة المرشحين، وحصوله على العدد الأكبر من الأصوات، الفضل في ذلك كان للأصوات المتعاظمة المنادية بالتغيير.... لكن في بلد يرزح تحت أعباء الديون الهائلة ومستوى الفقر يبلغ حوالي 60% ونظام سياسي غير مستقر لا يمكن التنبؤ به، يبدو أن الرئيس الجديد تنتظره مشاكل مكدسة على نحو ثقيل تعمل ضده".

بعد تسلُم الرئيس الجديد مقاليد السلطة، خلال الشهر الأول من رئاسته زار واشنطن ليقابل الرئيس بوش، استضاف موظفي البنك الدولي في كويتو، وبدأ مفاوضات مع شركات البترول. في الوقت نفسه العلاقات بين الشركات ومنظمات السكان الأصليين تزايدت حدة.

في كانون الأول عام 2002، سي جي سي (شركة أرجنتينية) اتهمت مجموعة من سكان الأمازون بأخذ فريق من عمالها كرهائن، وقالت إن محاربي الأدغال كانوا قد تلقوا تدريباتهم على أيدي القاعدة.

بعد ذلك ظهرت حقيقة مروعة: لم تكن شركة البترول قد استلمت إذناً حكومياً ببدء عمليات الحفر ومع ذلك ادعت بأن لها الحق في التجاوز على أراضي السكان الأصليين، أكد السكان الأصليون بأنهم ببساطة احتجزوا فريق شركة النفط لمدة تكفي لضمان مرورهم الآمن خارج الأدغال.

سافرت إلى الأكوادور مرة ثانية في بداية عام 2003. عندما وصلت إلى كويتو اكتشفت بأن الكثير من الأكوادوريين كانوا مقتنعين بأن غوتييريز كان يعقد صفقات سرية مع شركات البترول. وقد وافق على مجموعة "برامج التكييف الهيكلية" المطروحة من البنك الدولي وصندوق النقد الدولي. انتشرت في المدينة صورة لغوتييريز ممسكا يدأ بيد مع الرئيس بوش.

زعماء السكان الأصليين أثار سخطهم الشديد اتهامهم بأنهم كانوا منضمين إلى منظمة إرهابية إسلامية، وأشاروا إلى أنه إذا أجبرتهم سياسات غوتييريز على قتال مرتزقة شركة البترول ستحقق هذه الإشاعة ما رمت إليه شركة البترول وبذلك تأتي الأحداث وفقاً لمتطلباتها في صراعها معهم. أخبرني أحدهم "في الماضي عندما كان الناس يشعرون بالخطر من الولايات المتحدة كانوا يستطيعون طلب مساعدة روسيا لهم في إمدادهم بالسلاح والتدريب. الآن لا يوجد أحد ما عدا هؤلاء العرب".

استمرت الأوضاع بالتدهور خلال عام 2004. وتكاثرت الإشاعات حول فساد الحكومة والأرباح الفاحشة التي تحققها شركة البترول. من ثم اتخذت الحكومة إجراءات تذكر بتلك التي كانت قد تبنتها بوليفيا تحت ضغوط من البنك الدولي؟ وفقاً لأسوشيتدبرس "تلاشت نزعة الميل اليساري للرئيس غوتييريز في العمل لمصلحة جمهور الناخبين وذلك بعد أن بدأ بتطبيق إجراءات تقشفية متضمنة تخفيض الإعانات الحكومية في المواد الغذائية والمحروقات لإرضاء الدائنين الدوليين".

عندما هددت المحكمة العليا في الإكوادور بالتدخل في سياسات الرئيس، أعطى غوتييريز أوامره بإعادة تشكيلها وفي الجوهر حلها. اندفع الإكوادوريون إلى الشوارع مطالبين بتنحي الرئيس. قال لي جواكين يامبيرلا أحد زعماء السكان الأصليين: "يجب على غوتييريز الرحيل، لقد انتخب ديموقراطياً لكنه أخل بوعوده للناس، تتطلب الديمقراطية الآن بأن نعمل على إسقاطه".

كان الناس يسألونني دائماً من هو الرجل الاقتصادي المأجور الذي أفسد غوتييريز. لم يكن لديهم أدنى شك بأن الرئيس الأكوادوري كان يستسلم إلى مجموعة من التهديدات والرشاوى.

على الرغم من أنني لم أستطع أن أسمي أحداً، لكن توقعت بأنهم كانوا على حق. وكما فصلت في هذا الكتاب لاحقاً، اتصل بي فيما بعد أحد أبناء آوى خدام شركات الاستغلال وزعم بأنه هو ذلك الرجل بعينه.

على الرغم من تلك الأوضاع في الإكوادور كان البوليفيون يعيشون أوضاعاً مختلفة تماماً.



22 بوليفيا: بكْتلْ وحروب الماء

بدأت بوليفيا القرن الواحد والعشرين - كما الأكوادور وفنزويلا - بالاحتجاجات ضد الشركات الأجنبية التي نهبت موارد البلاد. مظاهرات، مقاطعات، وإضرابات شلت النشاطات التجارية على طول شوارع لاباز والعديد من المدن الأخرى.

على الرغم من أن قادة إيمارا وكويشا كانوا في مقدمة المحتجين لكن هؤلاء السكان الأصليين لم يقفوا وحيدين بل دعمتهم نقابات العمال والمنظمات المدنية.

على غير ما حدث في الإكوادور وفنزويلا لم يكن النفط بل كان الماء هو السبب المباشر في اندلاع الاضطرابات.

خلال التسعينات زاد وضوحاً بأن الماء سيصبح قريباً أحد أهم الموارد الثمينة على هذا الكوكب. أدرك حكم تحالف أثرياء المال والشركات بأن التحكم بموارد الماء، يجعله قادراً على التأثير والتلاعب بالاقتصاديات والحكومات.

تفجرت الاضطرابات في بوليفيا مرة أخرى بسبب سياسات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي في عام 1999 أصرّت هاتان المنظمتان أن تقوم الحكومة البوليفية ببيع شركة المياه العامة في ثالث أكبر مدينة، كوشابامبا، إلى شركة تابعة لشركة بكتل الهندسية العملاقة وذلك كمرحلة أولى من مجموعة "برامج التكييف الهيكلية".

تحت ضغط إصرار البنك الدولي وافقت بوليفيا أيضاً على إقرار التكاليف المترافقة مع توزيع المياه على كل المستهلكين، بصرف النظر عن مقدرتهم على الدفع. قانون يتناقض مع تقاليد السكان الأصليين التي تقضي بأن كل الناس يملكون حقاً طبيعياً أصلياً في الماء بغض النظر عن أوضاعهم الاقتصادية.

عندما سمعت بأن بوليفيا قد وقعت في شرك خدعة الرجل الاقتصادي المأجور، أرهقني الشعور بالذنب، سياسة "كل شخص يدفع" كانت خطوة على طريق إعادة التكيف والهيكلة التي ساعدت على صياغتها في منتصف السبعينات. في ذلك الوقت طبق ذلك بشكل رئيسي على تعرفة الكهرباء وكانت تعتبر فكرة مبتكرة تناقضت مع ما بنيت عليه معظم الخطط المؤيدة لمساعدة المناطق الفقيرة منذ الثلاثينات بما فيها تلك التي تبنتها إدارة كهربة الريف في الولايات المتحدة: إن خطط التزويد بالخدمات مثل الكهرباء، والماء، والصرف الصحي يجب أن تكون مدعومة من الحكومة.

اتباع مثال إدارة كهربة الريف في الولايات المتحدة وتطبيق مثل هذه النظرية قد أثبت فعالية عالية في كثير من البلدان.

لكن رغم تلك النجاحات، قرر البنك الدولي أن يختبر شيئاً مختلفاً بشكل جذري. بصفتي رئيس الفريق الاقتصادي لواحدة من الشركات المكلفة بتشجيع وتعزيز سياسات البنك

الدولي في السبعينات، طلب مني وضع نموذج لمقياس اقتصادي يثبت شرعية "كل شخص يدفع" معياراً اقتصادياً يسهل تبرير كل شيء تقريباً. وكان لدي مساعدون اقتصاديون أكفاء ورياضيون متقدو الذكاء وخبراء ماليون محنّكون: يعني لم يكن هناك أية مشكلة من الناحية الفنية. مع ذلك كانت هناك عقبتان: الأولى كانت العقبة الأخلاقية الواضحة. الثانية كانت عقبة من الناحية العملية، كان هناك تسليمٌ بأن النظرية القديمة قد أثبتت فعاليتها مرة بعد أخرى. لذلك سألت نفسي لماذا التعامل بشكل غير مجدٍ مع هذا النجاح، لماذا المخاطرة بزيادة الفقر والاضطرابات الاجتماعية، وبالتالي لماذا الدفاع عن نظرية "كل شخص يدفع". كان الجواب واضحاً: إن سياسة "كل شخص يدفع" سيحول الشركات الحكومية البيروقراطية إلى بقرة حلوب مربحة ناضجة للخصخصة (كما سأكتشف لاحقاً في بوليفيا في شركة الطاقة البوليفية).

نشأ مفهوم "كل شخص يدفع" من العقلية نفسها التي أدت إلى القروض من أجل "إعادة هيكلة البنية التحتية" التي استفادت منها شركات البناء الأجنبية والأغنياء المحليون بينما لم تترك للفقراء شروى نقير إلا الديون الهائلة.

في رحلة إلى الأرجنتين علمت بسبباً آخراً أيضاً لتطبيق مثل هذه الإجراءات الاقتصادية. "إن هذه البلدان هي الضمان لنا في المستقبل" قال لي ذلك الجنرال شارلز نوبل في عام 1977 بينما كنا في السيارة التي يقودها سائق خلال شوارع بيونس آيريس.

كان "تشك" نائب رئيس شركة ماين (لاحقاً سيُرقّى إلى منصب الرئيس) خريج الأكاديمية العسكرية وست بوينت، ويحمل درجة الماجستير في الهندسة من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا وكان له تاريخ مهني عسكري متميز، فقد خدم في فيتنام كقائد عام لسلاح الهندسة العسكري للولايات المتحدة ورئيساً للجنة نهر الميسيسيبي. كان مسؤولاً في شركة ماين عن دراسات الموارد المائية في الأرجنتين، بما فيها تلك المتصلة بمشروع النهر الكبير لتوليد الطاقة الكهربائية، التي كانت الأرجنتين تقوم فيه بالاشتراك مع الأروغواي، والذي من المقرر أن يصل إنتاجه إلى حوالي 2000 ميغاوات، وسيخلق بحيرة ضخمة جداً ستغرق في المياه المدينة التي يسكنها 22000 نسمة.

"خسرنا الحرب في فيتنام لأننا لم نفهم العقلية الشيوعية. يجب علينا أن نعمل بشكل أفضل كلياً هنا في أمريكا اللاتينية". ابتسم تشك بلطف بشكل غير متوقع من رجل اشتهر بالصرامة "لا تقتنع أبداً بمقولة الاشتراكيين بأنك تستطيع أن تحصل على أي شيء بمجرد تقديمك لوجبة غداء مجاناً، بل لن تحصل إلا على الازدراء وقلة الاحترام. يجب على الناس أن يدفعوا مقابل ما يحصلون عليه. هذه الطريقة الوحيدة التي يقدر الناس فيها الأشياء، إلى جانب إنها تعلمهم الرأسمالية، وليس الشيوعية. انظر إلى ذلك"، أشار إلى بركة ماء في

متنزه كنا نجتازه "الماء هو ذهب ونفط المستقبل، يجب علينا أن نملك أكبر قدر ممكن منه. إن ذلك سيعطينا قوة ونفوذاً".

فكرت حول تشك نوبل بعد أكثر من عقدين، عندما أعلن بأن شركة منفردة قد أعطيت الحق الوحيد لشراء شبكة مياه مدينة كوشابامبا.

حُصر حقّ الاستثمار الخاص بشركة أغواس دل توناري لمدة 40 عاماً. كانت تدار هذه الشركة من شركة تابعة لشركة بكتل العملاقة سيئة الصيت.

إن منح مثل هذه الإجازة في الاستثمار لشركة من الولايات المتحدة يجب أن تجعل الجنرال سعيداً جداً. لكن كان شعور الناس مختلفاً في أمريكا اللاتينية. شركة بكتل الذي مركزها الرئيس موجوداً في سان فرانسيسكو، اشتهرت كمنظمة قادرة على كسب خدمات من كل شخص تقريباً في المناصب العليا. كان تاريخها حافلاً بقدرة الحصول على عقود رابحة من البنك الدولي ومن حكومة الولايات المتحدة. ولأنها شركة خاصة تملكها عائلة واحدة فقط كانت معفاة من فتح دفاترها للتفتيش من لجنة الرقابة والقطع أو من منظمات الرقابة الأخرى ورفضت الشركة بعناد طلبات المنظمات الرقابية. "إذا كانت بكتل تريد هذا المشروع، لا تجهد نفسك بتقديم عرضك" أخبرت بذلك في عدة مناسبات خلال عملي كرجل اقتصاد مأجور من موظفين حكوميين في أندونيسيا، ومصر، وكولومبيا.

بعد فترة قصيرة من زيارتي إلى الأرجنتين برفقة تشك نوبل، قبل دعوتي إلى العشاء في أفخم مطاعم كويتو أحد موظفي العقود الإكوادوريين، كان صديقاً لي منذ أيام عملي كمتطوع في فرق السلام. أفضى إلي بأنه سيسدي لي نصيحة توفر علي آلاف ما سيكلفني ذلك العشاء، قال لي بأن لا أضيع الأشهر التالية في تحضير العروض من أجل مشروع كان هو يعرف أن شركة بكتل اختيرت سلفاً للقيام به.

فرك إبهامه وأصابعه الأربعة ببعضها وقال: "كل شخص سيزداد غنى، أنا، المحافظ، الرئيس، والشباب في سان فرانسيسكو" وكشر بازدراء "ما عداك أنت، والمساكين الآخرون المغفلون الذين يعتقدون بأن هذه هي مجرد عملية مزايدة تنافسية". كان من بين الموظفين والمدراء التنفيذيين السابقين في بكتل أشخاصاً بارزين مثل جورج شولتز (رئيس شركة بكتل وعضو مجلس الهيئة العامة، وزير المالية في إدارة نيكسون، وزير الخارجية في إدارة ريغان)، غاسبر واينبرغر (نائب رئيس شركة بكتل ورئيس الهيئة العامة، وزير الدفاع في إدارة ريغان)، دانييل تشاو (نائب الرئيس التنفيذي ومدير النفقات لممتلكات وأسهم مشاريع شركة بكتل، عضو الهيئة الاستشارية للاستيراد والتصدير في بنك الولايات المتحدة)، ورايلي بكتل (الرئيس التنفيذي العام عضو مجلس التصدير في إدارة جورج دبليو بوش). وكان من أعضاء الإدارة في شركة بكتل أيضاً والد زوجتي، الذي كان قبل أن يتقاعد كبير المهندسين المعماريين، ودُعي بعد تقاعده ليخدم مديراً لمشروع ضخم في شركة بكتل وهو بناء مدن في السعودية.

بدأت زوجتي عملها الوظيفي في شركة بكتل، فكنت أعرف الشركة بشكل جيد ومن زوايا عديدة.

تقريباً، حالما أعطي استثمار الشركة العامة للمياه في كوشابامبا "سيمابا" لشركة بكتل، ارتفعت أسعار المياه بشكل فجائي. استلم بعض سكان مدينة كوشابامبا فواتير المياه بارتفاع أسعار وصلت إلى 300٪. كانت كارثة لسكان المدينة الذين كانوا يعدون من بين أفقر سكان القارة.

أخبرني أحد المسؤولين النقابيين من قبيلة كويشاو، "يريد البيض الشماليون ربحاً أكثر. البوليفيون يموتون عطشاً، قيل لهم بأنهم لا يستطيعون حتى جمع مياه المطر، لأن اتفاقهم مع شركة سيمابا للمياه يتطلب منهم أن يدفعوا لشركة بكتل مقابل الماء الذي يستهلكونه".

ثار مواطنو كوشابامبا. وتعطل كل شيء في المدينة لمدة أربعة أيام. في عام 2000 شكلوا عصابات وهددوا باقتحام مكاتب سيمابا.

أذعن الرئيس هوغو بانزير لطلب شركة بكتل بالحماية، وحرَّك الجيش الذي اشتبك مع المتظاهرين وجُرِحَ العشرات من إيمارا وكويشاو في أعمال العنف التي تلت، وأطلق النار على شاب عمره 17 عاماً فأردي قتيلاً.

تصاعدت الأحداث وخوفاً من ثورة عامة فرض الرئيس بانزير في النهاية قانون الطوارئ، ومن ثم بعد ما أشيع عن لقائه مع موظفي سفارة الولايات المتحدة، أعلن بأنه سيلغي العقد مع شركة بكتل وفي نيسان عام 2000 أوقفت شركة بكتل عملياتها في المؤسسة العامة للمياه "سيمابا" في مدينة كوشابامبا.

احتفل مواطنو كوشابامبا بالنصر. تقارعوا، وتشاركوا كؤوس الماء في الشوارع. شربوا نخب أبطالهم الجدد من قبائل الأيمارا والكويشاوا، وكتبوا، وغنوا الأهازيج منادين ليكون هذا النصر بداية لحقبة جديدة.

من جهة أخرى في الحال كان من الواضح أنهم يواجهون مشكلة عويصة، وجدوا بأنه لم يبقَ أحد يمتلك الخبرة الكافية لإدارة شركة المياه "سيمابا". كان العديد من المدراء السابقين قد أحيلوا إلى التقاعد، أو انتقلوا أو قبلوا في وظائف أخرى.

انتخب الناس هيئة مديرين جديدة، ووضعوا مجموعة من المبادئ والنظم تمثل العدالة الاجتماعية كدليل عمل سيمابا.

أهم أهداف شركة المياه ستكون تزويد الفقراء بالماء، بما فيهم هؤلاء الذين لم يكونوا سابقاً موصولين بالشبكة، إعطاء العمال تعويضات عادلة وكافية، وتشغيل الشبكة بطريقة فعالة بعيداً عن الفساد.

خلال ذلك كله كان ما يزال على الحكومة أن تعالج المشاكل مع حكم تحالف أثرياء المال والشركات. لم تكن شركة بكْتِلْ مستعدة أن تتخلى عن "بقرتها الحلوب". فوضعت سابقة

يمكن لها أن تشجع بلداناً أخرى لاتباع مثال بوليفيا دون قتال. كانت حالة تقليدية تظهر بوضوح استعداد حكم تحالف أثرياء المال والشركات للتلاعب بالقانون الدولي من أجل الوصول إلى أهدافهم.

جندت شركة بكتل إحدى الشركات الهولندية التي تهيمن عليها، والتي تمتلك بكتل معظم الأسهم فيها، وبالاعتماد على اتفاقية استثمار ثنائية بين هولندا وبوليفيا (باعتبار لا يوجد اتفاقية كهذه بين الولايات المتحدة وبوليفيا)، أقامت الشركة الهولندية التابعة لشركة بكتل دعوى على بوليفيا تطالبها بتعويضات بقيمة 50 مليون دولار نصفها من أجل ما فاتها من أرباح نتيجة "مصادرة وتأميم الاستثمار" والنصف الآخر تعويضاً عن الأضرار التي لحقت بها.

هذه قصة لا تصدق من قصص طمع وكيد الشركة التي تم تجاهلها تماماً من وسائل الإعلام في الولايات المتحدة. مع ذلك فقد حظيت بتغطية كبيرة في الإعلام اللاتيني.

وبينما كنت أتابع التقارير المنشورة على مواقعها الإعلامية على الإنترنت كنت دائم التفكير حول الناس في شركة الطاقة البوليفية "كوبي".

تذكرت بأن معظم كبار المدراء التنفيذيين والمهندسين في شركة الكهرباء الشركة الأقوى في بوليفيا والتي تزود القصر الرئاسي ومراكز الجيش بالكهرباء. كانوا مواطنين أجانب (من الولايات المتحدة، وبريطانيا، والأرجنتين، وتشيلي، والبيرو، والباراغواي). أدركت أن هذا الاعتماد على الأجانب كان استراتيجية متعمدة، لتضمن عملياً استحالة تأميم الشركة.

كما أنني اكتشفت أيضاً بأن شركة لوكاديا الأمريكية لم تعد تملك شركة الطاقة البوليفية "كوبي". شركة الكهرباء هذه كانت بيعت، وتم شرائها من الشركات الأجنبية عدة مرات منذ أوائل التسعينات.

لوكاديا وشركات أخرى اشتهرت بتحقيق أرباح طائلة من بيع وشراء شركات أخرى. "البقرة الحلوب" كانت شيئاً جيداً، لكن عملية البيع والشراء السريعة بعائدات ربح عالية كان أفضل، خصوصاً كان هذا يبقي السكان المحليين أقل تأثيراً ونفوذاً. من بين كل هذا الاضطراب وعدم الاستقرار ظهر قادة جدد. نموذج جديد من القادة تحوّل ليصبح نزعة واتجاهاً في أمريكا اللاتينية، ايفو موراليس صعد من بين جماعات السكان الأصليين، أحد نشطاء قبيلة الأيمارا، انضم إلى حزب حركة الاشتراكيين "موفينيتو سوسياليسمو" (ماس). كان صوته قوياً برفض الخصخصة وضد ما أشير إليه بتعابير لطيفة طنانة من مؤيدي الشركات المستغلة. كاقتصاد تحرري أو اقتصاد السوق الحر والإصلاحات الاقتصادية. سياسات ستحرم بوليفيا من القدرة على حماية مزارعيها ومعاملها بينما وفي الوقت نفسه تجبرها على قبول الحواجز والإجراءات في قوانين الولايات المتحدة الموضوعة لحماية الإنتاج الوطني الأمريكي، أدان ايفو موراليس ما دفعت إليه واشنطن لخلق منطقة تجارية حرة

كخطة "تضفي الصفة القانونية على استعمار الولايات المتحدة لبلدان أمريكا اللاتينية".
تصاعدت شعبية ايفو موراليس وانتخب عضواً إلى المجلس التشريعي. بعد ذلك حالاً وصمته الشركات المستثمرة كإرهابي.

وصفته وزارة الخارجية في الولايات المتحدة كـ "مخرب وتاجر كوكايين".

على الرغم من أن موراليس كان جزءاً من حركة كوكاليرو ـ تحالف شركات زراعة نبات الكوكا ـ الذي قاوم جهود الولايات المتحدة لإبادة مزارع الكوكا.

أشار موراليس إلى أن هذا النبات كان يستخدم من سكان الأندين كمواد مساعدة في الحمية الغذائية وكدواء قبل زمن طويل من تحوله إلى كوكايين. وكانت تعالج به الأمراض التي تصيب سكان المناطق المرتفعة وعلاج أيضاً لأوجاع العضلات وآلام الجوع والأمراض الهضمية الأخرى. وكان شاي الكوكا يشرب من العديد من أصحاب المقامات الرفيعة، بما فيهم البابا جان بول الثاني والأميرة البريطانية آن. مع ذلك أجبر موراليس على ترك مقعده في الهيئة التشريعية في عام 2002 بعد اتهامه بالإرهاب. اتهمت الكويشاو والإيمارا الـ سي آي إيه بتدبير إزاحة موراليس. خلال شهور أعلن أن طرده كان غير دستوري.

وجّه سفير الولايات المتحدة مانويل روتشا إنذاراً للبوليفيين "أريد أن أذكر جمهور الناخبين البوليفيين بأنه إذا انتخبتم هؤلاء الذين يريدون أن تكون بوليفيا مصدراً كبيراً للكوكايين مرة ثانية فهذا سوف يكون خطراً في المستقبل على مساعدات الولايات المتحدة لبوليفيا".

بدلاً من نزع فتيل غضب البوليفيين وتهدئتهم عمل روتشا على إشعاله. أعلن موراليس بأن كلام السفير قد ساعد على "إيقاظ وعي الناس" وضع حزب حركة الاشتراكيين "ماس" الملصقات على الجدران في كل مكان، وعليها صورة كبيرة جداً لموارليس، كتب عليها سؤال بأحرف ضخمة: "أيها البوليفيون: أنتم من يقرر: من هو صاحب الكلمة في البلاد، روتشا أم صوت الشعب؟".

جاء حزب حركة الاشتراكيين "ماس" في المرتبة الثانية في الانتخابات الرئاسية عام 2002 بفارق نقطتين فقط عن الحزب الأول.

رفض موراليس التسليم بنتائج الانتخابات والاعتراف بالرئيس الجديد غونزالو سانشيز دي لوزادا المليونير الذي تربى في الولايات المتحدة. وبدلاً من الاشتراك في الحكومة اختار حزب "ماس" أن يكون في صفوف المعارضة. ومثل شافيز بعد فشل محاولته الانقلابية، اشتهر صيت موراليس ودعم موقفه بما ظهر على السطح بأنه هزيمة. أذعن الرئيس سانشيز لطلبات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي. أصدر مرسوماً في عام 2002 يقضي بزيادة كبيرة في الضرائب. وكما يحدث دائماً في مثل ظروف كهذه، هؤلاء الذين لم يكن في مقدورهم أن يدفعوا الضرائب انتهوا إلى أن يتحملوا العبء الأثقل.

ووسط أعمال العنف التي اندلعت، قتل ثلاثون شخصاً، وأدت الحواجز في الطرقات والتظاهرات إلى تجميد البلاد.

خطة سانشيز لتصدير الغاز الطبيعي بأسعار مخفضة إلى الولايات المتحدة وبلدان أخرى بدلاً من توزيعه على المحتاجين في بوليفيا ألهبت جماعات السكان الأصليين أكثر. تصاعدت أعمال العنف ومات عشرون شخصاً في قتال دموي.

أخيراً، أجبر سانشيز على الفرار من البلاد، وهو يعيش الآن في إحدى ضواحي واشنطن. رفضت الولايات المتحدة طلب بوليفيا بتسليمه للمثول أمام القضاء البوليفي.

تحدى البوليفيون البنك الدولي، وهزموا شركة بكتل، المنظمة الأقوى على هذا الكوكب.

الآن، الجماعات الأصلية في البلاد التي كانت قد استُعبدت بوحشية لأجيال عديدة قد بُعثت، كطائر العنقاء، أحياء من رماد حضارتهم المهدمة.

بدا لي بطريقة ما أن الرسالة الحقيقية هنا لم تكن فقط للبوليفيين أو اللاتينيين إنما كانت تعني أيضاً شركة بكتل وبقية الشركات المستغلة الأخرى. كانت رسالة لمصلحة الديمقراطية والعدالة وألهمت الأجيال الشابة في بوليفيا، وفي الولايات المتحدة والعالم.

غالباً ما كنت أجد نفسي مفكراً بما قالته ابنتي جاسيكا بينما كنا نجتاز الممر الضيق لنهر زونغو: "إنني سعيدة بأنهم لم يبنوا سداً كبيراً، ويغرقوا كل هذا الوادي بالماء، إنه جميل جداً".

لم يكن هناك شيء جميل حول أي مظهر من المظاهر الخادعة للسياسة الخارجية الأمريكية والـ سي آي إيه التي صادفتها خلال رحلتي إلى البرازيل ومحاولة واشنطن مقاومة الرسالة التي بعثت من خلال الموجة الجديدة من القادة اللاتينيين.



23 البرازيل: أسرار في الأدراج للابتزاز عند الطلب

في الوقت الذي وصلت فيه إلى البرازيل لحضور المنتدى الاجتماعي العالمي دبليو إس إف في كانون الثاني عام 2005، كانت القارة وصلت إلى حد يمكن أن نسميه ثورة ضد حكم الشركات المستغلة وأثرياء المال. بالإضافة إلى شافيز، ولُولا وغوتييريز كان نيستور كيرتشنير وتاباري رامون فازيكويس قد انتصرا في الانتخابات في الأرجنتين والأورغواي على التوالي. بصرف النظر فيما إذا كان البعض خضع تحت الضغط فيما بعد، جميعهم قام بحملة انتخابية جماهيرية أدانت تدخل الولايات المتحدة والاستغلال من الشركات الأجنبية. الإعلام في شمال أمريكا يستطيع توجيه الإدانة لهم كـ "يساريين"، "أصدقاء كاسترو"، وحتى "شيوعيين". لكن الناس في أفريقيا، آسيا، وأوروبا بالإضافة إلى وسط وجنوب أمريكا، عرفوا أن هذه النعوت كانت في غير محلها إذْ قام كل واحد من الرؤساء الجدد بحملته الانتخابية على أساس وطني مصمم بأن يرى موارد بلاده تستخدم لمساعدة مواطنيها ليخرجوا من ويلات الفقر.

شيء ما استثنائي حصل أيضاً في تشيلي. تقارير منشورة ووثائق حكومية في الولايات المتحدة أعلن عنها حديثاً أثبتت صحة إشاعات كانت متداولة لمدة طويلة بأن إدارة نيكسون والـ سي آي إيه قد نسقوا الجهود مع الشركات الأمريكية والجيش التشيلي لإسقاط واغتيال الرئيس التشيلي المنتخب ديمقراطياً سالفادور الليندي في عام 1973. كانت "جريمة" الليندي أنه احترم وعوده الانتخابية بأن موارد تشيلي يجب أن تكون للتشيليين، وبعد الانتخابات سيعمل على تأميم صناعات النحاس والفحم والفولاذ التي كانت مملوكة من الشركات الأجنبية وتأميم 60٪ من البنوك الخاصة. وكما حدث في إيران، والعراق، وغواتيمالا، وأندونيسيا وفي العديد من الأماكن الأخرى من قبل، دعمت الولايات المتحدة رجلاً ليحل محل الليندي، رجلاً تطابقت شخصيته مع شخصية مستبد متعطش للدماء: الجنرال اغوستو بينوشيت.

الآن وبعد عقدين من الزمن كان المنتدى الاجتماعي يضج بالأخبار بأن المحققين الذين عينهم الكونغرس في الولايات المتحدة والقاضي التشيلي قد كشفوا عن حسابات بينوشيت البنكية لدى بنك ريكز في واشنطن وبنوك أجنبية أخرى ما يبلغ مجموعه على الأقل 16 مليون دولار وأن بينوشيت أخيراً سيمثل أمام القضاء لمحاكمته من أجل مقتل ما يقدر بحوالي ألفي شخص الذين لقوا حتفهم على أيدي وحدات من الشرطة والجيش عملت تحت امرته. سادت الإشاعات أيضاً في المنتدى الاجتماعي العالمي بأن امرأة تشيلية ابنة جنرال في القوى الجوية مات في السجن لمعارضته حكم بينوشيت، كانت احتمالاً قوياً في الانتخابات الرئاسية عام 2005. ميشيل باتشليت كانت قد أثبتت كفاءتها العالية كوزيرة للصحة والدفاع في

تشيلي، لقد برهنت عن وطنيتها وبأنها تملك الشجاعة للوقوف ضد حكم الشركات المستغلة. لو ربحت الانتخابات سيعني هذا أن أكثر من 80٪ في أمريكا الجنوبية قد صوتوا لرؤساء يقفون ضد الشركات المستغلة وضد حكم أثرياء المال، 300 مليون شخص (ما يقارب عدد السكان في الولايات المتحدة) قد اختاروا المرشحين الذين قاوموا إمبراطورية الشمال.

المنتدى الاجتماعي العالمي هو رمز للتغييرات التي اكتسحت كوكبنا. كان قد أسس في بداية الألفية الثالثة كرد على المنتدى الاقتصادي العالمي، حيث كان قادة الحكومات والشركات يتعاونون، ويعقدون الصفقات، ويرسمون السياسات التجارية، وينسقون السياسات الاستراتيجية الأخرى لحكم الشركات والمال.

في كانون الثاني عام 2005 احتشد أكثر من 150000 مشارك من أكثر من 130 بلداً في اجتماعات المنتدى الاجتماعي العالمي الذي عقد في المدينة البرازيلية بورتو آليغري ليناقشوا قضايا اقتصادية، واجتماعية، وبيئية، وسياسية ولصياغة بدائل لأنظمة فاشلة.

الرئيس البرازيلي لولا والفنزويلي شافيز كانا من بين الأشخاص البارزين الذين حضروا اجتماعات المنتدى الاجتماعي العالمي.

كنت قد سئلت من منظمة أهلية سويدية لألقي خطاباً رئيسياً بعنوان: "اعترافات رجل اقتصادي مأجور. ما هو التالي بالنسبة إلى العالم؟"

أقيمت خيمة ضخمة من أجل الخطاب الذي سألقيه. كانت حقوق نشر الكتاب قد بيعت في الكثير من اللغات لكن لم يكن قد نشر بعد. لكن بدا أن ذلك لم يكن مهماً لأن الطبعة الإنكليزية كانت متداولة بشكلٍ واسع.

ملأ الجمهور الذي حضر مئات الكراسي، وامتد إلى خارج مدخل الخيمة. بعد انتهائي من إلقاء الكلمة اصطف العشرات على الميكروفون ليسألوا أسئلة ويبدوا ملاحظاتهم وتعليقاتهم. أنا شخصياً قد تأثرت بشكل خاص بشاب برازيلي شنَّ انتقادات شديدة اللهجة على حكومته، اتهم الرئيس لولا بالخضوع للرجال الاقتصاديين المأجورين والرجوع عن وعوده الانتخابية. كلمته المختصرة ذكرتني بانتقادات مشابهة ضد الرئيس غوتييريز كنت سمعتها في الإكوادور.

فتح خطابي الباب. اقتربت مني مجموعات من الناس من أفريقيا، آسيا، وأمريكا اللاتينية وعدد من الأفراد جميعهم أرادوا أن يشاركوني قصصهم وأفكارهم بالإضافة إلى سماع المزيد مني.

أحد الرجال الذي كان متأنقاً بلباسه أكثر من معظم الحضور أعطاني بطاقة عمل تعرفه كمستشار أعلى للرئيس البرازيلي لولا. طلب مني أن أقابله في متنزه صغير قرب الفندق، أضاف: "الرجاء: ابق هذا سراً، فقط بيني وبينك".

عند الوقت المقرر، تمشيت إلى المتنزه. كنت قلقاً قليلاً، فكرت فيما إذا كنت قد أغضبت الحكومة البرازيلية بطريقة ما. لم أستطع أن أرى كيف فعلت ذلك، مع ذلك أن يقترب مني موظف حكومي كبير ويقابلني بهذه الطريقة السرية بدا ذلك غريباً جداً.

وقفت عند حافة المتنزه لبضع دقائق محاولاً الاسترخاء. صياح الزمامير وموسيقا خشنة عالية تتواتر كقرع طبل يدوي أتت من سيارة كانت تتجاوزني.

انحنيت فوق غصن زهر لأشم عبيره، لكن الرائحة الوحيدة التي كانت هي رائحة عادم السيارة. فكرت حول هذه المدينة. بورتو أليغري هي مركز تجاري، يبلغ عدد سكانها حوالي 1.5 مليون لكن العدد القليل من الناس الذين تحدثت معهم في الولايات المتحدة لم يكونوا سمعوا بها أبداً. استقمت، وتمشيت إلى داخل المتنزه.

"جوسيه" كان يجلس على مقعد تحت شجرة. لقد غيّر قميصه المكوي وبنطاله الفضفاض المتجعد، وارتدى قميصاً رياضياً وبنطال جينز. لبس نظارات كبيرة، كانت تضفي عليه مظهر يعسوب ووضع على رأسه قبعة قش عريضة نزلت منخفضة فوق جبهته. عندما اقتربت، وقف متطلعاً حول المكان بعصبية، وصافحني. قال وهو ما يزال واقفاً "شكراً لقدومك" شرح بإنكليزية غير طليقة بأنه إذا استجوبه أي شخص في المستقبل حول لقائنا سيقول لهم ببساطة بأنه كان يحاول أن يعلم أكثر حولي وحول كتابي الذي كان على وشك أن ينشر باللغة البرتغالية. أضاف: "آمل أن لا تصل الأمور إلى هذا الحد".

أضاف مرة ثانية وهو يلقي نظرة فاحصة على المتنزه: "مع ذلك لا أحد يعلم، هذه الأيام..." انقطع صوته، وأشار إلى المقعد "رجاء".

جلسنا جنباً إلى جنب. استفسر عن بعض الناس في "اعترافات" مركزاً بشكلٍ خاص على الإيرانيان "يامن" و"دوك"، اللذين في 1977، جازفا بتحمل خطر شخصي جسيم على نفسيهما وشاركاني معلومات حول الشاه وتصميم رجال الدين الإيرانيين على إسقاطه، "الشيء الذي حدث بعد سنتين تقريباً".

عبّر جوسيه عن ارتياحه لتأكيداتي بأن الهوية الحقيقية لكل من "يامن" و"دوك" لن تكشف أبداً. قال بأنه يريد أن تصل رسالته إلى الناس في الولايات المتحدة، لكن كان يجب علي أن أضمن سرية المصدر.

دعاني لأخذ ملاحظات طالما أنني لن أكشف عن اسمه. ذكر خلال محادثتنا بأن عمره كان 26 عاماً في الوقت الذي تخرجت فيه من الجامعة عام 1968. أخبرني بأنه قد قرأ كتابي، ويُقدّر عالياً الأشياء التي فضحتها فيه. مع ذلك، قال: "إنها فقط رأس قمة جبل الجليد. أنا واثق أنك تعرف هذا، لكن أشعر بأنني يجب أن أقولها. حتى كتابك يغفل القصة الحقيقية".

وصف جوسيه الضغط الهائل الذي كان يمارس على رئيسه لولا. "ليست هي فقط رشاوى والتهديد بانقلابات أو اغتيالات، أو عقد صفقات وتزييف الخطط الاقتصادية، ليس فقط حول استعبادنا من خلال الديون التي لن نستطيع أبداً الوفاء بها. إنها أبعد وأعمق بكثير من هذا كله".

تابع ليشرح بأنه في البرازيل والعديد من البلدان الأخرى، تتحكم الشركات المستغلة بشكل رئيسي بكل الأحزاب السياسية. "حتى المرشحين الشيوعيين المتطرفين الذين يظهرون بأنهم يعارضون الولايات المتحدة هم مخترقون من واشنطن".

عندما سألته كيف له أن يعلم كل هذا، ضحك، وقال: "إنني لست ابن البارحة، كنت دائماً منهمكاً في السياسة من جونسون إلى بوش، الأب والابن. لقد رأيت كل شيء، إن وكالاتكم المخابراتية ورجلكم الاقتصادي المأجور، أكثر فعالية مما أنت تتخيل". وصف جوسيه كيف أن الطلاب قد استدرجوا بينما هم سذج غير محصنين.

تحدث حول تجاربه الشخصية عندما كان شاباً والطرق التي استخدمت فيها النساء والخمر والمخدرات. "هكذا أنت ترى، حتى عندما يحصل على الرئاسة متطرف معارض للولايات المتحدة ويفترض وبإخلاص أنه يريد عند هذه النقطة بحياته أن يقف في مواجهة واشنطن، تملك الـ سي آي إيه ضده ما يمكن أن تسميه "البينة عليه" "ابتزاز"

ضحك على هذه الكلمة ضحكة خافتة "يمكن لك أن تدعوه كذلك، أو تستطيع أن تسميها "دبلوماسية حديثة". بالطبع، ليس فقط الولايات المتحدة. بالتأكيد لقد سمعت الإشاعات حول لماذا أزيح نورييغا وهو اليوم يقبع في السجن في الولايات المتحدة".

"سمعت بأنه كان يضع كاميرات في جزيرة كونتادورا".

كانت كونتادورا منتجعاً سيء الصيت على الشاطئ البنمي "ملاذاً" حيث كان رجال الأعمال من الولايات المتحدة يستضيفون السياسيين إلى كل رذيلة بالإمكان تخيلها. كنت قد زرت ـ واستخدمت ـ كونتادورا عدة مرات خلال أيام عملي كرجل اقتصاد مأجور.

سألني: "سمعت من وقع في شرك هذه الكاميرات؟"

"انتشرت إشاعات بأن جورج دبليو بوش قد صُوِّرَ وهو يتعاطى كوكايين، ويمارس شذوذاً جنسياً خلال رئاسة والده".

إن هناك نظرية في أمريكا اللاتينية تقول بأن نورييغا استعمل صوراً تجرم بوش الابن وأصدقاء مقربين له لكي يقنع الرئيس بوش الأب ليقف إلى جانب الحكومة البنمية في قضايا مفتاحية. انتقاماً ورداً على ذلك غزا بوش الأب بنما، وجرجر نورييغا إلى سجن ميامي. البناء الذي احتوى على ملفات نورييغا السرية دُمِّرَ بالقنابل، وتحوَّل إلى رماد، نتيجة لذلك القصف فقد احترق حتى الموت 2000 من المدنيين الأبرياء في مدينة بنما في ذلك اليوم في كانون الأول من عام 1989.

ادعى العديد من الناس بأن هذه النظرية تقدم الشرح المنطقي الوحيد لهذا الهجوم العنيف على أمة لا تملك جيشاً، ولا تشكل أي خطر على الولايات المتحدة.

هز جوسيه رأسه "من حيث أجلس الآن أستطيع القول بأن تلك الإشاعات تبدو صحيحة إلى حد بعيد. لقد اكتشفت أشياء تأخذ الشخص إلى دنيا الخيال". مال برأسه: "وتأخذك أنت أيضاً" توقف لبرهة متطلعاً حول المكان: "وقد روعتني". سألته فيما إذا كان لولا قد أفسد ومنذ متى. كان من الواضح أن سؤالي لم يكن مريحاً له. بعد توقف طويل، اعترف بأن لولا كان جزءاً من هذا النظام. "وإلا، كيف له أن يرقى إلى منصب كهذا؟" مع ذلك، اعترف جوسيه بإعجابه بلولا. "إنه واقعي يفهم بأنه من أجل مساعدة شعبه لم يكن له خيار..." ثم هزَّ رأسه وقال "إني خائف من أن واشنطن ستحاول إسقاط لولا إذا ذهب إلى حد بعيد".

"كيف تظن بأنهم سيسقطونه؟".

"كل شخص لديه - كما تستطيع أن تسميها - أسرار في الأدراج للابتزاز عند الطلب - كل سياسي فعل أشياء يمكن أن تبدو سيئة، إذا سلط الضوء عليها بطريقة معينة. كلينتون كان لديه مونيكا. لم تكن هي القضية، على الرغم من ذلك ذهب كلينتون إلى حد بعيد في جهوده لتعديل تداول العملات العالمية وقد كان يشكل خطراً كبيراً على مستقبل الحملات الانتخابية للجمهوريين - كان فقط شاباً نشيطاً، فعالاً، وذا شخصية جماهيرية جذابة. لذلك سارت مونيكا إلى مركز الضوء. ألا تعتقد بأن بوش لديه بضع نساء بعيداً عن الأضواء؟ لكن من يجرؤ على التحدث عنهن؟ لولا لديه أسرار أيضاً. إذا أرادت القوى التي تدير إمبراطوريتكم أن تسقطه فسوف يفتحون أدراج الخزن. يوجد طرق عديدة لاغتيال قائد يشكل خطراً على هيمنة الولايات المتحدة".

نظر إليَّ نظرة سأتذكرها بعد عدة شهور عندما استقال أربعة موظفين حكوميين كبار من حزب لولا وسط اتهامات بأنهم قد كانوا وراء خطة لدفع ملايين الدولارات إلى أعضاء الهيئة التشريعية مقابل أصواتهم، وقد بدا حينذاك وكأن عمل لولا السياسي سينتهي نتيجة لهذه الفضيحة.

رداً على سؤالي حول كيف يمكن كبح جماح الإمبراطورية، قال: "من أجل هذا ألتقي بك الآن. أنتم فقط في الولايات المتحدة تستطيعون تغيير ذلك. إن حكومتكم خلقت هذه المشكلة، ويجب على شعبكم حلها. يجب عليكم أن تصروا على واشنطن أن تحترم عهودها من أجل الديمقراطية، حتى حين يؤمم القادة المنتخبون ديمقراطياً شركاتكم الفاسدة. يجب أن تمسكوا زمام أمور شركاتكم وحكومتكم. يملك الشعب في الولايات المتحدة قوة كبيرة. يجب عليكم أن تتشبثوا بهذا. لا يوجد هناك أي بديل. نحن في البرازيل أيادينا مقيدة، وكذلك الفنزويليون والنيجيريون. إن هذا واجبكم".

شعوري بالنشاط نتيجة القبول الذي لاقاه كتابي والكلمة التي ألقيتها أمام المنتدى الاجتماعي العالمي قد انقبض بمحادثتي مع جوسيه.

أصبحت أكثر غماً، وأنا أتمشى هائماً في شوارع مدينة بورتو آليغري. أعتقد أن شعوري جعلني مكشوفاً وغير محصن تجاه المرأة البرازيلية التي ادعت بأنها صحفية.

24 كاريوكا الجميلة

استرعى انتباهي وأنا ألقي كلمتي، امرأة كانت تجلس في الصف الأول القريب من المنصة. كان شعرها الأحمر الداكن ينسدل على كتفيها، وكشفت تنورتها القصيرة مفاتن ساقيها. ومن وجنتيها العاليتين كنت أستطيع القول بأن دماً هندياً أحمر كان يجري في عروقها بدت وكأنها تخصني بابتسامتها. كل هذا جعلها أكثر جاذبية وجمالاً متميزاً حتى في هذا البلد المشهور بجمال نسائه.

بعد نهاية خطابي، كانت أول من وصل إلى المنصة. صافحتني بحرارة، وقدّمت لي بطاقة عليها اسمها، بيتريز موتشالا. قائمة بأسماء عدة مجلات، وعنوان في مدينة ريو دي جانيرو. قالت: "يجب أن أجري مقابلة معك. ببساطة، يجب أن يعرف قرائي عنك المزيد. إنني إسبانية الأصل أرجنتينية المولد" ضحكت وأضافت "لكن كاريوكا قلباً وقالباً".

أيقظت في كلماتها وطريقة تعبيرها، شعور الاحتراس.

الكاريوكات، هن نساء من ريو دي جانيرو، كن أسطورة بقدرتهن على إمتاع الرجال. لكن الانطباع الأول الذي أخذته عن بيتريز كان مختلفاً. ربما كان ذلك بسبب جلوسها المتعمد في الصف الأول ووقفتها المميزة والثياب التي ترتديها، أو لأنها كانت جميلة بشكل ملفت للنظر. شعرت غريزياً بالحذر، فاعتذرت، وقلت لها بأن برنامجي مليء، ولا وقت لدي.

تذكرت فيما بعد في ذلك اليوم ما رواه لي عميل من الـ سي آي إيه حول محاكمة كلينتون ومحاولة عزله. كانت روايته تتطابق مع الأشياء التي وصفها جوسيه.

"أعطيت ليندا ترب مهمة إسقاط كلينتون الذي خافت منه الشركات الكبيرة كإصلاحي يُشَكِّل خطراً عليها. كما تعرف، رجال مثلي يبحثون دائماً عن "أبرياء" لكي يقوموا لحسابنا بأعمال غير شريفة. خطر أقل ولا وجود لدليل. وجدت ليندا الشخص البريء في مونيكا لوينسكي. قالت لمونيكا: 'بل المسكين لا يحصل على الاهتمام والحب والحنان في البيت. يمكن لك أن تسدي إليه خدمة'، والبقية أنت تعرفها".

اقتربت مني بيتريز عدة مرات في ذلك اليوم بينما كنت ألتقي بمجموعات من أفريقيا وأوروبا ولكن بقيت مُصراً على موقفي. ولدهشتي التقينا مرة ثانية بينما كنت أتجول حول المدينة مبهوراً بما كنت قد سمعت من جوسيه. أعطتني بطاقة أخرى، لكن هذه المرة كانت أقل إصراراً، ربما كانت قد أحست بحالتي العاطفية بعد حديثي مع جوسيه. أو تأذت مشاعرها لتعرف بأن جدول أعمالي لم يكن مليئاً. فقد كنت أتنزه في الخارج. هذا جعلني أشعر فيما بعد بالذنب. لماذا كنت مرتاباً إلى هذا الحد؟

بعد ذلك كان من الصعب علي أن أخرجها من دائرة تفكيري. كان من المفترض بعد نقاشي مع جوسيه أن أكون أكثر تيقظاً. لكن، في الواقع، كان ذلك له مفعول معاكس. شعرت بثبط الهمة ووهن العزيمة. وأنا الآن أُوَبِّخُ نفسي لأني لم أوافق على المقابلة.

ربما كل ما كنت أحتاجه فقط هو قضاء وقت مع امرأة جميلة. وبعد كل هذا أليست هي صحفية؟، وأنا، ألم آت إلى البرازيل لأنشر ما احتوى عليه كتابي؟ ماذا يمكن أن يحدث من ضرر لمجرد مقابلتي معها؟

شعرت بالارتياح لأجد بأنها وضعت رسالة لي عند عامل الاستقبال في بهو الفندق. اتصلت بها، واتفقنا على أن نلتقي في المساء في الفندق الذي تنزل فيه. في مكان عام وهو ردهة الفندق.

جلسنا أنا وبيتريز قرب المدخل الرئيسي لفندق بلازا. بدلاً من التنورة القصيرة كانت تلبس بنطال جينز من الماركات المعروفة. طلبت مني أن تجري المقابلة باللغة الإسبانية، شارحة بأن إتقانها الإنكليزية كان أقل من إتقاني الإسبانية. وستترجم المقالات إلى اللغة البرتغالية، وتنشرها في كل من الأرجنتين والبرازيل.

أخبرتني قليلاً عن نفسها، ونشأتها في الأرجنتين، وأخبرتها عن بعض تجاربي في بيونس آيريس. مَزَحَتْ حول المصاعب التي تلاقيها لكونها امرأة أرجنتينية وسط جمال نساء ريو دي جانيرو. بعد حوالي 15 دقيقة طلبت مني الإذن لكي تستعمل مسجلة صوت. وافقت على ذلك أخرجت واحدة من حقيبة يدها، وضعت الميكروفون على الطاولة بيننا، وسألتني عدة أسئلة حول رجال الاقتصاد المأجورين. ومن ثم فحصت المسجل، أرجعت الشريط، واستمعت إليه بسماعات أذن، قدمته وهزت رأسها "يوجد ضجة كبيرة في الشريط". وضعت يدها في حقيبة اليد ونبشت بداخلها، أخرجت قلماً ودفتر ملاحظات، سألتني معتذرة لكي أعيد عليها إجاباتي، ففعلت ذلك.

عندما انتهينا، جلست إلى الوراء مسترخية في مقعدها، عضت على نهاية قلمها، وذكرت كتبي السابقة حول ثقافات السكان الأصليين. "يحتاج قرائي أن يعلموا بشكل أفضل حول الناس الذين يسكنون في غاباتنا الشاسعة. هل لنا أن ننتقل إلى ذلك الموضوع؟"

مثقلاً بالمحادثات حول رجل الاقتصاد المأجور، رحبت بهذه الفرصة لمناقشة كتاباتي المبكرة. نظرت إلى المسجل نظرة كئيبة، وقالت: "أرغب في تسجيل هذا على الشريط، ما رأيك بالابتعاد عن هذه الضجة؟ غرفتي قريبة، تقع في الطابق الأول". عند ذلك كنت قد تورطت بفكرة مناقشة ثقافات السكان الأصليين. لقد كنت متأثراً بطريقة بيتريز الاحترافية، متمتعاً بأسلوبها المازح.

إذا أخذنا بالاعتبار الخلفية التي قدمت منها، ربما كان يجب علي أن أكون أكثر حذراً، لكن عند هذه النقطة كنت أقل احتراساً.

وأنا أتبعها في الممر الطويل من المصعد إلى غرفتها، كان من المستحيل أن لا يثيرني جمال جسدها. كندرتها ذات الكعب العالي، بنطال الجينز الضيق الذي يظهر تقاطيع ومفاتن

قامتها، وتهدُّل شعرها الصحراوي الداكن الحمرة شكَّل هيئة كانت قد جعلت شواطئ كوباكابانا وايبانيما مشهورة.

حالما دخلنا الغرفة، دعتني للجلوس على صوفا، وأشغلت نفسها بوضع المسجل على طاولة صغيرة أمام الصوفا. من ثم سألتني فيما إذا كنت أرغب بكأس من النبيذ. على الرغم من أنني نادراً ما أشرب أي شيء ما عدا البيرة، لكنني قبلت دعوتها. صبت لكل واحد منا كأساً وجلست بقربي على الصوفا وقالت: "دعنا ندخل في الموضوع مباشرة".

وبينما أجيب على أسئلتها شعرت بأن جسدينا قد تلامسا. تحركت باتجاهي هي لتصبح أقرب. انحنت ومدَّت يدها، وأطفأت المسجل، التقطت كأسي بيدها، وقدمته لي. أصابعها مست أصابعي. تقارعت كأسانا. راقبتها ترشف من كأسها. ومن ثم فجأة تذكرت بأنها كانت باكراً في هذا اليوم تقف وحيدة في الشارع الواقع بين الفندق والمتنزه حيث قابلت جوسيه.

ما احتمال فرصة لقاء كهذا في مدينة بحجم مدينة بورتو آليغري؟

توجَّست، وشعرت كأن أحداً ما ضربني على أحشائي. كنت متأكداً بأنه لم يكن دافع بيتريز هو فقط وببساطة رغبتها في ممارسة الجنس مع مؤلف الكتاب الأكثر مبيعاً. تقابلت أعيننا بينما كانت ترشف نبيذها. وضعت كأسي على الطاولة دون أن أشرب منه، متوجساً فيما إذا كانت قد وُضِعَتْ فيه مادة ما.

قلت: "إنني بعمر أبيكِ" ألقيت نظرة حول الغرفة باحثاً عن كاميرا مخفية. "وأنني متزوج" وقفت.

قالت: "لدينا تعبير في البرازيل: الرجال الأكبر سناً يعرفون كيف يمتعون المرأة، الرجال المتزوجون كتومون".

قلت: "يجب عليَّ الذهاب".

"مازال الوقت باكراً جداً".

مشيت باتجاه الباب: "دعينا، ننهي هذه الليلة كأصدقاء".

نهضت من على الصوفا، ومشت باتجاهي.

فتحت الباب: "الرجاء أرسلي لي نسخة عن المقابلة".

عند ذلك الحين كنت قد خرجت من الغرفة إلى الممر.

"إذا غيرت رأيك، يمكن لك أن تتصل". ابتسمت بغنج ودلال، وأضافت "سأكون هنا - طوال الليل. على كل حال سأبعث لك بنسخة".

لكنها لم تفعل أبداً.



25 تحدي الإمبراطورية

بعد عودتي بفترة قصيرة من البرازيل دَخَلَتْ جارتُها بوليفيا مرحلة جديدة من الصراع السياسي. حل كارلوس ميسا محل الرئيس المخلوع غونزالو سانشيز دي لوزادا. نظر إلى الرئيس الجديد في أحسن الأحوال كرجل ضعيف، وفي أسوأها كعميل لحكم تحالف أثرياء المال والشركات.

طالب حزب ايفو موراليس "ماس" ومنظمات السكان الأصليين بحقوق ملكية الأرض، الدعم الحكومي للمحروقات لمساعدة الفقراء، وتأميم صناعات النفط والغاز.

خلال قراءتي للتقارير المنشورة على الإنترنت ومحادثاتي مع أصدقاء في أمريكا اللاتينية، كنت غالباً ما أتصور ذلك الصف الطويل من البشر نساء ورجالاً وأطفالاً يقفون في البرد القارس تحت المطر منتظرين ليدفعوا فواتير الكهرباء. بماذا كانوا يفكرون الآن يا ترى؟

لقد بدوا طائعين، صاغرين، مضطهَدين، يشبهون العبيد الذين عملوا في مناجم القصدير الإسبانية. لكن شيئاً ما قد أشعل فيهم الحماسة. لقد تركوا صفهم، وتجمهروا في الشوارع. واقتحموا مكاتب شركة المياه. وحاصروا القصر الرئاسي، وقاوموا البنك الدولي، وتحدوا الشركات المستغلة، وجلبوا على أنفسهم غضب الإمبراطورية الأكثر جبروتاً في التاريخ. لقد ماتوا في سبيل قضيتهم. ما الذي جعل كل هذا يحدث؟ أحد تلك الأجوبة على قدر من الأهمية بشكل خاص: رجل واحد، ايفو موراليس. بالطبع كان واحداً من القادة الذين كانوا وراء تلك الحركة الجديدة، لكن كان هو القائد الذي انتخب إلى الهيئة التشريعية، ومن ثم أعلن نفسه مرشحاً للرئاسة. وكان أيضاً فوق كل ذلك رمزاً وملهماً بالنسبة إلى شعبه. مثل جورج واشنطن، سيمون بوليفار، وكل القادة العظام الذين سبقوه، كان ايفو موراليس ناشطاً وصاحب رؤية معاً. كان الأمل لبوليفيا، ولنا كلنا أيضاً، لأن صعوده كان تجسيداً للحلم الذي نشترك فيه جميعاً: ذلك أنه في أوقات الأزمات الحالكة ينبعث كائن إنساني ويقود شعبه من الظلام إلى النور.

يدين موراليس بظهوره بشكل كبير إلى قائد لاتيني جديد آخر، هو "هوغو شافيز"، الرئيس الذي، مثل المبارزة في رسوم الكرتون التي نشرت في الصحف اللاتينية، تحدّى الحاكم الأقوى في العالم وهزمه. كان هناك حقيقة شاهدها الملايين في أمريكا اللاتينية بأن جورج دبليو بوش ليس هو ممثل الديمقراطية المنتخب قانونياً، بل إمبراطور سرق انتخابات قدمت خدمة كبيرة على طبق من ذهب لكل من شافيز وموراليس.

إذا كان القادة العظام يحتاجون إلى أعداء، فكان بوش ليس خصماً بل عدواً لكلا الرجلين. وقد دعّم موقف موراليس أيضاً الأحداث التي كانت تجري في بلد آخر هو الأكوادور. لأجل أسباب مختلفة تماماً عما حدث في بوليفيا، كانت الأحداث السياسية الجارية في الأكوادور تعمل أيضا لمصلحة قائد الأيمارا، ايفو موراليس.

دعا اتهام لوسيو غوتييريز بعقد صفقات مع رجال اقتصاد مأجورين، الشعب الإكوادوري للمطالبة باستقالته.

في 20 نيسان عام 2005، صوت أعضاء الهيئة التشريعية في كوتيو لعزل غوتييريز. وحلفوا اليمين الدستورية لنائبه ألفريدو بالاسيو كرئيس مؤقت.

لم يأخذ الرئيس الأكوادوري الجديد وقتاً طويلاً لتحديد الانتهاكات التي ارتكبت، والتي نشأت عن استعداد سلفه لتقديم التنازلات لصندوق النقد الدولي، البنك الدولي، وواشنطن، ووول ستريت.

بعد عزل الرئيس الأسبق بيومين، كتبت نيويورك تايمز بأن بالاسيو ووزير اقتصاده رافائيل كوريه قد انتقدا "صلات الرئيس السابق بالمؤسسات العالمية المانحة للقروض" و"وصفا ذلك بأنه من غير الأخلاقي أن يستخدم بلد 40٪ من ميزانيته من أجل خدمة الدين فقط". إطلاق هذه الأحكام يدعونا للقول بأن "الحكومة الجديدة قد تعيد النظر باتجاه محادثات التجارة التي تجري الآن مع الولايات المتحدة".

قالت التايمز إن السيد بالاسيو أشار إلى أنه "يريد أن يستخدم عائدات النفط المخصصة لأجل الدين العام لكي ينفقها على الخدمات الاجتماعية".

قرأ موراليس في بوليفيا الوضع الإكوادوري كموافقة على السياسات التي دافع عنها، وكان ذلك إشارة أخرى بأن الأنديز كانت جاهزة للتغيير، وكان التوقيت صحيحاً لظهور شخص بخلفية موراليس (الذي كان فقيراً بالمقاييس المادية) ليمسك بدفة المركب.

كانت ردة الفعل الرسمي للولايات المتحدة عليه معادية، مع ذلك ومن وجهة النظر اللاتينية، أدى ذلك إلى شكل آخر من أشكال المواجهة.

انعكاساً لموقف واشنطن، كتبت النيويورك تايمز:

"بالنسبة إلى إدارة بوش، نظرة عامة على مواقف السيد موراليس تظهر بأن رئاسته تشكل تراجعاً جدياً محتملاً في الحرب على المخدرات، والذي يمكن له أن يعرض للخطر مئات الملايين من الدولارات التي تقدمها الولايات المتحدة لمساعدة بلاده في الحرب على المخدرات والمساعدات الاقتصادية والإنمائية".

فهم البوليفيون واللاتينيون الآخرون أن البيت الأبيض والاتجاه السائد في إعلام الولايات المتحدة يمكن أن ينحط إلى أدنى المستويات لتشويه سمعة موراليس.

يمكن لهذا التكتيك أن يخدع جمهور الناخبين في الولايات المتحدة، لكن، وكما جَسَّد قبلاً السفير الأمريكي روتشا بكلامه عن حجب معونات الولايات المتحدة إذا انتخب البوليفيون مرشحاً مثل موراليس، كان لمثل هذه التهديدات مفعول معاكس في بوليفيا.

في إحدى الحفلات في الولايات المتحدة التي حضرها عدد من طلاب أمريكا اللاتينية سمعت هذه الدعابة: "من هو وكيل هوغو الأول في الدعاية والإعلان؟" (وقفة) "جورج بوش. من هو وكيل ايفو الأول في الدعاية والإعلان؟"

جواب: "جورج بوش؟"

"لا، خطأ، جورج بوش هو الوكيل رقم 3. وول ستريت ونيويورك تايمز تفوقا عليه".

26 قامات شامخة من أصل مشترك

بالنسبة إلى العديد من الأمريكيين اللاتينيين اعتبر ايفو موراليس رمزاً لمحاربة حكم تحالف أثرياء المال والشركات المستغلة.

قاد حركة شعبية دفاعاً عن الفقراء. ارتدى ثياب الأندين التقليدي، كنزة صوفية معرقة، عباءة هندية تقليدية، وقبعة صوفية، لقد تجاسر على التباهي بجذوره المتواضعة. ونادى، دون خجل أو ارتباك، بعظمة شعبه بالنسبة إلى العالم، قائلاً بأن كونهم قد عانوا الاستعباد والقهر لقرون هذا لا يعني بأنهم لن يقاتلوا من أجل أرضهم وعزتهم. الاستغلال لا يساوي الدونية. الفقر المادي ليس علامة للكفاية الأخلاقية.

أعلن بأنه سيرشح نفسه لرئاسة البلاد واعداً بالنضال ضد أطماع الشركات الأجنبية، المصممة على نهب موارد بلاده، والوقوف في وجه تحديات الولايات المتحدة، مطالباً بلاده بإتلاف حقول الكوكا. مؤكداً بأن هذا النبات أصبح مشكلة بعد تحويله إلى كوكايين ونقله خارج بوليفيا، أصر على أن مشكلة المخدرات هي في استهلاكه، ويجب أن تعالج هذه القضية عند تلك النهاية.

في كانون الأول عام 2005 انتصر ايفو موراليس انتصاراً ساحقاً في الانتخابات ليصبح أول رئيس هندي لبوليفيا. أعلن حالاً بأنه سيخفض راتبه إلى النصف، وأصدر أمراً رسمياً يقضي بأن لا يتجاوز راتب أي وزير في الحكومة راتب الرئيس. وخصص الأموال الموفرة لتعيين عدد أكبر من أساتذة المدارس العامة.

نائب الرئيس، إلفارو غارسيا لينيرا، كان أحد قادة العمل الفدائي في الحركة الثورية البوليفية ضد حكم تحالف أثرياء المال والشركات، قضى أربع سنوات في السجن، وكان قد حصل على درجة اختصاص بالرياضيات من جامعات المكسيك، ومن ثم أصبح أستاذاً يدرس علم الاجتماع في جامعة مايو ردي سان اندرس في مدينة لاباز، حيث كان معروفاً كمفكر ومحلل سياسي.

وزيرة العدل كانت امرأة تعمل كخادمة. رئيس مجلس النواب كان أستاذ مدرسة من الريف.

على الرغم من أن موراليس كان من السكان الأصليين لكنه قال بأن تعهداته ووعوده هي لكل الفقراء البوليفيين ولكل المحرومين أينما كانوا في الأحياء الفقيرة في المدن أو في أعالي جبال الأنديز أو في أعماق الأدغال.

ضلّل الإعلام السائد في الولايات المتحدة بشكل فاضح قُرّاءه ومشاهديه. في حملة غريبة مخيفة مذكرة بإحدى الحملات التي كانت قد شنت على الرئيس الغواتيمالي آربينز قبل أن نغزو بلاده، نقل الإعلام انطباعاً بأن موراليس كان "شيوعياً" و"عميلاً لكاسترو".

في كانون الثاني عام 2006 وبعد شهر من انتخاب موراليس أسقطت شركة بكتل الدعوى القضائية المرفوعة ضد بوليفيا.

وبعد أقل من أربعة أشهر، في 2 أيار عام 2006 أعطى الرئيس موراليس أوامره للجيش البوليفي باحتلال حقول النفط والغاز في البلاد، ووضعها تحت سيطرة الدولة. وأعطى مهلة 180 يوماً لمدراء الشركات لإعادة النظر في العقود القائمة والتفاوض مع الحكومة الجديدة، أعلن بأن "النهب الذي تقوم فيه الشركات الأجنبية قد انتهى". بدلاً من المشاركة في الأرباح بمعدل 80٪ للشركات الأجنبية 20٪ للبوليفيين، طالب بعكس هذه المعادلة.

نظر البعض لما يجري في بوليفيا كابتعاد عن الجبهة اللاتينية الموحدة، أشاروا إلى أن البرازيل والأرجنتين ستكونان الأكثر تضرراً بسبب استيرادهما كميات كبيرة من الغاز الطبيعي البوليفي. لكن دافع شافيز بحماس عن موراليس قائلاً: "إننا ندعم بوليفيا، إنها تسير في الاتجاه نفسه التي تسير فيه فنزويلا. لقد استعدنا السلطة على مواردنا الطبيعية ووفرة مواردنا المعدنية بعملية طويلة وصعبة إلى حد أنها كلفتنا محاولة انقلابية. أنا متأكد من أن البوليفيين سيتجاوزون المصاعب التي تعترضهم، وسيصبح كل شيء على ما يرام".

كانت سياسة موراليس واضحة جداً، فقد كان مع الوطنية ومع جبهة موحدة عندما يتعلق الأمر بأمريكا اللاتينية ضد الولايات المتحدة، عارض استغلال الشركات لبلده، بصرف النظر عن مكان مركز الإدارة الرئيسي لهذه الشركات.

"سندافع عن ثرواتنا الطبيعية. إذا كانت بوليفيا أرض بلا شعب فهي الآن أرض لشعب. إنها أرض ووطن البوليفيين. وبشكل خاص سكان البلد الأصليين. إذا كانت الشركات الخاصة، شركات البترول، الشركات العالمية، تريد أن تأتي إلى هنا، وتريد أن تلتزم بالقوانين البوليفية، فعلى الرحب والسعة... لكن الشركات التي لا تريد أن تحترم القوانين البوليفية، ولا تريد أن تخضع نفسها لسلطة الدولة والقانون يمكن أن يحصل أشياء لها غير محمودة العواقب".

في كانون الثاني عام 2006 سارت تشيلي على خطا الأرجنتين، وبوليفيا، والبرازيل، والإكوادور، والأوراغواي، وذلك عندما انتصرت ميشيل باتشلت في الانتخابات الرئاسية على أرضية الحرية في تقرير المصير. كانت هي المرأة الأولى التي ترقى إلى ذلك المنصب. عملت حالاً على ترجمة وعودها الانتخابية إلى أفعال، وسمت نصف الحكومة من النساء. بينما يمكن لهؤلاء القادة أن يتتبعوا آثار ماضيهم عارفين بأن أسلافهم كانوا قادة دول، وقفوا بشجاعة ضد الإمبراطوريات السابقة، شيء ما مختلف كان يحصل في العقد الأول من الألفية الجديدة. وحمل هذا الاختلاف مضامين عالمية.

لم يحصل من قبل قط أن يرسل هذا العدد الكبير من الناخبين إلى أعلى المناصب وفي الوقت نفسه قادة دافعوا بقوة شديدة عن حقوق شعوبهم ضد المصالح المالية للولايات

المتحدة. لم يحصل أبداً من قبل مثل هذا الإجماع. لم يوجد أبداً من قبل مثل هذه الظاهرة من الدعم لمصلحة أفقر الفقراء من سكان المدن والريف والسكان الأصليين.

لم يحصل أن تحمل بلدان مستعمَرة مثل هذه الرسالة القوية المجمع عليها، وتوصلها إلى مستعمريها. لم يكن قد حصل ذلك في العالم الغربي، ولا أفريقيا أو آسيا.

على الرغم من أن الشرق الأوسط قاوم أيضاً قبضة الإمبراطورية، لكن الصراع هناك قد كَلَّفَ الناس في المنطقة ضريبة فظيعة.

من جهة أخرى، لم تكن ثورة أمريكا اللاتينية تهدف إلى طرد المستغلين الأجانب فحسب بل كانت أيضاً حركة إيجابية باتجاه المساواة، والحرية، والإصلاح الاجتماعي. وقد كانت في جزء كبير منها حركة سلمية. وصل تأثيرها إلى أصقاع الأرض لتكون مثلاً وقدوة؛ لقد حققت أهدافاً حقيقية ملموسة، وألهمت الناس على مدى كل القارات.

بدأ الرؤساء المنتخبون الجدد أيضاً شيئاً لم يسبق له مثيل في تاريخ المنطقة.

وافقوا على أن يدافعوا عن بعضهم البعض، متحدين، وليس كقادة منفردين (كما كان الأمر في زمن بوليفار) بل من خلال تعاون جماعي، وَسَّعوا وقفتهم ضد صندوق النقد الدولي، البنك الدولي، وحكومة الولايات المتحدة لتشمل الدفاع عن النفس.

بلاد مثل البرازيل، والأرجنتين، وتشيلي، والبيرو، وفنزويلا قادت جهوداً حثيثة في تغيير أهداف جيوشهم من حماية الشركات المتعددة الجنسية إلى الدفاع عن بلدانهم ضد التدخل الأجنبي. وبدؤوا يناقشون بشكل جدي إمكانية التعاون العسكري الواسع. بالإضافة إلى تقوية العلاقات بين بعضها البعض، بدأت دول أمريكا اللاتينية بإقدام تنمية العلاقات مع الهند، الصين، والأمم الأخرى التي يربط بينها قاسم مشترك وهو الارتياب في بناء الولايات المتحدة الإمبراطوري.

في تشرين الثاني عام 2005 قام الرئيس الصيني هو جينتاو برحلة بالغة الأهمية إلى القارة، فزار الأرجنتين، والبرازيل، وتشيلي، وكوبا، وعقد اجتماعات ثنائية مع الرئيس المكسيكي فيسنت فوكس ورئيس البيرو اليجاندرو توليدو. تفوقت الشركات الصينية دون أية ضجة في عدد من المناطق التي كانت تعتبر سابقاً حكراً على الولايات المتحدة. أدارت شركة صينية وبفعالية "موانئ أنكور" على طريق قناة بنما. وفي عام 1998 أطلقت الصين والبرازيل برنامج القمر الصناعي للكشف عن الموارد الأرضية.

وبينما كانت واشنطن تحاول خلق معاهدات تجارية لمصلحة شركات الولايات المتحدة ووجهت بمقاومة عنيدة من القادة اللاتينيين، لاقت عروض العمل الصينية الأقل كلفة استحساناً كبيراً.

قد يبدو هذا متناقضاً إذا أخذنا بعين الاعتبار الاحتمال بانبثاق الصين كإمبراطورية جديدة. مع ذلك، يعي اللاتينيون بأن الصين تختلف عن الولايات المتحدة فهي كما كان

الاتحاد السوفييتي في الستينات، السبعينات، والثمانينات ليس لها تاريخ بالتدخل في شؤونهم الداخلية. ينظر اليوم إلى الصين كقوة توازن وردع ضد تعدي الولايات المتحدة.

ينتشر المبعوثون اللاتينيون في كل أنحاء العالم عاملين على زيادة العلاقات التجارية مع البلدان الأخرى ومن ناحية ثانية يعتبر هذا النشاط جزءاً من حركة واسعة ضد الشركات المستغلة واتجاه واضح بأن جيراننا الجنوبيين مصممون على التحدي والوقوف في وجه هيمنة الولايات المتحدة.

مخاوف اللاتينيون لها ما يبررها من النشاطات السرية والسياسات المعلنة أيضاً للولايات المتحدة. إن هذا أصبح جلياً بالنسبة لي عندما تكلم معي بعض أبناء آوى العملاء الذين أرادوا أن "يخرجوا من كهوفهم الباردة" ويعترفوا بأحدث خطاياهم.

27 تاريخ من الاغتيالات

"دخلت مكتب الرئيس بعد يومين من انتخابه وهنأته. جلس خلف طاولة مكتب كبيرة مكشراً عن ابتسامة عريضة. وضعت يدي اليسرى في جيب سترتي، وقلت "سيدي الرئيس لدي هنا مليونا دولار لك ولعائلتك، إذا قمت باللعبة. أنت تعرف، كن لطيفاً مع أصدقائي الذين يديرون شركات البترول، عامل العمل سام بشكل جيد، ومن ثم اقتربت أكثر، مددت يدي اليمنى إلى جيبي الآخر، انحنيت إلى جانب طاولة مكتبه، وهمست، يوجد هنا مسدس ورصاصة عليها اسمك. في حال قررت أن تفي بوعودك الانتخابية، رجعت إلى الخلف، جلست، وقرأت عليه قائمة صغيرة من الرؤساء الذين كانوا قد اغتيلوا أو أسقطوا لأنهم تحدوا العم سام. من ديم إلى توريجوز. أنت تعرف الروتين. لقد استوعب الرسالة".

أخذ برت جرعة من زجاجة البيرة التي في يده وقال: "وكان الأمر"، مستديراً إلى الجهة الأخرى ليراقب فتاة شقراء تلبس البكيني تقفز إلى قارب يرسو في مقهى واتروي في شاطئ بالم في مدينة غاردنس في فلوريدا أضاف: "كان ذلك موضّحاً لكل شيء تقريباً".

عندما اتصل بي برت في البداية عرف نفسه كعميل أراد أن: "يتكلم حول الإكوادور وبلدان أمريكية لاتينية أخرى".

رفض أن يكون أكثر تحديداً على التلفون أو بواسطة الإنترنت. التقينا على الشاطئ قرب منزلي في فلوريدا. من ثم التقينا بعد ذلك في عدد من المطاعم. على الرغم من أنه كان لا يزال يعمل كرجل اقتصادي مأجور، وبالتالي كان غير مستعد للإفصاح عن اسمه علناً، لكن أزعجته مواقف هؤلاء الذين يعمل لحسابهم. قال عنهم: "متعجرفون وفاسدون يجب أن يعرف مواطنونا عن موظفينا المنتخبين وكيف أن مواقفهم عملت على استعداء الكثير من أصدقائنا القدامى".

لقد اعترف بأنه كان يتقاضى عن عمله "حوالي نصف مليون دولار في السنة غير خاضعة للضريبة". وفقاً لما قال، لقد بدأ هذا العمل لأنه نشأ في عائلة كوبية فقدت الملايين من الدولارات عندما أسقط كاسترو ورفاقه فولجنسيو باتيستا، لقد خاف الشيوعية "ذهب الشيوعيون" وتأوه بحسرة "لكن هذا أنا، وهذا ما يزال هو عملي. وأنا أتقنه بفظاعة أيضاً. لكن لا أحب حقيقة أن هؤلاء الحمقى في واشنطن يخلقون انطباعاً سيئاً جداً".

كل شيء حول شخصية برت، كان يبدو، ويخلق شعوراً بأنه يصلح لما يقوم به. كانت بنيته قوية وشعره قصيراً. لا يشبه نيل، الرجل الذي كان يقود العمليات الأمنية في أندونيسيا عندما حصل إعصار تسونامي المدمر، كان مظهره كمظهر شرطي. وصفه الدقيق للأشخاص والأمكنة، الذي شمل بنما وتوريجوز في أواخر السبعينات عندما بدأ مهنته، كان مطابقاً مع ما أتذكره.

حديثي معه حول أشكال الاستغلال الحديثة ذكّرني بتلك الأيام الماضية. لم يفصح عن اسم الرئيس الذي كان موضوعه، كانت أحدث محاولاته هو تحويل قائد منتخب ضد ما أعلن عنه من سياسات، وأخبرني بأنه يريد مني أن أعرض هذه القصة كواحدة من عدة أمثلة على عمله.

لم أتفاجأ بأي شيء قاله. لقد كنت أشك دائماً بأن معظم الرؤساء في تلك البلاد السبعة قد حاول معهم أحد ما من الأشخاص الذين كانوا يؤدون عملي القديم نفسه كرجل اقتصادي مأجور. لم يكن معروفاً من الرئيس أن هذا الشخص كان يدور حول مراكز القوة لبعض الوقت، كأحد موظفي البنك الدولي، وسفارة الولايات المتحدة أو موظفاً في منظمات المساعدة الإنسانية في الولايات المتحدة، أو مستشار. ويظهر فقط بعد الانتخابات ويفضح وظيفته الجوهرية الأكثر أهمية.

عندما كان المرتابون بوجودنا نحن رجال الاقتصاد المأجورين يقولون لي في بعض الأحيان بأنهم يعرفون بأن الاغتيالات تحدث فما هو مبرر وجودنا وبالتالي لماذا عليهم أن يصدقوا أن أناساً مثلي ومثل برت موجودون. كنت أجيب، وأشير إلى ذلك الشيء الواضح: ما من عاقل يغتال رئيس دولة قبل أن يحاول تطويعه وإدخاله في اللعبة. ما من سياسي أو عميل سي آي إيه يفكر بذلك. حتى ولا رجل مافيا متحجر القلب يفعل ذلك. إن الاغتيال ببساطة له مخاطر كثيرة، ويمكن أن يؤدي إلى فوضى كبيرة واختلاط بالأوراق لا يعرف الحابل من النابل منها. أي توجد احتمالات كثيرة للخطأ.

يجب عليك دائماً في البداية إرسال المبعوثين. يعرضون الجزرة بيد للإفساد ومن ثم إذا هذا الأسلوب لم يأت أكله، يهددون باليد الأخرى بعصا الانقلاب أو الاغتيال. عندما أرسلت أنا إلى مهمات مشابهة كنت أكثر حذراً ومكراً من برت، افترضت دائماً أنه توجد مسجلات صوت مخفية تلتقط المحادثات في المكاتب الحكومية. مع ذلك كان مضمون الرسالة التي كنت أوصلها هو نفسه. وكان يُترك الرئيس، وليس لديه أدنى شك: يمكن له أن يبقى في السلطة، ويصبح ثرياً إذا تعاون معنا أو سوف يتم إقصاؤه حياً أو ميتاً، إذا لم يتعاون.

تحدث الرئيس شافيز حول صلاته مع رجال اقتصاد مأجورين ومع العملاء، في الراديو الفنزويلية. أذاعت الـ بي بي سي واحدة من عدة مقابلات له في هذا الموضوع:

أشار الرئيس إلى كتاب (اعترافات رجل اقتصاد مأجور) للمؤلف جان بركنس، قائلاً بأن هؤلاء الاقتصاديين المرتزقة اقتربوا منه في وقت معين. قال بأنهم عرضوا عليه أموالاً من صندوق النقد الدولي فيما إذا وافق على طائرات مراقبة ووجود مستشارين من الولايات المتحدة. وقال، على الرغم من انه قد رفض عروضهم إلا أن هؤلاء الرجال الاقتصاديين المأجورين لم يكفوا عن المحاولة، ومارسوا الضغط من خلال بعض الموظفين الحكوميين " ذوي النفوس الضعيفة"، ومن خلال أعضاء في المجلس التشريعي وأيضاً ضباط في الجيش

كانوا حوله. قال شافيز أنه كما شرح بركنس في كتابه، يتدخل العملاء لتدبير انقلاب أو اغتيال عندما يفشل الرجال الاقتصاديون المأجورون في مهمتهم: "لقد هزمنا الرجال الاقتصاديين المأجورين والعملاء، ولو فكروا بالعودة، سنهزمهم مرة ثانية". أكد شافيز ذلك إلى جماهير المهللين.

بعد إزاحة الرئيس غوتييريز، اتصل بي صحفيون إكوادوريون. ناقشت معهم محادثاتي مع برت وقلت لهم بأن مثل هذا الشخص يمكن أن يكون قد زار الرئيس السابق. وكنت أستغل أية فرصة خلال هذه المقابلات الصحفية لأشير بأن هدفي لم يكن انتقاد أي سياسي لاتيني وإنما لأطلب من الناس في الولايات المتحدة أن يضغطوا على حكومتنا وشركاتنا للامتناع عن وضع العراقيل أمام الديمقراطية. واحدة من مقابلاتي على الأقل وجدت طريقها إلى الإعلام الإكوادوري. في 3 آذار 2006 استلمت رسالة عن طريق الإنترنت من بل تويست، رئيس تحالف الباشاماما، المنظمة الأهلية التي كنت عضواً في مجلس إدارتها، كان مرفقاً بها رسالة أخرى من عضو مكتب منظمة إكوادورية تحوي مقالة من صحيفة كويتو اليومية، إلكوميرسيو، تحمل العنوان التالي: "لوسيو غوتييريز يرفع دعوى قضائية ضد بركنس بتهمة القذف والافتراء" (1 آذار 2006).

لخصت الرسالة الإلكترونية لعضو الهيئة المقال: "إن المقابلة الصحفية مع جان .... حقاً خلقت جدلاً حامياً هنا في الإكوادور!... في صحيفة كوميرسيو اليوم أعلن رئيس الحزب السياسي الذي ينتمي إليه غوتييريز، بأن الرئيس السابق سيقدم دعوى جزائية ضد السيد بركنس بتهم الافتراء وتشويه السمعة. إن هذا أمر جدي بسبب موعد الانتخابات القريب، وسيكون له تأثيره على بقاء حزب غوتييريز السياسي الغض الذي هو على حافة الخطر".

اتصلت بي جريدة إلكوميرسيو تطلب مقابلة ثانية. أكدت للصحفي إيماني بأني لا أملك حقاً في المشاركة والتدخل في السياسة الإكوادورية، ولم يكن في نيتي أبداً أن أشوه سمعة غوتييريز أو أحط من قَدّره، بل كان هدفي أن أقنع جمهور الولايات المتحدة بأن حكومتنا وشركاتنا تتجاوز بشكل متكرر السلطات التي تملكها، وأنه يجب علينا أن نرفع صوتنا، ونطالب بوضع حد لمثل هذا التجاوز والاستغلال في النفوذ. قلت بأنني لا أملك دليلاً بأن رجلاً اقتصادياً مأجوراً زار الرئيس غوتييريز، لكنني أنا شخصياً كنت قد مارست هذا النوع من الضغط على موظفين حكوميين في الماضي.

لم أسمع من غوتييريز شيئاً بعد ذلك. مع ذلك، كنتيجة لكتابي "اعترافات" والمقالات التي نشرتها في جريدة إلكوميرسيو، التقى بي عدة أشخاص يخدمون في جيش الولايات المتحدة ليخبروني عن مناورات كانت تتم على الأرض الكولومبية تهدف للتحضير لغزو عسكري على فنزويلا. ومثل برت، كانوا قلقين جداً حول الطريق التي تسير فيه بلادهم، لم يتجرؤوا على الكلام علناً، لكن كانوا يريدون أن يسمع الشعب الأمريكي قصصهم وتجاربهم.

كولومبيا هـي استثناء ساطع في المنطقة للحركات الموجهة ضد حكم المال وشركات الاستغلال. لقد حافظت على موقعها كوكيل لواشنطن التي كانت تتلقى الدعم المالي فيها المأخوذ من جيوب دافعي الضرائب في الولايات المتحدة، وتوجد على أراضيها جيوش من المرتزقة تتحمل نفقاتها الشركات. بالإضافة إلى الدعم العسكري الرسمي من الولايات المتحدة أصبحت كولومبيا حجر الزاوية في محاولات واشنطن لإعادة بسط هيمنتها على المنطقة، على الرغم من أن التبرير الرسمي لتدخُّل الولايات المتحدة يركز على الحرب ضد المخدرات، إنما كان هذا ذريعة لحماية المصالح البترولية ضد المعارضة الوطنية الأساسية للاستغلال الأجنبي.

راؤول زيبتشي، عضو مجلس التحرير في الصحيفة الأسبوعية بريتشادي ونيفيديو وأستاذ في جامعة فرانسيسكان مولتيفرسيتي لأمريكا اللاتينية، يشير إلى أن كولومبيا هي الآن رابع أكبر دولة تستفيد من المساعدات العسكرية للولايات المتحدة، بعد إسرائيل، ومصر، والعراق (أسوشيتدبرس وضعتها في المرتبة الثالثة) وأن سفارة الولايات المتحدة في بوغوتا هي ثاني أكبر سفارة في العالم، بعد السفارة في العراق.

يقول بأنه مع محللين آخرين قد استنتجوا بأن واشنطن تعمل على تشكيل قوة مسلحة واحدة في أمريكا الجنوبية يكون مركزها الرئيسي في كولومبيا. وتقاد من مقر وزارة الدفاع الأمريكية "البنتاغون"، وهذا هو النسخة العسكرية من مقترح منطقة التجارة الحرة لكل أمريكا.

الرجال الذين اتصلوا بي - جنديان في الجيش وملازم ثانٍ - أثبتوا صحة مزاعم الأستاذ الجامعي زيبتشي. أكدوا بأن الأسباب الحقيقية لوجودهم في كولومبيا هي تعزيز وجود الولايات المتحدة وتدريب جنود لاتينيين كجزء من قيادة الولايات المتحدة "لجيش جنوبي موحد" (تعبير استخدمه اثنان من الثلاثة).

أخبرني الملازم: "كل شيء نقوم به في كولومبيا يجعلها أكثر جذباً لأعمال المخدرات، لماذا برأيك أن الوضع هناك يستمر بالتدهور من سيء إلى أسوأ؟ لأننا نحن نريد ذلك، نحن المسؤولون عن المتاجرة بالمخدرات. الـ سي آي إيه هي - تماما كما كانت في المثلث الذهبي الآسيوي وأمريكا الوسطى وإيران. وكما كان البريطانيون يتعاملون مع الأفيون في الصين. تؤمن المخدرات أموالاً محرمة تقدر بالبلايين - من أجل تمويل نشاطات سرية - وحجة لتعاظم نمو جيشنا - ماذا تريد أكثر من ذلك؟ نحن هناك، رجالٌ مثلي في جيش حقيقي لحماية البترول ولغزو فنزويلا - لعبة المخدرات هي فقط للتغطية".

أخبرني ضابط سابق في الجيش الأمريكي كان يُشَكِّل جيشاً من المرتزقة في غويانا، على طول الحدود الفنزويلية. قال بأن جميع الرجال كانوا مظليين مقاتلين أشداء يتدربون على حرب الأدغال ويتعلمون الإسبانية: "لدينا حروب جارية في أفغانستان والعراق. لا توجد

أدغال هناك ولا لغة إسبانية فما هو القصد من ذلك؟ لكن أنت احزر أين يوجد أدغال كثيرة؟ فنزويلا، ويتكلمون الإسبانية في فنزويلا. بالإضافة إلى وجود رجال مرتزقة مثلي من الولايات المتحدة، وبريطانيا، وجنوب أفريقيا. يوجد كثير من الشباب في غويانا من الجيوش اللاتينية، معظمهم تخرجوا من المعهد العالمي الغربي للتعاون الأمني".

المعهد العالمي الغربي للتعاون الأمني كان يدعى سابقاً المدرسة الأمريكية، ويُدرِّب هذا المعهد جنوداً لاتينيين على القتال، وقمع التمرد والعصيان، والتحقيق، والتعذيب، والتجسس، والاتصالات، والاغتيال. شمل خريجيه بعض أسوأ الجنرالات والديكتاتوريين سمعة.

كانت تقع المدرسة الأمريكية في منطقة قناة بنما حتى جاء عمر توريجوز، وأصر على إزالتها. حقيقة أن مانويل نورييغا لم يسمح بعودة المدرسة بعد موت توريجوز كانت أحد الأسباب التي جعلت الولايات المتحدة تضعه على رأس قائمة "المطلوبين".

كان تخرج من المدرسة الأمريكية كلاً من توريجوز ونورييغا، وكلاهما أدرك السلطة التي استخدمتها هذه المدرسة كمؤسسة ضد الديمقراطية.

نقلت المدرسة إلى فورت بننيغ في ولاية جورجيا، وفي عام 2001 تغيَّر اسمها في محاولة لإسكات الانتقادات المتنامية.

في صباح أحد الأيام خلال فترة الجدل حول مقالاتي في صحيفة إلكوميرسيو، أرسلت لي مارتا رولدوس رسالة عن طريق الإنترنت من الإكوادور. قالت بأنها ستأتي إلى الولايات المتحدة، وتأمل أن تتحدث معي حول موت والدها، جيمي، الرئيس الإكوادوري الذي رفض أن يرتشي مني ومن رجال اقتصاديين مأجورين آخرين، والذي مات في حادث تحطم طائرة في 24 أيار 1981. وفقاً لتقارير إخبارية اصطدمت طائرته بجبل. مع ذلك، أكدت مصادر موثوقة اعتقادي بأن ذلك لم يكن مجرد حادث، بل كان شيئاً مدبراً وقفت وراءه وكالة الاستخبارات الأمريكية سي آي إيه. كتبت في "اعترافات": "إضافة إلى الحقيقة بأن واشنطن وشركات البترول كرهت هذا الرجل، بدا أن العديد من الظروف تدعم تلك الادعاءات باغتيال الرئيس".

قالت مارتا إنها تريد أن تناقش معي تلك الظروف.

في 16 آذار عام 2006 ركبت الطائرة إلى ميامي، وقادت السيارة شمالاً إلى مطعم قرب منزلي في منطقة شاطئ بالم.

قابلنا أنا وابنتي جاسيكا (حينئذ كان قد أصبح عمرها 23 عاماً) مارتا، وجلسنا في الفناء الخارجي لمطعم نتحدث عدةً ساعات.

شرحت مارتا بأنها جاءت إلى الولايات المتحدة بشكل رئيسي لكي تطلب المساعدة بإقامة مكتبة جيمي رولدوس. ستكون الأولى من نوعها في بلدها، ذكرى لرجل أحبَّهُ الشعب، والذي

مات بشكل مأساوي بينما هو ما يزال رئيساً. قالت بابتسامة مشرقة: "مثل مكتبة جون كنيدي".

أفضت بأن تلك المكتبة ستحتوي على معلومات حول موت أبيها لم يسبق لها أن نشرت، وقالت: "إنني مقتنعة تماماً، بشكل لا يقبل الجدل أن ذلك كان اغتيالاً. كان يقود الطائرة أحد أفضل الطيارين في القوى الجوية وهو صديق لوالدي وعضو في المجلس، لم يكن ليفعل أي شيء أحمق، كما قال التقرير. على النقيض من تقارير الإعلام لم يكن الطريق المفترض أن تأخذه الطائرة ريفياً وعراً بالمقاييس الإكوادورية، ولم يكن الطقس سيئاً أبداً. بشكل غير مبرر خرجت الطائرة عن مسارها المفترض، ثم تابعت مارتا لتصف تفاصيل كانت قد حجبت عن الجمهور في ذلك الوقت. أغلق الموقع مباشرة بعد حادث التحطم، ومنعت الشرطة المحلية من دخول المنطقة. سمح فقط لعناصر من الجيش الإكوادوري وجيش الولايات المتحدة بالدخول، قتل شاهدان مهمان بحوادث سير قبل أن يدلوا بشهادتهما المفترضة في جلسة لسماع أقوالهم تتعلق بسبب حادث التحطم؛ أرسل أحد محركات الطائرة إلى مخبر سويسري، وأشار الفحص هناك بأنه قد توقف قبل أن "تصطدم الطائرة بالجبل". كان عمر مارتا في ذلك اليوم عندما حدثت المأساة سبعة عشر عاماً، وقد مات في ذلك التحطم والدها ووالدتها.

لقد كانت منهارة، ولم تستطع أن تفعل شيئاً لسنوات عديدة. ثم عندما بلغت من العمر واحداً وأربعين عاماً أدركت أنها قد وصلت في السنة السابقة إلى العمر الذي كان فيه والدها عندما قتل: "لقد حان الوقت لفعل شيء ما".

تابعت القول: "أنت تتحدث في كتابك حول تأثير موت والدي على عمر توريجوز. أنا أعرف بأن ذلك صحيح أيضاً. تزوجت ابن أخ عمر، ولي ابنة منه عمرها عشر سنوات. شبح اغتيال والدي كان يلاحق عمر وأخبر زوجي وآخرين بأنه يتوقع بأن يقتل كما قتل والدي. قال بأنه كان مستعداً للموت لأنه قد نجح، لقد وضع القناة بأيدي البانامين، وألقى بالمدرسة الأمريكية خارج بلاده".

في 31 تموز 1981 مات عمر توريجوز في حادث تحطم طائرة بعد ما يزيد عن شهرين بقليل من موت جيمي رولدوس.

بعد عودتي إلى البيت من اللقاء مع مارتا طبعت محادثتنا المدونة أعلاه. طلبت من جاسيكا قراءتها، تركتها لمدة أسبوع، راجعتها مرة ثانية، وعندما اعتقدت أن مارتا عادت إلى الإكوادور أرسلتها لها عبر الإنترنت. لم أسمع جواباً منها. حاولت مراسلتها عدة مرات بعد ذلك لكن دون جدوى.

في حزيران انتقلنا أنا وزوجتي إلى إقامتنا الصيفية في نيو انغلاند. بعثت لمارتا برسالة عبر الإنترنت من هناك، رسالة قصيرة أطلب فيها منها الإجابة فيما إذا كان هذا هو عنوانها الصحيح. كانت الإجابة: "نعم إنني أنا، مارتا".

أرسلت إليها مرة ثانية تدويناً لمحادثتنا، أسأل فيما إذا كانت ترغب بأن تضيف أو تعدل أي شيء بأية طريقة. لم أسمع أية إجابة منها بعد ذلك.

بعد حوالي أسبوعين فتحت بريدي الإلكتروني، فرأيت رسالة من مارتا. فتحتها بابتهاج، لأجد بأنني كنت على قائمة احتوت على العديد من الأسماء لتبليغنا حول برنامج مسرحي في الإكوادور! نقرت على زر الرد وطلبت منها مرة أخرى أن تبدي ملاحظاتها على المدونة المكتوبة لمحادثتنا. لم أسمع ولا كلمة إجابة على ذلك. وافقت على دعوة لإلقاء كلمة في حفل تخرج في 11 حزيران 2006 في ثانوية عامة قرب نورث هامبتون في ولاية ماساتشوستس. نتيجة ذلك أصبحت صديقاً لأستاذ اللغة الإسبانية في المدرسة، جوان كارلوس كاريبو، من الإكوادور والذي يكون عمه دكتور جيمي كالارزا زافالا، أحد المفكرين الإكوادوريين الذي كان يحظى باحترام كبير ومؤلف لعدة كتب هامة منها: من قتل جيمي رولدوس، وهو الآن رئيس بيت الثقافة الإكوادوري (أحد أهم مؤسسات الثقافة في البلاد) في مقاطعة إلأورو، المنطقة الرئيسية في الإكوادور في تصدير الموز.

في آب 2006 اتصل بي جوان كارلوس ليبلغني بأن عمه كان يحضر مؤتمراً في مدينة نيويورك ويرغب أن يلتقي بي.

في 14 آب قدت سيارتي ومعي زوجتي وينفرد إلى مطعم لاكازويلا في نورث هامبتون. عندما دخلنا المطعم لمحت جوان كارلوس وعمه. كان مساء يوم أحد وكان المطعم خالياً من الزبائن تقريباً، مع ذلك لقد اختاروا طاولة في الخلف في زاوية المطعم معزولة عن بقية الطاولات. جال في خاطري سؤال فيما إذا كان جلوسهما هناك مجرد مصادفة أم حيطة ليكونا بعيداً عن تطفل بقية الأمكنة في المطعم.

بعد أن تحدثنا في مواضيع شتى مدةً قصيرة، أخبرني جيمي بأن "اعترافات" قد خلق أمواجاً من الجدل والتساؤل في الإكوادور، وأنه كان مستحيلاً عملياً أن تشتري الكتاب هناك. قال مبتسماً بسخرية: "حالما يصل إلى المكتبات، يقوم أحد ما بشراء كل النسخ. هذا حدث أيضاً لبعض كتبي بما فيها كتابي عن اغتيال رولدوس، الذي يلمح الى تورط الـ سي آي إيه، والحكومة الإسرائيلية، وضباط كبار في الجيش الإكوادوري، والجناح السياسي اليميني الإكوادوري، كشركاء في جريمة اغتيال الرئيس".

كان الدكتور كالارزا مثل رولدوس أستاذاً في جامعة غوياكويل، وكان "صديقاً حميماً لـ جيمي رولدوس". قال إنه بعد انتخاب جيمي رئيساً للبلاد أفضى إليه الرئيس الجديد بمخاوفه من الاغتيال. من ثم قال بأنه سيخبرني عن حادثة قد أجدها مهمة: "في أيار 1981

ركب جيمي الطائرة إلى هاوستون لحضور اجتماع سري مع مدراء لشركة البترول. انضم إليه عدة موظفين حكوميين كبار. لقد ظن بأن أحد هؤلاء الموظفين سيكون مفيداً بشكل خاص لأنه عمل سابقاً في شركات البترول. ظن جيمي أنه بذلك يصنع حليفاً جيداً".

هز الدكتور كالارزا رأسه بحزن: "كم كان على خطأ!!؟ على أية حال، كان الأمر قضي - حضر الاجتماع الإكوادوريون ورجال البترول الذين أصروا على السرية. لم تكن هناك صحافة أو أي إعلام من أي نوع. قدم الأمريكيون عرضهم للإكوادوريين. كانوا يعلمون بأن جيمي وعد خلال حملته الانتخابية بتحجيمهم، مع ذلك طالبوا بعقد الصفقة نفسها التي كانوا قد حصلوا عليها سابقاً في الإكوادور، والتي كانوا يحصلون عليها في بلدان أخرى. تبدأ شركاتهم عمليات التنقيب الأولية وتدفع الإكوادور بالدولار أو بالبترول الخام.

"أكد لهم جيمي بأنه ليس لديه أي مانع أن يدفع ثمناً معقولاً مقابل خدمات تقدمها هذه الشركات، لكن لن يوافق على الدفع بالبترول الخام".

قال: "إنني أنوي بناء مجمعات بتروكيماوية في بلدي، وبالتالي يستطيع شعبي أن يستفيد من القيمة المضافة، نريد أن نحتفظ بكل بترولنا الخام" أغضب هذا أولئك المدراء. إنها لم تكن الصفقة التي تمتعوا بها مع الإدارة السابقة، وكانت مناقضة تماماً لسياساتهم العالمية. احتد النقاش، ووفقاً لما أخبرني به جيمي لاحقاً، تحول الاجتماع إلى عداء. في النهاية، طفح فيه الكيل، فقام، وخرج من الاجتماع متوقعاً بأن الأكوادوريين الآخرين سينضموا إليه لكن لم يفعلوا.

عاد رئيسنا، صديقي جيمي، إلى كويتو، وعقد اجتماعاً مع مستشاريه المقربين. أخبروه بأنهم يشعرون بأنه في موقف خطير جداً، وأن حياته في خطر. لكن هذا لم يثن عزيمته. واستمر بالكلام دون خوف. وقال في مقابلة تلفزيونية بأنه سوف يؤمم الشركات الأجنبية إلا إذا وضعوا خططاً يستفيد منها الشعب الإكوادوري. ألقى خطبة على مدرج أتاهولبا للألعاب الأولمبية حيث تحدث بشكل واسع حول حقوق السيادة للأمة لترعى مصالح شعبها، وبشكل خاص الفقراء. بعد فترة قصيرة من ذلك الخطاب، ركب مع زوجته طائرتهما الصغيرة قاصداً مكاناً آخر. لم يكمل رحلته أبداً. مات الاثنان في ذلك الحادث، في 24 أيار 1981 أي بعد اجتماع هاوستون السري بأقل من شهر. لم يكن هناك أي شك بأن جيمي رولدوس قد اغتيل".

جلسنا نحن الأربعة في ذلك المطعم في ولاية ماساتشوستس مدهوشين، وقد لجمنا الصمت لزمن طويل.

لقد تخيلت جيمي رولدوس اغويلرا في ذلك اليوم عندما قابلته لأول مرة في حفل استقبال في كويتو. وكنت متأثراً بشكل عميق بنشاطه، وجاذبيته، وحس الدعابة لديه، وتصميمه على انتشال الإكوادور من وضعها كإحدى أفقر البلدان في المنطقة. أخيراً، توجهت

إلى الدكتور كالارزا وأخبرته حول لقائي في آذار مع ابنة جيمي، مارتا. لخصت له بعض ادعاءاتها، والتي تؤكد مقالته حول الاغتيال.

استدار الدكتور كالارزا إلى ابن أخيه، وقال: "نعم، أليس هذا مدهشاً حقاً؟ لم يسمح لشرطة بلدنا بالاقتراب من موقع تحطم الطائرة حيث مات رئيسُنا. سمح لسلطات الولايات المتحدة بالدخول، وليس لشرطة التحقيق الإكوادورية. أوجد حلاً لهذه المسألة".

من ثم ذكرت بأنني حاولت الاتصال بمارتا عن طريق الإنترنت عدة مرات منذ لقائنا بها: "أردت أن أشاركها بما كتبته حول محادثتنا، وأسألها إذا كان لديها أي شيء لتضيفه، لكن لم تجب".

ضحك، وقال: "ولن تجيب أبداً. عمها ليون، شقيق جيمي، سيرشح نفسه للرئاسة ومنذ الوقت الذي تحدثت أنت معها، قد قررت أيضاً أن ترشح نفسها لمنصب في الدولة. أنت تعرف، بعد موت أبيها وأمها، أصبحت هي وأخوها تحت رعاية عمها ليون. جميعهم كانوا مذهولين، مصدومين، وخائفين.

كان قد حدث الكثير في الإكوادور خلال الشهور منذ تناولك أنت وابنتك الغداء مع مارتا. إن بلادي تعيش فوضى واضطراباً. حل محل الرئيس غوتييريز نائبه بالاسيو، وبالاسيو هو رجل التناقضات. ما من أحد يعرف موقف الشخص الآخر.

أشخاص مثل ليون ومارتا يكبلهم الخوف. يعرفون بأنه تقف خلف اغتيال جيمي مصالح عالمية كبيرة. إنها لن تتحدث إليك حول هذه الأشياء الآن".

28 دروس من أمريكا اللاتينية

في كانون الأول 2006 دعيت إلى بوليفيا. طلب مني فيليب داياز ويث بورتيلو من استديو السينما الحرة أن أشارك في فيلم وثائقي كانا ينتجانه حول جذور الفقر. رأيت الرحلة فرصة لمعرفة حقيقة شعور البوليفيين بعد مرور سنة على رئاسة ايفو موراليس. كنت قد قرأت العديد من خطب ومقابلات الرئيس، لكن الآن ستكون لدي الفرصة لأسمع مؤيديه ومعارضيه.

تحدثت إلى أصحاب متاجر، سائقي سيارات عمومية، مالكي مطاعم والعاملين فيها، مزارعين، عمال مناجم سابقين، قادة نقابيين ومنظمي إضرابات أدت إلى إسقاط الرئيس سانشيز، كارلا أورتيز «الممثلة المشهورة» التي كان لها صلات قوية بنشاطات السكان الأصليين، وتحدثت أيضاً إلى أحد الرجال الذي احتضر أخوه ومات بين ذراعيه بعد إصابته برصاصة جندي. وأجريت مقابلات مصورة مع موظفين حكوميين مؤيدين لموراليس، رجال أعمال ناقمين عليه، ورئيس سابق «جورجي "توتو" كويروجا راميريز، الذي كان يقود المعارضة ضد موراليس.

كان واضحاً لي بأن الرئيس الجديد يواجهُ تحدِّيات كثيرة وضخمة. كان معظم التجار والمنتمين إلى الطبقات العليا في المجتمع مصممين على سحق إصلاحاته الاقتصادية والاجتماعية. وتوقع مناصروه بما فيهم السكان الأصليون التغيير السريع للسياسات التي تعود جذورها إلى مئات السنين. لم يكن لدي أدنى شك أبداً بأنه فوق كل هذه الضغوط المحلية كان موراليس يتعرض أيضاً إلى ضغوط التهديدات والرشاوى من الرجال الاقتصاديين المأجورين. كان يجب عليه أن يعرف بأن أبناء آوى، العملاء، يقبعون على جانبي خشبة المسرح منتظرين دورهم.

بعد ظهر أحد الأيام جلست في بهو كبير في القصر الرئاسي، وتحدثت مع نائب الرئيس، ألفارو غارسيا لينيرا. علمت التالي: على الرغم من أن موراليس كان في الواجهة، لكن كان نائب الرئيس هو السلطة الفعلية وراء الكواليس. كان هو المسؤول عن تحويل الخطب الطنانة والأقوال إلى سياسة وأفعال.

كانت الغرفة، وكأنها إحدى غرف القصر الملكي في مدريد. كان السقف بعلو طابقين. فرشت غرف الجلوس الثلاث بكراسٍ وآرائك فرنسية على طراز باروكي من القرن الثامن عشر وبسجاد فارسي. كنت أقابل هنا رجلاً ـ كان قد بنى سمعته كمحارب وفدائي، وعانى خلال أربع سنوات في السجن ـ في قصر صمم للملوك.

قوّى مظهر غارسيا لينيرا هذا التناقض الساخر. كان ضعيف البنية، ارتدى بنطالاً أسود فضفاضاً مكوياً بعناية، وقميصاً أسود مفتوحاً عند القبة، وسترةً رياضية خضراء. تصلح يداه الأنيقتان لعازف بيانو أكثر منها لحامل بندقية ثائر.

بعد مناقشته مظاهر محددة لسياسات الإدارة. انتقلنا إلى مناقشة موضوع الدور البوليفي كنموذج للبلدان الأخرى. أعلن نائب الرئيس: "إما أن يكون جميع الناس أحراراً أو لن يكونَ أحدٌ حراً، من أجل أن ينعم الناس في بلدك وفي بلدي بالأمن والاستقرار يجب علينا أن نتأكد من أن كل شخص حول العالم ينعم بالأمن والاستقرار". وصف ما دعاه "ما بعد المجتمع الرأسمالي" مجتمع هدفه الرئيسي تأمين عيش كريم لائق لجميع مواطنيه. "يجب على الدولة أن تتوقف عن خدمة الأغنياء والشركات الكبرى. يجب عليها أن تخدم كل الناس، بما فيهم الفقراء".

خلال إقامتي في بوليفيا وفي كل لقاء سمعت الناس يعبرون عن ذلك الرأي، كانت التغييرات تكتسح القارة، ولا يمكن للأشياء أن تعود إلى ما كانت عليه في الماضي. قالت لي امرأة: "اعتدت أن أستحي من كوني منتمية إلى قبيلة الأيمارا، لكن ليس بعد الآن، جعلنا ايفو فخورين".

أضاف زوجها: "لن نقبل الاستعباد بعد الآن لا من ملاكي المزارع الإسبان، ولا من شركات الولايات المتحدة".

ظهر مع كل هذا أيضاً جانب أسود لما يجري. خاف الكثير من مؤيدي موراليس وتوجسوا بأنه قد انحنى تحت الضغط من واشنطن. فكان الناس يرددون: "إنه ليس شافيز" كما أن معارضيه كانوا قلقين أيضاً لتزايد علاقته الحميمة مع الرئيس الفنزويلي، اعتقدوا بأن موراليس سمح لنفسه بأن يستخدم كمطية لما يشاهدون من طموح شافيز بطرح نفسه كقائد لكل القارة. أفضى لي أحد البوليفيين قائلاً بأن شافيز يريد: "بوليفيا أولاً، ثم الإكوادور، بعد ذلك البيرو وكولومبيا، يريد شافيز أن يتحكم بكل البترول والغاز في أمريكا الجنوبية. يظن نفسه بأنه بوليفار هذا العصر".

احتفلت بعيد رأس السنة الجديدة في القصر الرئاسي. وصل إيفو موراليس بعد منتصف الليل بفترة قصيرة. كان قد وعد بأنه سيستقبل عام **2007** بعقد مؤتمر صحفي ليوجز بعض برامجه. بينما وقف أمام عدسات كاميرات التلفزيون، جلت بنظري حول ذلك المبنى المترف، نظرت إلى الصحفيين. امرأة من مجلة الاقتصادي الإنكليزية، رجل من الولايات المتحدة يمثل أسوشيتدبرس، ومراسلون صحفيون من بلدان عديدة في أمريكا اللاتينية. ظهر على موراليس التعب الشديد. تساءلت بماذا كان يشعر، وهو يقف هناك وحيداً، هذا الرجل الذي ينحدر من أصول متواضعة وأخباره الآن تغطي جميع أنحاء الكوكب. بدا أن شيئاً واحداً فقط كان أكيداً: لن تكون رئاسته رئاسة سهلة.

ركبت الطائرة من لاباز إلى ميامي في اليوم الأول من عام **2007**، فكرت حول تجربتي في غواتيمالا مع بيبي جاراميللو في عام **1992**. اكتشفت بأنها كانت أهم بكثير مما كنت أعتقد في ذلك الوقت. كنت سافرت إلى هناك كممثل لشركة أمريكية لأستكشف إمكانية استغلال موارد المايانيين، لكن كنت أيضاً في تلك الأيام أعمل عن قرب مع منظمة غير حكومية

غرضها مساعدة المايانيين في حماية أراضيهم والمحافظة على ثقافتهم. لم أكن معجباً تماماً بهذا الدور المزدوج، ولم أعِ في ذلك الوقت التناقضات في حياتي التي كانت انعكاساً لتناقضات بلدي.

الآن، في الطائرة من بوليفيا، كما كان الأمر حينذاك، كنت عائداً إلى ثقافة تظاهرت باحترام حقوق الإنسان ومع ذلك تتمتع بخيرات مادية بنيت على حساب استغلال عمال من أراض أخرى. إنني أنتمي إلى أمة يعيش فيها أقل من 5٪ من سكان العالم، لكن تستهلك أكثر من 25٪ من موارده، مجتمع يؤمن بمبادئ حماية البيئة، وينتج أكثر من 30٪ من مواد التلوث على الأرض. إن طائرتي كانت تحرق وقوداً استنزف من بلد شخص آخر. صنعت بعض ملابسي في معامل يتضور عمالها جوعاً، ويتقاضون أخفض الأجور.

إن حياتي هي مثال حي للصورة التي رسمها رجل مسن عندما وصلت إلى إقليم شور مع إيهود سبيرلينيغ في عام **1991**، قال: "حلم شعبك بمصانع ضخمة، وأبنية عالية، وبسيارات على عدد قطرات المطر في هذا النهر، بدأتم الآن ترون أن ذلك الحلم قد تحول إلى كابوس".

في عام **1992** كان بيبي يخاف من السكان الأصليين. ذلك العقد والعقد الذي يليه سيثبت أن مخاوفه كانت مبررة. أعطاني الرجل المسن الذي قابلته في غابة المطر لمحة عن المستقبل عندما سألته كيف لي أن أساعد في جعل الأمور أفضل؟!! أجاب: "هذا بسيط، كل ما عليكم فعله هو تغيير الحلم... تحتاجون بأن تزرعوا بذوراً مختلفة، علموا أولادكم بأن يحلموا أحلاماً جديدة".

أخذ الأمريكيون اللاتينيون هذه الفكرة بشكل جدي. بقيادة السكان الأصليين، فقراء المدن ومزارعي الريف غيّروا الحلم من خلال الأقوال والأفعال. نظموا حركات لحماية ثقافتهم وأراضيهم، أسقطوا الديكتاتوريين العفنين، وانتخبوا رؤساء طالبوا باستغلال الموارد المحلية لمصلحة السكان المحليين. وبطريقة غريبة نوعاً ما حمونا هنا في الولايات المتحدة من أنفسنا. وذلك بتحديهم لحكم أثرياء المال والشركات، دفعونا إلى النظر لما نفعله في هذا العالم. ضربوا لنا وللآخرين مثلاً حري بأن يتّبع.

قام اللاتينيون بعمل آخر أيضاً. ليس إلى الجنوب من الريو غراندي بل هنا في الولايات المتحدة. بينما تبرّم معظمنا حول إنقاص ميزانيات التقاعد، والتعليم، والضمان الاجتماعي، والطبابة، والتكاليف المتزايدة للحرب العراقية، والتضليل الذي مارسته الحكومة في إعصار نيو أورلينز، خرجوا إلى الشوارع للاحتجاج على ما رأوه قوانين هجرة غير عادلة. نحن جلسنا في بيوتنا، نادبين على موقف الحكومة، نغير محطات التلفزيون، ولم نفعل شيئاً، بينما هم مارسوا الحقوق الممنوحة لهم في دستورنا. تكلموا بصوت عالٍ وبجرأة، وساروا في مسيرات في واشنطن. سواء أكُنْتَ تدعم موقفهم أم لا تدعمه، في الحالتين كان لابد من الانتباه لذلك واحترام شجاعتهم واستعدادهم للفعل.

كان الناس في الشرق الأوسط يتحركون أيضاً. لكن طريقتهم بالتعامل مع بناء الإمبراطورية نشأت من منظور تاريخي يختلف تماماً عن ذلك الذي في أمريكا اللاتينية.

الجزء الثالث: الشرق الأوسط



29 إفلاس الولايات المتحدة الأمريكية

يتميز البترول تاريخياً بأنه الثروة الأكثر قيمة خلال النصف الأول من القرن العشرين. لقد أصبح القوة المحركة خلف الحداثة والتجديد . جالباً إمدادات ومُؤمّناً حاجات معولاً عليها شكلت حجر الزاوية في السياسات الخارجية. كان هاجس اليابان بالبترول عاملاً رئيسياً في القرار لمهاجمة بيرل هاربور. رفعت الحرب العالمية الثانية البترول إلى مصاف جديدة أعلى. زود البترول بالوقود دبابات، طائرات، وسفناً؛ وحكم بالإخفاق على بلدان محاربة لا تمتلك نفطاً.

تطور النفط ليصبح أيضاً الأداة المنفردة الأكثر قوة بيد حكم المال والشركات الكبيرة.

بعد إعلان الصلح في الحرب العالمية الثانية صاغ مدراء شركات البترول في الولايات المتحدة خطة ستغير مجرى التاريخ. قرروا أنْ أفضل خدمة لمصالحهم (وبالتالي مصالح أمريكا) هي أن يقنعوا الرئيس ومجلس الشيوخ بأن يدخروا احتياطات البترول لحروب مستقبلية وحالات طوارئ أخرى. لماذا استنزاف حقول النفط الوطنية عندما يمكن استغلال الحقول التي في بلدان أخرى؟ بالتعاون مع الشركات البريطانية وشركات أوروبية أخرى، أقنعوا الحكومات بمنحهم إعفاءات ضريبية وحوافز أخرى زعموا بأنها ضرورية لضمان السيطرة على إمدادات البترول العالمية.

هذا القرار ـ الذي وافق عليه كل الرؤساء ومجالس الشيوخ الأمريكيين المتعاقبين منذ ذلك الحين ـ أدى إلى سياسات أعادت رسم الحدود الوطنية، خلقت ممالك، وأسقطت حكومات. تحول النفط كما كان الذهب إلى رمز للقوة وأساس في تقدير قيمة العملات. ولكنه يختلف عن الذهب بأنه أساسي في التكنولوجيا الحديثة في صناعة البلاستيك، والصناعات الكيميائية وأعمال الكمبيوتر .

ظهر في البداية أن خطة مدراء النفط ستغرق بلدان العالم الثالث المنتجة للنفط بالثروة، لكن متتبعاً خطا الذهب، أصبح النفط كطائر القطرس، كبّل وأعاق هذه البلدان. كانت البلدان الغنية بالنفط تشبه المنقبين عن الذهب في المدن التي ازدهرت فجأة في الولايات المتحدة في الغرب القديم، حالما أقاموا ادعاءات بحقوقهم في الأراضي التي ينقبون فيها أصبحوا أهدافاً للبارونات اللصوص الأوغاد.

في الوقت نفسه الذي انبثق فيه النفط كمفتاح للدخول في العصر الحديث، ظهر الاتحاد السوفيتي كعدو رقم واحد لأمريكا. يقر المؤرخون أن بناة الإمبراطورية يحتاجون إلى أخطار وتهديدات خارجية؛ لعب الاتحاد السوفيتي بشكل ملائم هذا الدور بالنسبة إلى الولايات المتحدة. أعطت أسلحة موسكو النووية الحجة لحكم تحالف أثرياء المال والشركات في الادعاء بأن الحرب الباردة تتطلب طريقة جديدة غير مألوفة في العلاقات الدبلوماسية.

لم تكن مفاجأة أن حسم النزاع الحقيقي الأول حدث في الجزء من العالم الذي يحتوي على أكبر كمية من النفط، الشرق الأوسط.

مطالباً بمشاركة شعبه في أرباح النفط المستخرج من أرضهم، أقدم رئيس الوزراء الإيراني المنتخب ديمقراطياً محمد مصدق (رجل العام في 1951 في مجلة التايمز) على تأميم موجودات شركة البترول البريطانية. طار صواب بريطانيا، وطلبت المساعدة من حليفتها في الحرب العالمية الثانية، الولايات المتحدة. تخوّف كلا البلدين من أن التدخل العسكري قد يستفز السوفييت، فيقدمون على ضغط زر زناد السلاح النووي. بدلاً من إرسال جنود البحرية الأمريكية أرسلت واشنطن عميل وكالة الاستخبارات الأمريكية (سي آي إيه) كيرميت روزفلت (حفيد تيودور روزفلت) ومعه بضعة ملايين من الدولارات، نظم روزفلت مظاهرات استخدم العنف فيها أدت في النهاية إلى إسقاط مصدق؛ استبدلت الـ سي آي إيه هذا القائد المنتخب ديمقراطياً بمحمد رضا بهلوي (الشاه) الطاغية صديق شركات النفط الكبرى.

كما بحثت بالتفصيل في كتابي "اعترافات" ولّد نجاح روزفلت مهنة كاملة جديدة، المهنة التي عملت بها وهي رجال الاقتصاد المأجورون.

كانت الدروس التي استخلصت من إيران واضحة: يمكن بناء إمبراطورية دون مخاطر الحرب وأقل كلفة بكثير، ويمكن تطبيق تكتيكات الـ سي آي إيه أينما توجد موارد تطمع فيها الشركات الكبيرة. لكن كانت هناك مشكلة واحدة. كان كيرميت روزفلت موظفاً في وكالة الاستخبارات الأمريكية، ولو أن أمره قد اكتشف لكانت العواقب كارثية. أخذ القرار باستبدال عملاء حكوميين بعملاء من القطاع الخاص. كانت شركة ماين التي عمِلت فيها إحدى الشركات التي استخدمت لهذه الأغراض.

اكتشفنا حالاً نحن رجال الاقتصاد المأجورون بأننا لا نحتاج للانتظار حتى تؤمم البلدان حقول النفط كي نجد الذريعة للتأثير على سياساتها. حوّلنا البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ومؤسسات عالمية أخرى إلى أدوات استعمارية. تفاوضنا على عقد صفقات مربحة لمصلحة الشركات الأمريكية، عقدنا اتفاقات تجارة "حرة" خدمت بشكلٍ صارخ مُصَدِّرينا على حساب أولئك في العالم الثالث، وأثقلت البلدان الأخرى بديون لا يمكن إدارتها والوفاء بها. خلقنا في الواقع حكومات وكيلة ظهرت بأنها تمثل شعوبها لكن في الحقيقة كانت مجرد خدم لنا.

بعض أوائل الأمثلة: إيران، الأردن، السعودية، الكويت، ومصر.

بالترادف مع جهود رجال الاقتصاد المأجورين للهيمنة على السياسات العالمية، قامت الشركات الكبيرة المستغلة بحملات إعلانية من أجل زيادة استهلاك النفط. ومثل تجار المخدرات، انتشر خبراء العلاقات العامة عبر العالم محرضين الناس على شراء بضائع تباع

من مؤسسات تابعة لهذه الشركات - على الأغلب بضائع مشتقة من البترول ومُنْتَجة في معامل العالم الثالث تحت شروط عمل مرعبة.

خلال العقود التي تلت الانقلاب في إيران، ساق الاقتصاديون أمثلة متكررة عن النمو الاقتصادي السريع كبرهان على تراجع الفقر. مع ذلك، كما شاهدنا في آسيا، كانت الإحصائيات مضللة.

بالإضافة إلى تجاهل الانحطاط الاجتماعي والبيئي، أهملت الإحصاءات مناقشة المشاكل التي تنجم على المدى الطويل.

أحد الأمثلة عن "العواقب غير المقصودة" قدِّم بواسطة الأحداث التي نتجت عن مغامرة روزفلت الإيرانية. قد يكون الانقلاب أتى إلى السلطة بدكتاتور صديق لشركات النفط، لكنه أيضاً أسس لحركات معادية لأمريكا في الشرق الأوسط. لن يغفر الإيرانيون للولايات المتحدة إسقاط رئيس وزرائهم المحبوب المنتخب ديمقراطياً، ولن تغفر ذلك أيضاً الشعوب في البلدان المجاورة.

يتساءل الباحثون في التاريخ السياسي ماذا كان يمكن أن يحدث لو دعمت واشنطن خيار الشعب الإيراني الديمقراطي وشجعت مصدق في استخدام الدخل النفطي لمساعدة الشعب الإيراني للنجاة من الفقر. استنتج العديد منهم بأنه لو حصل ذلك لشجع هذا بلداناً أخرى لاختيار الطرق الديمقراطية، وحال دون وقوع العنف الفظيع الذي ابتليت به المنطقة منذ ذلك الحين. بدلاً من ذلك، أدى ما قامت به الولايات المتحدة إلى أن تنظر هذه الشعوب إليها كبلد لا يمكن الوثوق به، أظهرنا أنفسنا بأننا لم نكن مدافعين عن الديمقراطية، ولم يكن هدفنا مساعدة العالم الثالث. ببساطة، أردنا أن نسيطر على موارد هذه البلدان.

خلال الفترة نفسها عانت الولايات المتحدة من مشاكل داخلية كبيرة، عملية بسط سيطرة ومد نفوذ الشركات الكبيرة المستغلة، أغرق أمتنا عميقاً في الديون. وبشكلٍ متزايد كانت المعامل التي تنتج بضائعنا، بالإضافة إلى حقول النفط، تقع في بلدان أخرى. طالب الدائنون الأجانب بدفع مستحقاتهم ذهباً. رداً على ذلك قامت إدارة نيكسون في عام 1971 بإبطال معيار الذهب الذي كان معمولاً به.

تواجه واشنطن الآن مشكلة عويصة جديدة، وذلك فيما إذا تحول دائنونا إلى التعامل بعملات أخرى غير الدولار. ستجبر الشركات الكبيرة على الوفاء بقروضها بالقيمة التي التزمت بها بالنسبة إلى الذهب عندما تعاقدت على هذه الديون، وهذا سيكون كارثة. لأن خزائن الشركات لم تكن تحوي ودائع كافية لتغطية الدين.

الحارس الوحيد الذي كان يقف على الباب حائلاً دون الإفلاس هو دار صك العملة في الولايات المتحدة، بقدرته على طبع الدولارات وفرض قيمتها. وعلى هذا فإنه أمر ملح وأساسي أن يستمر العالم بقبول الدولار كمقياس في تقدير العملة.

أوجزت في مقدمة هذا الكتاب بأن الحل يدور حول السعودية. هذه هي القصة القصيرة. أما الرواية الطويلة فتشمل حليفين آخرين غير مقصودين، قاما بإنقاذ واشنطن - وكلا الحليفين يقعان في الشرق الأوسط.

30 الدولار الملك

بعد ذلك القرار الخطير في التخلي عن مقياس الذهب بفترة قصيرة، رئيس شركة ماين جاك دوبر سأل بتكلف "ماذا سيحدث للدولار؟" ودون انتظار، بادر هو نفسه للإجابة "أتوقع في النهاية بأن قيمته ستحدد بواسطة النفط".

كنت قد دعيت للانضمام إلى عائلة دوبر على العشاء في فندق انتركونتيننتال أندونيسيا، كانوا هناك في استراحة توقف في الطريق إلى الشرق الأوسط.

قال جاك: "إن لدى نيكسون فريقاً ذكياً جداً: كيسنجر، شولتز، وتشيني". ضغط جاك على يد زوجته ونظر في عينيها. "إنني أتطلع إلى ذلك اليوم عندما نجلس أنا وأنت ونسند ظهرينا إلى الوراء على أريكتنا ونقول إننا كنا مشاركين في هذه المغامرة العظيمة. تدشن الولايات المتحدة عصراً جديداً في تاريخ العالم وقد كنا نحن نجلس في المقاعد الأولى من الصف الأول".

لم يعش جاك طويلاً ليرى ذلك اليوم الذي كان يأمل مشاركته مع زوجته. مات في فترة ليست طويلة بعد تلك الرحلة. وحلَّ مكانه رئيساً لشركة ماين الشخص الذي كان تحت رعايته، برونو زامبوتي. مع ذلك ثبُت في النهاية صحة تحليله لمستقبل الدولار. لم يكن فريق نيكسون مجرد فريق ذكي بل كان بارعاً.

كانت إسرائيل الحليف الأول لواشنطن في صراعها للدفاع عن سلطة الدولار. يعتقد معظم الناس بمن فيهم أغلبية الإسرائيليين أن قرار تل أبيب بشن هجوم استباقي ضد مصر، وسورية، والأردن على طول حدود هذه الدول معها، والذي عرف فيما بعد بحرب الأيام الستة عام 1967، كان الدافع فيه هو تصميم إسرائيل على حماية حدودها. كانت النتيجة الواضحة لهذه الحرب هي توسُّع إسرائيل الإقليمي، في نهاية ذلك الأسبوع الدامي، ضاعفت إسرائيل الأرض التي تسيطر عليها بمقدار أربع مرات، على حساب الناس الذين يعيشون في القدس الشرقية، أجزاء من الضفة الغربية، سيناء في مصر، وهضبة الجولان السورية. مع ذلك، خدمت حرب الأيام الستة غرضاً آخر.

شعر العرب بالإهانة والغضب بسبب خسارة أراضيهم. كان الكثير من غضبهم موجهاً ضد الولايات المتحدة؛ عرفوا بأن إسرائيل لم تكن أبداً لتنتصر دون الدعم المالي والسياسي الأمريكي، بالإضافة إلى التهديد الذي لم يكن خافياً بأن جنودنا كانوا يقفون منتظرين الأوامر بالتدخل في حال، على الأرجح لم يكن ليحدث، احتاجتهم إسرائيل. أدرك بعض العرب بأن دوافع واشنطن كانت أبعد أنانية بكثير من الدفاع عن وطن اليهود فقط، أو أن البيت الأبيض سيُحَوِّل غضب العرب لمصلحته.

حليف نيكسون الثاني غير المتوقع كلياً، كان العالم الإسلامي في الشرق الأوسط برمته.

رداً على حرب الأيام الستة في عام 1967، شنت مصر وسورية هجوماً متزامناً على إسرائيل في 6 تشرين الأول 1973 (يوم كيبور، أقدس الأعياد الدينية لدى اليهود). كان الرئيس المصري أنور السادات يعرف بأنه يقف على أرض رخوة فضغط على ملك السعودية، الملك فيصل، لتوجيه ضربة ضد الولايات المتحدة (وبالتالي ضد إسرائيل) بطريقة جديدة. باستخدام ما أشار إليه السادات بـ "سلاح البترول".

في 16 تشرين الأول أعلنت السعودية وأربع دول عربية أخرى في الخليج العربي زيادة 70% في الأسعار الجديدة للنفط، تضامنت إيران (التي هي بلد مسلم، ولكن غير عربي) مع هذه الدول. خلال الأيام التي تلت اجتمع وزراء البترول العرب، واتفقوا على أنه يجب معاقبة الولايات المتحدة لوقوفها مع إسرائيل، ووافقوا بالإجماع على فكرة حظر تصدير النفط.

كان ذلك لعبة شطرنج تقليدية عالمية. في 19 تشرين الأول طلب نيكسون من مجلس الشيوخ مساعدات لإسرائيل بقيمة 2.2 بليون دولار. في اليوم التالي وبقيادة السعودية، فرض منتجو النفط العرب حظراً كاملاً على شحنات البترول إلى الولايات المتحدة. فقط بضعة أشخاص أدركوا في حينها ان الدافع الخبيث وراء تحرك واشنطن كان هوتصميمها على دعم الدولار.

كان تأثير ما جرى هائلاً. فقفز سعر شراء البترول السعودي ليسجِّلَ رقماً قياسياً جديداً؛ في 1 كانون الثاني 1974 ارتفع سعر البرميل إلى حوالي سبعة أضعاف عما كان عليه سعره منذ أربع سنوات. أنذر الإعلام بأن اقتصاد الولايات المتحدة كان على حافة الانهيار. شكلت السيارات صفوفاً طويلة على محطات الوقود على امتداد البلاد، بينما عبر الاقتصاديون عن خوفهم من احتمال أزمة اقتصادية على غرار ما حدث في عام 1929. كانت حماية إمداداتنا النفطية أولوية، وفجأة أصبح ذلك هاجساً.

نعلم الآن أن حكم تحالف أثرياء المال والشركات لعب دوراً فعالاً في رفع أسعار البترول إلى تلك المستويات العالية. على الرغم من أن أصحاب الأعمال والقادة السياسيين، بمن فيهم مدراء شركات النفط، قد تظاهروا بالغضب، لكنهم كانوا سادة المسرح، يشدون الخيوط ويحركون الدمى. أدرك نيكسون ومستشاروه أن حزمة المساعدات البالغة 2.2 بليون دولار لإسرائيل ستجبر العرب على أخذ مواقف متطرفة. وبواسطة دعم إسرائيل خلقت الإدارة الأمريكية وضعاً قد ولّد ما كان أهم وأبرع صفقة لرجل اقتصاد مأجور في القرن العشرين.

اتصلت وزارة المالية الأمريكية بشركة ماين وبمؤسسات أخرى كانت أثبتت فاعليتها كتابع موثوق لحكم تحالف أثرياء المال والشركات. كانت مهمتنا مزدوجة: 1) صياغة استراتيجية تضمن بأن أوبك ستوجه البلايين من الدولارات التي أنفقناها على شراء النفط إلى شركات أمريكية. 2) تأسيس "مقياس نفط" جديد يحل محل "مقياس الذهب" القديم.

نحن رجال الاقتصاد المأجورون علمنا بأن المفتاح لأية خطة كهذه هو السعودية. لأن السعودية تحوي نفطاً أكثر من أي بلد آخر، وبالتالي قرارها يتحكم بأوبك؛ كانت العائلة المالكة السعودية فاسدة، مما جعلها هدفاً مكشوفاً. وكأي نظام ملكي في الشرق الأوسط، فهم السعوديون السياسة الاستعمارية. كانت المَلَكية وُضعت في البيت السعودي من البريطانيين.

شرحت في كتابي "اعترافات رجل اقتصاد مأجور" التفاصيل التي كانت خلف الاستراتيجية التي ساعدتُ على رسمها - قانون غسيل الأموال السعودي - لكن سأوجزها هنا: وافق السعوديون على ثلاثة شروط هامة: العمل على 1) توظيف قسم كبير من عائدات البترول الدولارية في شراء سندات مالية من حكومة الولايات المتحدة. 2) السماح لوزارة المالية الأمريكية باستعمال فوائد هذه السندات والبالغة تريليونات من الدولارات في استخدام شركات أمريكية للعمل على تطوير وتحديث المملكة وجعلها غربية الملامح. و3) الحفاظ على أسعار النفط بالحدود المقبولة بالنسبة إلى الشركات المستثمِرَة من جانبها تعد الولايات المتحدة بالإبقاء على العائلة السعودية في السلطة.

كانت هناك أيضاً اتفاقية إضافية، لم تجد طريقها إلا إلى عدة صحف فقط، لكن كانت حاسمة بالنسبة إلى حاجة حكم تحالف أثرياء المال والشركات للحفاظ على الدولار كمعيار نقد عالمي. تعهدت السعودية ببيع النفط بالدولار الأمريكي حصراً. بجرَّة قلم، أعيدت سلطة الدولار وحل النفط محل الذهب كمقياس في تقدير قيمة العملة.

كما ذكرت في المقدمة، كان هناك فائدة جانبية لذلك - فائدة قدَّرها فقط أذكى الاقتصاديين. سُمِح لواشنطن أن تستمر بفرض ضريبة مخفية على كل دائن أجنبي. فلإن الدولار قد ساد، اشترينا بضائعهم وخدماتهم بالدين. وعند الوقت الذي كانوا فيه قد استخدموا هذا الدين الذي لهم علينا لشراء نفط (أو أشياء أخرى) من شركاتنا، كانت قيمة اعتماداتهم الحقيقية قد نقصت بسبب التضخم: كان الفرق بين تلك المبالغ الحقيقية والمبالغ الاسمية يذهب إلى جيوب حكم تحالف أثرياء المال والشركات - ضريبة دون الحاجة إلى جباة.

ثَبُت صحة نبوءة جاك دوبر بأن قيمة الدولار ستحدد بواسطة النفط. عندما حشرت واشنطن وتل أبيب العرب في الزاوية، لم يكن لدى العرب خيار إلا أن يردوا الضربة في حرب تشرين، ومن خلال المقاطعة التي فرضتها أوبك. دفع هذا وزارة المال الأمريكية إلى التحرك. جُنِّد رجال الاقتصاد المأجورون لعقد صفقة مع السعودية وإعلان زفاف الدولار إلى النفط.

كان الدولار الملك المتوَّج، وقد ملك السيادة منذ ذلك الحين.

غيّر قانون غسيل الأموال السعودي الخرائط الجيوسياسية. ساعد على إسقاط الاتحاد السوفييتي، وطد الولايات المتحدة كقوة عظمى وحيدة في العالم، وأغضب أسامة بن لادن، المليونير السعودي الذي سيكون العقل المدبر لـ 11 أيلول.

عندما أتطلع إلى الوراء، أُدهَش بالصفاقة التي كنا نتعامل بها تلك الأيام. غالباً ما أفكر حول الدور الذي يلعبه القدر في مصائر حياتنا والطريقة التي كنا نتفاعل بها معه.

إنني شخصياً لم أكن لأضطلع بمهمة معقدة كتعقيد قانون غسيل الأموال السعودي ما لم أكن قد تلقيت تدريباً منذ بضع سنين سبقت ذلك في لبنان.

31 التأثير على الحكومات

خلال مهمتي الأولى في أندونيسيا أثبتُ لرؤسائي بأنني كنت مستعداً لخلق التنبوءات الاقتصادية المبالغ فيها التي كانوا يطلبونها. كمكافأة لي رقوني إلى منصب الاقتصادي الأول (على الرغم من أنني كنت أحمل فقط إجازة جامعية في علوم إدارة الأعمال وكنت في ذلك الوقت الاقتصادي الوحيد في الشركة)، أعطوني زيادة في الراتب، وأرسلوني إلى الشرق الأوسط.

كنت قد كتبت سابقاً تقارير عن إيران، الكويت، والسعودية، لكن عملت في هذه البحوث في المكتبات ومن خلال مقابلات مع أناس من تلك البلدان كانوا يعملون لدينا في بوسطن. كانت رحلتي الأولى رحلة قصيرة للتعرف على إيران وتحضير تحاليل أكثر عمقاً لقطاع الطاقة فيها. اقترح شارلي إيلينغورث، الذي كان مدير المشروع الذي عملت فيه في أندونيسيا، أن أتوقف في بيروت لمدة يومين. في حينها كانت المدينة ما تزال تحتفظ بسمعتها كمكان للتسلية والترويح. قال لي، إنها ستكون مكاناً مثالياً للراحة، أعتاد فيه على الفرق في اختلاف الزمن بين هنا وهناك، وتألف نفسي ثقافة وعادات الشرق الأوسط. كان يعرف أحد الأشخاص في السفارة حيث سيعرفني على المدينة.

تمتعت لبنان بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بعصر ذهبي. ازدهرت الزراعة وصناعات صغيرة مختلفة. تطورت بيروت لتصبح مدينة عالمية غنية ومركز الشرق الأوسط البنكي والتجاري. بينما كنت أقرأ حول هذا البلد قبل موعد سفري، أثار اهتمامي أن أجد تكراراً في التشابه بينها وبين كل من سويسرا وباريس. كنت متدهشاً لأعلم أن منتجعات التزحلق على الجليد تنتشر في الجبال المحيطة ببيروت، مدينة بحرية متوسطية كنت قد تخيلتها واقعة على حافة الصحراء. وتضاهي الملاهي ودور العرض الفنية فيها تلك الموجودة في باريس.

قرأت أيضاً حول الجانب المعتم من لبنان؛ امتد إلى الماضي السحيق وبدا أنه يتحول إلى ظلامٍ أكثر مع كل لحظة تمضي.

توتر شحن الفرق والطوائف الدينية لقرون. حكم المسيحيون المارونيون المناطق الساحلية. سادت سيطرة الطائفة الدرزية على الجبال الجنوبية، بينما كانت تحكم السنة وادي البقاع الخصيب. كان معظم الموارنة سوريين، هذه الحقيقة خلقت توترات إضافية بين المسلمين العرب. وبغض النظر عن هذه الخصائص المحدَّدة، اكتشفت بأن لبنان كان نوعاً من صورة مصغَّرة عن الشرق الأوسط.

أرادت أوروبا أن تسيطر على لبنان منذ حملات الصليبيين، واستمرت خلال قرون في محاولة استعماره. غزا الجنود الفرنسيون لبنان في أواخر القرن الثامن عشر بادعاء واجب حماية المسيحيين. تولت باريس دور الرعاية الخاص بالقوى الإمبريالية، وأرسلت جنودها عدة مرات خلال القرن التاسع عشر. في عام 1926 شكلت فرنسا الجمهورية اللبنانية التي

كانت تُحكم من سلطات الانتداب الفرنسي في سورية. في عام 1940 أعلن الحكام الفرنسيون في بيروت الحلف مع حكومة فيشي في فرنسا التي كان يسيطر عليها النازيون. حالما وقعت فرنسا تحت الاحتلال الألماني سمحت سلطات فيشي في 1941 لألمانيا بنقل طائرات ومؤن عبر سورية إلى العراق، حيث كانت تستعمل ضد القوات البريطانية. تخوفت بريطانيا من أن تبسط ألمانيا النازية سيطرتها الكاملة على لبنان وسورية بواسطة الضغط على حكومة فيشي الضعيفة، فأرسلت جيشها إلى المنطقة.

اكتسحت الحماسة القومية العديد من البلدان خلال الحرب العالمية الثانية. أخذت لبنان استقلالها الكامل في 1 كانون الثاني 1944. وُضع ميثاق وطني قبله اثنان من القادة الأكثر شهرة عن المسيحيين والمسلمين، بشارة الخوري ورياض الصلح، وقد قسم هذا الميثاق السلطة السياسية بين طوائف الأمة المختلفة. قدَّر الإحصاء الذي جرى في عام 1932 نسبة المسيحيين بـ 54٪ من عدد السكان، وفرض بأن يكون الرئيس من صفوف الأغلبية الموارنة بينما يأتي رئيس الوزراء الأقل سلطة من السُنة، ويكون رئيس مجلس النواب شيعياً، وقائد الجيش مارونياً. شعر كثير من المسلمين العرب أن إحصاء 1932 الذي مضى عليه 12 سنة قد عفا عليه الزمن وأن عدد المسلمين الآن يفوق في الحقيقة عدد المسيحيين، كانوا غاضبين على هذا التقاسم في السلطة بهذا الشكل الذي حَرَّفَ كفة الميزان لمصلحة المسيحيين في لبنان. ولمصلحة الغرب بشكلٍ عام.

ارتاب العرب أيضاً بخلق إسرائيل كدولة جديدة في المنطقة وبأنها لم تكن فقط كما أعلن عنها كملجأ لليهود بل توجسوا بأنه كان لها وظائف أخرى.

إسرائيل هي الدولة الوحيدة في التاريخ التي كانت تحت انتداب الأمم المتحدة ومكانٌ دعاه اليهود "أرضهم الموعودة". قُدمت إسرائيل كملتجأ لليهود بعد ما لاقوه من الرعب النازي. قيل للعرب كما قيل للأمريكيين والأوروبيين أن ما ارتكب من أعمال وحشية ضد اليهود حتَّم خلق مثل هذه الدولة. معاناة اليهود والأذى الذي لحق بهم من النازية كان أمر مسلماً به. لا يوجد أي تساؤل بأن العالم يدين لهم بشيءٍ ما أفضل. لكن من أجل أن يحدث ذلك، أُجبر ملايين الفلسطينيين على ترك بيوتهم. تحولوا بين ليلة وضحاها إلى لاجئين، نزحوا إلى لبنان، وإلى كل بلد آخر في الشرق الأوسط.

تَدَفُق الفلسطينيون إلى لبنان أكد بأن إحصاء 1932 لم يكن دقيقاً: لا يمكن أن يكون هناك أي شك بأن عدد المسلمين الآن يفوق عدد المسيحيين في لبنان. الإدراك بأن الميثاق الوطني قد استعمل كسلاح سياسي كان برهاناً آخر للمسلمين على أنه كان يوجد غرض ثانٍ أكثر شؤماً خلف خلق دولة إسرائيل، لتكون خادمةً للإمبريالية، وقاعدة عسكرية متقدمة للمنتصرين في الحرب العالمية الثانية، صُمِّمَت للتحكم ببترول الشرق الأوسط. وارتابوا بأن

لبنان كانت تهيئ لدعم إسرائيل وحلفائها؛ وكانت قيادة المسيحيين التي أسست بموجب الميثاق الوطني جزءاً من المؤامرة المشؤومة.

انفجر استياء اللبنانيين وأدى إلى ثورة في عام 1958. حمل السياسيون في الولايات المتحدة "الشيوعيون الإرهابيين" المسؤولية. واتهمت واشنطن موسكو بإشعال هذه الثورة، على الرغم من أنها قد دُعمت من سورية أكثر مما دُعمت من الاتحاد السوفييتي. أرسل الرئيس إيزنهاور قوات البحرية الأمريكية واحتلوا لبنان لفترة وجيزة، من أيار حتى تشرين الأول، لكن وجودهم هناك قد أثبت صحة شكوك العرب بأن واشنطن مصممة على إبقاء المسيحيين في السلطة. ترك استعداد الرئيس الأمريكي للتدخل العسكري تأثيراً عميقاً على المدى الطويل في نفوس العرب على امتداد المنطقة.

أثار سخط اللبنانيين أيضاً التدخل العدواني الأمريكي في العراق. خلال أواخر الخمسينات وأوائل الستينات كان تحدي الرئيس العراقي الشعبي عبد الكريم قاسم يتعاظم ضد الولايات المتحدة وبريطانيا. طالب شركات البترول الأجنبية بمشاركة الشعب العراقي في الأرباح التي تكسبها من النفط العراقي وهدد بتأميمها إذا لم يذعنوا لمطالبه.

عندما فشلت جهود الرجل الاقتصادي المأجور في التأثير على قاسم ترغيباً أو ترهيباً، استخدمت وكالة الاستخبارات الأمريكية سي آي إيه فريق اغتيال شمل شاباً لم يكن قد أنهى تعليمه المدرسي بعد: صدام حسين. فتح فريق الاغتيال النار على سيارة قاسم. أمطروها بالرصاص وثقّبوها كالغربال، لكنهم استطاعوا جرحه فقط ولم يمت. أصيب صدام في رجله وفرّ هارباً إلى سورية.

في عام 1963 أخذ الرئيس كينيدي قراراً مصيرياً: أمر الـ سي آي إيه بالانضمام إلى الاستخبارات البريطانية في مهمة كان قد فشل فيها القتلة المأجورون.

قتلوا قاسم بواسطة فرقة إعدام، وأطلقوا النار عليه بينما كان التلفزيون العراقي يصور، بعد ذلك، اعتقل ما يقدر بحوالي 5000 شخص، وأعدموا بتهمة الشيوعية. خلال بضع سنين أعيد صدام حسين وعُيّن رئيساً للأمن الوطني، وأصبح قريبه من الدرجة الثانية رئيساً للبلاد.

خلال نفس الفترة كان الوضع السكاني "الديموغرافي" في لبنان يتغير بشكل جوهري. زاد عدد السكان المسلمين بأسرع من زيادة عدد المسيحيين. طالبوا بإعادة النظر في الميثاق الوطني لكن الموارنة رفضوا، واستمروا في الهيمنة على الحكم. وتأكد تهديد واشنطن بأنها سترسل جنوداً مرة ثانية لدعم المسيحيين بإعادتها للجندية الإلزامية وبناء قواتها المسلحة حول العالم.

تغيرت أيضاً الجغرافيا السياسية "جيوبوليتك". احتلت إسرائيل في حرب الأيام الستة 1967 أجزاء من القدس الشرقية، سورية، ومصر. كان العالم العربي مليئاً بالغضب. زاد

الدعم للفلسطينيين. واستخدمت منظمة التحرير الفلسطينية مخيمات اللاجئين في جنوب لبنان كقواعد تشن منها الهجمات على إسرائيل.

عند ذلك الوقت الذي كنت فيه في طريقي إلى بيروت في عام 1973 كان يتلاشى آخر مظهر من مظاهر الاستقرار في لبنان. مع ذلك وكمعظم الأمريكيين الذين لا يتكلمون العربية، وبالتالي يتواصلون فقط من خلال رجال قد تلقوا تعليمهم في المدارس الأمريكية أو البريطانية والذين يعتمد نجاحهم على استمرار وجودنا في بلدهم، كنت ساذجاً إلى حدٍ كبير. استطعت أن أقرأ حول التاريخ القائم لتلك الأماكن مثل لبنان؛ فهمت بأنه كان يوجد عداء عميق مستفحل بين المسلمين والمسيحيين واليهود: لكن كنت قد تدربت على الاعتقاد بأن الرأسمالية تصنع المعجزات. كنت قد ترقيت حديثاً إلى منصب جديد، أحجز في مقاعد الدرجة الأولى عندما أسافر، أنزل في أفخم الفنادق، وأتناول طعامي في أرقى المطاعم - وبشكل متكرر تكون معي امرأة جميلة - مع رجال أعمال أمريكيين، مستشارين، موظفين حكوميين كبار، و"خبراء" من البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، كنت واثقاً بأننا كنا نتقدم بخطى سريعة باتجاه التقدم والديمقراطية في كل مكان في الشرق الأوسط.

لبنان ستفتح عيوني على واقع مختلف.

32 لبنان: متصلبون مخبولون مسعورون

أخذني سائق من مطار بيروت إلى فندق انتركونتيننتال الفينيقي الفخم. رحب بي بواب الفندق الشاب بحماسة، أخذ حقائبي، وقادني إلى ردهة الفندق. وبينما كنت أستدير إلى الخلف من أمام مكتب الحجوزات، اصطدمت برجل آخر. خطوت إلى الوراء واعتذرت منذهلاً بالوجه المألوف. ابتسم لي الرجل بمكر، وتمتم بصوت لا يمكن نسيانه: "حصل خير، لا تهتم".

مسك البواب يدي، ودفعني بعيداً، ثم توقف. قال: "نعم، إنه مارلون براندو، جارك الليلة". هز رأسه، وأضاف: "إنه حاد الطبع. الرجاء لا تطلب منه أن يوقع لك تذكاراً".

بينما كنا نتجه إلى المصعد لم أستطع إلا أن أحدق فيه ببلاهة. بدا براندو أكثر عمراً منذ آخر مرة كنت قد شاهدته فيها في أحد أفلامه، لكن لم يكن هناك أي شك بأن هذا الرجل كان في الواقع هو الممثل الكبير، الذي طالما أعجبت بأدائه في فيلم "على رصيف الميناء" و"تراموای يدعى الرغبة". كنت قد قرأت حول أحدث أفلامه، احتراق! - ادّعى براندو بأنه كان أفضل أدواره حتى الآن. اعتبرتها بشارة خير بأنني صادفت وجهاً لوجه هذا الممثل الكبير الثائر المدان من النظام في أول رحلة لي إلى الشرق الأوسط. عندما شاهدت أخيراً بعد سنوات عديدة فيلم "احتراق!" دُهشت بشكل عميق لسخرية القدر: لعب براندو دور رجل اقتصاد مأجور سابق في هذا العمل الإبداعي حول بناء الإمبراطورية.

في صباح اليوم التالي أخذني صديق شارلي إيلينغورث بسيارته. قدم نفسه لي باسم "باسم" لم أستطع أن أخمّن لماذا كان يدعى بهذا الاسم؟! فلم يكن بطبعه شخصاً مرحاً وقلّما أظهر التعبير الذي كان واضحاً بأنه قد سمي به. كما اكتشفت لاحقاً لم يكن باسم يعمل في السفارة، بل كان يعمل في الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، قضى كل حياته المهنية فيها وهو الآن يقترب من سن التقاعد، طلب بأن يكون لبنان آخر مهمة له؛ كان والداه قد قدما إلى لبنان في حملة تبشيرية، فأراد أن يتقاعد في البلد الذي قضى فيه سنين شبابه. لكنه قد غيّر رأيه الآن.

طلبت منه أن يأخذني إلى بعض مخيمات اللاجئين الفلسطينيين التي كنت قد سمعت عنها الكثير. تردد في البداية، ومن ثم وافق أن يقودني عبر أحد هذه المخيمات. على الرغم من تجاربي ومشاهداتي في أندونيسيا فقد صدمت بمدى الفقر والمهانة اللذين كان يعانيهما سكان هذه المخيمات. يتألف المخيم من أكواخ تزدحم بجانب بعضها البعض ومحاطة

بأسيجة. فكرت بصوت عالٍ: "كيف لهؤلاء الناس أن يحتفظوا بعقولهم". أكد لي باسم "إنهم لا يحتفظون بعقولهم، إنهم متصلبون مخبولون مسعورون، جميعهم كذلك".

أقلقني عميقاً ذلك اليوم. لقد عشت مع المزارعين في أدغال الأكوادور كمتطوع في فرق السلام وأثار اشمئزازي حياة الترف التي كان يعيشها أعضاء السفارة الأمريكية والعاملون في الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية. كنت أقرف من بيوتهم الفخمة، سياراتهم الفارهة، وملابسهم الأنيقة وبالهوة الواضحة بينهم وبين غالبية الإكوادوريين. لم أكن أسمع أبداً أحداً منهم يتحدث كما يتحدث باسم. أذهلني ما كان في كلامه من مرارة وقسوة وتحامل صريح واستعداده للبوح بهذا كله إلى شخص غريب مثلي. سَخر بالإسلام، مقارناً ما أشار إليه بـ "النبي الشاهر سيفه" في الإسلام مع "أمير المحبة والسلام" في المسيحية. فكرت أن أذكر له الدور الذي لعبته الكنيسة الكاثوليكية في إثارة الحروب، ورحمة العرب وقائدهم صلاح الدين بالأسرى الصليبيين مقارنة مع ذبح السجناء المسلمين من فرسان أوروبا. لكنني خفت منه: كنت الشاب الجديد في الحارة، فمسكت لساني عن الكلام. حاولت أن أكتب نقده اللاذع العنيف كنقد حاد. لكنني افترضت أنه عند هذه النقطة في حياته لن يأبه لما أظن به أنا أو غيري، فقد كان على وشك التقاعد، خيّب أمله المكان الذي كان يحلم بأن يعيش فيه.

مثل العديد من الناس الذين يشعرون المرارة والأسى، كان ينفث عن خيبة أمله وإحباطاته بهؤلاء الناس الأقرب، الذين لا حول لهم ولا قوة، بالفلسطينيين العزل الضعفاء.

أنزلني باسم أمام الفندق. دعوته للعشاء، لكنه قال بأن لديه التزامات أخرى. عندما تصافحنا، أبقى يدي في يده، وقال: "إنني آمل أن لا تفهمني بشكلٍ خاطئ. أنا لست متشائماً. إنني أعلم تماماً بأننا سننتصر في النهاية. هذا ما يجب علينا. إن الإسلام دين زائف. يفتقر إلى الضمير والروح. تخيل ما يعادل المسيح لديك يجوب شاهراً سيفه يقطع رؤوس الناس! أي نوع من الأديان هذا؟"

فكرت وأنا أتعشى وحيداً في الفندق الفينيقي حول ذلك التعليق الأخير من باسم. أقنعني الوقت الذي قضيته في بيروت بأن الصدام بين الثقافات ـ خصوصاً حول الدين ـ كان سبباً

علنياً للعديد من المشاكل في الشرق الأوسط، على الرغم من أنّه ليس من الضرورة أن يكون هو السبب الأصلي. عرفت بأن الحملات الصليبية قد نظمتها الكنيسة كحرب ضد ما دعي "قوات الشيطان الإسلامية". مع ذلك قرأت أيضاً بأن أوروبا كانت تعاني النزاعات، البطالة العالية، والوباء وكانت ناضجة للثورة فاستخدمت الأرستقراطية الحملات الصليبية لتوجه غضب شعوبها خارج الحدود، وتضم أراضي جديدة. كنت مصدوماً بالمقارنة بين نظرة "باسم" للإسلام، وبين ما كنت سمعته منذ بضعة أشهر فقط في أندونيسيا.

عندما كنت في باندونغ المدينة الجبلية الواقعة غرب جزيرة جاوا، صادقت شاباً كانت والدته تدير بيت الضيافة. حيث كنت أنزل فيه أنا وبقية فريق شركة ماين. كما كنت وصفت في "اعترافات" قدمني راسي إلى عدد من أصدقائه الجامعيين. اصطحبوني ذات ليلة إلى "دالانج" عرض جاوي تقليدي للدمى المتحركة، وقفت دميتان إحداهما تمثل ريتشارد نيكسون، والأخرى اعتبرتها على أنها هنري كيسنجر إلى جانب خريطة تمثل الشرق الأوسط، والشرق الأبعد، كان كل بلد معلقاً، ويتدلى من خطّاف فوق موقعه الخاص على الخريطة. رفع نيكسون البلدان المعلقة، ودفعها في فمه. كل مرة كان يلتقط فيها بلد من الشرق الأوسط، يتذوقه، ويصرخ "مرّ، علقم، نفاية. لا نريد المزيد من ذلك!" ومن ثم يرمي به إلى سلة يحملها هنري كيسنجر.

بعد العرض، انسحبنا أنا والطلاب إلى مقهى محلي. شرحوا لي أنه في رأي الكثير من الأندونيسيين، أن الولايات المتحدة كانت تشن حرباً ضد المسلمين. أعلموني أن في الخمسينات كان المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي قد تنبأ بأن الحرب الحقيقية في القرن المقبل سوف لن تكون بين الشيوعيين والرأسماليين بل ستكون بين المسيحيين والمسلمين.

شرحت لي فتاة كانت تدرس الإنكليزية في الجامعة وجهة نظرهم. قالت: "إن الغرب بقيادة الولايات المتحدة مصممٌ للسيطرة على كل العالم، ليصبح الإمبراطورية العظمى في التاريخ. لقد أصبحوا قريبين جداً من النجاح. يقف الآن الاتحاد السوفييتي في طريقه، لكن السوفييت لن يثبتوا. فهم ليس لهم دين ولا إيمان، لا تستند إيديولوجيتهم على جوهر باقٍ حي. أثبت التاريخ بأن الإيمان بالروح والاعتقاد بقوى فوقية أساسي. نحن المسلمون نملك هذا الإيمان. نملكه أكثر من أي شخص آخر في العالم، حتى أكثر مما يملكه المسيحيون. لذلك ننتظر. إننا ننمو أقوى فأقوى".

نظرت الفتاة في عيني وتابعت: "كفوا عن طمعكم الشديد وأنانيتكم. افهموا بأن هناك في العالم الكثير غير بيوتكم الكبيرة ومتاجركم الفاخرة. يموت الناس جوعاً، وأنتم لا هَمّ لكم غير النفط من أجل ترفكم. يموت الأطفال عطشاً، وأنتم تبحثون في صفحات الأزياء عن أحدث الموديلات. تغرق أمم كمثل أمتنا في الفقر، لكن شعبكم لا يسمع نداءنا للمساعدة. ختمتم على آذانكم لا تسمعون أصوات هؤلاء الذين يحاولون أن يقولون لكم هذه الأشياء.

وصمتموهم بالتطرف والشيوعية. يجب عليكم فتح قلوبكم للفقراء والمضطهدين، بدلاً من دفعهم أبعد فأبعد إلى مهاوي الفقر والعبودية. لم يبق لديكم الكثير من الوقت فإما أن تتغيروا الآن وإلا سيكون موعد حسابكم قريباً".

استرجعت بذاكرتي ذلك المساء وأحدث يوم لي مع باسم، فكرت فيما إذا كان هناك أي أمل لعالم أصبح الدين فيه مبدأ أساسياً في الاستغلال؟ كيف يمكن للكثير الكثير من الناس أن يُعلِّموا النظر إلى الدين بشكل مختلف تماماً عما هو عليه؟ كيف يمكن لرسالة النبي محمد ورسالة المسيح أن تُستخدما كلتاهما لتبرير الحروب؟

ظلت مضامين تلك الأسئلة تلاحقني. إن تلك الزيارة الأولى إلى الشرق الوسط خلقت لدي وجهة نظر جديدة حول أهمية الدين في السياسات العالمية. كان ذلك في مصر، مع ذلك إنني شخصياً قد اختبرت قوة الدين عندما يُستخدم كوسيلة للحقد والكراهية.

33 الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية تتحدث

"ترمز أهرامات مصر إلى الدور الذي يجب أن يلعبه هذا البلد، إذا كنا نريد أن نريح قلوب وعقول العرب"، هذا ما قاله ماك هول، رئيس شركة ماين الغامض البالغ ثمانين سنة، لمجموعة منا كنا قد اجتمعنا على الغداء في نادي المهندسين الأنيق الذي يقع في الطابع العلوي من برودانشال تاور، أعلى بناء في بوسطن ومركز المكاتب الإدارية لشركة ماين. أضاف ماك: "ستشكل مصر قاعدة عريضة وصلبة. ومن ثم سنكدسهم فوق بعضهم البعض بلداً بعد بلد".

كان ذلك في عام 1974، مرحلة بالغة الأهمية في تاريخ مصر الطويل. كانت شركة ماين وزبائننا من الشركات المستثمرة الكبيرة مصممين على استغلال هذه الفرصة. وقد فتح الباب عقداً كنا قد وقعناه لإتمام دراسة رئيسية في الإسكندرية. حضر مأدبة الغداء موظف يعمل في الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، جاء من واشنطن ليعطينا لمحة عن تاريخ مصر، ويطلعنا على أهداف عملنا هناك.

كل شيء فيه كان يبرز دوره كممثل عن الحكومة، نموذج جديد لمستعمر مخلص ومحب: شعره القصير، شارباه المقصوصان بعناية، قميصه الأبيض، طقمه الرمادي، ربطة العنق الزرقاء المخططة بالأحمر، شارة علم الولايات المتحدة المثبتة على طية صدر بدلته والشارة الأخرى على الطية الثانية التي تمثل يداً سوداء تصافح يداً بيضاء. جلس إلى الطاولة بجمود، وبينما كان يتحدث كان يلقي بين الفينة والأخرى نظرات مميزة على ماك هول. أدركت بأنه جاء إلينا بعدة صفات: كخبير حول مصر، الرجل الذي سيقيّم دراستنا، ويصدّق على دفع أجورنا، وأيضاً كموظف محتمل، فموظف واشنطن الحكومي هو دائماً يبحث عن عمل أفضل أو عمل مريح بعد التقاعد كمستشار لإحدى الشركات.

بينما كان يصف تجاربه وخبراته حول الشرق الأوسط، روى تاريخ مصر وكأنه يناجي نفسه، مشدداً على أن قروناً من الهيمنة الأجنبية قد وضعت الأساس لأحداث ما بعد الحرب العالمية الثانية. قال وهو يلفظ الكلمات وكأنها تخز لسانه: "أصبح تأثير الأخوان المسلمين كبيراً. طالبوا بقطع علاقات مصر مع أوروبا. تحالف الأخوان مع حركة الضباط الأحرار، مجموعة ثورية من كبار ضباط الجيش المصري، في معارضة الملك فاروق المكروه لأنه كان ينتمي إلى عائلة ألبانية حازت على شهرة وحكمت مصر تحت راية الإمبراطورية العثمانية. وقد دُعمت فيما بعد من بريطانيا - ومن قبلنا. أطاح هذا التحالف بالملك فاروق، طبعاً لم يسعدنا هذا. حسناً، أنتم تعرفون من أتى بعده. عُيّن المقدم جمال عبد الناصر رئيساً للوزراء في عام 1954 ومن ثم في عام 1956 أصبح رئيساً للبلاد".

في "مغامرة طائشة" كما وصفها رجل الوكالة، أعلن ناصر استقلاله عن القوى الغربية. "تفاوض على عقد صفقات لشراء أسلحة سوفييتية. بالطبع سحبنا نحن والبريطانيون عروضنا لبناء سد في أسوان. أغضب ذلك ناصر. فقام بتأميم قناة السويس. ردت إسرائيل بغزو شبه جزيرة سيناء في عام 1956. طبعاً باستطاعتكم أن تكونوا واثقين بأنه كان لنا دورٌ في ذلك الغزو، لكن ليس على المستوى الرسمي. ادّعت كل من بريطانيا وفرنسا بأن القناة تشكل مصلحة حيوية بالنسبة إلى أمنهما الوطني. فضربتا مواقع مصرية بالقنابل، وأرسلت جيوشهما إلى المنطقة. كان من نتيجة ذلك أن اغلقت القناة".

تجهم وجه رجل الوكالة الأمريكية، وتابع: "ببساطة لم يكن باستطاعتنا السماح بذلك. إن العالم كان نهماً للبضائع الأمريكية ونفط الشرق الأوسط. نقل الأحمال عبر الطريق الطويل حول أفريقيا كان محفوفاً بالمخاطر ومكلفاً جداً. زار مجموعة من مدراء الشركات البيت الأبيض. التقوا بالجنرال إيزنهاور، الذي تسلم القيادة حديثاً". نظر بتكشير إلى هول. "أعلنت هدنة في تشرين الثاني 1956، ووصلت قوة حفظ سلام لمراقبة الحدود بين مصر وإسرائيل". توقف برهة عن الكلام ليشرب. وكما افترضت أنا، لأن يعطينا وقتاً للتمعن بكلماته وأفكاره المتلاحقة. تابع قائلاً: "جوهرياً، دفع العم سام كل من إسرائيل، وبريطانيا، وفرنسا للانسحاب. كنا قبل ذلك فقط بأقل من سنة قد أعدنا الرشد إلى إيران وذلك بخلع الشيوعي مصدق وإعادة صديقنا الشاه. الآن، الآن، نظهر للعرب بأننا نقف إلى جانبهم في مصر. أصبحت واشنطن الآن القوة المهيمنة في المنطقة بلا منازع".

هذا العرض ذاك المساء في نادي المهندسين الخاص، على قمة برودانشال تاور في بوسطن زاد من تشاؤمي وفي الوقت نفسه قوّى رغبتي في التمتع بالثمار المكدسة لهذه القوة المهيمنة التي أدعوها وطني. كان واضحاً بأن "الانتصارات" في إيران ومصر قد أسست لسيادة حكم تحالف أثرياء المال والشركات الكبيرة، وقد دفع لهذا الموظف الحكومي لكي يتبجح حول ذلك. إن هؤلاء، مدراء الشركات الذين يتحكمون بصناعة السلاح وبمعظم الاقتصاد الأمريكي قد أجبروا رئيس الولايات المتحدة على الإذعان لمطالبهم. الآن، وبعد أقل من عقدين من الزمن، كانت وكالة حكومية تنسج رؤيتها المعدلة للتاريخ بخطب رسمية. كنت مندهشاً لبراعة ومكر هؤلاء الناس، وشعرت بالتميز وبالذنب معاً لأكون مشاركاً في هذه المؤامرة لبناء، ما سأدركه لاحقاً، شيئاً لم يكن أقل من الإمبراطورية السرية الأولى في العالم.

ألقيت نظرة من خارج النافذة إلى تحت على نهر تشارلز، عكست الشمس عبر النهر في البعيد خطوطاً ملونة لأبنية جامعة هارفارد، التي بلا أدنى شك كان قد تخرج منها على الأقل عددٌ من أولئك المدراء الذين زاروا البيت الأبيض في ذلك اليوم. تذكرت خطاب إيزنهاور حول مجمع الصناعات الحربية. كان تناقضاً حاداً أن يكون ضابط الجيش هذا والقائد الأعلى لقوات التحالف خلال الحرب العالمية الثانية هو أول من يفضح على العلن

وجود ما نشير إليه اليوم بحكم تحالف أثرياء المال والشركات. لقد راقب ازدياد تأثير هؤلاء المدراء على سياسة الولايات المتحدة الخارجية خلال الحرب الكورية. لقد شاهد كيف يؤثرون على الإعلام وعلى مجلس الشيوخ واستخدامهم للتهديد الشيوعي المزعوم كذريعة للحد من الحريات المدنية. لقد وقف جانباً بينما كانوا يبيعون التكنولوجيا إلى الجيش لصناعة صواريخ موجهة تحمل رؤوس نووية إلى أراضٍ بعيدة. لكن في مصر، خلال أزمة السويس، بدأ حقاً يخاف من تحالف الحكومة، العسكر، والشركات الكبيرة. نعم، لقد أذعن، لكنه كان يغلي غضباً في أعماق أعماقه. رجل تدرب على أن يضبط نفسه، قد كان، على ما اعتقد، ينتظر الفرصة الملائمة، انتظر حتى انتهت فترة رئاسته، ومن ثم ألقى قنبلته. وكمثل الكثير من الشرفاء الذين عارضوا حرب فيتنام في أواخر الستينات، كنت قد علّقت نسخة مؤطرة من خطاب 17 كانون الثاني1961- خطاب الوداع - فوق طاولة مكتبي.

وصف إيزنهاور بلده الذي كان اقتصاده قد بني بمساعٍ سلمية. "حتى النزاعات العالمية الأخيرة لم تكن الولايات المتحدة تملك صناعات حربية. استطاع صناع المحاريث الأمريكية، مع الوقت ووفقاً للمتطلبات، أن يصنعوا السيوف أيضاً" . من ثم أطلق تحذيراً:

"يجب علينا في المجالس الحكومية أن ندافع ضد النفوذ غير الشرعي، إذا التمس أم لم يلتمس، من مجمع الصناعات الحربية. الاحتمال بحدوث الكوارث الناشئ عن وضع السلطة في غير محلها المناسب هو احتمال موجود ومستمر.

يجب علينا أن لا ندع أبداً ثقل هذه المجمعات يعرض حرياتنا أو عمليات التقدم للخطر. يجب علينا أن لا ننظر إلى أي شيء نتمتع به على أنه امتياز مسلم به لا يمكن الرجوع عنه. فقط، مواطنون متيقظون ومطلعون يستطيعون أن يفرضوا التشابك الصحيح للصناعات الضخمة وآلة الدفاع العسكرية مع طرقنا وأهدافنا السليمة، عند ذلك فقط يمكن أن يعم الأمن، وتزدهر الحرية معاً" .

أعاد صوت موظف الوكالة انتباهي إلى نادي المهندسين: "كان ناصر متهوراً، وقد فكر بأنه يستطيع أن يتفوق ذكاءً علينا. استمر بحماقة في مغازلة السوفييت. جعلهم يبنون السد العالي في أسوان. لك فقط أن تتخيل كيف شعر صديقك" . استدار باتجاه ماك هول . "السيد بكتل حول ذلك" .

ضحك هول وقال: "ليس فقط بكتل . جميعنا بلا استثناء، كل شخص يعمل في الحقل الهندسي" .

رد رجل الوكالة "هذا صحيح" .

تابع هول: "لكن كان لدى بكتل صلات، أذن الرئيس" . ألقى هول نظرة حول الطاولة . "كان بارعاً في تقبيل المؤخرة" . جعلنا هذا نضحك.

شـرب رجل الوكالـة مـاءً مـن كأسـه مـرة أخـرى قبـل أن يتـابع: "أثنـاء ذلـك عـاد الإخـوان المسلمون إلى مـسرح الأحـداث. لقـد شـعروا بـأن ناصـر قـد خـانهم بمـشاركته للشيوعيين الملحدين، وبرفضه لما اتفقا عليه عندما تحالفوا مع حركة الضباط الأحرار في إسقاط الملك فاروق. أرادوا من رئيسهم أن يتبنى القرآن كأساس للدستور. عندما رفض، أرسلوا واحداً من فريقهم الانتحاري لاغتيال جمال عبد ناصـر. لكن فشلوا بعملهم الأخرق، وانقلب السحر على الساحر. ازدادت شعبية ناصـر. حظـر نـشاط الأخوان، وأعدم قائد الجماعـة. اختبأ أولئك الـذين نجـوا ليعملـوا سـراً. بعضهم حـاول أن يخـترق نقابات العمـال، المـدارس، وحتـى الجيش. الكثير غادر البلاد إلى الأردن، السعودية، السودان، سورية، وكما تعلمون إلى الكويت أيضاً، حيث أن لديكم هناك مشروعاً كبيراً لكهربة البلاد. صح؟" تطلع إلى هول، وهـز برأسـه "حسناً، علـى مـدى الـسنوات تطـور الإخـوان، وأصـبحوا القـوى الإسـلامية الأعظـم تـأثيراً في العالم. هدفهم أن يطردونا - كل من ينتمي إلى الغرب، كل المسيحيين وثقافاتهم - خارج الشرق الأوسـط، وإسـقاط القـادة العلمـانيين، كمثـل هـؤلاء الموجـودين في مـصر وإيـران، واسـتبدالهم برجال دين".

فكرت أن أسأله حول الإشـاعات الـتي قـد سمعتها، بأنـه علـى الـرغم مـن أهـدافهم المعلنـة وبسبب معارضتهم للشيوعية، استلم الأخوان أموالاً، وتلقوا تدريبات من الـ سـي آي إيه. لكن عرفت بأنه كان يستطيع فقط أن يجيب على سؤال هكذا بطريقـة واحـدة، وسؤال كهذا قد يكلفني ثمناً غالياً، وخصوصاً تحت هذه الظروف.

قال: "أية أسئلة؟" تطلع حوله وتابع: "انتهينا تقريباً. كانت الستينات مرحلة مضطربة في مصر. بدأ ناصر بإصلاحات اقتصادية، ماركسية، متضمنة أمراً رسمياً بـأن لا تقل حصة الحكومة من قطاع الأعمال المصري عن 51٪ كان ذلك كارثة وكل ما عملته هذه الإصلاحات أن أثارت غضبنا أكثر. بقيت قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام حتى عام 1967، حدث قتال متقطع بين القوات المصرية والقوات الإسـرائيلية حتـى عام 1970، ويستمر إغلاق القناة بوجه السفن حتى هذا اليوم. مات ناصر منذ أقل مـن أربـع سنوات في 1970. تولى السلطة بعده نائب الرئيس أنور السادات.

عملنا بجهد لتطويـع الـسادات، وجلبـه إلى جانبنـا. صـدقوني، فأنـا كنـت هنـاك. قـاوم في البداية. وأتم صفقة كبيرة بموجب المعاهدة المتعاقد عليها مع السوفييت أيام ناصـر. بدا بأنـه كان يتمتع بتحديه لنا. لكن تجاهلنا الإهانات، وبقينـا هنـاك نحـاول. في النهايـة أثمـر صـبرنا، ونجحت محاولاتنا. عمل السادات شيئاً كان تغيراً كاملاً ومفاجئاً في الموقف. طرد السوفييت خلال 72 ساعة". تنهد وتابع: "من ثم نـسف كل شـيء مـرة أخـرى بإرسـال الجيش عبر قنـاة الـسويس ومهاجمـة مواقـع إسـرائيلية في سـينـاء. في الوقـت نفـسه تحـرك الجـيش الـسوري مهاجمـاً إسـرائيل علـى طـول هـضبة الجـولان. دفعـت إسـرائيل بالمهـاجمين إلى الـوراء وأنـتم

تعرفون البقية: انتهت حرب يوم كيبور بهدنة في 24 تشرين الأول 1973. الآن، يطلب السادات ودنا مرة ثانية وبشكل محموم، محاولاً أن يحسن صورته، يفاوض على اتفاقيات فصل القوات مع إسرائيل، ويُشجِّع بنشاط الاستثمار الأجنبي، ويطلب مساعدات من الولايات المتحدة والبنك الدولي. فالباب قد فتح وما علينا الآن إلا العمل على استغلال هذه الفرصة...".

شرب ما تبقى من ماء في كأسه وتابع: "السيد هول، إنني أوافق تماماً على ما كتبته". نظر إلى ورقة على الطاولة أمامه بجانب صحنه. "ترمز أهرامات مصر إلى الدور الذي يجب أن يلعبه هذا البلد إذا كنا نريد أن نربح قلوب وعقول العرب، ستشكل مصر قاعدة عريضة وصلبة. ومن ثم سنكدسهم فوق بعضهم البعض بلداً بعد بلد". انحنى بلطف واحترام واضح باتجاه هول. "سيدي، أود أن أثني عليك من أجل هذا. إنه تقييم رائع. إنه يعكس تماماً حقيقة موقفنا اليوم".

بعد الغداء وقفنا نتمشى في القاعة، ونصافح بعضنا البعض. عند وقت معين خطوت باتجاه النافذة لألقي نظرة أخرى إلى هارفارد. شعرت بضربة خفيفة على كتفي. عندما استدرت صدمت لأرى وجه جورج ريتشي العجوز البرونزي يبتسم لي بلطف، يعتبر، بعد هول، الرجل الأقوى في شركة ماين. أخبرني مرة رئيسي برونو زامبوتي: "الرؤساء يأتون، ويذهبون، لكن هول وريتشي هم دائماً موجودون، يشدون الخيوط".

خلال العرض، كان جورج ريتشي يجلس مع رجلين آخرين إلى طاولة قريبة. قال: "منظر رائع، لديك لحظة؟ هل تستطيع المجيء إلى مكتبي؟".



34 مصر: التحكم بإفريقيا

كنت محظوظاً بشكل لا يصدق. في البداية، تناولت الغداء مع ماك هول ومجموعة من أكبر المدراء، والآن توجه لي دعوة من رجل كان حقاً أسطورة حية في مهنة الهندسة والتخطيط. كنت قد سمعت العديد من القصص حول استثمارات جورج ريتشي في أفريقيا والشرق الأوسط. كان أول من يغامر في الأراضي النائية، وينشئ مواقع لتوليد الطاقة الكهربائية في الأرياف. لقد رحل على طول نهر الكونغو في أيام حقبة الاستعمار. حامت إشاعات بأنه قد مشى مجتازاً الصحارى مع لورانس العرب. الآن في خريف العمر (كنت قد علمت بأنه يبلغ من العمر 84 عاماً)، كان موضع تبجيل وتقدير عاليين من المهندسين حول العالم. وقد اكتشفت أن مجرد ذكر اسمه فقط لرؤساء الشركات في بوغوتا وطهران مدعاةً للدعوة على الغداء في بيوتهم (شيء غير معتاد بين الإيرانيين). هو أيضاً أحد الشركاء المؤسسين لشركة إل، هول وريتشي، شركة هندسية أنشأها رئيس شركة ماين واثنان من معاونيه الأقربين للقيام بأعمال، لأسباب لم يشرحها لي أحد أبداً بشكل مفهوم، لا يمكن لشركة ماين إنجازها بنفسها . قد أخبرت بأن قوانين ولاية نيويورك تتطلب إنشاء مثل هذه الشركة. لكن حدسي - وقد كان مجرد حدساً فقط - بأن هذه الشركة قد أنشئت لتقوم بنشاطات أكثر سرية، أو ربما لمساعدة مؤسسيها الثلاثة على غسيل أموالهم وأموال زبائن أثرياء ومنظمات حكومية.

سرت خلف جورج ريتشي خارجين من المطعم. نزلنا بالمصعد إلى الطابق حيث تقع المكاتب الإدارية لشركة ماين وبدلاً من الذهاب إلى مكتبه اتجهنا في الممر إلى غرفة مجلس الإدارة. أخرج مفتاحاً وفتح الباب وقادني إلى الداخل مشيراً لي أن أجلس على أحد الكراسي المخملية وقال: "غيّرت رأيي، أعتقد أن هذا المكان أكثر خصوصية من مكتبي".

أدار ظهره، وسار باتجاه لوحة عرض على الحائط تتمركز حول خريطة للعالم مضاءة ويتحرك ظل عبرها مشيراً إلى حيث يصبح النهار ليلاً. كنت قد دخلت هذه الغرفة مرة من قبل لأدرس هذه الخريطة. فتحت سكرتيرة ماك هول الخاصة الباب، ووقفت جانباً بحذر بينما حددت الوقت الذي سوف يجب علي أن أستيقظ به تلك الليلة لأجري مكالمة هاتفية إلى بانكوك.

أشار ريتشي الى أعلى قارة أفريقيا "مصر" واستدار في مواجهتي. "إنني أعلم بأنك حصلت على رواية رجل الوكالة الملحمية. الآن، أريد أن أتأكد بأنك تعرف القصة الحقيقية. أعرف بأنك حاد الذكاء، وقد استوعبت الصورة الحقيقية لما نعمل. ستذهب قريباً إلى مصر ومن ثم الكويت، والعراق، والسعودية". توقف برهة ليدعني أستوعب ما قاله، كنت متأكداً أنه كان يعرف حق المعرفة ما سيحدثه فيّ من إثارة ذكر أسماء هذه البلدان ومعرفتي بأنني

سأزورها. "بالطبع أنت تعرف أن عملنا أكبر حجماً وأكثر أهمية مما توحي به اتفاقيات وعقود الدولة". انحنى إلى الأمام وحدق بي: "صح؟"

"نعم سيدي. إنني أفهم ذلك تماماً".

"جيد. لم أكن من طبقة النبلاء يوماً. أنا لست "سيدي" إن اسمي جورج".

ابتسمتُ مفكراً فيما إذا كان بإمكاني أبداً أن أدعوه باسمه في حضوره.

قلت: "حسناً".

نقر بإصبعه على الخريطة: "لقد أبلغت حول الأخوان المسلمين".

"نعم".

"حسناً، إنهم خطرون جداً، يجب كسبهم إلى جانبنا، التفاهم معهم، شراؤهم، تحطيمهم، أي شيء، لأنه لا يمكن إيقافهم. السادات قد أثبت ذلك. تلاحقهم فتزداد شعبيتهم أكثر، وكأنك تصب الزيت على النار". سحب كرسياً من أمامي، ووقف خلفها في مواجهتي. "لكن هذا ليس هو عملك، على الأقل ليس الآن". جلس قريباً جداً مني حتى كادت ركبنا تتلامس. أشار إلى الخريطة: "انظر، ماذا ترى؟".

كنت مرتبكاً: "تقصد مصر؟"

"مصر، طبعاً. لكن أين تقع؟ أين تقع مصر؟" ربت على ركبتي. "انهض إلى هناك، وانظر جيداً".

نهضت وتمعنت في الخريطة: "تقع على البحر المتوسط والبحر الأحمر، إلى جانب إسرائيل".

تنهد وقال: "أية قارة؟"

"أفريقيا".

"نعم" لمع الضوء على الخريطة. أشار إلى ما فوق رأسه محركاً يديه كرجل يشد حبلاً. "نعم، هي في الواقع أفريقيا. ألق نظرة أخرى إلى الخريطة. مصر بلد أفريقي عكس ما يعتقده معظم الأمريكيين. هل هي جزء من الشرق الأوسط؟ بالتأكيد. الشرق الأوسط ليس بقارة. مصر بلد وسط، حبل يربط أوروبا وآسيا. وتربط كلتا هاتين القارتين بأفريقيا. دعني أسألك الآن سؤالاً صعباً. هل يوجد في مصر نهر؟!"

"النيل".

"صح. وماذا تستطيع أن تخبرني من الخريطة حول نهر النيل؟".

"يجري عبر السودان..."

"التي كانت جزء من مصر حتى عام 1956. أخذت استقلالها الكامل عن بريطانيا ومصر. مع ذلك كثير من المصريين غاضبون حول ذلك، يعتبرون أن هذه القطعة الكبيرة من الأرض ملكاً لهم. أين يذهب النيل أيضاً؟".

"حسناً، إذا شملت فرعي النهر، بحيرة تانغانييكا، وتلك البحيرات الأصغر حجماً، يغطي النهر قسماً كبيراً من القارة".

"أيوا. أهلاً في أرض الدكتور ليفينغستون أفترض* - سؤال آخر إذا أجبت عليه بإمكانك العودة إلى هنا والجلوس مرة ثانية. في أي اتجاه يجري النيل؟"

"شمالاً".

"برافو. يعني ما تقوله هو أن قسماً كبيراً من القارة الأفريقية يرفد النيل، ويجري النيل إلى مصر، صح؟ جيد. ثم هل نستطيع أن نخمن بأن سهل الفيض الخصيب حيث بنى الفراعنة أهراماتهم يحتوي على الطمي - التربة الفوقية، قلب وروح، إذا شئت أن تسميها كذلك، الجزء الأكبر من أفريقيا؟ إن القاهرة قد بنيت على تربة أفريقية، ليس لأنها فقط تقع في قارة أفريقيا فحسب بل لأنها تجثم على تربة تكونت في الأراضي التي تقع إلى جنوبها؟ أجبت الإجابة الصحيحة. تعال واسترح هنا ثانية".

جلست في مقعدي أنتظره، ليتابع. جلس محدقاً بي فقط. حاولت أن اختار كلماتي بحذر، عارفاً بأن هذا الرجل يستطيع أن يرفع أو يحط من شأني مهنياً. قلت: "إنني أعي ما تقوله. بإمكان مصر أن تلعب دوراً مهماً في العالم العربي، لكن لها أيضاً تأثيرٌ كبيرٌ على أفريقيا". ألقيت نظرة إلى الخريطة مرة أخرى: "إنها جسر بالمنظور الجغرافي والاجتماعي. وأيضاً بالمنظور الاقتصادي والعرقي". تابع جورج التحديق بي. يبدو أنني سهوت عن ذكر شيء ما، فأضفت: "وبالطبع، دينياً أيضاً".

"عظيم جداً". وقف، شابك يديه خلف ظهره وسار باتجاه الخريطة مرة ثانية: "مصر، السودان، أثيوبيا، الصومال، كينيا ... جميع هذه البلدان هي أراضٍ غارقة في القدم. تترابط عبر مجرى التاريخ، يجب أن لا ينظر إليها باستخفاف. لقد أنشد المؤرخ الإغريقي هيرودوتس أمجادهم في القرن الخامس قبل الميلاد. تقول الأسطورة أن مملكة الأثيوبيين - اليوم الإمبراطور هيلا سي لاسي - قد وجدت من ابن سليمان ملك إسرائيل والملكة شيبا. إن المنطقة كلها مكان مدهش. يجب أن لا ينظر إليها باستخفاف". هز رأسه بهدوء ورزانة، قال مؤكداً: "لا، سيدي، يجب أن لا ينظر إليها باستخفاف أبداً". حدق في الخريطة مرة أخرى برهة طويلة. ثم عاد إلى حيث أجلس. "أنت تعرف بأن المنطقة تعوم على بحر من النفط أيضاً. إنني متأكد من ذلك. لقد قضيت حياة كاملة أدرس الجيولوجيا، وأستطيع أن أقول لك بأنه خلال حياتك ستصبح أفريقيا أرض المعركة في القتال من أجل النفط". جلس، وتابع:

* - دافيد ليفينغستون (19 آذار 1813 - 1 أيار 1873): طبيب بريطاني ومبشر ديني مع مجتمع لندن التبشيري ومستكشف جاب وسط أفريقيا. كان أول أوروبي يرى موسي - أوا - تونيا (شلالات فكتوريا)، الذي أعطاها هو هذا الاسم الإنكليزي إجلالاً لمليكته الملكة فكتوريا. إنه موضوع اللقاء مع ستانلي، الذي أحدث الاقتباس الرائج، "د. ليفينغستون، أفترض؟" "المترجم"

"لذلك تقدم واعْقلْ، كلمات السيد رجل الوكالة، ارحل إلى مصر واستخدمها كقاعدة لإخضاع الشرق الأوسط. وأيضاً استوعب ما يتحدث عنه بضع أناس اليوم....".

قلت: "إنها قاعدة لإخضاع أفريقيا أيضاً".

تابع: "وإذا كنت تنوي أن تنجب أولاداً، وتريد لهم العيش الرغيد من الأفضل لك أن تضمن بأننا نتحكم بالقارة الأفريقية. نعم، نحتاج إلى الشرق الأوسط ولكن يجب علينا أن نملك أفريقيا أيضاً".

شعرت بالزهو والتباهي وأنا أخرج من غرفة مجلس الإدارة. كنت خلال عدة ساعات قد حضرت اجتماعاً مع رئيس شركة ماين وأحد كبار موظفي الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية. وقد اختارني جورج ريتشي من بين جميع الحاضرين. لم أكن قد فكرت من قبل أبداً أن مصر هي في الواقع جزء من أفريقيا بالإضافة لكونها جزءاً من الشرق الأوسط وأنها تلعب دوراً حيوياً مهماً في السياسات الطبيعية. كنت متأكداً بأن عدداً محدوداً من الأمريكيين مطلعون على وجهة النظر هذه. شعرت كرجلٍ قُبل في نادٍ خاص جداً وكلف بمهمة سرية هامة.

نزلت بالمصعد إلى الطابق الأرضي، وبدأت أتمشى حول المبنى باتجاه البناء الذي يقع فيه مكتبي في البرج الجنوبي بناء رقم 101 شارع هاينفتون. فكرت، ربما كان آخر تعليق لريتشي هو بيت القصيد. في يوم ما سأكون مسؤولاً عن عائلة. نظرت من خلال نافذة متجر للملابس الفاخرة إلى تمثال رجل يلبس طقماً. قررت أن أعود في وقت لاحق من الأسبوع، وأشتري ذلك الطقم. أشعرني قراري هذا بنوع من الارتياح. قلت لنفسي بأن جورج ريتشي المهندس الجليل كان محقاً؛ كان يجب علينا أن نتحكم بالبلدان التي تملك موارد تشتهيها شركاتنا، من أجل مصلحة أجيالنا في المستقبل.

اشتريت ذلك الطقم. وخلال أسابيع ركبت الطائرة متجهاً إلى مصر.

35 كلب كافر

كنت أشعر بالإحباط بشكل متزايد خلال وجودي في القاهرة وذلك بسبب عدم تعاون الموظفين المحليين معي. لقد أرسلتني الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية لوضع خطط اقتصادية من أجل استخدامها من الحكومة المصرية للحصول على تمويل البنك الدولي. لكي أقوم بعملي بشكل صحيح احتجت إحصائيات سكانية مفصلة لمناطق معينة من البلاد على الرغم من معرفتي بأن هذه الإحصائيات كانت موجودة، أخبرني جميع الموظفين بأن هذه المعلومات غير متاحة للجمهور. كنت دائماً أشير لهم بأنني لست من الجمهور، وأنني أعمل لحسابهم بسرية تامة ويجب أن أحصل على تلك الإحصائيات إذا كانوا يتوقعون مني أن أضع تقريراً يجلب في النهاية بلايين الدولارات إلى بلدهم. بمثل هذه المناشدة والتهديد المبطن حصلت على نتائج في آسيا وأمريكا اللاتينية؛ لكن بدا أن ذلك لا تأثير له في مصر.

الموظفون الرسميون الذين كلفوا بمهمة مرافقتي ومساعدتي، كان من المفترض أن يقوموا بتسهيل عملي واصطحابي في جولات حول القاهرة والإسكندرية. ذهبنا إلى أسواق التوابل والى المقاهي حيث يجلس الرجال يلعبون الدومينو، ويدخنون الأراكيل، سرنا على طول نهر النيل وشاطئ البحر المتوسط، وشاهدنا الجواهر النفيسة والتحف التي لا تقدر بثمن في أماكن تاريخية قديمة، وشربنا غالونات من الشاي. لكن كل مرة أذكرهم بأنني أنتظر الحصول على الإحصائيات السكانية، يعيدون على ذكر الصعوبات طالبين مني الصبر قائلين: "تأخذ الأشياء هنا وقتاً طويلاً" أو "نحن لسنا في أمريكا، نحن في بلد قديم، الجمال تمشي ببطء". عندما عرضت عليهم الرشوة ـ قانونياً بالطبع، بواسطة دفع أجور عالية جداً لأشخاص ليعملوا وقتاً إضافياً، ومع وضع الموظفون الفارق بين الأجر الاسمي والأجر الفعلي في جيوبهم ـ كانوا يهزون رؤوسهم فحسب، ويقدمون لي كأساً آخر من الشاي.

أخيراً، بعد أن أسقط في يدي وشعرت بإحباط كامل، قررت أن أتجاوز هؤلاء الموظفين إلى من هو أعلى منهم. كانت خطوة متطرفة كنت أحاول تجنبها من قبل بسبب مخاطرها في إثارة عداوة الناس الذين أعتمد عليهم. لكن كنت في وضع يائس لم تجد فيه جدوى. فقررت المجازفة.

رتبت لقاءً مع رجل مهم. رجل خدم في عدة وزارات وكان الآن المستشار الشخصي للرئيس السادات. كان اسمه طويلاً، لكن أُخبرت بأن أشير إليه بـ دكتور عظيم. تخرج من جامعة هارفارد لإدارة الأعمال وكان مطلعاً بشكل جيد على أعمال منظمات عالمية مثل البنك الدولي والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، ومشهور عنه أنه يتم إنجاز الأشياء. بالنسبة لي، فهمت أن مساعدته لن تكون رخيصة، فحضرت نفسي لكي أرشوه بشكل سخي.

أوصلني شخص إلى بناء مكاتب عالٍ حديث، ومن ثم رافقني موظف أمني ضخم قوي البنية في المصعد إلى الطابق العلوي. قادنا رجل مصري نحيل طويل صارم الوجه يلبس طقماً أسود إلى غرفة صغيرة تحوي أريكتين وأبلغنا بلهجة إنكليزية بريطانية صرفة بأننا لن ننتظر طويلاً. جلس رجل الأمن الذي كان لا يعرف الإنكليزية في مواجهتي. انتظرنا. قرأت نسخة قديمة من مجلة تايم من بين المجلات المكدسة على الطاولة بين الأريكتين. غلب النعاس مرافقي رجل الأمن. قرأت مجلة ناشيونال جيوغرافيك. انتظرنا مدة ساعتين تقريباً. لم يقدم لنا الشاي أبداً. لم يكن لدي أدنى شك بأن دكتور عظيم كان يريد أن يظهر لنا مدى أهميته - وعدم تقديم الشاي لنا، دعاني لأحكم بعدم رضاه عن محاولتي تجاوز الطرق العادية. على الرغم من اضطرابي، حضرت نفسي لأن أعرض عليه رشوةً أكبر.

أخيراً، ظهر ثانية الرجل المصري النحيف الطويل ودون اعتذار قادني في ممر طويل إلى باب خشبي كبير يصلح باباً لضريح الملك توت أكثر منه لهذا البناء الحديث. فتح الرجل الطويل النحيف الباب. ذهلت بحجم الغرفة الكبير. كانت تدل على ثراء يرضي أكثر الفراعنة غروراً، مزينة بمزيج مصري قديم ووسائل ترفيهية حديثة. تحفة مزخرفة عليها ورق البُردي إلى جانب مزهريات مزينة برسوم بيكاسو. أثاث حديث التصميم فوق سجاد فارسي.

كان دكتور عظيم ينحني فوق طاولة مكتب ضخمة، لابساً طقماً أزرق غامقاً وربطة عنق ذهبية. وجهه ممتلئاً وناعماً كالبطيخة، يلبس نظارات مربوطة بسلسلة، من نوع كنت أعتبرها خاصة ببنجامين فرانكلين. لم يكلف نفسه عناء النظر إلي وترْك ما يشغله من أوراق عندما دخلت. انحنى الرجل الطويل النحيف خارجاً من الغرفة. وقفت إلى جانب مدخل الغرفة أنتظر دكتور عظيم بينما ينتهي من الأوراق التي بيده. أخيراً، رفع عينيه، وقال مشيراً إلى كرسي أمام طاولته: "اجلس"، ثم عاد إلى ما يشغله.

شعرت بالارتباك والوضاعة. قد أكون تخطيت، وتجاوزت، لكن هذا كان إسرافاً في الإهانة. هل نسي بأنني أمثل مؤسسة استشارات مهمة قد كلفتني بمهمة مساعدة بلده؟

بعد أن شعرت بأنه كان وقتاً طويلاً، اعتدل في جلسته، وحدق بي من فوق نظارتيه. كان يبدو بأنه يقيسني كحشرة كبيرة شوهدت تعدو زاحفة على طاولة العشاء. ثم، بجهد بدا كأنه استجمع كل طاقته فيه، مد يده من فوق الطاولة، فكان علي أن أقف منحنياً لمصافحته. تحول ارتباكي إلى غضب، كتمت غضبي، وأجبرت نفسي على الابتسام. محاولاً التقيد بالعرف المحلي، شكرته بامتنان لموافقته على مقابلتي.

تجاهل لطافتي ودون تبادل التحيات المتعارف عليها في مصر، سألني بفظاظة ماذا أريد.

لم يكن هناك أدنى شك بأن دبلوماسياً مهذباً كان يوجه لي إهانة واضحة وفظيعة. فكرت بمغادرة مكتبه. بدلاً من ذلك استرجعت بذاكرتي الاجتماع الذي حضرته في نادي

المهندسين في بروداتشال تاور في بوسطن، ومن ثم مقابلتي مع جورج ريتشي في غرفة مجلس إدارة شركة ماين. شعرت فجأة بالعزيمة والثبات. كان انتقامي من هذه المعاملة معرفتي بأنني كنت رجلاً اقتصادياً مأجوراً في مهمة لاستغلاله واستغلال بلده. حسناً أستطيع تحمل انتصاراته التافهة لمعرفتي بأنني سأربح الانتصار الأكبر؛ قد تكون هذه هي معركته، لكن الحرب ستكون لي. استرخيت في كرسيي وتحولت ابتسامتي لتكون صادقة. قلت: "بيانات سكانية".

"عفواً، لم أسمع ما تقول".

"أحتاج إلى بيانات سكانية". شرحت مشكلتي باختصار شديد. وأنهيت قولي: "لذلك، أنت ترى، إذا لم يتعاون معي جماعتكم، لن تحصل بلدكم على تلك الأموال التي يطلبها رئيسكم".

ضرب بقبضة يده على الطاولة، ووقف. حجمه الضخم عكس حجم مكتبه. وانزاح كرسيه حتى اصطدم بالجدار خلفه. قال: "لا أعير أي اهتمام لبلايينكم". كان صوته خفيضاً وهادئاً على غير توقع إذا نظرنا إلى أفعاله المتكلفة. "أيها الشاب - الذي لا يمكن أن تفوق عمراً أصغر أولادي - من أعطاك الحق أن تدخل إلى هنا لتعطيني مطالب؟" لوح بيد لينة كالإسفنجة لكي يسبقني إلى جوابي. "دعني أقل لك شيئاً واحداً أو اثنين. لقد عشت في بلادكم. إنني أعرف بماذا تظنون بنا". وضع يديه على مكتبه، انحنى فوقه، وحدق بي: "هل تعلم كم من الناس في جامعة هارفارد سألوني إذا كنت أركب الجمل؟ نعم، في جامعة هارفارد! مدهش، غبائكم. يا لقصر نظر بلدكم. نحن المصريون موجودين منذ آلاف السنين، عشرات الآلاف. وسنكون موجودون عندما تصبحون انتم هباءً منثوراً".

سحب كرسيه من خلفه فأصدر صريراً يشبه نبرة صوته، وجلس، عاد بانتباهه مرة ثانية إلى الأوراق التي على مكتبه.

جلست أحدق به، مجبراً نفسي على استعادة تلك اللحظات في غرفة مجلس الإدارة في بوسطن. كما عدت بذاكرتي إلى لقاءات في أندونيسيا حيث - كنت أتكلم لغتهم ومضيفي لم يعرفوا ذلك - سمعت موظفين حكوميين يتكلمون حولي باستهزاء بينما يبتسمون بلطف ويقدمون لي أجود أنواع الشاي لديهم. شحذت نفسي مفكراً بأنني سأغلبه في لعبته هذه.

أخيراً، نظر إلي من فوق تلك النظارات، ولوّح بيده وقال "اذهب".

"لكن..."

ضرب بقبضته طاولة المكتب مرة أخرى، لكن هذه المرة بقي جالساً، وقال بذلك الهدوء المريك: "أنت كلب كافر". تسمرت عينيه في عيني دون أن يرمش له جفن، كان هذا أثراً من هارفارد على ما أعتقد: "كلب كافر". نطق الكلمات ببطء شديد: "اذهب الآن. ستحصل على بياناتك السكانية إن شاء السادات والله".

استلمت المعلومات بعد عدة أيام. وصلت بشكل غير رسمي في مغلف متسخ مصنوع من ورق المانيلا، سلمت لي بواسطة ساع كان قد ركب دراجته النارية خلال الغبار ودخان المركبات. لم يكن على المغلف أية عبارة، لا شيء يشرح من أين جاء أو لماذا. لكن كان يحتوي على كل ما احتاجه. ولم أدفع مقابل ذلك شيئاً أبداً لأي شخص.

بينما كنت مستغرقاً بقراءة عشرات الصفحات من الأرقام المملة، فكرت لماذا كان ذلك صعباً للغاية. هل هناك سبب منطقي لاحتباس تلك الإحصائيات؟ السبب الوحيد الذي خالج تفكيري هو خوف المصريين من ضربة جوية إسرائيلية. لكن لم أستطع أن أرى كيف لإسرائيل أن تستفيد من معلومات حول خطط سكانية. أنا متأكد أنهم يملكون كل المعلومات التي يحتاجونها في توجيه طائراتهم الحربية وصواريخهم، لا تهتم القنابل فيما إذا كانت ضاحية معينة ستزداد 100000 أو 110000 شخص إضافي خلال العشرين سنة المقبلة. من ثم تذكرت كلمات دكتور عظيم.

كنت كلباً كافراً. عرف المصريون شيئاً قد استوعبه فقط بضع رجال في بلدي: نستخدم البيانات كالتي رفض دكتور عظيم تزويدي بها من أجل بناء الإمبراطورية. تقارير الرجال الاقتصاديين هي أفتك أسلحة بكثير مما كانت عليه سيوف الصليبيين. القنابل الإسرائيلية تخدم مآربهم، تجلب الدمار والخراب، تمطر الخوف، وتجبر الحكومات على الاستسلام. لكن أشخاصاً مثلي كانوا هم الخطر الحقيقي. نحن الذين من يستغل الدمار والخراب، نوجه الخوف، ونتأكد من أن هؤلاء الذين أذعنوا، ووقعوا صكوك الاستسلام قد تقيدوا بشروطها. آملين أن يكونوا قد تعلموا الدرس بشكل جيد وكاف لتجنب القنابل والدمار في المستقبل. في النهاية كان يجب أن نكون مدللين لأننا نجلس فوق القمة. رجال مثل دكتور عظيم لم يكن لهم خيار إلا أن يخضعوا، أو يفقدوا وظائفهم. وهو قد مقتني بسبب ذلك.

تجولت حول العالم كثيراً في تلك الأيام. رافقتني كلمات دكتور عظيم. تحولت مشاعري الدفاعية إلى غضب، ومن ثم أدركت حقيقة أنه كان رجلاً فخوراً ينتمي إلى حضارة مجيدة، وكواحد من أحفاد كليوباترة كره معرفته بأنه كان يجب عليه أن ينحني لقيصر. قدرت موقفه ولو أني كنت مكانه لكان من الممكن أن أكون أكثر فظاظة.

كنت مصدوماً لسخرية القدر بأن بلدي قد يكون روما بالنسبة إلى مصر الحديثة، لكن كنا في أمريكا نعاني الاضطرابات الخاصة بنا. كنت قد ترعرعت خلال حقبة وطنية، دعنا نسميها البحث عن الذات. مرت بنا سلسلة من الأحداث كان لها أثر عميق على جيلي: مظاهرات السود في واتس وديترويت، المواجهة بين السلطة والهنود الحمر في وندد نّي، مسيرات تحالف عمال المزارع بقيادة القائد العمالي سيزار شافيز والتي انضم إليها كثر آخرون، وأعمال ثورية أقل شهرة قامت بها الأقليات في الولايات المتحدة. قارنت هذه الأحداث مع تلك التي مر بها أسلافي الذين عانوا اضطهاداً مماثلاً على أيدي السادة الإنكليز. سخط عارم ملتهب قادهم جميعاً لحمل السلاح. وصم السود، الهنود، والإسبان من تحالف حكم المال والشركات بأنهم مخربون، وأسلافي كانوا "خونة" بالنسبة إلى بناة الإمبراطورية البريطانية. مع ذلك إن الجيل الشاب الآن يتطلع إلى قادة الأقليات كأبطال وإلى أولئك الرجال والنساء الذين دافعوا عن حقوقهم ضد السادة الأجانب كآباء مؤسسين.

وها أنا ذا كنت: رجلاً معلقاً بين عالمين، أتعاطف مع المقاتلين من أجل الحرية من جانب، ومن جانب آخر أخدم قباطنة الإمبراطورية. وللتأكيد على ورطتي، سافرت إلى إيران عدة مرات، وعملت لحساب الشاه.

نحن رجال الاقتصاد المأجورون رسمنا صورة للشاه على أنه حاكم مصمم على رعاية بلاده وتطويرها وإدخالها مرحلة مزدهرة من الحضارة كما كانت تمثل من قبل، خلال عهود ملوك فارس داريوس والإسكندر الكبير - ثلاثة قرون قبل الميلاد - وعلى أنه رجل سيستخدم احتياطات النفط الكبيرة في بلاده مع خبرات شركات أجنبية مثل شركة ماين ليجعل أحلام الأبهة والرخاء حقيقة واقعة. وبشكل ما أقنعنا أنفسنا بأنه سينتج عن هذا التحول مجتمعاً قائماً على الديمقراطية والمساواة.

كانت استراتيجيتنا أن نقدم حكومة الشاه كخيار بديل لتلك التي في روسيا، وليبيا، والصين، وكوريا، وباناما، ونيكاراغوا، وبلدان أخرى حيث كان العداء لأمريكا متفشياً. مركزين على حقائق مزعومة بأن الشاه قد قسم في عام 1962 إقطاعات كبيرة خاصة من الأرض، ووزعها على الفلاحين، من ثم هو - ونحن - خلقنا ثورته البيضاء، برنامجاً بدا وكأنه يدشن ويمهد لإصلاحات اقتصادية واجتماعية واسعة. متطلعاً إلى الوراء، إني أرتعد الآن لأنني أعرف بأننا قد فهمنا في أعماقنا بأن كل هذا كان تمويهاً وخداعاً لتبييض صورة الشاه

وتعزيز سلطته. كان يظهر على السطح أن إيران هي نموذج للتعايش والتعاون المسيحي الإسلامي لكنه في واقع الأمر كانت وكيلة عن الولايات المتحدة في السيطرة على الشرق الأوسط. كانت بالضبط ما كان دكتور عظيم خائفاً منه على مصر. كانت أيضاً نتيجة للنموذج الذي أراده جورج ريتشي من أجل الأجيال المقبلة في أمريكا.

زادت المهمات التعاقدية لشركة ماين في إيران بشكل هام بعد عام 1974. زاد الطلب على النفط بشكل مسعور. وكان الأمر: اجلب أويك إلى حظيرتنا، اجعلهم خدماً للإمبراطورية.

كان عملي على غاية من الأهمية. يعتمد على تنبؤاتي في تنمية وتطوير المناطق، المخططين والمهندسين من أجل تصميم أنظمة كهربائية تلبي المزيد من الطاقة التي يحتاجها النمو الصناعي والتجاري والعسكري المطلوب ليضمن للأغنياء الإيرانيين الثراء والازدهار. سعادتهم وجريان النفط المستمر هما المفتاح الرئيسي لبقاء حكم الشاه.

أخبرني رئيسي في شركة ماين "ستركب الطائرة من طهران إلى كرمان، واحة في منطقة داشت لوت الصحراوية الشهيرة حيث سار الإسكندر الكبير بجيوشه هناك. واحة من المباهج السرية. وستقلك سيارة من هناك خلال أروع صحراء على هذا الكوكب، إلى بندر عباس القرية الهادئة المعتمدة على صيد الأسماك اليوم. لكن غداً ستضاهي الريفييرا". حينذاك كنت اعلم أن برونو كان ميالاً إلى المبالغة إلى حد الغلو، لكن لم تكن لدي أية فكرة...

ركبت طائرة صغيرة ومعي اثنان من المهندسين من شركة ماين واتجهنا من طهران إلى كرمان. كان منتصف الصيف، على الرغم من أن الوقت كان عصراً لكن الحرُّ كان خانقاً. بدت كرمان مدينة مهملة ومهجورة مع مرور الوقت ما عدا وجود بضعة أولاد ومسنين يتسكعون في الظلال. إذا كان الوسخ والغبار يخفيان مباهج سرية فبالتأكيد لم تكن هذه المباهج في متناول يدي ولا حتى في تخيلي. دخلنا إلى أفضل فندق في المدينة والعرق يتصبب منا. كانت ردهة الفندق صغيرة، مظلمة، وخالية من الأثاث. كان الشاب الذي خلف مكتب الاستقبال مسروراً ليقول لنا نعم، إنهم يقدمون البيرة الباردة في البار الواقع في فناء الفندق. كل واحد منا كانت له غرفته الخاصة. دُهشنا لوجود حمَّام في كل غرفة. صعدنا إلى غرفنا، واتفقنا على أن نلتقي عند البار بعد نصف ساعة.

كانت الغرفة صغيرة جداً، لكن فرحت لنظافتها. شعرت بالارتياح لمشاهدتي بأنها كانت مزودة بمكيف هواء. يصدر عنه ضجيج مزعج لكن كان يعمل. على الرغم من وجود حمام لكن اكتشفت بأن التواليت لا يصرف الماء وكانت هناك حنفيتان تبرزان من الجدار إلى جانبها. تحولت الحنفية الأعلى إلى ثقب مفتوح فوق رأسي افترضت بأن ذلك يقوم مقام الدوش؛ الحنفية الأخفض يمكن استعمالها لملء سطل صدئ مكنني من تصريف المياه في التواليت. خلعت ملابسي لأخذ دش واقفاً في مكان ضيق بين التواليت والجدار. لم يكن هناك ستائر للحمام؛ عندما فتحت الحنفية اندفعت دفقة ماء لم تصبني بل بللت التواليت.

إذا ملت باتجاه تجويف الثقب أستطيع أن أبلل نفسي بما يكفي لأرغي الصابون على جسمي وأغسله. الدليل الآخر الوحيد على أن هذه الأداة الغريبة كان من المفترض أن تعمل كدوش هو الثقب الذي في الأرض في النهاية الأخرى من الحمام والذي تتصرف المياه من خلاله. تساءلت ما هي آخر مرة قد زار فيها برونو هذه "الواحة". لدهشتي قد شعرت بالنشاط بعد الحمام. أخذت طريقي إلى البار في فناء الفندق الخارجي. احتوى البار على أربع طاولات حديد صدئة منقطة ودزينة من الكراسي وضعت على مصطبة تطل على منظر مثير للإعجاب بقرب هذه الصحراء. كان قد سبقني أحد المهندسين، فرانك، إلى هناك، وكان يوجد على الطاولة أمامه ثلاث كؤوس من البيرة.

قال: "فقط نوع واحد، خمنت بأنه لن يكون لديك مانع".

انتظرنا خمس عشرة دقيقة. ومن ثم قررنا أن رفيقنا كان يأخذ غفوة. شربنا نخب رحلة اليوم التالي. وبينما نضع كؤوسنا على الطاولة، رأينا جيمس يمشي باتجاهنا، وكأنه يجر قدميه في الوحل. كان يقطر الماء من القميص الذي يمسكه بيديه والذي كان يرتديه في الطائرة، قذف به على الطاولة وارتمى على الكرسي وجرع كأسه حتى النهاية.

سأل فرانك: "ماذا حدث؟"

أجاب جيمس: "كان يجب علي أن أستحم ويا ليتني لم أفعل، التواليت لا تصرف الماء. فحاولت أن أملأ ذلك السطل اللعين ففتحت الحنفية الخطأ وانصب الماء علي من الدش مبللاً كل ثيابي".

عندما وقفنا عن الضحك. قال فرانك بأن هواء الصحراء هنا سيجفف القميص بلمح البصر.

قال جيمس: "هذا ما قد خمنته، وإلا لم أكن لأحمله إلى هنا إلى هذا البار الفخم!".

في صباح اليوم التالي أتى مهندس ومترجم إيرانيان بسيارة جيب لأخذنا. جلسا في المقعد الأمامي إلى جانب السائق، وحشرنا نحن الثلاثة أنفسنا في المقعد الخلفي. كنت أنا - الأصغر - أجلس في الوسط مباعداً رجلي التي بينهما قاعدة علبة السرعة. وبينما كنا نتجه في طريق وعر من مركز هذا النجد المرتفع إلى شواطئ الخليج الفارسي، شرح لنا المهندس الإيراني بأننا كنا نتبع طريق القوافل القديمة.

مد عنقه متطلعاً إلى الوراء لمشاهدتنا وقال: "هذه الصحراء كانت دائماً نعمة ونقمة معاً، لقد حمت أسلافي من الأعداء. وجعلت تقريباً من المستحيل عليهم تجاوز حدود بلدهم. وهي اليوم أكثر أهمية مما كانت عليه في أي وقت سابق. أنت ترى، داشتي لوت تفصل أوروبا، أفريقيا وما يدعى بالشرق الأوسط عن آسيا. إنها أيضاً تقدم طريقاً مباشراً بين الاتحاد السوفييتي والخليج الفارسي. انظر إلى الخريطة. تعرف بأن الروس يريدون احتلالنا. إن هذا الطريق الوعر عينه الذي نسافر فيه الآن سيصبح طريقاً عاماً واسعاً لجيشهم. سيبنون

شبكة أنابيب ضخمة لنقل البترول. ستصبح المدينة الصغيرة حيث نمنا الليلة، بندر عباس حصن شيوعي. طائرات، صواريخ، غواصات نووية، حاملات طائرات ـ سيسيطرون على أهم طرق النفط في العالم".

كنا أنا وفرانك وجيمس نتبادل النظرات بينما كان المهندس الإيراني يتحدث. علق جيمس "اعتقد أن هذا يلخص كل شيء"، أمامنا عمل مهم، مع ذلك لا تهتموا أيها الأصدقاء. كل ما علينا القيام به هو أن ننقذ هذا العالم من الشيوعية".

تابع المهندس الإيراني: "المفتاح بالنسبة لنا ـ أنتم الأمريكيون ونحن الفرس ـ أن نسبقهم إلى ذلك. يجب علينا أن نبني ذلك الطريق العسكري ويجب علينا أن نحول بندر عباس إلى حصن خاص بنا".

قال فرانك: "لذلك نحن هنا".

علق المهندس الإيراني: "لا تنس أبداً بأن الإيرانيين ليسوا عرباً. نحن فارسيون، آريون، نحن مسلمون لكن نشعر بخطر العرب. نحن معكم أيها الشباب مائة بالمائة".

لم تكن الصحراء كثباناً لانهائية من الرمال التي عانى خلالها بيتر أوتول في "لورانس العرب"، لم يكن هناك شيء رتيب حول الجبال الحمراء، الأرجوانية، والخمرية التي تمتد على مدى البصر. لقد رأيتها جميلة تماماً، مذهلة كما وعد وقال عنها برونو. وكانت تنذر بشَرٍّ. لم أستطع أن أتخيل قوافل من مئات الناس والجمال تعبر خلالها.

على الرغم من مكيف السيارة، لم يكن هناك مهرب من وطأة الحر الثقيل. توقفنا عدة مرات ليتمكن المهندس من فحص التربة وحالات أخرى قد تؤثر على شبكة أنابيب النقل والطريق العام. عندما نزلنا من السيارة بدا الجو بارداً في البداية، لكن من ثم اندفعت أشعة الشمس بقسوة. توقفنا مرة واحدة في استراحة لنشرب الشاي، ونأكل التمر في قرية صغيرة هي بحق ينطبق عليها القول كواحة في الصحراء، جزيرة هادئة في بحر هائج.

بعد رحيلنا بفترة قصيرة عن واحة النخيل امتلأت السيارة برائحة كريهة جداً. صرخ فرانك: "شيء ما يحترق!"

انحرف السائق بالسيارة إلى جانب الطريق وضرب قدمه على المكابح بعنف. صرخ المهندس الإيراني: "اخرجوا جميعكم".

فتحت أبواب السيارة بسرعة، وقفز جميع الرجال إلى الأرض، ما عداني لم أستطع أن أرفع قدمي عن أرضية السيارة. وكأن رجلي أصابها الشلل.

أمرني جيمس: "عجل اخرج بسرعة، ماذا بك؟ ماذا تنتظر؟"

شددت بكل ما أوتيت من قوة. لكن ببساطة لم تتحرك قدماي. كنت مرتعداً. خرجت قدماي من الحذاء الذي كنت ألبسه، لحسن الحظ تحررت قدماي أخيراً. دفعت نفسي من خلال الباب، وسقطت على أرض الصحراء.

أعاد فرانك النظر بحذر داخل السيارة، ومن ثم بدأ يضحك وتوجه إلي قائلاً: "النعل المطاطي لحذائك قد ذاب وسال ملتحماً بالسجادة التي فوق علبة السرعة. لقد رأيت من قبل محركات ترتفع حرارتها، لكن هذا الذي أراه الآن قد تفوق وتجاوز كل ما قبله".

في النهاية وبعد جهد استطعت أن أفصل حذائي عن السجادة المحترقة وتابعنا المسير.

وصلنا بندر عباس بينما كانت الشمس تميل إلى الغروب.



37 إسرائيل جندي مشاة أمريكي

تقع بندر عباس على مضايق هرمز، على الطرف المقابل من شبه الجزيرة العربية حيث توجد الدول التي خلقها الاستعمار البريطاني بعد انسحابه في عام 1971: الإمارات العربية المتحدة، عمان، البحرين، وقطر. وتشرف على أحد أهم الممرات الاستراتيجية في العالم. كانت مركزاً للقراصنة الجبارين الذين كانوا يغيرون على السفن المبحرة خارج البحر العربي. اليوم، يمر قرب شواطئها أكثر بترول العالم.

عندما وصلنا إليها كانت ما تزال قرية صغيرة فقيرة يوجد فيها فندق حديث ضخم يطل مباشرة على الخليج وقد وجد لجذب نوع من الخبراء القادرين على تحويل هذه المدينة إلى أرقى مركز علمي تقني صناعياً وعسكرياً. كنا من بين بعض أوائل نزلاء هذا الفندق. اجتمعنا على الغداء لنجد مطعماً لا بأس به، ولم يكن هناك أحد غيرنا وثلاثة كراسين.

قال المهندس الإيراني: "عد بعد خمس سنوات إلى هنا، لن تكون قادراً على التعرف على هذا المكان. سيتغير بطريقة أو بأخرى. إما ستبنونه أنتم أو الروس".

بعد أن تفرقنا، ذهبت أتمشى باتجاه البحر أدخن السيجار. امتد رصيف المرفأ المبني حديثاً فوق مياه الخليج الضحلة إلى ما يقارب نصف ميل بعيداً عن الشاطئ. لم يكن القمر ظاهراً لكن كان ليل السماء مضاءً بالنجوم. تمشيت ببطء على رصيف الميناء. تحرك نسيم الهواء على طول الخليج. على الرغم من السيجار المشتعل فإن رائحة تعفن السمك انتشرت في الهواء. تساءلت وأنا أتطلع عبر المياه المظلمة، ماذا كان يحدث على الطرف الآخر من الخليج. أدركت بأنني لا أعرف إلا القليل حول البلدان التي تقع حول السعودية.

توقفت عند حوالي ثلاثة أرباع الطريق الممتد داخل الخليج، وقد اعتراني خوف مفاجئ. توهج أحمر غريب ارتفع، ونزل في حركة بطيئة منحنية في نهاية الرصيف. وقفت ساكناً أراقبه، قائلاً لنفسي يجب علي العودة مسرعاً إلى الفندق، لكن تسمرت هناك بفضول عنيد. تقدمت خطوة أخرى. عندما اعتادت عيناي على الرؤية في هذا الليل وعن هذا البعد تجسدت صورة شبح رجل. رفعت السيجار إلى الأعلى: عكس التوهج الأحمر ما قمت به. كان هو أيضاً يدخن. بدا وكأنه يقلد حركتي. خفضت السيجار ففعل الشيء نفسه. كلما أمعنت النظر إليه كلما ازداد فضولي. تبدد خوفي. بالتأكيد لو كان لصاً يبحث عن ضحية لما اختار نهاية رصيف الميناء. من هو يا ترى؟ فكرت حالاً بأنه قد يكون أحد الروس. لكن ماذا سيفعل روسي هنا في هذا الوقت من الليل؟

تابعت السير متعمداً تبديل خطواتي لأوحي بانطباع من التصميم والقوة. كنت ما أزال بعيداً عنه حوالي 50 قدماً عندما خطر لي بأنه هو أيضاً قد يكون قلقاً لوجودي هناك. فتباطأت.

سعل.

توقفت.

من ثم قال شيئاً لم أكن متأكداً، هل كان كلاماً فارسياً أم عربياً.

قلت في بطء شديد: "لا أفهم".

أجاب: "أمريكي، أنت أمريكي أليس كذلك؟ أستطيع معرفة ذلك من طريقة مشيتك ومن لهجتك. إن إنكليزيتي ممتازة".

"نعم أنا أمريكي".

قال: "أنا تركي، زائر مثلك، نزيل في هذا الفندق. رجاء تفضل بالانضمام لي".

تابعت السير في اتجاهه. تصافحنا. كان اسمه نسيم. وكان يدخن سيجارة وليس سيجاراً. شرح لي: "أنا أستاذ جامعي، أدرّس التاريخ، أقوم بكتابة بحث عن طرق التجارة القديمة. لقد غادرت استانبول متتبعاً بعض تلك الطرق، وقد أوصلتني إلى هنا".

تحدثنا مدة من الوقت عن انطباعاتنا حول إيران. لم يخف اشمئزازه من الشاه الذي دعاه بـ "الملك الديكتاتور". كنت حتى هذه اللحظة لم أسمع أي شخص في هذا البلد ينتقد الشاه. بالطبع كنت قد قرأت عن حركة سرية أرادت إسقاطه. لكن جميع الإيرانيين الذين أعرف كانوا يعملون في أحد فروع حكومة الشاه. هذا الرجل كان مختلفاً، وكان من الواضح بأنه واسع الاطلاع، لم يكن خجلاً في التعبير عما يؤمن به. خمنت بأنه كان مسروراً بأن يكون لديه حضور يسمعه: لكن على ما أعتقد آخر ما كان يتوقع مصادفته هو أن يكون هذا الحضور شخص أمريكي مستعداً لسماعه. ربما كان الليل، المكان، أو ببساطة: الرحلة المنهكة: على أية حال، وجدت نفسي أستمع بتركيز إلى وجهة نظر نسيم.

قال: "الملك الديكتاتور خدعكم جميعاً، حسناً، ليس الجميع. إنني متأكد تماماً أن رئيسكم يعرف الحقيقة هو والآخرون الذين يديرون شؤون بلادكم. أو ليست المخادعة والتضليل اختصاصهم؟! يخفون قادتكم إمبرياليتهم، أو يحاولون ذلك على كل حال. يخفون الأموال التي يجمعونها، الأشياء التي يفعلونها لإفساد الناس. يتبجحون حول مساعدة المضطهدين، بينما يخفون حقيقة أنهم يحمون الأغنياء". سحب نفساً عميقاً من سيجارته: "أنتم بلد يختفي خلف قناع".

شعرت عدة مرات بانه يجب عليّ مقاطعته وذلك لحاجتي للدفاع عن الولايات المتحدة وبذلك أكون قد بررت نفسي، لكن بدلاً من ذلك جلست أستمع لما يقوله. مشيراً إلى حرب يوم كيبور 1973 سأل: "لماذا شنت مصر وسورية الحرب على إسرائيل؟ لقد شعرنا بأنه لم يكن لديهما خيار آخر. إن مواطنيك ليس لديهم أية فكرة عن الجرائم التي يرتكبها الإسرائيليون بحق العرب، والتهديد الذي يشكلونه، إنها حرب أمريكية وإسرائيل هي فقط جندي مشاة أمريكي. لم يكن كافياً سلبكم لفلسطين، الأرض التي يدعوها الفلسطينيون دار

السلام، والتي هي ملك أبدي للمسلمين، وسلمتموها إلى اليهود. ولم تكتفوا فكان عليكم أن تسلبوا مزيداً من الأرض. استخدمتم ثراءكم لجعل اليهود يتوهمون بأنكم تبنون وطناً لهم. ومرغتم أنوف المسلمين بوحل التاريخ. تصدحون بأجمل الأغاني حول الديمقراطية. لكن رأينا كيف كانت ديمقراطيتكم هنا في إيران عندما أسقطت وكالة استخباراتكم مصدق. عفواً، فاتني شيء لم أقله لك، موضوع إسرائيل لا علاقة له بالديمقراطية، أو حماية ضحايا هتلر والنازية. تسرقون، تكذبون، وتستعملون أبشع أنواع التعذيب وكل ذلك لكي تبقون سيطرتكم على النفط".

وضع يده اليمنى التي كان يمسك فيها السيجارة فوق قلبه: "إنني أشفق على اليهود في إسرائيل. حقاً أشعر بذلك. إنني لست فلسطينياً لذلك أستطيع أن أقول هذا. بالطبع أعتقد بأننا لو تقابلنا في معركة، فسوف أقتلهم إذا حاولوا توسيع حدودهم داخل تركيا، لكنني أتعاطف معهم أيضاً. إنهم كقطعان خراف سيقوا أمام الجيوش. إنهم عبارة عن متاريس لأطماعكم. أنتم الأمريكيون من يستحق اللوم. شجعتم اليهود للتضحية بعائلاتهم بينما تضخ شركاتكم البترول. إن اليهود مجرد كلاب حراسة بالنسبة لكم. تعطونهم الرؤوس النووية لإبقائنا نحن المسلمين تحت السيطرة. تزودون جيوشهم بأحدث أنواع السلاح. ليس لدى الفلسطينيين جيش، فقط بعض الوطنيون المتحمسون. لا حكومة لديهم، لا أرض ليعيشوا عليها. كل ما يعنيكم من شأن إسرائيل هو الهيمنة والتحكم بالنفط. أما إسرائيل بالنسبة إلى اليهود فهي حلم - حلم سيثبت بأنه وَهْمٌ خادع. وبالنسبة إلى الفلسطينيين إنها أرضهم ووطنهم - وطن أجبروا على الرحيل عنه. وبالنسبة إلى العرب فهي حصن معاد بُنِيَ على أرض عربية. أما بالنسبة إلى المسلمين في كل مكان فهي إهانة، إذلال، وسبب لنا لأن نبغضكم".

38 الحرب العراقية الإيرانية: انتصار آخر للرجل الاقتصادي المأجور

خطر على بالي نسيم بعد ثلاثين عاماً من حديثه معي. في ليلة من ليالي حزيران عام 2004.

كنت أحلق فوق الشرق الأوسط متجهاً إلى قطر، في استراحة توقف لتبديل الطائرة في طريقي إلى نيبال والتيبت. تقع قطر في الجانب الآخر من الخليج الفارسي. كانت بلداً بالكاد قد سمعت عنه خلال عملي كرجل اقتصادي مأجور. راقبت من خلال نافذة الطائرة غروب الشمس فوق اليونان، تركيا، سورية، العراق، وإيران. فكرت بجدتي، بمساءات الشتاء الطويلة عندما كانت تقرأ لي من الأوديسة، الليالي العربية، والكتاب المقدس. مرت طائرتي فوق الجزر حيث طاف الحمام الزاجل وباتجاه الجبل حيث بنى نوح سفينته. دخلنا فوق أرض سحرية كانت يوماً موطناً للحدائق المعلقة البابلية، ولأول مدن ومزارع إنسانية ولأقدم لغة مكتوبة. الآن يقع تحتي المكان الذي كان قد اخترع فيه الدولاب والرياضيات الحديثة. تذكرت القصص الآسرة حول القلاع التي هاجمها ريتشارد قلب الأسد، ودافع عنها صلاح الدين. من ثم تركز تفكيري بنسيم.

لم يمض وقتاً طويلاً - ومضة من التاريخ - على تنبؤاته لتصبح حقيقة واقعة. أنا نفسي كنت قد وضعت كتاباً حول الحيل التي كان قد وصفها. سقط ملكه الديكتاتور شاه إيران، وحل محله رجال دين، زادت عدوانية إسرائيل ودعمت الولايات المتحدة كل حركة من تحركاتها، استمرت معاناة الفلسطينيين، وأظهروا للآخرين مدى قوة فرد واحد يلبس حزاماً ناسفاً، وبرهنت الولايات المتحدة عن وحشيتها في عشرات الأماكن غير المعروفة وفي بضع أخرى معروفة: بنما، هاييتي، والسودان. ثم جاء 11 أيلول، أفغانستان، والعراق. بعد الكثير من السنين على هذا الكوكب فشلنا نحن البشر في تخليص أنفسنا من دافع شرير لإخضاع وذبح إخواننا وأخواتنا في الإنسانية. ليس الصليبيون الملطخون بالدم هم فقط من حكايات الماضي والتاريخ.

شعرت بالإنهاك، غلبني إحساس عميق بالإحباط. راقب العالم كله الولايات المتحدة وهي تشن ما دعاه المسلمون حرباً صليبية جديدة عندما غزت قاذفات القنابل وطائرات الشبح العراق للمرة الثانية في ما يزيد بقليل عن عقد من الزمن. على الرغم من أن الصدمة والرهبة قد صعدتا العنف العسكري إلى مستويات جديدة من الرعب، كان ذلك ببساطة من وجهة نظري الخطوة التالية المرسومة من خطة واشنطن للهيمنة على الشرق الأوسط، الذي يحوي على أكبر مخزون نفطي في العالم. لقد بدا التحكم بصدام حسين أو تحطيمه عاقبة محتومة لنجاحاتي في السعودية كرجل اقتصاد مأجور.

دعمت واشنطن صدام حسين في حربه على إيران خلال الثمانينات. ليس فقط لأنه كان أداتنا للانتقام من رجال الثورة الإيرانيين الذين خلعوا الشاه، واقتحموا سفارتنا، وأهانوا الرهائن الأمريكيين، وطردوا شركاتنا النفطية، بل لأنه كان يجلس فوق أكبر احتياطي للنفط في العالم. ذهب الرجال الاقتصاديون للعمل والتأثير عليه. أعطيناه بلايين الدولارات. بنت له شركة بكتل معامل كيميائية نعرف بأنها ستنتج السارين وغاز الخردل لقتل الإيرانيين، والأكراد، والثوار الشيعة. زودناه بطائرات مقاتلة، دبابات، وصواريخ، ودربنا جيشه لاستعمالها. ضغطنا على السعوديين والكويتيين لإقراضه 50 بليون دولار.

مراقباً كيف كانت الأحداث تتكشف في العراق، كنت غالباً ما أفكر بكلام ذلك المهندس الإيراني الذي رافقني والموظفين الآخرين اللذين يعملان في شركة ماين من كرمان إلى بندر عباس. والذي قال: "الإيرانيون ليسوا عرباً، نحن فارسيون، آراميون. إن العرب يشكلون خطراً علينا. نحن معكم أيها الشباب مائة بالمائة". فجأة انقلبت الطاولات وأصبح الإيرانيون هم الشباب الأسوأ وأصبح عربي اسمه صدام حسين حليفنا.

كانت حرب السنوات الثماني بين العراق وإيران واحدة من أطول الحروب وأكثرها كلفة ودموية في التاريخ الحديث. عندما وضعت الحرب أوزارها عام 1988، كان قد مات أكثر من مليون شخص. انهارت مدن، قرى، مزارع، واقتصاديات كلا البلدين. لكن تمتع تحالف حكم المال والشركات بانتصار آخر. حقق المزودون بالمعدات العسكرية والمتعهدين الأرباح الطائلة. كانت أسعار النفط عالية وخلال ذلك، حاول رجال الاقتصاد المأجورون إقناع صدام بقبول صفقة مماثلة لقانون غسيل الأموال السعودي، الصفقة التي ساعدتُ على تشكيلها مع البيت السعودي. أرادوا منه أن ينضم إلى الإمبراطورية.

لكن رفض صدام بعناد. لو قبل كما فعل السعوديون، لضمنا له الحماية بالإضافة إلى المزيد من بناء المعامل الكيميائية ومزيد من الأسلحة. عندما توضح عناده وتأكد اصراره على حل الأمور بطرقه الخاصة المستقلة، أرسلت واشنطن العملاء. اغتيال رجل كصدام ليس بالأمر السهل، ويتطلب عادة تواطؤ من الحراس الشخصيين. في حالات عرفتها أنا شخصياً - الرئيس الإكوادوري رولدوس والبانامي توريجوز - كنت متأكداً أن الحراس الشخصيين الذين تدربوا في المدرسة الأمريكية قد تلقوا رشوة لتعطيل الطائرات. فهم صدام العملاء وطرقهم. فهو نفسه كان قد كلف من وكالة الاستخبارات الأمريكية في الستينات بمهمة اغتيال قاسم، وقد تعلم جيداً من طرقنا نحن حلفاؤه في الثمانينات. لقد كان يفحص، ويغربل رجاله بصرامة ودقة. كما أنه أيضاً استخدم رجالاً يشبهونه فلم يكن في مقدور حراسه الشخصيين التأكد أبداً فيما إذا كانوا يقومون بحمايته أو بحماية ممثل يشبهه.

فشل العملاء. لذلك اختارت واشنطن في عام 1991 السبيل الوحيد الباقي. أرسل بوش الأب الجيش الأمريكي. لم يُردْ البيت الأبيض عند هذه النقطة إسقاط صدام. لقد كان نموذجاً من القادة يريدونه: رجل قوي يستطيع السيطرة على شعبه، ويلعب دوراً في إعاقة إيران. افترض البنتاغون بأنهم إذا حطموا جيشه يكونون بذلك قد عاقبوه وعلموه درساً للمستقبل: وبذلك يدخل اللعبة، وينفذ طلباتهم. عاد رجال الاقتصاد المأجورون مرة ثانية في محاولة للتأثير عليه في التسعينات. لم يشتر صدام صفقاتهم. وفشل العملاء مرة أخرى. أرسل بوش الابن الجيش مرة ثانية إلى المنطقة. خلع صدام وأعدم.

غزونا الثاني للعراق أرسل أقوى رسالة ممكنة للمقاتلين الإسلاميين. عرفوا بأن 11 أيلول كان ببساطة مجرد ذريعة، ذلك أن مختطفي الطائرات لم يكونوا يمتون بأية صلة لصدام أو للعراق. كما أنهم أيضاً فهموا بأن اليمين المسيحي له التأثير الأقوى على سياسات الولايات المتحدة، وقد تحالف مع جماعات الضغط اليهودية، وكان مصمماً على إخضاع الشرق الأوسط والتحكم بإمدادات النفط وطرق النقل العالمية.

كان رد فعل العرب متوقعاً. فمنذ أيام ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا وحتى الرئيس بوش، كان العرب واضحين جداً بأمرين اثنين: إنهم يريدون 1) أن يبقى الأوروبيون (والآن الأمريكيون) بعيدين ويكفوا عن التدخل في شؤونهم. 2) أشكالاً خاصة بهم من الحكومات. في أغلب الأحوال مبنية على القانون الإسلامي، بدلاً من مفاهيمنا المدنية.

لن يغفر مواطنو الشرق الأوسط أبداً استبدادية الأوروبيين وفرضهم الحدود بين أراضي القبائل وتنصيب ملوك أصدقاء لأنظمتهم البعيدة. نما الاستياء الذي بدأ في العصور الوسطى على مر القرون. يعتقد الكثير من العرب بأن الإمبراطورية الأمريكية الجديدة التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية لها أهداف مماثلة لتلك التي كانت للحملات الصليبية. إن الأكثر معرفة وذكاء من بين المسلمين، مثل نسيم، قد ارتابوا منذ البداية في دولة إسرائيل بأنها كانت أكثر من ملاذ لمعاناة بشر مضطهدين. عندما أعلن رئيس وزراء إسرائيل ديفيد بن غوريون ولادة الدولة الجديدة في 14 أيار 1948، شنت مصر، سورية، الأردن، العراق، ولبنان الحرب. خلال السنوات التي تلت، بدا ارتياب المسلمين مبرراً بسبب دعم الولايات المتحدة غير المحدود لدولة قامت خلال سلسلة من الحروب باحتلال المزيد والمزيد من أراضيهم. أثار أيضاً سخطهم الشديد الصفقة التي عقدها رجال الاقتصاد المأجورون مع السعودية والعمل على تغيير ملامح البلاد بالاتجاه الغربي. هذا البلد الذي يحتوي على أكثر المواقع قداسة بالنسبة للمسلمين. غزو العراق في عام 1991 وما تبعه من مظاهر الوجود العسكري الأمريكي الكبير في المنطقة، قد دعم النظرية القائلة بأن الغرب كان يستمر بتقليد بدأه الأوروبيون المتعصبون في القرون الوسطى. أما الغزو الثاني كان بالنسبة للمسلمين في الشرق الأوسط إهانة لا يطاق احتمالها: منحت المقاتلين العرب شرعية جديدة في عيون

الكثير حول العالم. لقد تحولوا من ليلة إلى ضحاها من إرهابيين إلى "مقاتلين من أجل الحرية" وهؤلاء الذين رؤوهم بهذا المنظار الجديد لم يكونوا فقط محصورين في العالم الإسلامي.

ازداد يأسي بينما كنت أفكر حول تكديس الأسلحة وتصاعد حدتها وعواقب ذلك على الشرق الأوسط. يعج عالمنا اليوم بالأسلحة بشكل لم يسبق له مثيل. ينمو تحالف حكم المال والشركات بقوة بالاعتماد على اقتصاد مبني على صناعة المعدات العسكرية. شركاتنا المنتجة للأسلحة هي من بين أكثر الشركات ربحاً في العالم. تقترب مبيعاتهم مضافاً إليها تلك التي في بريطانيا، فرنسا، روسيا، والبرازيل من 900 بليون دولار في السنة. اليوم صناعة الأسلحة النووية والبيولوجية والكيميائية مع تلك الصناعات العسكرية التقليدية قد تقوي وترفع اقتصاديات البلدان، لكنها أيضاً تهدد بالقتل الجماعي. وصل استهلاك السلاح إلى مستويات عالمية جديدة من الإدمان: الموقع السياسي لبلد ما هو غالباً ما يقاس بحجم ما يملكه من أسلحة. تحالف حكم المال والشركات قد نجح بربط تجارة بيع الموت مع الدبلوماسية العالمية. مثال: تتلقى كل من إسرائيل ومصر بلايين الدولارات كل عام من واشنطن لأنهما شاركتا في اتفاقيات كامب ديفيد عام 1978، وكجزء من صفقة "السلام" هذه، يجب عليهم أن يخصصوا قسماً كبيراً من الأموال الممنوحة لهم من أجل شراء معدات عسكرية أمريكية.

غلف الظلام الطائرة وفكرت حول التغييرات الجيوسياسية منذ تلك الرحلة مع فرانك وجيمس من كرمان إلى بندر عباس. سافرنا عبر طريق القوافل الصحراوي القديم عندما كانت تشرف حرب فيتنام على نهايتها. بعد ذلك، أصبح الشرق الأوسط المنطقة الرئيسية لتجريب واستهلاك السلاح. وبعد ذلك، عندما انتهت الحرب الباردة، حل الثوار الإسلاميون محل الشيوعيين كذريعة لتصعيد وتطوير آلة الحرب. بدا شديد الوضوح أن الجهل بمعرفة التاريخ والدوافع التجارية قد صنع كل هذا. فكرت كيف للكثير من الناس "المثقفين" أن يُضللوا ويُدفعوا إلى الاعتقاد بأن الصراعات الحالية هي حول الدفاع عن أفكار نبيلة. رجال الاقتصاد المأجورون وأبرز وسائل الإعلام تفوقوا بنشر معلومات كاذبة حولت الطمع والهيمنة إلى حرية وديمقراطية. لقد خدموا تحالف حكم أثرياء المال والشركات بشكلٍ كبير واستثنائي.

استغرقت الرحلة بالطائرة 24 ساعة منذ إقلاعها إلى أن حطت في المطار على أرض قطر. كنت منهكاً، محطوط القوى. ودون أدنى شك لم أكن مستعداً لمقابلة الرجل الذي كنت على وشك أن أصادفه.

نزلت من الطائرة إلى الممر المؤدي إلى قاعة المطار في قطر، منهكاً، متطلعاً حولي بارتباك، ذهلت عندما وجدت المكان يشبه سوقاً تجارية حديثة كبيرة أمريكية أكثر مما تشبه مطارات الشرق الأوسط التي رأيتها في الماضي أثناء عملي كرجل اقتصاد مأجور. الشيء الوحيد الذي دل على الماضي هو مظهر الناس أنفسهم. على الأقل بضعاً منهم قد أشار مظهرهم إلى ذلك الماضي، مجموعة من الرجال يرتدون جلابياتهم الطويلة التقليدية والكوفيات والنساء يلبسن الحجاب.

بينما كنت أنتظر في الصف ليأتي دوري لشراء البوظة، دارت محادثة بيني وبين رجل يلبس بنطال جينز أزرق، وقميصاً كقمصان لاعبي رياضة البولو، وجاكيت رياضة. علمت بأنه من لوس أنجلوس ويعمل متعهداً في بناء العقارات. عندما أبديت دهشتي حول المطار أجابني بقوله: "يركز معظم الناس على العنف في الشرق الأوسط. لكن هناك جانب آخر غير العنف يمكنك أن تراه هنا في هذا البناء، على الرغم من أنه لا شيء هنا يمكن أن يقارن بما سوف تجده في دبي. يأتي تمويل أكثر أعمال العنف من البلدان التي على هذا الجانب من الخليج الفارسي، نادي البليونيريين الخالص، الشره الصرف". أصر بأسنانه بشدة وتابع: "لكن نوع الناس الذين أتعامل معهم هم مسلمون يشبهون إلى حد كبير أي شخص آخر. يحبون الماس والذهب وساعات الرولكس وسيارات المرسيدس. يمكن أن يتحدث هؤلاء العرب ما شاؤوا عن قصص كبيرة حول العيش حياة زاهدة متقشفة، متتبعين تعاليم الله، غير آخذين أية فائدة مالية عن القروض التي يمنحونها، والإبقاء على نسائهم محجبات، وهلم جراً. لكن انظر حواليك. إنهم متأكدون تماماً كتأكدهم من الجحيم بأنهم لا يتبعون هذه التعاليم".

وصلنا إلى طاولة البيع. أصر أن يدفع عني ثمن البوظة. سرنا بين بحر من الطاولات في مكان يمكن له أن يكون ساحة طعام عامة في أي سوق تجاري، حديث كبير في أي مكان من الولايات المتحدة. جلسنا إلى إحدى الطاولات. كان تواقاً للتحدث: "دبي هي الوجبة الأكبر والأدسم من بين كل هذه الوجبات الأخرى". قال ذلك وهو يلعق البوظة من حواف قمع البسكويت الذي في يده. "لا يوجد مثيل لهذا في العالم. يستخدم العرب الله في جلب مئات الآلاف من العمال وأكبر البلدوزرات لحفر، تجفيف، واستنزاف البحر. تتطور دبي بشكل أسرع، أرقى، وأكبر من أي بلد آخر على الأرض. يوجد فيها بناء داخلي مغلق يحتوي على منحدرات للتزحلق على الجليد، أعلى فندق في العالم، وقريباً ستحتوي على أعلى بناء في العالم أيضاً". بدأ الآن يهجم على قمع البوظة بفمه ولسانه، بينما ساقته كلماته إلى الأكل بشكلٍ مسعور: "تخيل هذا: دبي هي موطن للعالم نفسه - مئات الجزر صنعها الإنسان، كل

واحدة تمثل بلداً أو منطقة، ويمتد هذا خمسة أميال عرضاً وخمسة أميال طولاً في داخل ما كان مرة يدعى الخليج الفارسي. إنها الحلم الندي لمتعهدي بناء العقارات". انتهى من أكل قمع البوظة، ومسح يديه في بنطاله الجنيز: "تظن أن أبناء الله هؤلاء لا يحبون معاقرة الخمرة ومعاشرة النساء؟ راجع تفكيرك. كل شيء في دبي موجود: أفضل أنواع الويسكي الاسكتلندي، القمار، النساء، المخدرات، البغاء. تملك المال تستطيع أن تشتري أي شيء تريد. أي شيء".

عندما غادرت طائرتنا قطر، كانت النجوم تضيء الخليج الفارسي. كانت ليلة تشبه تلك الليلة التي قضيتها في بندر عباس: فكرت فيما إذا كان ذلك الرصيف الطويل لذلك الميناء حيث كنت قد قابلت نسيم مازال موجوداً هناك في مكان ما تحت طائرتي. تطلعت من خلال العتمة فلم أر شيئاً. تذكرت بأنه في أواخر أيام عملي كرجل اقتصاد مأجور كان يدور مستقبل كارتر السياسي حول إيران. الشاه - الرجل الذي بغضه نسيم - قد سقط، احتلت سفارة أمريكا في طهران، كان الرهائن الاثنان والخمسون مركز الاهتمام، وحاول الرئيس أن يدعم ويرفع من نسبة الأصوات الضعيفة التي حصل عليها في الانتخابات الرئاسية، وذلك بالتصريح بأن أية محاولة من المحاربين للسيطرة على الخليج الفارسي ستترجم على أنها اعتداء مباشر على الولايات المتحدة الأمريكية. أعلن الرئيس أن أية محاولة كهذه ستلغى، وتواجه بالقوة العسكرية إذا اقتضت الضرورة.

لم يكن التهديد الذي وجهه كارتر بلا معنى. أرسل طيران دلتا الحربي في مناورة لتحرير الرهائن. انتهت المناورة بفشل مأساوي ذريع، لكنني أفهم الآن بأن سياسة الولايات المتحدة تجاه الشرق الأوسط - وخصوصاً دعمها لإسرائيل والصفقات المشبوهة التي عقدتها مع حكومات عربية مهمة في السعودية، والكويت، ومصر - قد أنجزت شيئاً أكثر حيوية بالنسبة لمصالح تحالف حكم المال والشركات. على الرغم من أن سياساتنا في كل من إيران والعراق ظهرت بأنها كارثية، لكن بطريقة أكثر خبثاً قد أثرنا في العالم العربي مرة ثانية. قمنا في دبي ببيعهم "العالم" كما في الصين، اشترى الشرق الأوسط الصيغ والأشكال المادية الاستهلاكية الخاصة بنا.

مالت الطائرة فجأة. ظهرت من خلال نافذتي على الأرض أضواء متلألئة. بندر عباس! نظرت باحثاً عن ذلك الرصيف. من ثم أدركت أن مجموعة الأضواء هذه هي أقرب إلى الحافة الجنوبية من الخليج المعتم، وهي ليست موجودة حيث تقع بندر عباس على الإطلاق. كنت أنظر إلى دبي، إلى المكان الذي لم يكن بالإمكان استبيانه من الطائرة ليلاً في آخر مرة

زرت فيها المنطقة. هي أيضاً كانت قرية نائمة. لكنها كانت الآن أفخم سوق تجاري في العالم، منتجع للتزحلق على الجليد، كازينو للعب القمار، ومركز للتسلية وللهو.

ترددت في محاولة فهم هذه المفارقة، في استيعاب عقل العرب الصبياني الذي اعتنق الاعتقادات التقليدية الإسلامية. وقد بنى نموذجاً جديداً زائفاً لمكة. كان تحتي في الأسفل مَعْلَمٌ ضخمٌ قد يقدره ويعجب به كل من كليوباترة والملك توت. لكن أسامة بن لادن؟

تذكرت تعليق رئيس شركة ماين، جاك دوبر، الذي وجهه إلي في تلك الليلة التي دعاني فيها هو وزوجته إلى العشاء في فندق انتركونتيننتال أندونيسيا والمتعلق بالنفط كمعيار جديد لترسيخ سلطة الدولار. لقد كان ما قاله صحيحاً. بعد أن أتم قوله هذا استدار باتجاه زوجته، وأشار بأن "تستهل الولايات المتحدة مرحلة جديدة في تاريخ العالم..." لقد كان صحيحاً أيضاً ما قاله حول ذلك. لكن الآن وبعد مرور ربع قرن، تلك المرحلة التي تكلم عنها جاك كانت تخبو، وتتلاشى، كان شيئاً ما مختلفاً تماماً ينبثق، ويظهر.



لسنوات عديدة بدت سياسات تحالف حكم المال والشركات ناجحة بالنسبة إلى مدراء شركات مثل جاك دوبر مدير شركة ماين. لكن الأحداث التي تكشفت مؤخراً في آسيا وأمريكا اللاتينية فضحت هذه السياسات كسياسات فاشلة. لقد دفعوا آسيا إلى الأزمة الاقتصادية عام 1997، ورفعوا الصين إلى لعب دور عالمي قيادي بينما فتحوا أبوابها للشره والانغماس في الملذات المادية على غرار ما يحدث لدينا، ووسعوا الهوة بشدة بين أغنياء وفقراء آسيا. في أمريكا اللاتينية، أنزلت أعمالنا ملايين الناس إلى مستويات حياة الفقر المدقع وأضعفت وقوضت طموح الطبقة الوسطى، وفي النهاية مكنت السكان الأصليين والوطنيين من انتفاضاتهم التي جلبت إلى السلطة موجة جديدة من القادة الوطنيين المناضلين ضد تحالف حكم المال والشركات.

مع ذلك أنكرت واشنطن مسؤولياتها عن الفشل، ورمت باللوم بعيداً عنها. الصحف، المجلات، محطات التلفزيون والراديو فاضت بتقارير تضع اللوم على موظفي الحكومات الأجنبية الفاسدين، التعصب الديني، وعلى الديكتاتوريين اليساريين من أجل كل المشاكل. صوّر تحالف حكم المال والشركات وعملائهم كناس طيبين ينوون نشر وتعزيز الديمقراطية. وقلما ذكر بأننا نحن من أفسد أولئك الموظفين، وأن سياساتنا القمعية قوت، ومكنت المتعصبين. وأن العديد من قادة العالم الثالث الذين نَصِفُهُم على أنهم "ديكتاتوريون" كانوا حقيقة قادة منتخبون ديمقراطياً وفي معظم الأحوال بأغلبية مطلقة من الأصوات لم يحصل على مثلها رؤساء الولايات المتحدة. مع ذلك إن الجهود المنظمة للسياسيين، مدراء الشركات، والإعلام العميل، فشل سياسة أمريكا الخارجية - على الأقل في آسيا وأمريكا اللاتينية - كل ذلك كان خافياً على أغلب مواطني الولايات المتحدة. كان هذا الإخفاق واضحاً في الشرق الوسط أيضاً. حتى قبل غزو العراق، كان واضحاً أن تحالف حكم المال والشركات قد فقد السيطرة وأن استراتيجيات الرجل الاقتصادي المأجور قد أعطت عكس النتائج المرجوة. استفحل العنف، واستشرى العداء لأمريكا. قادت خطة كرمت روزفلت إلى ردة فعل معاكسة عندما خلع المقاتلون الوطنيون الشاه في عام 1979. شرد الدعم الأمريكي لإسرائيل ملايين الفلسطينيين من بيوتهم، ولّد حرباً لانهائية، وأغضب العرب والمسلمين في كل أصقاع الأرض. أحنق المسلمون المحافظون تحويل السعودية إلى نسخة مصغرة عن الثقافة الغربية. ورأى العرب الذين درسوا في أكسفورد وهارفارد بأم أعينهم الخطط والمكائد التي ترسم لنهب النفط العربي.

حُلم تحالف حكم المال والشركات في الحصول على النفط من خلال تواطؤ الحكومات العميلة في بعض البلدان الإسلامية وجيش وكيل متمركز في إسرائيل، انفجر في 11 أيلول متحولاً إلى كابوس عنيف.

ردت واشنطن على أحداث أيلول بالطريقة العسكرية المعتادة، الطريقة التي وضعت البلاد في خطر أكبر. حوّل التدخل العسكري في أفغانستان العالم ضدنا. بعث غزو العراق برسالة بأن واشنطن هي أكثر اهتماماً في ضمان إمدادات النفط من اهتمامها بمطاردة أسامة بن لادن. الحرب العراقية في المدى البعيد أججت غضب المسلمين الملتهب، ألهمت الملايين إلى الانضمام إلى خلايا إرهابية، كشفت عن ضعف الجيش الأمريكي، وأغرقت الولايات المتحدة في الديون إلى حد الإفلاس. السياسات التي اتبعت بعد أحداث 11 أيلول كانت في الحقيقة آخر وأوضح حماقة في سلسلة الحماقات التي ارتكبتها واشنطن. مع كل نجاح ادعاه تحالف حكم المال والشركات - تنصيب وتعزيز سلطة الشاه في إيران، البيت السعودي، العائلات الحاكمة في الكويت والأردن، وديكتاتور صديق في مصر، ودعم العسكرية الإسرائيلية - كانت هناك خسارة مقابلة، مثل ارتفاع مكانة وسلطة رجال الدين، شعبية القاعدة، حلول حكومات متطرفة محل أخرى معتدلة، تقديس بطولات شهداء العمليات الانتحارية، وتصاعد التعصب الديني.

ومن ثم دخلت لبنان الحرب ثانية، كان قد حصل الكثير بفترة قصيرة بعد زيارتي الأولى إلى هناك. بدأ الاضطراب في شباط عام 2005 عندما قتل رئيس الوزراء الأسبق رفيق الحريري بسيارة مفخخة في بيروت. أدى موته إلى هستيريا ومظاهرات احتجاجية كبيرة ملأت شوارع العاصمة. بدت الحكومة الجديدة عاجزة عن السيطرة على الحزب الأقوى في البلاد، حزب الله، المنظمة الإسلامية الشيعية والتي تصنف واشنطن قادتها كإرهابيين.

في صيف عام 2006، شنت إسرائيل ضربات جوية كبيرة ضد لبنان، مدمرة أجزاء من بيروت، وقتلت الأبرياء المدنيين، وقطعت الطريق الرئيسي المؤدي إلى سورية. على الرغم من إدانة العدوان من الكثير من قادة العالم إلا أن واشنطن دافعت عن الأعمال الإسرائيلية العسكرية. مرة ثانية وجهت الانتقادات إلى الولايات المتحدة بوضعها مصالحها النفطية والتجارية فوق كل اعتبار على حساب السلام العالمي واستقرار الشرق الأوسط.

يتعجب علماء السياسة اليوم من تصلب صانعي السياسة الأمريكيين وعنادهم في تكرار أخطاء حرب فيتنام. لقد حطم الفيتناميون الشماليون أسطورة الجيش الذي لا يقهر، وغلبوا الجيش الأعتى والأكثر تطوراً والأفضل تمويلاً في العالم. لماذا، بعد ربع قرن على نهاية الحرب الفيتنامية، كان من الصعب على البيت الأبيض، الكونغرس، والبنتاغون فهم ذلك؟ لماذا يتخبط القادة السياسيون المحنكون بشكل فظيع؟

ربما تدور أجوبة هذه الأسئلة حول حقيقة أن تحالف حكم المال والشركات جنى أرباحاً كبيرة، بصرف النظر عن كل الأخطاء في التقدير - أو قد يقول البعض، إنما بسبب هذه الأخطاء جنيت الأرباح. كانت آلة الحرب تحقق النجاح المالي حتى عندما فشلت عسكرياً، حقق التجار والمتعهدون الأمريكيون أرباحاً طائلة في فيتنام، أفغانستان، والعراق، بالإضافة

إلى تحقيقهم الأرباح في عشرات الأمكنة التي تعاني من النزاعات المسلحة. بالنسبة إلى عائلات أولئك الذين ماتوا وبالنسبة إلى الولايات المتحدة ككل، كانت تلك الحروب باهظة الثمن. أما بالنسبة إلى تحالف حكم المال والشركات كانت الأرباح هائلة.

إن عواقب الأخطاء في العراق هي أكثر خطورة على مستقبل بلادنا من تلك التي ارتكبت في فيتنام، برغم محاولات واشنطن في إقناعنا بأن تأثير الدومينو كان تهديداً عالمياً، إنما كانت فيتنام بشكل رئيسي نزاعاً محصوراً بمنطقة معينة. على النقيض من ذلك إن الحرب في العراق بالإضافة إلى النزاعات الموجودة على مدى المنطقة كلها هي صراع إيديولوجيات. لا تحرض المسيحية واليهودية ضد الإسلام فحسب، بل هما أيضاً استفتاء على المعنى الحقيقي للمادية الاستهلاكية.

قد يبدو بأن تحالف حكم المال والشركات يربح الاستفتاء في أمكنة مثل دبي. لكن كل ما علينا أن نفعله لنعرف بأن دبي هي شذوذ عن القاعدة وهي الصورة الخادمة لواحة في الصحراء هو أن نغير محطة التلفزيون إلى تقارير إخبارية من إيران، العراق، مصر، لبنان، إسرائيل، وسورية. وبينما نقترب من نهاية العقد الأول من الألفية الثالثة نستطيع فقط أن نحكم بأن تحالف المال والشركات قادنا إلى هاوية تاريخية من تركز النفوذ وتوزيع غير عادل للثروات. ونجد أعمق ما تكون عليه هذه الهاوية في أفريقيا.

الجـزء الرابع: أفريقيـا



41 الفاتحون الجدد

"إذا كنت تنوي إنجاب أطفال، وتريد لهم أن يعيشوا حياة مزدهرة، يجب عليك أن تعمل كل ما في وسعك لتضمن تحكمنا بالقارة الأفريقية".

ساعدني تحذير جورج ريتش هذا بأن أتصالح مع نفسي، وأحتمل المستشارين الأمريكيين الآخرين الذين شاركتهم العيش في منزل في الإسكندرية في صيف عام 1974، تبعني ظله من القاهرة إلى الأهرامات في الجيزة. إنه يحوم الآن خلف موظف الحكومة المصرية الذي وقف أمام طاولة كبيرة مصنوعة من خشب الأرز، بدت تقريباً كبيرة جداً بالنسبة إلى غرفة طعام أنيقة في هذا البيت الذي كنا قد استأجرناه. بيت واسع يعود إلى الزمن الماضي، بناه تاجر بريطاني جمع ثروات كبيرة من نقل العاج الأفريقي، المومياءات، والجواهر التي استلبت من قبور قديمة لتنتهي إلى المتاحف الأوروبية.

"أثبت التاريخ أن مصر هي رأس الكلب الذي جسده هو أفريقيا" قال الموظف الحكومي ذلك مبتسماً وموحياً بشيء من الاعتداد بالنفس. جال بعينيه حول الطاولة يقيس كل واحد منا بنظره، كنا عشرة رجال، مواطنون أمريكيون، أتينا إلى هنا لإنشاء وتطوير شبكات مياه وصرف صحي وأنظمة هيكلية تحتية أخرى. ضرب الموظف بقبضته على الطاولة قائلاً: "اجعل الأمور سهلة بالنسبة لرئيسنا أنور السادات الموقر، لكي يفخر بصداقة بلدكم، وستتبع أفريقيا مصر بعد ذلك، فلتحيا الرأسمالية لكل العالم". توقف برهة، وأشار للنادل لإحضار العشاء.

تمتم المهندس المدني الذي كان من كولارادو: "لقد وصلنا نحن الفرسان في الوقت المناسب لإنقاذ هذا الحصن العنيد".

قال أحدنا بتأمل: "دعنا نأمل أن لا نكون كاستر*" أضحك ذلك الجميع.

أصبح التمرين الليلي بالنسبة لنا هو إقناع أنفسنا بأن مصر كانت رأس الحربة في تنمية وتطوير باقي القارة الأفريقية. افتخرنا نحن المستشارون الأمريكيون بثقافتنا وحنكتنا وبقدرتنا على تحديد واختصار مسائل معقدة وتحويلها إلى إحصاءات يمكن أن نوجزها في جداول، رسوم بيانية، وخرائط. كان بعضٌ منا يحمل درجة دكتوراه، أما الباقي كانوا يحملون أنواعاً مختلفة من الشهادات المتقدمة . ما عداني أنا، كنت أحمل إجازة جامعية في علم الإدارة، وكنت حكيماً بما يكفي لأبقى صامتاً في هذا الموضوع. وكنماذج من خبراء التنمية، كنا أشخاص متقدمين قضينا وقتاً كبيراً جداً مؤكدين لأنفسنا بأن عملنا في الإسكندرية

---

* كاستر: جورج كاستر، جنرال أمريكي قُتل وأُبيد جنوده على أيدي محاربي قبائل السيوكس والتشايين الهندية بقيادة الحصان الجامح والثور العنيد في معركة الكبش الصغير في مونتانا عام 1876.
"المترجم"

سيخلق عهداً جديداً على مدى القارة الأفريقية، وعند بداية الألفية الثالثة ستصبح مشاكل أفريقيا الأكثر خطورة أثراً من الماضي.

بالنسبة إلى غالبية أعضاء الفريق، كمثل غالبية الأمريكيين، بدا ذلك مهمة سهلة. إن هؤلاء الفاتحين الجدد، متتبعين أمثلة الإمبراطوريات السابقة، أخذوا على عاتقهم أن يحولوا هذه المجتمعات العاصية إلى ظلال نسخ مكررة عن مجتمعاتهم. إن بالإمكان إنقاذ هؤلاء الوثنيين الهمجيين فقط إذا اهتدوا إلى الكاثوليكية، أو بتعبير آخر، إلى الديمقراطية. فقط إذا انحنوا إلى القيادة المتنورة المتحضرة لقيصر أو ملك ـ أو لرئيس أمريكي.

على الرغم من محاولتي للانسجام مع هذا الوضع الذي نحن فيه إلا أنني كنت أزداد تشاؤماً. فيما إذا سمعت هذا الجدل في أندونيسيا، إيران، كولومبيا، أو مصر بدا أنه يحمل الطابع الديني لتنشئتي الكالفينية، سمعت فيه التعاليم البيوريتانية لولايات نيو انغلاد الأمريكية القديمة. لكن هل أستطيع أن أصدق بأن نيران جهنم ستلتهم أي شخص يقف إلى جانب الاتحاد السوفييتي؟ هل يقف القديس بطرس على أبواب الجنة مبتسماً فاتحاً ذراعيه للرأسماليين؟ حتى لو أن أحداً ما اقتنعني بأن أجيب "بنعم" على هذه الأسئلة، لكن هل نستطيع أن نستثني أنفسنا من تلك النيران؟ بواسطة أي مدى من الخيال تظهر الطريقة الأمريكية على أنها اقتصاد السوق الرأسمالي الحر؟ كل شيء رأيته أشار بأن مقاول المدينة الصغير كان يسير باتجاه الانقراض ليحلُّ محله النهاب الذي يقف في أعلى هرم الاستغلال وهو الشركات الكبرى. لقد بدا بأننا مصممون على العودة إلى التروستات الاحتكارية لنهاية القرن الثامن عشر. لكن هذه المرة كان ذلك يحدث الآن على مستوى عالمي. لذلك، ماذا كنت أفعل؟ كنت أسأل نفسي هذا السؤال كل ليلة. فكرت حول رحلتي الأولى إلى الشرق الأوسط، تلك الأيام القصيرة في بيروت، مارلون براندو، الجولة التي أخذني بها باسم إلى مخيمات اللاجئين، المناظر، الروائح، البنى، المذاقات، والأصوات. كان مضى على ذلك أقل من أربع سنوات فقط ومع ذلك كانت وكأنها حياة كاملة. كنت غالباً ما أتمشى بعد العشاء على شاطئ البحر المتوسط الذي لم يكن بعيداً عن البيت الذي ننزل فيه. أخذتني الأمواج المظلمة التي تتحطم على صخور الشاطئ إلى عهود قديمة، عهود أنطونيو وكليوباترة، الفراعنة، الملوك والملكات الذين بنوا الأهرامات، موسى... نظرت عبر المياه باتجاه إيطاليا وشرق اليونان، ومن ثم إلى الشرق الأبعد إلى أرض الفينيقيين ـ لبنان.

هذه الأفكار حول الإمبراطوريات القديمة جلبت لي نوعاً غريباً من الراحة. إن التاريخ نسيج من حروب الإخضاع والوحشية تخبطنا نحن الناس في أوحاله. هدأ صوت أمواج البحر نفسي القلقة. وقف جورج ريتش أمامي مشيراً إلى الخريطة المضاءة في غرفة مجلس إدارة شركة ماين: الشيء الوحيد الذي له أهمية كان هو مستقبل الولد الذي يوماً ما سيتحدر من صلبي. من أجله أو من أجلها كان يجب أن نتحكم بأفريقيا والشرق الأوسط. إن

معرفتي بأن ذريتي من بعدي تعتمد على التحكم بهذه الأمكنة شحذ همتي ليعطيني دفعاً إلى الأمام. هذا، وطبعاً حقيقة أنني كنت أعيش مغامرة أشاهد فيها مناطق من العالم كنت سابقاً أحلم بها فقط، وأفعل كل هذا على نفقة حساب بنكي كريم.

بعض الأحيان، في تلك الليالي التي كنت أقضيها على شاطئ المتوسط كنت أستدير، وأعود بنظري باتجاه أضواء الإسكندرية فأرى خلفها فضاء أفريقيا الرحب الواسع. تخيلتها مثل أرض الأرواح الشريرة التي وصفها كونراد في "قلب الظلام"، مكان شرير مشؤوم حيث يتعامل فيه البشر مع بعضهم البعض بطرق فظيعة تعي على الوصف. كان العنف في أفريقيا - من وجهة نظري - مروعاً أكثر من العنف الموجود في القارات الأخرى، كان الرعب أكثر فظاعة ووحشية. على الرغم من أنني كنت عشت في الأمازون، لكن شعرت بأن الكونغو كانت شيئاً ما مختلفاً، وهذا الاختلاف حدّدَ وعرّف أفريقيا ككل. أحببت في صباي كتب طرزان. كانت الأدغال التي عاش فيها جنة بالنسبة لي. بعد ذلك، عندما بدأت أسافر في مهمات كرجل اقتصاد مأجور، وبدأت أستوعب حقيقة التاريخ الحديث، تدهور بيت طرزان في مخيلتي. أين كان طرزان، بطل ادجار بوروس عندما وصل النخاسون؟ أصبحت أرى منطقة الأمازون منطقة تدل على غابات المطر النابضة بالحياة، بينما كانت الكونغو مستنقعاً بغيضاً.

زرت أحياء الفقراء في أمريكا اللاتينية، آسيا، والشرق الأوسط، وانقلبت على أعقابي مصدوماً في متحف التحقيق في ليما بصور محاربي الهنود من قبائل الأباشي المقيدين بالسلاسل إلى جدران زنزانات الجيش الأمريكي؛ أعلم حول العنف الذي مارسه جيش سوهارتو، وأعرف أساليب البوليس السري للشاه، السافاك، مع ذلك، في رأيي، لم يكن هذا ليقارن بأفريقيا. إن الذي لم أره قد تصورته وشملت تخيلاتي رجال، نساء، وأولاد أبرياء يقعون في شبكات صيد، ينقلون على ظهر السفن الخاصة ببيع العبيد، يكدسون واحداً فوق الآخر، يصرخون، يتقيؤون، يتغوطون، يتعفنون، يساقون إلى منصات البيع في المزاد العلني، يتعرقون، يُدَمّون، ويموتون، بينما في وطنهم الذي خلفوه وراءهم هناك في أفريقيا كانت أرضهم، شعبهم، حيواناتهم، وغاباتهم تنهب من الأوروبيين "المتمدنين". حدث كل هذا من أجل أن يتبختر أسلافي متباهين في ملابسهم القطنية. كنت غالباً ما أفكر حول هذه الأشياء. ثم في عصر أحد الأيام قابلت شاباً وشابة كانا قد فرّا من قريتهما في السودان. أجبرني سماع قصتهما على الاعتراف بأنني كنت أنا نفسي أرتكب الآثام نفسها التي ارتكبها أولئك النخاسون تجار العبيد.



كنت منحنياً على سور البحر، أراقب الصيادين يفرغون قواربهم، عندما سارا باتجاهي، ووقفا إلى جانبي. تبادلنا الابتسامات. قال أحدهما: مرحباً، كيف حالك؟ هل تتكلم الإنكليزية؟" هذا لم يكن غير شائع في تلك الأيام. كان الناس غالباً ما يبدؤون محادثات عادية معي، بدافع الفضول، ولكي يتمرنوا على الكلام بالإنكليزية.

أجبت: "نعم، أنا من الولايات المتحدة. اسمي جان. ما اسمك؟"

"اسمي بالإنكليزي سامي. هذه هي أختي سامانثا".

دعوتهم إلى مقهى حيث تبادلنا الحديث لعدة ساعات. أخبراني بأنهما قدما من جنوب السودان.

شرح لي سامي: "الشمال مسلم بينما حيث نحن نعيش في الجنوب، مختلف تماماً". رفض أن يتكلم في التفاصيل، لكن عرفت بأن تلك الأراضي كانت مناطق قبائل.

سألته: "هل أنت مسلم؟"

قال: "نتبع الإسلام".

على الرغم من أنني لم أضغط عليه حينذاك، لكن في الأيام التالية عندما رافقاني إلى معالم الإسكندرية، أفضا لي بأن شعبهما يتعبد "أرواح الأرض" وقد كان عليهما القدوم إلى الإسكندرية بعد مقتل أبيهما، وبعد أن جرّت والدتهما لتباع في أسواق الجنس العبودية.

شرح لي سامي: "ذهبنا لجلب الماء، سمعنا أمنا تصرخ مختبئة بين الصخور".

قالت سامانثا مخبئة وجهها في يديها: "لقد كنت خائفة جداً".

وجدا كيس النقود الصغير الذي كان قد خبأه والداهما، أخذا طريقهما فارين إلى الإسكندرية، والتي قالا إنها كانت أكثر أماناً لهما من القاهرة بالإضافة إلى تقديم ملاذ لهما من أقرباء أبعدين كانوا يسكنون فيها. اعتنقا الإسلام على الرغم من اعترافهما بأنهما استمرا في الصلاة إلى آلهة الطبيعة التي تعبدها أسلافهما. قابلا بواسطة عمهما زوجين بريطانيين كانا يديران مدرسة صغيرة لليتامى فأعطاهما غرفة، وتحملا نفقات عيشهما، ووفرا لهما التعليم في مقابل تأديتهما لمهمات خدمية صغيرة يقومان بها حول المدرسة.

بعد مصادفتي الأولى لهما، قضينا الكثير من الوقت معاً. كنا نلتقي متأخراً بعد الظهر، بعد أن يكونا قد أتما عملهما. أدعوهما إلى فنجان من القهوة، وأحياناً إلى العشاء. أخذاني في جولات إلى الأسواق، المتاحف، صالات عرض الآثار الفنية المدرجة في أدلة السياحة، كما أنهما أيضاً عرفاني على مطاعم سودانية وأقسام من المدينة لم يزرها من الأجانب إلا العدد القليل منهم. على الرغم من الحياة القاسية التي عاناها، كانا ودودين ومنفتحين.

زودني سامي وسامانثا براحة مستحبة بعيداً عن الممازحة التي كان يؤديها زملائي المستشارون للترويح عن أنفسهم. إذا أخذت بعين الاعتبار طبيعة عملي، أستطيع دائماً أن

أبرر الوقت الذي أقضيه معهما على أساس أنني كنت أجمع معلومات لاستخدمها في التقرير الذي يجب علي في النهاية كتابته. بعد مدة من الزمن، أصبحت مقتنعاً بأنني وقعت في حب سامانثا. تخيلت زواجي من هذه الأفريقية الجميلة، وأخذ الاثنان معي عائداً إلى الولايات المتحدة. تمتعت بتخيلي ردود أفعال والدي في ذلك اليوم الذي أظهر فيه مع فتاة سودانية سوداء متأبطة ذراعي.

عندما ذكرت لسامي فكرة العيش في الولايات المتحدة توقّعت أن أرى ردة فعله مع حماسة وعرفان بالجميل. بدلاً من ذلك، نظر إلي بألم وحزن.

قال: "نحن أفارقة، يجب علينا أن نعود إلى السودان، ونساعد شعبنا".

سألته: "كيف؟ ما الذي ستفعله؟"

"أقاتل من أجل الاستقلال".

"لكن السودان أخذ استقلاله في عام 1956".

"لا يوجد شيء اسمه السودان. نحن بلدان اثنان، ليس هو البلد الذي خلقه البريطانيون والمصريون".

"الشمال والجنوب؟"

"نعم. الشمال هو جزء من الشرق الأوسط. الجنوب هو أفريقيا".

أعطاني هذا منظوراً جديداً، حتى أنه يختلف عن منظور جورج ريتش. مصر كانت شيئاً مختلفاً تماماً عن السودان. كنت مذهولاً بأنني لم أكن أبداً قد أخذت هذا باعتباري من قبل.

سألته: "لكن ماذا حول مصر؟ هل هي بلد شرق أوسطي أم بلد أفريقي؟"

"لا هذا ولا ذاك".

"ماذا إذاً؟"

"هل تدرك بأن هذا البلد لم يحكمه أبداً قائد مصري . بعد موت الفرعون نكتانيبو حوالي 300 عاماً قبل مجيء مسيحك. إلى الآن، حتى هذا القرن؟"

اعترفت بأنني قد صدمت لعلم هذا. سألته: "حسناً، لكن أين تقع مصر؟"

"اعتادت مصر أن تكون مع أوروبا".

"والآن؟"

"تجلس في حضن أمريكا".

43 مولد عميل

كان جاك كوربن مراهقاً يعيش في بيروت عندما زرت تلك المدينة في عام 1971. بعد حوالي أربع سنوات، في الوقت الذي وصلت فيه إلى الإسكندرية، كان قد أصبح قلقاً متململاً، فاعتزم في عمر الـ 19 عاماً على ترك عائلته ومنزله. حلم بأفريقيا طوال حياته. قراره في تحقيق حلمه سيغير حياته إلى الأبد، سيحوله إلى عميل. كان من بين العديد من مهامه: اغتيال رئيس أحد أعظم البلدان استراتيجية في القارة الأفريقية. هذا أيضاً سيخلق صداقة بيني وبين جاك، استمرت لسنوات.

ابن مدير تنفيذي لشركة أمريكية، ترعرع جاك في جو من العنف. كان هو ورفاقه يقضون العديد من أوقات بعد الظهر جالسين على سور في ضاحية تشرف على قسم من بيروت، يراقبون كيف تجري حوادث الحياة بعيداً في الأسفل. ليس مثل الحوادث اليومية التي يعيشها الأولاد الآخرون، كانت هذه الحوادث قاتلة في بعض الأحيان.

بعد ظهر أحد الأيام، من خلال منظار قوي راقب جاك ورفاقه ثلاثة رجال يقومون بضرب رابع ويرمون جسده المنهك إلى صندوق شاحنة صغيرة. في مرة أخرى، شاهدوا امرأة تغتصب على مرأى من طفلها، فيما بعد انسل رجل خارجاً من بين الأشجار، وساعد الأم وطفلها إلى بيت قريب.

عقدت هدنة قصيرة بين الفرقاء المتصارعين. غامر جاك ورفاقه بالنزول إلى المدينة لحضور فيلم سينمائي. بينما كانوا يغادرون صالة العرض، انفجر القتال من جديد، وبدأ إطلاق النيران. وكانت الهدنة قد انتهت. تجاوزتهم سيارة مرسيدس سوداء بسرعة، توقفت، عادت إلى الوراء، توقفت ثانية، قفز منها ثلاثة رجال ملوحين ببنادقهم الـ إيه كي — 47.

نخسوا جاك ورفاقه ببندقياتهم صارخين يسبون، ويلعنون. دفعوا بهم إلى المقعد الخلفي لسيارة سوداء كبيرة، موجهين لهم اتهامات بأنهم جواسيس لحساب إسرائيل، ضربوهم بأخماص بنادقهم وتوعدوا بقتلهم قبل غروب الشمس. أسرعت المرسيدس عبر الأحياء الفقيرة، إلى طرق ترابية ضيقة تحف جوانبها الأشجار. كانت هذه الأجزاء من المدينة ممنوعة على أشخاص مثل جاك، ثم أخذوهم إلى رجل يجلس بهدوء خلف طاولة مكتب.

أخبرني جاك: "شكراً لله، كان هذا الرجل من منظمة التحرير الفلسطينية، وليس أحد المحاربين المتطرفين، أريته أرومات بطاقات السينما. لا أعرف لماذا احتفظت بها لكن كنت قد وضعتها في جيبي. أنّب رجاله بقسوة، وقال لهم بأنهم جعلوا من أنفسهم أضحوكة، وأمرهم بإطلاق سراحنا ومرافقتنا إلى الخارج".

أقنعت هذه الحادثة جاك في ترك مدينته، مع ذلك، توجّه إلى حرب أخرى غير بعيدة عنها. قال مفضياً لي: "علمت بأنني أستطيع أن أتعايش مع العنف، لم يخفني أولئك

الخاطفون بل أثاروا غضبي، لقد حركوا وحرّضوا الأدرنالين عندي". لقد غادر جاك إلى أفريقيا. "كانت هذه القارة برميل بارود، نوع من المكان حيث رجال مثلي يستطيعون أن يجنوا ثروة حقيقية بينما يتمتعون بوقتهم". قال ذلك لي بينما كنا نجلس في فناء مطعم إيرلندي في جنوب فلوريدا في عام 2005. على الرغم من أن تلك الأيام وتلك الأماكن بدت بعيدة، لكن حقيقة أن جاك كان لتوه عائداً من العراق حيث أتم هناك مهمة كان محظوراً على الجيش الأمريكي القيام بها بنفسه، أعطى هذا منظوراً حديثاً لنقاشنا. قال لي: "كنت دائماً أتابع الأحداث، أتحدث إلى المحاربين المرتزقة الذين كانوا يعبرون بيروت إلى أماكن أخرى، أقرأ مجلة تايم الذي أنشأها والدي. كنت على دراية بما كان يجري. في عام 1974 قامت البرتغال بعمل غيّر تاريخ أفريقيا. فتح باباً كبيراً على مصراعيه، ودخلت أنا من خلاله".

كنت قد سافرت إلى إسبانيا جارة البرتغال بفترة قصيرة بعد أن أسقط العصيان المسلح في البرتغال الحكم الديكتاتوري، صديق الولايات المتحدة. الخسارات الاقتصادية والعسكرية التي رافقت حروب استقلال المستعمرات الأفريقية عن البرتغال، المرض الموهن الذي كان يعاني منه الديكتاتور عميل حكم تحالف أثرياء المال والشركات، انتونيو سالازار، والانقلاب الذي قام به المنشقون عن القوات المسلحة الذي خلع خلف سالازار، مارسيللو كاتيانو، كل هذا قد حوّل الحليف السابق إلى طريق الاشتراكية. كان فشل أحد رجال الاقتصاد المأجورين قد أثار قلقاً عميقاً، وأدى إلى إرسالي في مهمة سريعة لتقصي الحقائق.

قال جاك مكشراً باشمئزاز: "بعد الثورة الحمراء، أعطت لشبونة الاستقلال حالاً لمستعمراتها الأفريقية، جميع المستعمرات، فجأةً ودون أي إنذار أعادت الجنود إلى وطنهم. مئات الآلاف من المواطنين البرتغاليين الذين عاشوا في تلك المستعمرات لأجيال عديدة فقدوا أراضيهم، أعمالهم، شركاتهم، كل شيء. كان عليهم أن يفروا ناجين بحياتهم متجهين بأغلبيتهم إلى جنوب أفريقيا، روديسيا، البرازيل، أو عائدين إلى البرتغال.

أخذت المستعمرات القديمة ما كانت تطالب به، الاستقلال. لكن بدؤوا يتخبطون بعد ذلك، بالطبع أسرع السوفييت وملؤوا الفراغ. فلم تمر سوى أيام معدودة قبل أن يضع الشيوعيون أيديهم على موارد البترول والغاز الحيوية. بعد ذلك نشبت حرب التحرير في روديسيا ضد إيان سميث".

مثل جاك، رأيت ذلك الوقت فرصة لأتقدم في مجال عملي الوظيفي. كان ذلك بالنسبة له طريق العميل المرتزق، أما بالنسبة لي فكان هذا هو طريق الرجل الاقتصادي المأجور. تذكرت كيف كانت المسيرة باتجاه بناء الإمبراطورية تتقدم بخطى سريعة في أماكن مثل أندونيسيا، إيران، وفي أغلب بلدان أمريكا اللاتينية، لكن كانت تواجه عقبات جدية في فيتنام حيث كانت القوات الأمريكية وقوات فيتنام الجنوبية تتراجع، وفي كمبوديا ولاووس حيث كان الخمير الحمر وقوات باثيت لاو يقوى نفوذها. كانت أفريقيا وحتى عام 1975 مجهولة إلى

حد كبير. كانت حركات التحرر والاستقلال تقوى وتشتد. لكن مع ذلك كانت هذه الحركات منقسمة على نفسها بشأن مع من يجب عليها أن تتحالف وممن تطلب المساعدة؟. تردد العديد من قادتها بين صداقتهم للشيوعية وعدائهم للغرب. كنا نحن رجال الاقتصاد المأجورون نقيّم الأوضاع لتحديد خياراتنا، ولأخذ مواقعنا بسرعة.

عملت شركة ماين لأن يكون لها موطئ قدم في زائير، ليبريا، تشاد، مصر، وجنوب أفريقيا (على الرغم من أننا كنا في البلد الأخير نعمل بهدوء وحذر لكي لا نلفت الأنظار وذلك بسبب نمو العداء لسياسة الفصل العنصري، الأبارتيد). كان عملاؤنا يعملون بجد واجتهاد في كل من نيجيريا وكينيا. كنت حديثاً قد أنجزت دراسة أسست لإمكانية بناء سد كبير على نهر الكونغو لاستخدامه من أجل تزويد عمليات استخراج المعادن والمناطق الصناعية بالطاقة الكهربائية على امتداد وسط أفريقيا.

قرار لشبونة المندفع في إعطاء الاستقلال لمستعمراتها غيّر كل شيء. لقد حوّل ميزان القوى وسبب الاضطراب في وزارتي الدفاع والخارجية في أمريكا. احتدم النقاش حول طبيعة العمل الذي يجب اتخاذه، وأدى إلى نزاع بين القادة في الوزارتين وخصوصاً بين سكرتيري المجلس الوزاري: ويليام روجرز (1969 – 1973) وهنري كيسنجر (1974 – 1977) في وزارة الخارجية، وملفين ليرد (1969 – 1973)، إيليوت ريتشاردسوت (1973)، جيمس تشولتزنيفر (1973 – 1975)، ودونالد رامسفيلد (1975 – 1977) في وزار الدفاع. وزاد إلى هذا التخبط والارتباك الرئاسات الضعيفة لكل من نيكسون الذي غاص في وحل فضيحة واترغيت وفورد الذي تسلم الرئاسة ليس عن طريق الانتخاب بل أوتوماتيكياً بعد استقالة نيكسون. لم تكن واشنطن قادرة على الوصول إلى إجماع فيما يتعلق بكيفية الرد.

كان وضعاً غير مسبوق بالنسبة للأفارقة وبلا شك كان مشوشاً بشكل كامل. بعد قرون من الاضطهاد والهيمنة الأوروبية كانوا بلداناً بحدود مصطنعة تناسب القوى الأجنبية بدلاً من الفوارق الثقافية والطبيعية. لم يفعل حكامهم المستعمرون أي شيء لمساعدتهم في إنشاء مؤسساتهم الدستورية الحكومية وتأسيس قطاعاتهم الاقتصادية. كانوا غير مهيئين لقبول مسؤوليات الاستقلال فكانوا عرضة للاستغلال من قبل أي واحد يتحرك بسرعة لملء الفراغات.

نظر إلي جاك نظرة مشمئزة: "لقد سمحنا للسوفييت بالقدوم كعصابة لترويض الخيول، حتى الصين ناورت، وتفوقت علينا. دعمت موسكو موزامبيق التي كانت مرتعاً للإرهابيين الماركسيين، درّبت الآلاف من الزيمبابويين المنتسبين إلى جيش التحرير الوطني الأفريقي، وأرسلتهم إلى زيمبابوي لقتل المزارعين الروديسيين - السود والبيض على السواء - انحازت زامبيا إلى ما رأته صاحب الحظ الأوفر من القوة، وقفزت إلى عربة الماويين، ووضعت نفسها

كموقع تُشن منه الغارات على روديسيا . بالنسبة لي كان ذلك البلد الصغير ضحية ظلم واضطهاد، ويحتاج للمساعدة. وضعت رحالي في روديسيا وانضممت إلى جيشها".

كان جاك دائماً يؤكد بأن روديسيا تختلف عن جنوب أفريقيا : "لم تكن تولّد سياسة الفصل العنصري الحمقى". الحرب التي قاتل فيها، هكذا كان يجادل، لم تكن حرب البيض ضد السود، كانت صراعاً على البقاء يضع روديسيا في مواجهة جيرانها الذين وقعوا في دائرة نفوذ السوفييت.

حالما وصل إلى هناك، تأكدت الاستنتاجات التي وصل إليها حول نفسه بعد اختطافه من قبل منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت. قال: "اكتشفت بأنه لدي موهبة طبيعية لأكون جندياً. انضممت إلى كتيبة مغاوير المشاة الروديسية، وبعد ذلك اخترت للالتحاق بالقوات الجوية الخاصة. كان التدريب قاسياً والمهمات أكثر قسوة. ذات مرة، بعد أن نسفنا بعض الجسور كان يجب علينا الركض مدة ثلاثة أسابيع لننجو بحياتنا، متفادين الآلاف من جنود الأعداء. كنا نجتاز 22 ميلاً في اليوم خلال الجبال، نغير على جنود الأعداء، ونتابع المسير ثانية. لم يكن لدينا أية قوة تدعمنا خلال كل ذلك الوقت، وكنا على وشك الموت عطشاً".

تذكر أول مرة قَتَلَ فيها . "خرج جندي من بين الأشجار يطلق النار علي. أطلقت رصاصة واحدة، مزقت وجهه. لقد أصابني الهم تلك الليلة مفكراً بعائلته. لكن في المرة التالية، ببساطة لقد رأيت عدواً، رجلاً يريد قتلي. وكمثل أي شيء آخر، مرة بعد مرة يصبح القتل أسهل".

بعدما انتهت خدمته في الجيش الروديسي، أصبح جاك مرتزقاً: "كانت الفرص في كل مكان. عند حلول 1979 كانت على الأقل ست دول أفريقية قد تورطت في الصراعات من أجل التحرير: جنوب أفريقيا، أنغولا، جنوب غرب أفريقيا، زامبيا، موزامبيق، وروديسيا".

ذهب إلى جنوب أفريقيا وجُنّد من عميل آخر من أجل القيام بإحدى العمليات الأكثر خطورة في حياته: مهمة فضحت إلى حد كبير النشاطات المحرَّمة التي تقوم بها حكومة الولايات المتحدة والتي لا يفهمها إلا القليل من مواطنيها. لقد أُرسل جاك ليقوم باغتيال رئيسٍ ناصب العداء لرجالٍ ذوي قوة ونفوذ في لندن وواشنطن.

44 سكان دييغو غارسيا ليسوا شعباً

أصبح التحكم بموارد أفريقيا حاجة ملحة بعد حظر بيع النفط الذي فرضته أوبك في بداية السبعينات وبعد الهزائم العسكرية في جنوب شرق آسيا. اندفع مدراء الشركات وجماعات الضغط التابعة لهم، أفواجاً إلى واشنطن. استغلوا الارتباك التي عانت منه إدارة نيكسون وفورد وانشغال كارتر بإيران، وطالبوا بوضع قوانين دولية تضمن لهم الحق بما اعتُبر تحرير استثمار الموارد الأفريقية، بشكلٍ خاص البترول. أصر المدراء أيضاً على وجود قوي للجيش الأمريكي في القارة - هذا سيؤسس للسيطرة الأمريكية، ويحمي خطوط النقل، ويمكن استخدامه في دعم قادة أفريقيين يتعاونون مع حكم تحالف أثرياء المال والشركات ضد رغبات وتطلعات شعوبهم.

أدى نجاح السوفييت والصينيين في أفريقيا إلى احتدام الجدل في أمريكا حول رد عسكري أمريكي قوي. ألهب الإعلام عواطف الأمريكيين بمقالات حول العواقب الكارثية للغزو الشيوعي في أفريقيا وخطط موسكو وبكين لتشكيل قوات سرية لغزو بلدانٍ حليفة لواشنطن. بثت شبكات التلفزيون صوراً لفدائيين كوبيين متمرسين في قتال الأدغال وهم يدربون "إرهابيين" أفريقيين. نُشرت إشاعات بأن كاسترو قد أرسل تشي غيفارا الإرهابي سيء الصيت ليقوم بهجمات كبيرة ضد عمليات الاستخراج والتنقيب الأمريكية.

كان الضغط على واشنطن هائلاً. إغلاق قناة السويس، وإدخال ناقلات النفط العملاقة إلى البحار دعّم المسألة من أجل إقامة "حصون" لحماية خطوط النقل التي تمتد من موانئ الشرق الأوسط، عبر البحر الأحمر، الخليج الفارسي، والبحر العربي إلى المحيط الهندي، إلى الجنوب على امتداد أفريقيا، حول رأس الرجاء الصالح، وإلى المحيط الأطلسي. استغل السياسيون الفرصة وقفزوا إلى ظهر العربة. نُبذت البرامج الاجتماعية جانباً، حُولت الأموال إلى البنتاغون، وأخذ القرار لبناء حصن دفاعي - غواصة نووية - قاعدة جوية مجهزة - على جزيرة الدابرا في الساحل الشرقي لأفريقيا.

شرح لي جاك: "إن هذا الحصن يعزز مدينة سيمون، القاعدة البحرية لجنوب أفريقيا قرب رأس الرجاء الصالح، استخدمت الغواصات النووية الأمريكية قاعدة سيمون بعيدة جداً عن أعين المتطفلين لتجهز ثانية قبل العودة إلى دورياتها الطويلة الموحشة في جنوب المحيط الأطلسي والهندي. فكان إقامة قاعدة جوية عسكرية شمال مدغشقر تكملة مثالية لقاعدة سيمون".

مع ذلك، حالما بدأ هذا المشروع يتشكل، اكتشف المخططون بأن جزيرة الدابرا كانت موطناً لسلاحف ضخمة نادرة. خوفاً من تحريض الرأي العام من قبل الحركة المتنامية لحماية البيئة حولت واشنطن جهودها إلى منطقة دييغو غارسيا القريبة، الجزيرة المرجانية الأكبر في منطقة سلسلة جبال تشاكوس، جزء من موريتيوس، ومن ثم أصبحت أرضاً تابعة

لبريطانيا . على الرغم من أنه لم يكن يوجد سلاحف معرضة للخطر في دييغو غارسيا، لكن كان يعيش فيها 1800 شخص معظمهم متحدرون من العبيد الأفارقة.

أخبرني جاك: "كان غير مقبول أن يقذف بعيداً بسكان جزيرة لتصبح قاعدة عسكرية أمريكية متطورة".

عقدت صفقة عام 1970، بواسطة رجال اقتصاد مأجورين وبتدخل عملاء المخابرات الأمريكية والبريطانية، بمقتضاها أجبرت لندن سكان دييغو غارسيا على هجر بيوتهم. أخذت كل الاحتياطات اللازمة للحفاظ على سرية هذه العملية. وفقاً لإذاعة الـ بي بي سي:

بدأ السياسيون، الدبلوماسيون، والموظفون المدنيون البريطانيون حملة قالوا هم أنفسهم عنها بأنها "للحفاظ على الزعم القائل بأنه لا يوجد هناك سكان دائمون" على تلك الجزر. هذا كان أمراً بالغ الأهمية لأن وجود سكان دائمين يعني أن يعترف بهم كشعب "وبالتالي يجب صون حقوقهم الديمقراطية"... بناءً على هذا الأساس أصبح هؤلاء السكان ليسوا شعباً.

دُفع الكثير من سكان تلك الجزر عبر المياه إلى سيشلس المجاورة. بعد ذلك، أجّرت بريطانيا دييغو غارسيا "غير المسكونة" إلى حكومة الولايات المتحدة. مقابل ذلك قدمت الولايات المتحدة للبريطانيين 11 مليون دولار إعانة مالية لتطوير تكنولوجيا الغواصة القطبية. قُيّمت حياة سكان الجزيرة وبيوتهم بحوالي 600 دولار للفرد الواحد.

أسرع البنتاغون لبناء القاعدة العسكرية التي أنشئت لتحوي على طائرة الـ بي – 52 وبعد ذلك في وقت متأخر الـ بي – 2 قاذفة القنابل الثقيلة (الشبح) المتعذر كشفها من قبل الرادار، ستلعب هذه القاعدة دوراً مفتاحياً في بناء إمبراطورية الولايات المتحدة، وستستخدم كموقع تُشن منه الغارات على الشرق الأوسط، الهند، وأفغانستان بالإضافة إلى أفريقيا.

بصرف النظر عن موقعها الاستراتيجي الهام، احتفظت دييغو غارسيا بشيء من السرية نسبياً فكان من غير المعروف الوجود الأمريكي على الساحل الأفريقي. بضعة من الناس فقط يعلمون بأن حماية الجزيرة كان مجرد ذريعة من أجل أكثر محاولات الاغتيال وضوحاً ووقاحة التي قام بها عملاء السي آي إيه. انتخب جيمس مانشام أول رئيس لسيشلس بعد إعلان الاستقلال في 29 حزيران 1976. كان اتصاله الرئيسي مع واشنطن ولندن يتم بواسطة جنوب أفريقيا، الحليف القوي لحكم تحالف أثرياء المال والشركات. من خلال الأفريقيين الجنوبيين عمل مانشام على أن يكون موقفه واضحاً بدعمه لصفقة دييغو غارسيا. لقد وافق على أن يستوعب سكان الجزيرة المهجرين مقابل تمتعه وأعوانه بفوائد ومزايا شخصية من القاعدة العسكرية القريبة. لكنه خلال هذه العملية أغضب الكثير من أبناء بلده.

ثمّن، ومجّد مواطنو سيشلس قوميتهم الوليدة. أدى هذا الإحساس بالفخر إلى ردة فعل عنيفة ضد مانشام. بالإضافة إلى رفضهم واستيائهم من إذعانه لأمريكا وبريطانيا، مقت

سكان الجزيرة الدور الذي لعبته حكومتهم بإجبار جيرانهم على ترك أراضيهم، واستاؤوا من تدفق الناس إلى وطنهم الذين شكلوا تهديداً بأخذ أعمالهم ووظائفهم وتعطيل وإرباك الأنماط الاجتماعية السائدة. بينما كان مانشام في زيارة إلى لندن، قرر رئيس الوزراء ألبرت رينيه أن يتحرك. خلع الرئيس في عام 1977 في انقلاب غير دموي. ثم باشر برنامجاً قالت عنه الـ بي بي سي "برنامج يهدف إلى إعطاء الفقراء حصة أكبر من ثروات البلاد" كما أنه أيضاً نادى بالسماح لسكان جزيرة دييغو غارسيا بالعودة إلى وطنهم، وأعلن اعتراضه بصوت عالٍ على وجود قاعدة عسكرية امريكية في الفناء الخلفي لأفريقيا .

طار صواب واشنطن واستشاط بها الغضب الذي كان خافياً عن عيون الجماهير الناخبة الأمريكية. بينما كان جاك كوربن يشحذ مهاراته في روديسيا، كان حكم تحالف أثرياء المال والشركات يحبك المؤامرات ضد رينيه. كان دوري في الخطة كرجل اقتصاد مأجور هو دورُ رديف لدور جاك، كنت مهيئاً ومستعداً للتحرك حالما يقرر قادتنا أي طريق يجب اتباعه: مكيدة أم اغتيال. على الرغم بأنني في النهاية لم يطلب مني أبداً، كما طُلب من جاك، أن أتحرك ضد رينيه، لكنني كنت مطلعاً على المحادثات السرية التي توضح إلى أية أعماق سوف تنحط حكومة الولايات المتحدة للحفاظ على نفوذها وسلطتها .

45 اغتيال الرئيس

كان جاك كورين يراقب الوضع المضطرب في سيشلس في مكان إقامته في روديسيا. وكان المجمع الصناعي العسكري - كما وصفه إيزنهاور - ورجاله يراقبون الوضع من واشنطن.

"ثرثرة رينيه حول مساعدة المحرومين هي مجرد هراء". قال ذلك تشك القائد السابق لسلاح الهندسة العسكري في فيتنام الذي صعد إلى المراتب العليا في شركة ماين في وقت قصير جداً - لا يتجاوز السنتين - من مدير مشروع إلى نائب الرئيس إلى الوريث الشرعي لماك هول في رئاسة الشركة. على الرغم من تاريخي في التملص من الخدمة العسكرية بواسطة انضمامي إلى فرق السلام، فلقد أخذني تشك تحت جناحيه. كنت متأكداً بأنه رأى إضبارتي الذاتية في وكالة الأمن القومي. قدّرني تشك، وثمّن عملي كرجل اقتصاد مأجور مخلص. كلما سافرنا سوية إلى واشنطن كان يدعوني إلى الإقامة في النادي الخاص بالجيش، وهذه كانت إحدى تلك المرات. كنا نتناول العشاء في غرفة الطعام الرسمية مع جنرالات آخرين متقاعدين وأميرال متقاعد - جميعهم يعملون في مؤسسات قامت بمزايدات لحساب حكم تحالف أثرياء المال والشركات. تابع تشك قائلاً: "إن رينيه لعبة في أيدي السوفييت، لديه مهمة واحدة وهي رمينا خارج دييغو غارسيا وتسليمها بعد ذلك للروس. من ثم سيدعو الكوبيين للانضمام إلى الموسكوفيين عندها تصطبغ كل القارة الملعونة باللون الأحمر".

سألني الرجال الأربعة بشكلٍ واسع حول نجاحاتي السلمية في أماكن مثل أندونيسيا والسعودية. لقد أعجبت بالطريقة العملية للجنرالات والأميرال. كانوا مختلفين عن الكثير من السياسيين. بدا أنهم يريدون تجنب الحرب بأية وسيلة ممكنة. على الرغم من أنه في أواخر السبعينات كان مقبولاً، كسلاح من أسلحة الحرب الباردة، العمل على القيام بانقلابات سياسية واغتيالات ضد القادة اليساريين. لكن بدا أن ضباط القوات المسلحة الكبار كانوا أكثر إخلاصاً لأحكام القانون من نظرائهم أعضاء الكونغرس ورجال البيت الأبيض. ربما كانوا قد تعلموا من التجربة بأن العنف يولد عنفاً أكثر، ربما تخوفوا من أن التغاضي عن أعمال كهذه في بلدان أخرى قد يؤدي إلى استراتيجيات مماثلة في وطنهم. وهذا بالتالي قد يؤدي إلى نتائج عكسية ضدهم، أو ربما في مكان ما عميقاً في ضمائرهم. كانوا يتذكرون القَسَم الذي كان عليهم أن يحلفوه في الدفاع عن الديمقراطية.

علق الأميرال بأن رينيه بدا "مصمماً على السير على خطا الليندي وبرات" تطلع حالاً الجنرالات الثلاثة إليه بنظرات عابسة. تمتم أحدهم: "دعنا من ذلك، عسى أن لا نصل إلى ذلك الحد". عاد النقاش إلى تقديم اقتراحات لاتباع طرق يمكن استخدامها لجلب رينيه إلى جانبنا. أُخبِرْتُ بأن أكون على أهبة الاستعداد لركوب الطائرة في أية لحظة والتوجه إلى سيشلس.

اختار أحد الجنرالات شاباً وسيماً كان يعمل تحت إشرافه، ووجّهَهُ لإقامة وتطوير علاقة مع زوجة دبلوماسي كبير من سيشلس. لاحظ الجنرال من خلال عدة حفلات بأنها - في منتصف الثلاثينات - بدت ضجرة من زوج كان تقريباً بمثل عمرها مرتين. لم يكن الجنس كأحد أدوات التجسس محصوراً بمحترفين كالغانيات اللاتي كنت قد قابلتهن في جاكرتا. من خلال تجربتي أستطيع القول بأن الجنس استخدم من قبل رجال ونساء عاملين في خدمة بناء الإمبراطورية من أجل الوصول إلى نتائج مذهلة. حرارة الجنس وجموح العاطفة تفضح الأسرار. إنها كانت حيلة شائعة لرجل اقتصادي مأجور بأن يعمل على إشعال نار الحب أو تأجيج شهوة الجنس كذريعة للحصول على معلومات سرية من أجل مساعدته في مهنته "الرسمية". يسير النقاش كالتالي: "أريد فقط بعض المعلومات من أجل أن أحصل على الترقية في وظيفتي". أو إذا كان أكثر تعبيراً عن شدة الحاجة، يقول: "إنني متخوف أن أفقد عملي إذا لم أجد طريقة ما لمساعدة رئيسي فيها للوصول إلى معلومات معينة، فقط نبأ سار حول...." وعندما يفشل كل شيء، يستعمل الابتزاز للوصول إلى النتائج، وبينما لا يملك الأزواج طرقاً للحصول على المبالغ النقدية الموحية بضرورة دفعها إلى المبتز، لكنهم يستطيعون بشكل دائم تقريباً تزويدهم بالمعلومات.

تبع لقائي الأول مع الجنرالات والأميرال لقاءات أخرى في واشنطن وبوسطن. على الرغم من تغير الأفراد أحياناً، لكن مكانة أولئك الحضور بقيت هي نفسها، ضباط كبار مهمون قد تقاعدوا من الجيش، واحتلوا مناصب عالية في شركات كبيرة أو في مؤسسات تابعة لهذه الشركات. حضر تشك بعض هذه اللقاءات لكنه كان دائماً ينتدبني للقيام ببعض الأعمال، ويتركني أتحرك، وأتقدم وحدي.

كان الضابط المشرف على ذلك الشاب الوسيم يعرف دييغو غارسيا جيداً، وقد كانت له المبادرة في عقد العديد من هذه الاجتماعات. أخبرنا بأن محميَّهُ، الشاب الوسيم، قد نجح في مهمته، على الرغم بأن ذلك لم يتم بالسرعة الكافية كما توقعها. قال الجنرال: "يقول بأنها متوقدة وشبقة كقطة مهتاجة جنسياً، لكنها تريد أن تتأكد بأنه يحبها". ابتسم الجنرال بتكلف متطلعاً إلي: "أعتقد بأن نظرائكم النساء يقمن بهذا العمل بشكلٍ أيسر مما تقومون أنتم به. هذا على الأقل بالنسبة إلى حالتي أنا. لم أكن أبحث عن الحب أبداً، إنما أردت فقط أن أصل إلى ما تحت سروال المرأة الداخلي بأسرع طريقة ممكنة. هذا هو الفرق بين الرجال والنساء على ما أعتقد. بحق الجحيم، إنني أعطي مفاتيح البنتاغون من أجل نهدٍ شبق أو مؤخرة جميلة".

حصل أخيراً محمي الجنرال الشاب الوسيم على ما أشار إليه الجنرال: "الاختراق الذي كنا ننتظره". بدأت المرأة تثق به، وتفضي إليه. في النهاية، عاد إلينا بمعلومات عكس ما نريد أن نسمع: لن نستطيع شراء رينيه. بل كان هناك الأسوأ، كان رينيه يخطط أن يفضح علناً

العملية السرية التي تم فيها نقل السكان من دييغو غارسيا. "تقول السيدة بأنه رجل حاسم، حتى ربما أنه رجل مُثل ومبادئ". تنهد الجنرال، وتابع: "يتحدث رينيه عن 'مؤامرة'. أعتقد أنه يستخدم هذه الكلمة: مؤامرة. دبرتها كل من لندن وواشنطن لكي يظهرا ذلك المكان، وكأنه لم يكن مسكوناً أبداً من قبل أولئك الألفين المتحدرين من أسلاف العبيد. إنه يحصرنا في الزاوية، ويدفعنا إلى حد لا يمكن احتماله".

لم أكن أعرف أبداً إلى أي مدى من التسلسل القيادي كانت تصل هذه المعلومات أو كم من الأشخاص كانوا متورطين في محاولة رشوة وإفساد رئيس سيشلس. في ذلك الحين، بالإضافة إلى أنني كنت مرشحاً للعمل في قضية سيشلس، كنت أيضاً أقف عاجزاً بعد بذل كل جهودي للتأثير على الرئيس توريجوز في بنما والرئيس رولدوس في الإكوادور وذلك لجلبهم إلى صفنا والتعاون معنا. إن هذين القائدين، لأنهما رفضا الاستجابة والإذعان، ماتا في حادثتي تحطم طائرة. خططت السي آي إيه للاغتيالات قبل منتصف سنة 1981. في تشرين الثاني من السنة نفسها سُحب الرجال الاقتصاديون المأجورون من قضية سيشلس. الأمر الذي لم يرغب أحد منا سماعه كان قد صدر. أرسل جاك كورين ومجموعة من المرتزقة المنتقاة في مهمة اغتيال الرئيس رينيه.



قال جاك: "شكلنا فريقاً في دوربان في جنوب أفريقيا مؤلفاً من حوالي أربعين رجلاً من المرتزقة المتمرسين. كان غطاؤنا هو المهمة القديمة في التبجح بالمساعدة الإنسانية. لعبة كرة قدم، احتساء البيرة، مؤسسة خيرية جلبت هدايا، ولعب عيد الميلاد إلى الأولاد في سيشلس، التي كان غالبية سكانها من الكاثوليك. كانت الخطة واضحة لا لبس فيها ولا غموض. نتفرق في البداية ومن ثم نجتمع في سوازي لاند، نسافر على طائرة سوازي لاند الملكية إلى فيكتوريا، العاصمة التي تقع في جزيرة ماهي، ونتابع إلى فندقنا حيث نقابل هناك فريقاً متقدماً يحتوي على بضع نساء كن قد انتُقين بعناية فائقة لجلب معلومات بالغة الأهمية من مصادر عليا. خُبئت أسلحتنا وعُدنا في الجزيرة، حتى لا نقلق، ولا نخاف من فضح سرنا عندما نجتاز الجمارك في سوازي لاند أو ماهي. هذا كان هاماً جداً بالنسبة للشباب. أخُبرنا بأنه توجد حركة في سيشلس تتألف بمعظمها من الشرطة المحلية جاهزون للمساعدة والعمل على إرشادنا. لكن القتال سيكون مسؤوليتنا.

ستأتي المعارضة الرئيسية من عدة مئات من الجنود التنزانيين. كان رينيه قد أتى بهم وأخذوا مواقع قرب المطار. علمتنا خبرتنا في روديسيا بأن التنزانيين مقاتلون أشاوس أشداء وعنيدون، إنهم تهديد حقيقي، خصوصاً أنهم يتفوقون علينا بمقدار خمس أو ست مرات. في فجر الليلة المحدَّدة يتسلل أربعة منا إلى ثكناتهم، ويفتحون نار أسلحتهم عليهم، وهم نائمون، ويردون الكثير منهم قتلة. هذا سيكون إشارة الانتفاضة. من ثم وفي وقت واحد نحتل محطة الراديو والقصر الرئاسي، ونذيع رسالة مسجلة مسبقاً من مانشام على الهواء مباشرة يعلن فيها عودته إلى السلطة، ويدعو شعبه إلى الهدوء والبقاء داخل المنازل. يكون الجيش الكيني قد جهز طائرة نقل جنود منتظرة في نيروبي. حالما تذاع كلمة مانشام ينقل الجنود الكينيون جواً ليصلوا مع أول خيوط ضوء النهار وذلك ليكسبوا الانقلاب وجهاً أفريقياً، ويتحملوا مسؤولية كل الأعمال السيئة التي يمكن أن تحدث. وقبل أن يصل الإعلام، نختفي بهدوء مسافرين على طائرة خطوط تجارية عائدين إلى جنوب أفريقيا".

لم يقترب أبداً فريق المرتزقة من موقع القصر الرئاسي. فشلت الخطة عند مطار ماهي، عندما اكتشف أحد رجال أمن المطار بندقية حربية كان قد وضعها أحد أعضاء الفريق في حقيبته. لقد أخبر بعضهم في اللحظة الأخيرة أن يجلبوا أسلحة معهم، لكن لماذا كان هذا الشخص مهملاً إلى هذا الحد بحزم أمتعته؟ سيكون الجواب على هذا السؤال محل تخمين، وتفكر شديدين لسنوات قادمة. تلا ذلك معركة حامية الوطيس. وصفها جاك كواحدة من تجاربه النادرة خلال عمله المهني حيث شعر بأنه ميت لا محالة، ولن يبق له عمرٌ ليفكر بما حدث. قال: "حوصرنا هناك، في المطار، كان لدينا فقط بضعة مخازن ذخيرة حصلنا عليها من شركائنا الذين كانوا ينتظروننا، وانتزعنا مخزناً أو اثنين من رجال أمن المطار واستولينا

على أسلحة وذخيرة إضافية من الجنود الذين هاجمناهم بينما كانوا عائدين مسرعين إلى ثكناتهم في الجانب الآخر من المطار. هاجم بعض رجالنا ثكنات التنزانيين، لكن باءت محاولتهم بالفشل، ودارت معركة عنيفة استمرت الليل كله، أصبح الوضع حرجاً جداً بينما كان جنود تنزانيون أكثر يدخلون المعركة".

من ثم، سمع أحد أعضاء فريقه المتمركز في الأعلى في برج المراقبة طائرة تجارية تابعة للخطوط الهندية تطلب الإذن بالهبوط ويتساءل الطيار حول عدم وجود أية أضواء في الأسفل في مدرجات الهبوط. أشعل المرتزقة الأضواء حالاً، وأعطوا الإذن للطيار بالهبوط شارحين له بأنه "كان يوجد عطل فني لكن الآن تم إصلاحه".

تابع جاك: "دار نقاشٌ على التلفون بيننا وبين السلطات في سيشلس. وافقوا على هدنة ووقف إطلاق النار بشرط صعودنا إلى الطائرة ومغادرتنا الجزيرة. فضل معظمنا الصعود إلى تلك الطائرة اللعينة، لم أر أي خيار آخر. خصوصاً أنه لم تبق على انبلاج ضوء النهار سوى ساعة واحدة فقط، وكنا محاصرين، وسمعنا بأن السفن الحربية الروسية كانت قد وصلت إلى الميناء أو أنها في الطريق إليه غير بعيدة. أخذ القرار بالرحيل. زودنا طائرة البوينغ 707 بالوقود، وحملنا إليها جثة أحد رجالنا الذي قتل في بداية المعركة ووضعناها مع أمتعتنا وعددنا الشخصية في حجرة الحمولة. قرر عدة رجال منا البقاء بدلاً من أن يجلسوا القرفصاء في الطائرة معرضين أنفسهم لنيران محتملة أما الباقون صعدوا إلى الطائرة. عندما أقلعت الطائرة أطلق التنزانيون والسيشلسيون النار علينا محاولين جاهداً أن يسقطوا الطائرة مالئين السماء بذخائر ملونة في حفلة وداع وحشية. كان التوقف التالي في دوربان في جنوب أفريقيا. عندما انقشع غبار تلك المعركة كان لدينا قتيل واحد، سبعة مفقودين، أسرى، وسجناء بينهم امرأة واحدة".

عندما هبطت الطائرة في دوربان طوقت القوات الأمنية في جنوب أفريقيا طائرة الخطوط الهندية. بعد أن حصل الاتصال اللاسلكي بالقوة المحاصرة اكتشف رئيس القوة حالاً بأن الطائرة كانت تحت قيادة رفاق له. استسلم جاك مع بقية أعضاء الفريق وبعد مدة قصيرة في السجن أفرج عنهم بهدوء. قامت الحكومة السيشلسية باعتقال السبعة الآخرين. أسقطت التهم الموجهة إلى المرأة. حكم على أربعة من الرجال بالإعدام وعلى الاثنين الآخرين بالسجن مدة عشر وعشرين سنة. باشرت حالاً حكومة جنوب أفريقيا بالمفاوضات من أجل الإفراج عنهم. قيل في النهاية بأن نظام بريتوريا دفع لسيشلس مبلغ 3 مليون دولار مقابل الإفراج عنهم، أو 500000 دولار من أجل كل واحد منهم.

على الرغم من أن ما حصل كان فشلاً ظاهراً، لكن قضية سيشلس اعتبرت نجاحاً بالنسبة لحكم تحالف أثرياء المال والشركات على الرغم من التغطية الإعلامية الواسعة لعملية اختطاف الطائرة وللمحاكمات التي جرت فيما بعد، استطاعت الولايات المتحدة

وبريطانيا تجنب معظم الجدل الذي جرى حول تلك الأحداث، وتحملت جنوب أفريقيا مسؤولية كل ما حدث. أصبح رينيه الذي كان يشكل ذلك الخطر أكثر تعاوناً، معدلاً سياساته مدة ثلاثة عقود وحتى عام 2004 عندما فاز نائبه السابق جيمس ميشيل بدورة رئاسية مدة خمس سنوات في انتخابات وطنية. استمرت القاعدة الأمريكية بلعب دور هام في أفريقيا، آسيا، والشرق الأوسط.

كان توجد هناك نكتة متداولة بين المرتزقة بأن قيمتهم محددة بشكل واضح: أكبر بحوالي عشر مرات مما يساوي أحد سكان جزيرة دييغو غارسيا.



47 إعدام ناشط بيئي

قصية سيشلس هي حالة خاصة دراماتيكية مثيرة لمحاولة اغتيال رئيس دولة - واستثنائية بشكل خاص لتورط قوة كبيرة من المرتزقة فيها ولنهايتها باختطاف طائرة خطوط تجارية - أكدت أيضاً على حقيقة أنه يتم اللجوء إلى ذلك التكتيك فقط عندما يفشل رجال الاقتصاد المأجورون. إن فشل الاقتصاديين المأجورين في أفريقيا لكثير: لذلك لعبت الاغتيالات دوراً كبيراً في سياسات تلك القارة. على الرغم من أن معظم هذه الاغتيالات قد تم تدبيرها بسرية تامة، لكن كان بعضها يتم علناً، ويأخذ مظهر الإعدام القانوني. ربما الأكثر شهرة بين هذا النوع كان هو إعدام كن سارو ويوا.

كان سارو ويوا ناشطاً بيئياً نيجرياً من قبيلة أوغوني. قاد حركة ضد شركات البترول المستغلة لوطنه. في عام 1994 أجرت ايمي غودمان معه مقابلة في محطة راديو باسيفيكا "دبليو بي إيه آي" في نيويورك.

قال كن سارو ويوا: "قررت [شركة شل للبترول] أنه يجب أن لا أغيب عن أعينهم، ويجب أن يراقبوني أينما ذهبت. لذلك فهم يلاحقونني بشكل دائم ليضمنوا بأنني لن أورطهم بأية متاعب. فأنا الآن رجل مشبوه... في بداية هذا العام، في الثامن من كانون الثاني على وجه التحديد، وضعت تحت الإقامة الجبرية مع جميع أفراد عائلتي لمدة ثلاثة أيام. كان 300 ألف إنسان من قبيلة أغوني سيتحركون للاحتجاج على تخريب البيئة من قبل شل والشركات العالمية الأخرى. . . من أجل أن يوقفوا هذا الاحتجاج ضد شل كل ما فعلوه كان ببساطة هو إرسال السلطات العسكرية إلى منزلي. فصلوا هواتفي، صادروا السماعات، واعتقلت مدة ثلاثة أيام دون أي طعام".

اعتقل كن سارو ويوا فيما بعد مرة ثانية في تلك السنة وحوكم من قبل حكومة ساني أباتشا - ديكتاتور متعاون مع حكم تحالف أثرياء المال والشركات. كانت تلك المحكمة بنظر الكثير من المراقبين "محكمة كنغرية"*. في 10 تشرين الثاني 1995، أعدم كن سارو ويوا مع ثمانية آخرين من نشطاء البيئة.

ظهر في عام 2005 كن ويوا ابن القائد الذي أعدم في برنامج "الديمقراطية الآن" التي تقدمه ايمي غودمان.

قال كن ويوا: "إن والدي لا يحمل أية أحقاد ضد أحد، ليس في طبيعة عائلتي أو جماعتي حمل الأحقاد. إننا نعتقد بأن شل هي جزء من المشكلة لذلك يجب عليها أن تكون أيضاً جزءاً من الحل. إننا لا نزال نشعر بأنه لا يزال من الممكن إنقاذ الوضع مع شيء من الحفاظ على الكرامة والتعهد بالعمل في سبيل العدالة الاجتماعية. لكن مضى ما يقارب عشر سنوات منذ إعدام والدي. . . إن

---

* محكمة كنغرية: هي محكمة لا تراعى فيها مبادئ القانون والعدالة. "المترجم".

الجيش النيجري الذي غزا، واعتدى على قبيلة أوغوني، ارتكب جرائم القتل، اغتصب الفتيات الصغار والنساء، وقام بكل ذلك بادعاء محاولة قمع احتجاج منظمتنا ليبقي على استمرار تدفق النفط، ما من فرد واحد من أفراد هذا الجيش اعتقل أو حوكم. . . ".

فيما إذا قام بالاغتيالات مرتزقة مثل جاك كوربن أو حدثت في قاعات محاكم الحكومات الديكتاتورية، في كلتا الحالتين كان لها تأثير سلبي على الحركات الاجتماعية وحركات حماية البيئة. الخوف من الاعتقال، التعذيب، والموت - وتأثير ذلك على العائلات والجماعات - قد دفع الكثير من المطالبين بالتغيير والإصلاح بالكف عن النضال. هذه الحقيقة هي بالتأكيد معروفة من قبل حكم تحالف أثرياء المال والشركات.

اليوم، وبينما أكتب هذه الكلمات، كان جاك وأعضاء فريق عملية سيشلس الآخرون يلعبون دورهم في العراق. تحت ذريعة "الدفاع عن الديمقراطية" يقومون بعمليات تهدف إلى حماية أماكن وتجهيزات الشركات الأمريكية التي تجني الأرباح الطائلة. وكما يعمل رجال الاقتصاد المأجورون، يعملون هم أيضاً لحساب شركات خاصة تُستخدم من وزارة الخارجية، ووزارة الدفاع، أو من خلال أحد الحسابات البنكية السرية المخبئة بين "اللوائح السوداء" لجماعة المخابرات. وفقاً للعقود التي وقعوها إنهم يقومون بتقديم "خدمات أمنية" و"استشارات إدارية".

تستمر القصة المحزنة لشعب دييغو غارسيا المهجّر إلى الآن. قام سكان الجزيرة المنفيون في السنوات الأخيرة من القرن العشرين بحملة يطالبون فيها بحق العودة إلى وطنهم بالإضافة إلى مطالبتهم بتعويضات عن معاناتهم الجسدية والعاطفية بسبب الفقر، الحرمان، والنفي لمدة ثلاثين سنة.

وصف أحد محاميهم السير سيدني كنتريدج كيوسي العقد الأصلي بأنه "محزن جداً ووصمة عار في التاريخ البريطاني". ووصفته إذاعة الـ بي بي سي كفضيحة "شملت على رشاوى من الولايات المتحدة، تمييز عنصري من قبل موظفين مدنيين كبار، وخدعة قامت بها الحكومة البريطانية أمام البرلمان والأمم المتحدة".

في عام 2000، أصدرت محكمة لندن حكماً "يقضي بأن الترحيل كان غير قانوني.... لكن لا تريد الحكومة عودة السكان إلى جزيرة دييغو غارسيا التي يمكن أن تُستخدم كقاعدة للهجوم الأمريكي على العراق".

إن قصص محاولة الانقلاب في سيشلس وسلب جزيرة دييغو غارسيا باعثة على القلق الشديد، خصوصاً أنه تم ذلك تحت غطاء الدفاع عن الديمقراطية. إلى جانب أنها قصصٌ مأساوية هي أيضاً من بين الجرائم التي تُرتكب على مدى القارة كلها - وما تزال مستمرة حتى اليوم.

48 القارة المجهولة

كان جاك واحداً من المرتزقة ورجال الاقتصاد المأجورين العديدين الذين قضيت معهم وقتاً بعد نشر كتابي "اعترافات". مع أن مساوئ ومفاسد حكم تحالف أثرياء المال والشركات لم تقتصر على قارة بعينها بل تعدتها إلى كل القارات، لكن غالباً ما كنت أتساءل لماذا كانت تتحول مناقشاتي معهم بشكل متكرر إلى أفريقيا؟!.

إن الرجال والنساء الذين كانوا مؤثرين في تحديد معالم العقود الأربعة الأخيرة من تاريخ العالم، بدا أنهم مستغرقون بالنشاطات التي تجري في تلك القارة: دور الولايات المتحدة في اغتيال باتريك لومامبا في الكونغو، دعمنا لديكتاتوريين مثل جوناس سافيمبي في أنغولا، موبوتوسيسي سيكو ولورنت كابيلا في الكونغو، أباتشا وأولوسيغان أوباسانجو في نيجيريا، وصموئيل ودي في ليبيريا، بالإضافة إلى الفظائع المرتكبة في راوندا، السودان، وليبريا. كان البعض محزوناً بسبب فشل إدارة كلينتون في ما دعي "عصر النهضة الأفريقية" التي وافق معظمهم على أنها لم تكن خدعة بارعة بأن تدعم رجالاً قساة ظالمين واحداً تلو الآخر. تحدثوا طويلاً حول أحدث المحاولات لإعفاء بلدان كثيرة من الدين وتصميم إدارة بوش على تحويل هذا العمل السخي إلى آخر وأبرع خدعة ابتكرها رجل اقتصاد مأجور وذلك لتعزيز حكم تحالف أثرياء المال والشركات.

أتوا ليتحدثوا معي بعد أن قرؤوا كتابي، لأنهم كانوا هم أيضاً قد تورطوا، لأنهم كانوا محاربين متمرسين يبحثون عن عمل، ولأنهم كانوا قد درسوا القانون وإدارة الأعمال في جامعات علّمت بأن التقدم يتطلب اتباع وسائل تبدو أحياناً على غير انسجام مع الديمقراطية، لكنها وسائل ضرورية لتحقيق الغاية. لقد صدقوا ما قيل لهم، ووافقوا عليه إما لأنهم قد استدرجوا إلى الاعتقاد به أو قبلوا به لأنه كان يخدم مصالحهم الذاتية. أو الاثنين معاً.

والآن، هم مثلي، كان يقض مضجعهم، ويعذبهم الشعور بالذنب. أرادوا أن يتحدثوا، أن يفضوا ما بداخلهم، أن يشاركوا مستمعاً متعاطفاً معهم بقصصهم، وربما أرادوا أيضاً أن يفعلوا شيئاً ما للانعتاق من آثامهم.

يعرف هؤلاء الرجال والنساء جيداً بأن الشعب الأمريكي قد ضُلل، وأنهم هم أنفسهم كانوا أدوات التضليل. على الرغم من اللغة السياسية الطنانة، إن القارة الأفريقية هي اليوم أفقر مما كانت عليه عندما عشت في الإسكندرية، وعندما ذهب جاك إلى روديسيا، وعندما آخرون كثر كانوا يباشرون أعمالهم المهنية منذ ثلاثين سنة مضت. ثلاثة وأربعون من ثلاثة وخمسين بلداً أفريقياً يعانون الجوع المزمن ومستويات منخفضة جداً من الدخل. تعاني مناطق كبيرة المجاعة والقحط: تستغل الصناعات الأجنبية الثروات المعدنية مستفيدة من أنظمة قانونية متخلفة يقوم عليها موظفون فاسدون لكي تتجنب توظيف أرباحها محلياً، إن

استدامة مثل هذه الاقتصاديات الضعيفة وعدم كفاءة الحكومات، أدى إلى دفع الناس إلى العنف، الصراع العرقي، والحرب الأهلية. يموت ثلاثة ملايين طفل كل سنة بسبب الجوع والأمراض المتصلة به، متوسط العمر في القارة هو ست وأربعون سنة، هذا هو ما كان عليه تقريباً متوسط العمر في الولايات المتحدة عام 1900، 45٪ من السكان هم بعمر أقل من 15 سنة لكنهم لن يدركوا أبداً العمر الإنتاجي المحتمل بسبب الجوع، الكوليرا، الحمى الصفراء، الملاريا، السل، شلل الأطفال، الإيدز، والحرب. ثلاثون مليون أفريقي تقريباً مصابون بفيروس الإيدز، وملايين الأطفال قد يُتّموا بسبب هذا المرض.

إن المشاكل التي تواجه أفريقيا ليست مشاكل حديثة بأية حال من الأحوال، بل تمتد جذورها إلى حقبة الاستعمار التي بدأت مع عصر الاستكشافات، واستمرت خلال النصف الأول من القرن العشرين.

"ليست لدي أية فكرة عن جذوري ومن أين أتيت"، قال لي ذلك جيمس في عام 2005، إن هذا الرجل الذي يعمل موظفاً متوسطاً في البنك الدولي لخص مشكلة كان قد عرضها تمثل مأزق القارة بأكملها: "إن أجداد أجدادي قد جروا من بيوتهم وجلبوا إلى هنا كعبيد. إنني لست مثل اللاتينيين، والآسيويين، والشرق أوسطيين الذين يعيشون في الولايات المتحدة، إنني أجد صعوبة في الانتماء إلى بيئتي وثقافتي الأصلية. إنني حتى لا أعرف ما هي اللغة التي كان يتكلم بها أسلافي".

كانت تجارة الرقيق العمل الأكثر فظاعة ودماراً الذي قام به الإنسان ضد الإنسان في تاريخ طويل من الوحشية الإنسانية. أضف إلى هذا، القمع بلا شفقة أو رحمة لثقافات السكان الأصليين، تأثير الأدب والفن والأفلام التي تصور وبشكلٍ متكرر السكان الأصليين كبدائيين وهمجيين، القوى الاستعمارية المختلفة التي استعمرت أفريقيا، والمحاولات المباشرة الوقحة لتقسيم، إخضاع، واستغلال هذه القارة كل ذلك يدعونا إلى القول بأن أفريقيا اليوم هي المنطقة الأكثر عرضة للتعسف والظلم وهي المنطقة المجهولة المنسية أكثر من أية منطقة أخرى على هذا الكوكب.

تلتقي وتتشابك بلدان آسيا، أمريكا اللاتينية، والشرق الأوسط بخيوط عامة، لكن أفريقيا هي عقدة من الخيوط شديدة التعقيد. إنها تاريخ، وجغرافيا، وثقافات، وأديان، وسياسات، وغلال، وموارد طبيعية متعارضة متنافرة. ولد هذا إحساس بالانفصال - وحتى بالعزلة - وهذا بدوره قد سهَّل الاستغلال من داخل البلد نفسه بالإضافة إلى الاستغلال الذي يمارس من الخارج. حل في كثير من البلدان نخبة من السادة الأفارقة محل السادة المستعمرين الأوروبيين السابقين. اتبعوا الطرق نفسها في استغلال شعوبهم، وتعاونوا بشكلٍ مفضوح مع مدراء الشركات التنفيذيين الأجانب الذين نهبوا الأرض والبشر بوحشية لم يسبق لها مثيل. بينما تساعد قراءة التاريخ وتحديد نزعاته على قراءة المستقبل وتحديد

خياراته إلا أن تحميل العهود الماضية مسؤولية الجور والتعسف الجاريان هو مجرد تسويف وتأجيل لمحاولات الوصول إلى حلول.

إن الاقتصاديين المأجورين والعملاء، الرجال والنساء، الذين قابلتهم يعرفون حق المعرفة بأن المسؤولية عن هذا الفقر المستوطن تقع على عاتق بناة إمبراطورية ما بعد الحرب العالمية الثانية. يدركون أيضاً أهمية الحديث والكتابة حول أفريقيا. إنهم يقرون بأنه يجب أن تكون مهمتنا الآن هي نشر الكلمة والتحريض على التغيير.

لأن فهمنا لأفريقيا هو الأقل من بين كل القارات، إنها أيضاً القارة الأكثر تجاهلاً لذلك هي عرضة للنهب. كان غالبية المشاركين في المحاضرات التي تحدثت فيها يرفعون أيديهم عندما أسأل فيما إذا كانوا يعرفون شيئاً عن بوليفيا، فنزويلا، فيتنام، أندونيسيا، أو أي بلد في الشرق الأوسط. لكنني كنت أرى بضع أيادٍ ترتفع فقط عندما أسأل حول أنغولا، غابون، أو نيجيريا. هذا لم يكن بسبب عدم أهمية البلدان الأفريقية بالنسبة لنا: تحتل نيجيريا المرتبة الخامسة بتزويد الولايات المتحدة بالنفط، تأتي أنغولا بالمرتبة السادسة والغابون في المرتبة العاشرة. نيجيريا هي البلد التاسع في العالم بعدد السكان. تأتي قبل اليابان - العاشر - والمكسيك الحادي عشر - جهل الولايات المتحدة حول أفريقيا هو متأصل في أنظمتنا التعليمية بما فيها أنظمة الإعلام الرئيسية. إن هذا الجهل مدروس ومخطط له، لأننا لا نعلم، لا نهتم، ولأننا لا نهتم تكون هذه البلدان أرضاً مباحة للاستغلال وسوء المعاملة. قرأنا حول بوليفيا: بذلت جهوداً كبيرة لإقناعنا بأن إيفو موراليس هو اشتراكي متطرف وزارع كوكايين بدلاً من كونه مزارعاً بوليفياً وطنياً قد انتخب رئيساً بغالبية عظمى. مع هذا لم يكلّف أحد نفسه بمحاولة إقناعنا بأي شيء حول القادة الأفريقيين. إنهم بالأساس غير مرئيين بالنسبة لنا، إنهم مثل سكان جزيرة دييغو غارسيا ليسوا أناساً. الناس غير المرئيين بالإمكان تهجيرهم من أراضيهم، سجنهم، وإعدامهم.

قال لي جيمس مفضياً: "إنني أستحي لكوني أمريكياً عندما أسافر إلى أفريقيا، يسألني الأفارقة فيما إذا كان مواطنو الولايات المتحدة على علم بهم وبأوضاعهم. هل سمعنا حول ملايين الأطفال الذين ماتوا في الحروب؟ اليتامى، المشوهين، والمبتوري الأعضاء؟ غارات الجراد؟ الفيضانات والجفاف؟ لا أطيق تحمل الاعتراف بالحقيقة والقول بأننا لا نعرف. معظم الأمريكيون ببساطة لا يكترثون. بمن فيهم الأفارقة الأمريكيين". فرك عينيه بيديه، وتابع: "هل تعرف ما هو أحد أسوأ مظاهر كل ذلك؟ إنها الوكالات التي من المفترض أن تساعد وتمثل الجانب الخير. لكنها لا تفعل هذا وحسب بل هي جزء من اللعبة. إنني لا أتحدث فقط عن البنك الدولي إنما الخداع والتضليل يمارسان أيضاً من بعض منظمات المساعدة الإنسانية غير الربحية، المنظمات غير الحكومية".



49 منظمات المساعدة غير الحكومية: تشارك في الإبقاء على أفريقيا فقيـرة

"هل نحن نُستَغل؟" سألت ذلك جيني ويليامز مشيرة إلى عملها مع منظمة غير حكومية في أفريقيا: "هل أن مبادئ المساعدة والإنماء هي ببساطة أدوات في مستودع أسلحة الغرب تُستخدم ليس من أجل الإحسان وعمل الخير بل من أجل التحكم والسيطرة؟".

تعرفت على جيني خلال إعداد كتابي "اعترافات" للنشر. كانت تعمل كمتدربة في دار النشر بيريت ـ كوهلر، كانت لديها أفكار ذكية مثيرة للإعجاب. ومن ثم سافرت عبر أفريقيا، وعملت لمصلحة منظمة إنسانية غير ربحية تقدم مساعدات عاجلة وطارئة، وتدير أيضاً مشاريع إنمائية في أوغندا والسودان.

كتبت: "لقد طفح بي الكيل بسبب نفاق الغرب، وتعبت من الكلام بغير طائل، أردت أن أنزل لأعاين الواقع بنفسي، وأفعل شيئاً ما، لأرى أين تذهب كل هذه المساعدات المالية".

رأيت أن وجهة نظرها حرية بالاهتمام بشكلٍ خاص لأنها ترعرعت في سان دييغو، تخرجت من جامعة يوسي بركلي في عام 2004، كانت حياتها مكرسة إلى دراسة الإعلام الذي يركز على تشجيع النزعة الاستهلاكية وفكرة أن المعونات الأجنبية تساعد الفقراء. إنها، مثل ابنتي جاسيكا، تمثل الجيل الذي سيقودنا إلى مستقبل أفضل.

تتابع الرسالة الإلكترونية التي أرسلتها لي من أوغندا كالتالي:

إن الدلالات على جعل أفريقيا غربية المعالم مستمرة وواضحة:

تنتشر ملصقات كوكاكولا في الأكشاك على امتداد مناطق القحط في شمال كينيا، تتوالد وتتكاثر موسيقا الراب والهب هوب الأمريكية وأدواتها بين الشباب الأفريقي، يشرب الناس القهوة المستوردة المعدة للتحضير السريع بدلاً من تحضيرهم لحبوب القهوة المحلية لأن "طعمها أفضل" بينما الحقيقة غير ذلك، وهي أن منتجاتهم أكثر كلفة بسبب الضرائب والتعريفات التي يفرضها حكم تحالف أثرياء المال والشركات.

إنني متأكدة بأن الشركات الكبيرة ترى بأن أفريقيا ثمرة ناضجة للتسويق الاستهلاكي مهما يكن الأمر، لكن منظمات المساعدة الإنسانية غير الحكومية هي جزءٌ من الآلة التي تثبت، وتدعم تأثير الثقافة الغربية الاستهلاكية. من نماذج في الإدارة إلى الرواتب التي تمنح للأجانب، تعمل المنظمات غير الحكومية على فرض المعايير الغربية في الثقافة والمجتمع والاقتصاد. خلق هذا بدوره هوة واسعة بين العاملين في هذه المنظمات وبين السكان المحليين الذين تحاول هذه المنظمات مساعدتهم وتقديم الخدمات لهم. هوة يناضل الأفريقيون بشكل مستديم للعمل على تضييقها وذلك بتقليد الأجانب في نمط حياتهم: إن القيم الغربية قد قلبت المفاهيم الثقافية، وعبثت بأنظمة الاقتصاد المحلي مسببة حالة من التخبط والهيجان.

هناك مشكلة عويصة أخرى: شمال أوغندا، منطقة خربتها عشرون سنة من الحروب ونزاعات التمرد والعصيان التي سببت مقتل الآلاف وتهجير حوالي مليوني شخص، اتهمت المنظمات غير الحكومية بتطويل تلك النزاعات وذلك ببساطة بسبب مجرد وجودها هناك. طالما أن الوضع يعتبر "حالة طارئة" سيستمر المتبرعون بتقديم الأموال لدعم نشاطات المنظمات، وتستمر منظمات المساعدة بالاحتشاد والظهور في مواقع الأزمات للاهتمام بالناس الذين يعيشون أوضاعاً مروعة في مخيمات مزرية. (أطلقت إحدى محطات الراديو الأوغندية نكتة تقول بأنه: يوجد هناك منظمات مساعدة غير حكومية بعدد أكثر من عدد البادا - بوداس - موتورات أجرة تزدحم بها شوارع المدن الأوغندية).

ليس هناك أدنى شك بأن الأوغنديين الذين يعيشون في هذه المخيمات - البعض مر عليه في هذه المخيمات عشر سنوات أو أكثر - قد يموتون بأعداد أكبر إذا لم تؤمن الآبار لهم، الصحة العامة ومحاربة تفشي الأمراض، مؤسسات التعليم، وطعام الإعانة من قبل المنظمات غير الحكومية. لكن بسبب وجود هذه المنظمات فإن كلاً من الحكومة الأوغندية والغرب استطاعا أن يتهربا من مسؤولية العمل على إنهاء القتال الذي أوقف تطور كامل المنطقة. تجري الآن، في صيف عام 2006، محادثات السلام التي كان من المفترض أن تبدأ منذ زمن طويل.

أخبرني أحد زملائي في العمل: "نحن مثل ورقة التوت التي تستر فيها الحكومات الغربية عورتها عندما لا يملكون - أو لا يريدون - حلاً سياسياً أو دبلوماسياً. من يصل أولاً إلى موقع أي نزاع او أزمة؟ بالطبع منظمات المساعدة، لذلك يستطيع الغرب القول 'انظر، إننا نقوم بعمل ما'، حتى ولو أنهم في النهاية لا يريدون أن يجدوا حلاً للمشاكل الحقيقية".

في الجوهر، ليس الغرب غير مكترث أو ليس لديه الدافع لحل النزاعات فحسب، بل أيضاً إنه يشارك مشاركة حقيقية في العمل على إبقاء أفريقيا فقيرة. إن لدى الناس في البلدان الغربية مشاعر مخلصة في العطاء وعمل الخير، ولديهم الثقة والإيمان بأعمال المساعدة الإنسانية - لكن الحكومات الغربية والشركات العالمية الكبرى تحصد المكاسب الهائلة بسبب استمرار عدم الاستقرار والفقر المدقع في البلدان الأفريقية. إن نجاح استغلال العمالة الرخيصة والمنتجات الزراعية، الثروات المهربة، وتجارة الأسلحة تعتمد على سياسيين فاسدين، وتطويل أمد الحروب، ومجتمع مدني متخلف يفتقر إلى القدرة للدفاع عن حقوقه. لو كان يوجد سلام وشفافية في الكونغو لكان من الصعوبة بمكان - هذا إذا لم نقل من المستحيل - على الشركات الأجنبية أن تستغل الثروات المعدنية، لو أنه لا يوجد هناك مجموعات متحاربة وقبائل متناحرة لما وجدت أسواق للأسلحة الخفيفة.

ليس كل أسباب الفقر أو العنف مرتبطة مباشرة بدوافع الغرب. يلعب الفساد المستشري بين القادة الأفريقيين والتوترات الكامنة بين القبائل دوراً كبيراً في وجود حكومات غير مؤهلة وفي وجود الخلافات الحادة بين الشعوب الأفريقية. لكنني أعتقد لو أن الغرب أراد جاداً أن يرى أفريقيا مستقرة ومتطورة لكانت القارة أفضل حالاً دون تدخل خارجي. لكن بدلاً من ذلك، إن الوضع أسوأ الآن بعد عقود من التدخل الغربي وبعد بلايين الدولارات من المساعدات المالية.

إنني أؤمن إيماناً كاملاً بأن معظم العاملين في منظمات المساعدة هم أناس شرفاء، عمال مجدون يريدون فعلاً أن يساعدوا الناس الضعفاء المهمشين في البلدان النامية. إنهم - إننا - نقف ضد نظام من الصعوبة فهمه، وما يزال شاقاً علينا النضال ضده. مع ذلك، إن هذا ما يجب علينا فعله. يجب علينا تغيير هذا النظام".

لا تقف جيني وحيدة ضد هذا النظام، وليست هي الوحيدة أيضاً في بذل الجهود لفهمه والعمل على تغييره. إن طلاب الجامعات والخريجين الجدد في الولايات المتحدة يبدو أنهم يفهمون المشاكل التي تواجه جيلهم بأفضل مما فهمها آباؤهم. عندما يسافرون إلى خارج الولايات المتحدة يتجنبون دائماً الرحلات القديمة - باريس، روما، اليونان - بدلاً من ذلك، فإنهم يتجهون إلى أفريقيا، آسيا، وأمريكا اللاتينية. يحضرون اللقاءات الجماهيرية والمؤتمرات مثل المنتدى الاجتماعي الدولي، ويلتقون بالأهالي المحليين. يعزفون الموسيقا، يرقصون، يشربون البيرة، ويقعون في الحب. لكن أهم من ذلك كله إنهم يناقشون السياسات العالمية، يقارنون الأفكار، ويخططون.

ومع ذلك، في بعض الأحيان حتى أكثر الأعضاء إدراكاً اجتماعياً وبيئياً من ذلك الجيل قد لا يفهم بوضوح بأن سمة أخرى مميزة لجيلهم مقبولة بشكلٍ واسع - الاعتماد على تكنولوجيا الخليوي والكمبيوتر - تدمر حياة الملايين من الناس.



50 كمبيوترات محمولة، هواتف خليوية، وسيارات

قتل أربعة ملايين إنسان في بلد سمي بجمهورية الكونغو الديمقراطية (زائير سابقاً) منذ عام 1998 وحتى عام 2007. ماتوا من أجل أن يستطيع الأغنياء شراء كمبيوترات وهواتف خليوية رخيصة. حالما استقلت البلاد عن بلجيكا في عام 1960 وقعت تحت نفوذ واشنطن. كان عنوان الغلاف لمجلة تايم في عام 2006 "الحرب الأكثر إماتة في العالم" صرحت المقالة بفظاظة: "المعارضة المدعومة من قبل بلجيكا وأمريكا قتلت أول رئيس وزراء منتخباً (لومامبا) بسبب علاقاته المتزايدة مع موسكو".

بعد اغتيال لومامبا استلم السلطة أخيراً الجنرال موبوتو سيسي سيكو. تقول مجلة تايم: "ترأس الجنرال موبوتو المفضل لدى الولايات المتحدة أثناء الحرب الباردة أكثر الأنظمة فساداً في تاريخ أفريقيا".

بالإضافة إلى أنه كان فاسداً، كان حكم موبوتو الطويل قاسياً دون رحمة، وكان أيضاً عامل اضطراب في استقرار البلدان المجاورة. أرسلت راواندا وأوغندا في عام 1996 و1997 جنوداً إلى الكونغو، أسقطوا موبوتو، ووضعوا مكانه قائد الثوار لورانت كابيلا رئيساً للبلاد. تدهورت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية بشكل سريع تحت حكم إدارة كابيلا. غزت كل من أوغندا وراوندا مرة ثانية الكونغو في عام 1998. رأت ستة بلدان أخرى الغزو فرصة للاستفادة من موارد الكونغو الغنية فانضمت إلى الغزو الذي عرف فيما بعد بالحرب العالمية الأفريقية الأولى.

لعبت التناحرات والنزاعات القبلية والعرقية والثقافية دوراً في هذه الحرب، مع ذلك كانت الحرب في الجوهر صراعاً على الموارد. وفقاً لمجلة تايم: "إن أراضي الكونغو مليئة بالماس، والذهب، والنحاس، واليورانيوم، والتنتالوم (معروف محلياً باسم كولتان، ويستخدم في الأدوات الإلكترونية مثل الهواتف الخليويةوالكمبيوترات المحمولة)".

إن البلاد واسعة جداً - تبلغ مساحتها أكبر بحوالي مرة ونصف من مساحة آلاسكا - ومغطاة في أماكن كثيرة بالغابات الاستوائية الخضراء والأراضي الزراعية الخصبة. اكتشفت من خلال قراءاتي أيضاً حول هذه المنطقة بأن مياه نهر الكونغو تملك إمكانية تزويد أكثر القارة بالطاقة الكهربائية. دون التنتالوم في الكونغو لا يمكن أن نملك الكثير من المنتجات المعتمدة على الكمبيوتر. مثال: (نقص التنتالوم أدى إلى ندرة محطة اللعب رقم 2 خلال فترة عيد الميلاد في عام 2000). يمكن للميليشيات الراواندية والأوغندية تبرير الغزو على أرضية أنهم يدافعون عن شعوبهم ضد الثوار، لكنهم قد كسبوا بلايين الدولارات من التنتالوم الذي جمعوه، وهرّبوه عبر الحدود خلال تلك الغارات.

الرجال الاقتصاديون المأجورون، العملاء، وممثلو الحكومة من الولايات المتحدة، وبريطانيا، وجنوب أفريقيا يشعلون لهيب النزاع بشكلٍ مستمر. لقد جمعت ثروات ضخمة من بيع السلاح إلى كل المتحاربين. مكنت الحرب حكم تحالف أثرياء المال والشركات من المراوغة وتجنب نظرة وتدقيق مجموعات الدفاع عن حقوق الإنسان وحماية البيئة وتفادي دفع الضرائب والرسوم. إن الكونغو هي أحد أماكن كثيرة تحدث فيها مثل هذه الأشياء. فضحت عضوة الكونغرس الأمريكي سنثيا ماكيني (ديمقراطية من جورجيا) الكثير من معالم هذه "المؤامرة الإنكليزية" خلال ترؤسها لجلسة استماع في 16 نيسان 2001. تضمنت كلمتها الافتتاحية الاتهامات التالية:

"إن أكثر ما ستسمعونه هنا اليوم لم يكن قد كتب عنه بشكل واسع في وسائل الإعلام العامة. بذلت قوى متنفذة جهوداً كبيرة لكي تمنع هذه القصص من وصولها إلى جماهير الناس.

التحقيقات التي جرت حول نشاطات الحكومات الغربية ورجال الأعمال الغربيين في أفريقيا ما بعد الاستعمار أعطت حجة دامغة عن نزعة الغرب المستمرة في الوحشية والجشع والغدر. إن التصرفات السيئة للدول الغربية في أفريقيا لم تنشأ عن هفوات آنية، عيوب فردية، أو أخطاء شائعة نتيجة ضعف خلقي في الإنسان. بل إن هذه التصرفات تشكل جزءاً من سياسة طويلة الأمد، وضعت من أجل الوصول إلى أفريقيا الغنية واستغلال ثرواتها... إننا نجد في قلب معاناة أفريقيا رغبة الغرب وبشكل خاص الولايات المتحدة في الوصول إلى الماس، والنفط، والغاز الطبيعي، والثروات النفيسة الأخرى في أفريقيا... إن الغرب وبشكل خاص الولايات المتحدة بدأ سياسة قمع، عدم استقرار، وتمرد بعيداً عن كل المبادئ الأخلاقية، تقوده رغبة جامحة وحشية للاغتناء على حساب استغلال الثروات الهائلة في أفريقيا... إن البلدان الغربية حرضت ثورات ضد حكومات أفريقية مستقرة... وكان لها دور فاعل في المشاركة باغتيال رؤساء دول أفريقية منتخبين شرعياً في حينها واستبدالهم بآخرين فاسدين وطيّعين".

على الرغم من تعهد الأمم المتحدة بوقف حمام الدم في الكونغو (تمركزت أكبر قوات في العالم للأمم المتحدة في الكونغو في صيف 2006)، إلا أن الولايات المتحدة والدول الثماني الكبار الأخرى لم تتعاون مع قوات الأمم المتحدة كتبت مجلة تايم:

"... لقد أراد العالم للكونغو الاستمرار بنزيف الدم. أنفقت الأمم المتحدة منذ عام 2000 البلايين على قواتها لحفظ السلام في الكونغو.... في شباط طلبت الأمم المتحدة ومجموعات المساعدة العاملة في الكونغو 682 مليون دولار من أجل مساعدات إنسانية عاجلة. وصلهم حتى الآن فقط 94 مليون دولار. أو 9.40 دولار لكل شخص محتاج".

ليس العنف محصوراً بحدود الكونغو. تعاني جارة الكونغو، منطقة دارفور في السودان كابوساً مماثلاً. مات مليونا إنسان في حرب اشتعلت مدة عشرين سنة. كان أحد وقود هذه الحرب هو أحد أكبر الموارد شهية، البترول. على الرغم من تأصل جذور النزاع في التناحر

الديني والعرقي ووصل إلى مستويات جديدة في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي، لكن استخدم العنف من رجال الاقتصاد المأجورين والعملاء، وعملوا على تفاقمه من أجل تغطية نشاطات هدفت إلى الاستيلاء على حقول النفط. إن القتال وما جرّه من اضطرابات اجتماعية سهّل أيضاً التجارة بالإنسان نفسه. في السنوات الأخيرة حوالي ربع مليون سوداني قد اختطفوا كعبيد، الكثير منهم، مثل والدة صديقي الاسكندرانيين سامي وسامانثا، بيعوا في أسواق تجارة الجنس. يعتقد معظم الناس في العالم "المتحضر" بأن مثل هذه الممارسات قد انتهت في القرن التاسع عشر.

أحد التبريرات من أجل فعل القليل جداً فقط لمساعدة السودانيين هي سمعة البلد كحقل تدريب للإرهابيين. كان السودان ملاذاً لأسامة بن لادن بعد طرده من السعودية في عام 1992 ويعتبر المكان الذي ولدت فيه القاعدة، فكان من السهل على الإعلام أن يقرر بأن السودان هو حليف لـ "محور الشر".

إن الكونغو والسودان أمثلة على بلدان وقعت في شرك تقليدي لاختطاف مواردهما. سهّل كل من الحرب والفقر على الاستمرار في نظام يستغل الموارد الطبيعية والعمالة الرخيصة بينما وفي الوقت نفسه يعمل على إفساد السياسيين المحليين.

عرضت جيني ويليامز مثالاً على عمل آخر في بناء الإمبراطورية أكثر خبثاً كانت قد شاهدته في كينيا وأوغندا: دور المنظمات غير الحكومية. لكن إن قصة الشابين الأمريكيين اللذين انضما إلى فرق السلام لأنهما كانا مصممين على مساعدة أفريقيا كانت في بعض جوانبها أكثر ترويعاً من قصة جيني. إنها تفضح ما اعتبرها البعض مؤامرة بين صانعي القرار السياسي في الولايات المتحدة، حكومات أجنبية، منظمات غير حكومية، وشركات صناعية كبرى.



51 متطوعون سابقون في فرق السلام يحيون الأمل

مالي بلد محاط بعدة بلدان، يقع شمال غرب أفريقيا، يبدو ولأول وهلة بأنه بلد هادئ، أحد تلك الأماكن التي لا يهتم حولها أحد، مهمل حتى من قبل بناة الإمبراطورية. نجد في عمق هذا المظهر الخادع لمالي مفتاح استراتيجيات حكم تحالف أثرياء المال والشركات في القارة الأفريقية.

استقلت مالي عن فرنسا في عام 1960 وهي الآن جمهورية، حوالي ثلث سكانها (12 مليون) يعيشون في العاصمة باماكو، 80٪ من قوة العمل مستخدمة في القطاع الزراعي، 90٪ مسلمون، 9٪ يؤمنون بحيوية المادة أي أن لكل شيء في الكون روحاً أو نفساً، 1٪ مسيحيون. تحتوي مالي على ترسبات من الذهب، اليورانيوم، البوكسيت "صخر يستخرج منه الألمينيوم"، ومعادن أخرى. اشترى رئيس مالي السابق ألفا كوناري خطة البنك الدولي وطبق إجراءات أنعشت الاقتصاد، بشكل رئيسي من خلال إنتاج القطن والذهب. كما أنه أيضاً وفّى بوعوده في الالتزام بالدستور الذي يقيّد منصب الرئاسة فقط بدورتين. انتخب أمادوتوري رئيساً للبلاد في عام 2002 بنسبة 65٪ من الأصوات.

لو أنني أسأل عندما ألقي محاضراتي كم من الأشخاص بين الحضور يعرف حول مالي؟! لن أرى تقريباً أية يد تُرْفع. مع ذلك، عندما تكلمت في اجتماع لجمع تبرعات من أجل إقامة مكتبة عامة في دوفر في ولاية فيرمونت، المدينة القريبة من نيوانفلاند حيث أعيش، قابلت شابين كانا قد عاشا في مالي، وأحبا أرضها وشعبها بعمق. تراسلنا بعد ذلك، وقضينا وقتاً نتحدث على التراس في منزلي المطل على جبال بركشاير. إن القصة التي رواها لي جريج وسندي ليست فقط قصة مؤثرة، بل أيضاً تعبر عن الكثير حول جمال ومأساة وشجاعة أفريقيا اليوم. أتوا بصوت أمريكي إلى بلد وقارة هي بالنسبة إلى معظم الأمريكيين عبارة عن تخيلات ضبابية مشوشة. تعهدهم للعمل من أجل مستقبل أفضل من أجلهم وأجل أصدقائهم الماليين يلهم الكثيرين. أقام جريج فلات في مالي كمتطوع في فرق السلام من عام 1997 إلى 1999. عاد إلى هناك بشكل فردي في عام 2000 لتسجيل مجموعة أغانٍ مع موسيقار من مالي. احتلت بعض الأغاني من تلك المجموعة المرتبة الأولى في جداول مسابقات الأغاني في مالي وأصبح جريج مشهوراً على امتداد البلاد. أما سندي هلمان كانت متطوعة في فرق السلام من عام 1999 إلى 2001 والتقت بجريج بينما كان هناك يسجل تلك الأغاني.

قالت ضاحكة: "كيف لي أن لا أتعرف عليه؟ إن الناس يعرفونه في كل مكان، يستوقفونه في الشوارع، يرقص، ويعزف على الغيتار. إنه كعازف مزمار أرقط يتبعه الأولاد في الشوارع".

تزوجت سندي جريج بعد ثلاث سنوات من لقائهما الأول.

كانا قد انضما إلى فرق السلام في وقت مختلف، لكن من أجل أسباب متشابهة. قبل أن يبدؤوا مهنة ما في الولايات المتحدة أرادا أن يتعلما حول بلدان وثقافات أخرى. كانا يطمحان إلى هدف سامٍ في العمل من أجل عالم أفضل، هدف قد عبّر عنه جون كندي عندما أسس فرق السلام حتى قبل مولد أي منهما. حملا رؤية من أجل مستقبل أفضل للعائلة التي يأملان أن يؤسساها في يوم ما، وأدركا أن مثل ذلك المستقبل يجب أن يشمل العالم كله.

كان لكليهما أيضاً اهتمامات واسعة في الزراعة. نشأت سندي في مزرعة كبيرة للعائلة في إنديانا وتولى جريج العناية بحديقة والدته. أخبراني بأن فرق السلام صورت لهما بأنه من المناسب أن يقبلا مهمات لكي يعلما سكان مالي حول الزراعة.

قال جريج عابساً: "كنا سذجاً بما فيه الكفاية لكي نصدقهم".

شعرت بالقرابة المباشرة بيني وبين هذين الزوجين. كان من السهل أن ترى من خلال وجهة نظرهما وتجربتهما لماذا امتدت الإمبراطورية الحديثة بهذه السرعة وبهذه السرية. انضم كل من سندي وجريج إلى فرق السلام تحدوهما دوافع نبيلة. لقد خمّنا بأنهما يملكان خبرات جيدة يمكن استخدامها من قبل وكالات حكومية أمريكية ومنظمات عالمية مثل البنك الدولي في مساعدة وتطوير وازدهار أفريقيا. بدلاً من ذلك، اكتشفا بأنهما يلعبان دوراً مختلفاً من نوع جديد، لوضع الأساسات الأولية من أجل موجة جديدة من الاستغلال. اصطدما بأول خيوط الخديعة عندما شاهدا بأن مهمتهما كانت تعليم الناس أشياء، كان أولئك الناس يعرفانها أكثر مما يعرفانها هما.

قال جريج: "كان الماليون الذين عملنا معهم من المزارعين، هل لك أن تتخيل مدى وقاحة وكالة أمريكية مثل فرق السلام بإرسال مجموعة من الأولاد لكي يخبروا مزارعين متمرسين، كيف لهم أن يزرعوا أرضهم؟ كيف سينظر الماليون إلى ذلك".

على الرغم من الشعور بالذنب والارتباك، اعترفا بأنهما قد استفادا بشكل واسع من عملهما مع فرق السلام. تعلما التقاليد والأعراف، اللغات، الموسيقا، وحول الموضوع الذي ذهبا إلى هناك لتعليمه: الزراعة. تابع جريج: "قررنا العودة إلى مالي في عام 2005 للعمل مع منظمة إنمائية أخرى تدعى فرص مراكز التصنيع الدولي، وذلك كمستشارين في مزارعهم التي تخدم برامج أفريقية. إن هذه المنظمة المدعومة مالياً من الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية ترسل مزارعين أمريكيين متطوعين لتعليم مزارعين ريفيين في أفريقيا لتحسين وتطوير أساليبهم الزراعية".

قالت سندي: "ظننت بأن هذه المنظمة ستكون مختلفة عن منظمة فرق السلام لأنه في ذلك الوقت كنت قد أصبحت مزارعة. أملك الخبرة. وأعرف مالي. لكن يا لخيبة رجائي، وجدت نفسي بأنني مازلت أشارك في الحلول الفوقية دون النظر إلى ما يحتاجه فعلاً هؤلاء المزارعون. شعرت بأنني أسرق أموالاً من هؤلاء الناس الذين كانوا سيكسبون رواتب معقولة

لأنهم يستطيعون تعليم الشيء نفسه وبفاعلية أكثر: من أنا؟ إنهم يعرفون السوق، يعرفون الكثير. أنفقوا علينا الكثير من الأموال لنصل إلى هناك: أجرة الطائرة، التنقل داخل البلاد، تأمين صحي، ونفقات المعيشة. من المفترض أن نكون خبراء زراعيين، مستشارين. لكني جلست في القرية التي كنت قد أرسلت إليها، محبطة، أسأل نفسي ماذا أفعل هنا. إن المبالغ التي أنفقت عليّ للعب هذا الدور يمكن أن تحيا بها عائلة من مالي ولسنوات". زادت شبهاتهم بينما أصبحوا مدركين للضرر الذي كانت قد سببته كل من أنظمة التعديل الوراثي والتحالف بين الوكالات الأمريكية والشركات الكبيرة التي تنتج وتسوق أنظمة التعديل الوراثي. إن العائلات الزراعية التي عاشت على الأرض لمئات السنين، مدخرين البذور لإعادة زرع محاصيلهم أصبحت الآن تعتمد على الأسمدة الكيميائية، مبيدات الأعشاب الضارة، المبيدات الحشرية، والبذور التي يشترونها من الشركات الأجنبية.

أخبرتني سندي: "دعيت في أحد المساءات وجريج من قبل مجموعة محلية كبيرة للانضمام إليهم بينما اجتمعوا حول التلفزيون الوحيد في القرية. أظهرت دعاية تلفزيونية موجهة ضد مؤتمر أنظمة التعديل الوراثي صوراً لمزارعين ماليين يتظاهرون في الشوارع، محتجين على إدخال أنظمة التعديل الوراثي في الزراعة وبشكل رئيسي زراعة القطن. تبادلنا النظرات أنا وجريج، وعرفنا بأنه يجب علينا أن نشارك في هذا المؤتمر. غادرنا في اليوم التالي مباشرة. كان مؤتمراً مدهشاً استمر مدة أسبوع، وناقش أنظمة التعديل الوراثي في الزراعة، المساعدات الممنوحة لزراعة القطن، وتراث أفريقيا الزراعي. حضر المؤتمر مزارعون يمثلون مالي، غينيا، بوركينا فاسو، توغو، بنين، وغامبيا، بالإضافة إلى حضور أكاديميين، وعلماء زراعيين، ونشطاء، وسياسيين. كان يوجد عدد لا يحصى من الشهادات التي أدلى بها مزارعون محرومون يعانون عواقب سياسات التجارة غير العادلة. كما أنه عرضت أيضاً معلومات قيّمة حول الأخطار الاقتصادية، البيئية، الثقافية، والسياسية التي تهدد بها أنظمة التعديل الوراثي الزراعية. دارت العديد من النقاشات أيضاً حول حقيقة أن الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية ومونسانتو كانا يعملان معاً لإعادة صياغة التشريع لدولة مالي. علمنا بشكل مباشر من مصدر مطلع في الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية في مالي بأن الوكالة الحكومية الأمريكية تعمل مع مونسانتو لوضع فقرة في الدستور المالي تسمح بإدخال، بيع، ومنح حقوق امتياز أنظمة التعديل الوراثي الزراعية. اكتشفنا أيضاً في المؤتمر الكثير حول الخراب الذي سببته "المعونات الأمريكية" لزراعة القطن على المزارعين الماليين وذلك بالسماح للمزارعين الأمريكيين ببيع محاصيلهم من القطن بأسعار مخفضة زائفة، لقد عرضت حكومتنا منتجاتنا في الأسواق العالمية بأسعار منافسة لأسعار المنتجات الأفريقية. كان يجب على المزارعين الأفريقيين غالباً أن يخزّنوا محاصيلهم من القطن لسنة أو أكثر، ومن ثم ربما يجبرون على بيعها بأسعار الحد الأدنى، أو لا يبيعونها على الإطلاق. ولجعل الأمور أسوأ،

يقنع "خبراؤنا" المزارعين لكي يتحولوا من زراعة المحاصيل الغذائية إلى زراعة القطن كمحصول يجلب الأموال. في محاولة لزيادة الإنتاج، حصل المزارعون على بذور، مبيدات حشرية، مبيدات أعشاب ضارة، محاريث جديدة، وأسمدة ،وهذا أغرقهم عميقاً في الدين بسبب القروض التي استدانوها من الشركة المالينية للإنماء والتي تحتكر فعلياً إنتاج القطن وتسويقه. الشركة المالينية للإنماء هي شركة "مشتركة" بين حكومة مالي وشركة فرنسية تمتلك 60٪ من أسهم الشركة".

قال جريج يعلو وجهه شيء من ابتسامة: "كما ترى، إن الأمريكيين ليسوا الوحيدين في هذا العمل. عمل الفرنسيون ذلك بينما كنا نحن ما نزال جزءاً من إنكلترا. لكن اليوم، وأنا خجل لأقول ذلك، إن بلادنا قد سبقت الجميع. عبر المشاركون في المؤتمر بحماس عن غضبهم تجاه حكومة الولايات المتحدة والشركات العالمية وسياساتهم الاحتكارية. كنت تستطيع أن تشعر في أجواء المؤتمر بغضب متقد وألم يلوي القلب ويوقف شعر الرأس.

استنتجنا أنا وسندي بأن مصالح الشركات الكبرى تحدد اتجاه النمو الاقتصادي في مالي. تظهر منظمات التنمية على وجوهها الخير والكرم، يصورون أنفسهم كمنظمات مساعدة تعمل على تحسين حياة هؤلاء الفقراء. مع ذلك، فإن حملات الدعاية العامة تهدف إلى تغطية نواياهم الحقيقية، التحكم بالموارد الطبيعية والإنسانية والهيمنة على الأسواق. لأن اتجاه النمو الاقتصادي في مالي محدد بمصالح الشركات الكبرى. فالعمليات الاقتصادية هي عمليات غير ديموقراطية. الغالبية العظمى من البرامج الاقتصادية هي برامج غير مطلوبة، غير مبادراً بها، غير مدارة، أو غير موجهة من المواطنين الماليين. النتائج غالباً ما تكون مدمرة، تترك مالي في أوضاع اقتصادية واجتماعية أسوأ من قبل. علاوة عن ذلك، خلق التطور الصناعي قطاعاً كبيراً من العمال الأجانب برواتب عالية جداً يعيشون حياة مترفة بعيداً كل البعد عن حاجات الناس الحقيقية ومشاكلهم. هؤلاء الأجانب الذين في الأصل ذهبوا إلى هناك لمساعدة وخدمة وحل مشاكل السكان المحليين".

أضافت سندي: "من جانب آخر، إن أسطورة التنمية مازالت حية وعلى أحسن أحوالها في الولايات المتحدة. ترسم هذه الأسطورة صورة الناس في أفريقيا وفي بلدان العالم الثالث الأخرى كبشر جاهلين، متخلفين، لا رجاء فيهم، أغبياء، وغير أهل لإدارة أنفسهم. خلقت هذه الاعتقادات شعوراً بالتفوق والعظمة. ولدت شعوراً بالاختلاف، نحن مقابل هم".

أخبرني جريج وسندي بأنهما ينويان أن ينشئا مؤسسة مكرسة للمشاركة في التنمية الحقيقية الديمقراطية في مالي. تحصر نشاطها في مجال الزراعة العضوية الطبيعية، والتعاونية، والتبادل التجاري العادل. لكنهما لن يقوما بذلك إلا إذا كانا متأكدين بأنها ستكون شركة تحترم معرفة وحكمة شعب مالي. أكدت سندي على أنه "مثل هذه المنظمة ستدفع أجوراً للإفريقيين لكي يقوموا بتعليم وتدريب مواطنيهم. إن متوسط الدخل السنوي

في مالي هو حوالي 400 دولار. هذا المبلغ هو ما يكلف الفرد الواحد من متطوعي فرق السلام ليتلقى التدريب، نفقات السفر، والضمان الصحي، ومرتباً، نستطيع أن ندفع أجوراً جيدة جداً للسكان المحليين، وفقاً لمقاييس مستوى المعيشة لديهم. ويستطيعون أن يؤدوا العمل بشكل أفضل".

ناقشنا أيضاً أهمية التمييز بين المنظمات غير الحكومية التي تطيل أمد النظام القائم حالياً وبين تلك الملتزمة حقيقة بلا رياء ولا نفاق بتغيير هذا النظام. قال جريج "على العموم، تعمل المنظمات الجيدة مع السكان المحليين، ويتحدث مستخدموها لغتهم، ويعيشون حياتهم".

أشرت إلى أن أفضل المنظمات غير الحكومية - متضمنة تلك التي سنتكلم عنها في القسم التالي من هذا الكتاب - هي على الغالب مكرسة للعمل على تحويل الشركات الكبرى إلى شركات مسؤولة تهتم بالإنسان من خلال التغيير الذي يتم بواسطة القانون، وخلال عملية تنفيذ السياسات والخطط. كما انهم أيضاً يساعدوننا في فهم مضامين طرق الحياة التي نعيشها نحن والمسؤولية التي تقع على عاتقنا للقيام بأعمال إيجابية. اتفقنا على أنه إذا كانت منظمات المساعدة غير الحكومية "السيئة" تخدم الإمبراطورية، فإن منظمات المساعدة غير الحكومية "الجيدة" تبشر بعالم أفضل من أجل أجيال المستقبل.



كل قصة من قصص أفريقيا تتمفصل حول الخديعة. من مصر إلى مالي إلى ديبفو غارسيا كانت الحيلة والإنكار مفاتيح سياسات الإمبراطورية الأمريكية. إنها إمبراطورية قاسية عديمة الرحمة كسابقاتها في التاريخ. استعبدت الشعوب، ونتج عن سياساتها وأعمالها موت أكثر مما حصل تحت الحكم الاستبدادي لروما، وإسبانيا، والبرتغال، وفرنسا، وإنكلترا، وهولندا أو أكثر مما حصل على أيدي أدولف هتلر، ومع ذلك مرت جرائمها بشكل غير ملحوظ تقريباً، مغطاة برداء من لغة الفصاحة والبيان. شاركت أنظمتنا الثقافية ووسائل اعلامنا بشكل فعال في مؤامرة الكذب والخداع هذه. لذلك بينما تعطينا آسيا دروساً حول حيل وأفخاخ البنك الدولي، تنير أمريكا اللاتينية الطريق باتجاه الديمقراطية، يفضح الشرق الأوسط الاستعمار الجديد مبيناً مدى فشله، وتقدم أفريقيا ما قد يمكن أن نجده الأكثر أهمية من بين كل الدروس. تدير وجهها غرباً باتجاه أمريكا، تكوّر أفريقيا يديها حول فمها ـ حيث دلتا النيجر تنضم إلى خليج غينيا ـ وتصيح بصوتٍ عالٍ: كن واعياً! كن يقظاً ومجتهداً. تحرك وافعل شيئاً ما.

إن أفريقيا هي موضوع مناسب لإنهاء أجزاء هذا الكتاب التي عالجت تاريخ الإمبراطورية الحديثة لكي ندفع أنفسنا للنضال ضد هذه الإمبراطورية. تؤكد أفريقيا أكثر من أي مكان آخر حاجة التغيير الملحة. إنها طائر الكناري الميت في النفق.

إن هذا النفق هو شرك للموت. يجب علينا إنقاذ أنفسنا وتمهيد الطريق لأولادنا ليعيشوا في عالم وطيد ومستقر. من أجل أن نفعل ذلك يجب علينا الإصغاء إلى أفريقيا. إنه من المُلحِّ أن نفتح آذاننا لسماع ذلك الصوت الذي يصرخ فينا عبر الأطلسي. يقول الصوت: "أنت تعيش في كوكب صغير، في مجتمع صغير جداً. من أجل إنقاذ أولادك يجب عليك أن تساعدني أيضاً على إنقاذ أولادي، إنهم كل لا يتجزأ، نحن عائلة واحدة".

تخبرنا أفريقيا بأن جعل مزارعي إنديانا أغنياء بينما إفقار أولئك المزارعين في مالي غير قابل للاستمرار بعد الآن. ربما حصل هذه المرة ـ بالنسبة إلى أولئك الذين في إنديانا ـ لكن لن يصح ذلك بعد الآن. ويمكن القول الشيء نفسه فيما يتعلق بالكثير من الأشياء التي تبدو أنها تجعل حياتنا مريحة. لقد ولت أيام "المصلحة الوطنية" بلا رجعة. إن نجاح أجيال المستقبل يعتمد على "المصالح العالمية" ـ من أجل المجتمع الإنساني بأكمله ـ في الحقيقة من أجل كل ما هو حي. نحن شعب واحد ونحن كوكب واحد. ليس هناك مكان في هذه العائلة لعيدي أمين "جزار أوغندا" أو سافيمبي أنغولا، موبوتو وكابيلا الكونغو، أباتشا وأبوباسانجو نيجيريا، أو دوي ليبريا، لا يوجد مكان لهؤلاء بعد الآن أكثر من المكان الذي كان لهتلر في ألمانيا. ولن يوجد أي تسامح لتسرب النفط في بحار وسواحل نيجيريا أكثر من التسامح الذي يوجد في كاليفورنيا، ولا لوجود عبيد في السودان أكثر من التسامح بوجودهم على مزارع

فرجينيا. إن هذه الرسالة تنتشر عبر العالم واصلة ببطء إلى كل مكان. تجمع أفريقيا كل المسائل معاً. إنها، بطريقة ما، آخر حد من حدود الاستغلال المخزي، وتتلقى ذلك الاحترام المشكوك فيه لأننا سمحنا لأنفسنا بأن نتخدر، ونذهب في غيبوبة من خداع الذات. نستسلم لإعلانات التلفزيون وهي تعرض الماس والذهب بأسعار رخيصة. نتفاخر متبجحين حول انخفاض أسعار الكمبيوترات المحمولة والهواتف الخليوية. نهرق، ونبذر مسرفين باستخدام البنزين، ونشتكي متذمرين عندما ترتفع أسعاره. إننا نخفي، ونمحو وجوه عمال مناجم الماس والذهب والأطفال المتسممين بسبب تلوث البيئة بالنفط المتسرب، تحت بساط الجشع المادي.

ننسى بأن أولادنا نحن، هم من سيرث ذلك البساط وهم من سيدعون إلى تغييره. سيكون عليهم تنظيف الأوساخ الفظيعة التي نتركها خلفنا.

"تكور" أفريقيا يديها، وتصيح بنا. في الواقع إن هذا الوقت هو وقت التغيير. من حسن الحظ، إننا نملك كل الأدوات التي نحتاجها لتحويل هذا العالم الذي خلقناه إلى عالم أفضل. معاً، نستطيع أن نرفع ذلك البساط، نزيل الأوساخ، وننظف البيت الذي نحن على وشك تسليمه لأولادنا.

الجـزء الخامس: تغييـر العالم

53 أربعة أسئلة رئيسية

في 17 تشرين الأول عام 2006، أيقظتني ساعة المنبه باكراً جداً في بيتي في غرب ماساتشوستس. كان يجب علي أن ألحق صباحاً بموعد إقلاع الطائرة إلى سان فرانسيسكو، حيث كنت على موعد لإلقاء كلمة في مناسبةٍ لجمع تبرعات من أجل "شبكة أعمال لحماية غابات المطر"، منظمة غير ربحية. كانت قد أقنعت بعض أقوى الشركات لتغيير سياساتها في قطع الأشجار. نهضت من السرير أجرجر نفسي نازلاً درجات السلم، وملأت غلاية القهوة بالماء. ألقيت نظرة من خلال النافذة الصغيرة الواقعة فوق المغسلة إلى الشمس بينما كانت تشرق من فوق الجبال البعيدة، أراقب بزوغ فجر يوم من أيام خريف نيوانغلاند الرائع، أحد أروع الأيام التي شاهدتها في حياتي. وضعت غلاية القهوة على الموقد. ومشيت بخمول مترنحاً من النعاس إلى غرفة الطعام، وتمعنت من خلال نافذة أكبر عبر الحقول الخضراء الممتدة إلى تلك الجبال النابضة بالحياة، الشمس بلونها القرمزي وأشعتها المصبوغة بلون اضطرام النار.

استرعت انتباهي حركة ما على هضبة مكسوة بالصقيع. كان سرباً كبيراً من طيور الرومي البرية، التي تبلغ أعدادها ربما أكثر من مائة، تمشي في حذر واحتراس على قمة الهضبة. كانت ظلالها تهتز إلى الأمام ببطء وغرابة، مثل رسم كاريكاتوري ساخر لطيورٍ من حقبة ما قبل التاريخ.

نظرت إلى الساعة الموجودة على خزانة الكتب، وعرفت بأنني أضعت وقتاً طويلاً جداً، فاتجهت إلى الحمام لأستحم. أدرت في طريقي مفتاح الراديو على محطة محلية إن بي آر بينما كنت أعدّل حرارة الماء، فكرت حول الكلمة التي سألقيها. أردت أن أؤكد على نقطة كان رئيس المنظمة جيم غولدن غالباً ما يذكرها - إننا يجب أن نعمل مع الشركات الكبرى، وليس ضدها وذلك لبلوغ النتائج التي نتوخاها، ليس الهدف هو إنهاء الرأسمالية بل وضع معايير أخلاقية أعلى لها وذلك لتحميلها المسؤولية عن أعمالها. من ثم فجأة استرعت انتباهي كلمات مذيعة الراديو: "خلال أقل من مائة سنة ستنتهي في ولاية ماساشوستس كل أشجار القيقب، وسيختفي الفولياج الخريفي بأوراقه الملونة. وفقاً لدراسة علمية حديثة، ستجعل ارتفاع درجة حرارة الأرض مناخنا هنا في ماساشوستس شبيهاً بمناخ ولاية كارولينا الشمالية. لذلك"، تنهدت المذيعة، وتابعت: "تمتعوا بمناظر هذه السنة قد لا نشاهد مثلها الكثير".

وقفت هناك للحظة محدقاً من خلال نافذة الحمام. كانت في الخارج شجرة القيقب الحمراء القديمة التي بقرب البيت قد انحنت أمام الريح، سمعت حفيف أغصانها على جدار المنزل. بدا الصوت المألوف منذراً بشرٍ الآن، إنه صوت حشرجة الموت. شعرت بالانهيار التام.

في وقت متأخر من ذلك اليوم، بينما كنت في الطائرة، طفى على تفكيري الاحتمال بأن خريف نيوانغلاد سيصبح ذكرى من التاريخ. أدركت بأن زوال الفولياج الخريفي المورق الملون لم يكن مجرد: "احتمال" بل كان حدوثه على أساس تنبؤ علمي. لأول مرة أشعر تماماً بمعاناة سكان الأسكيمو وهم يشاهدون بصمت ذوبان جليد القطب الشمالي. وأولئك النوماد سكان الهمالايا، الذين التقيت بهم في هضبة التيبت، والذين كانوا يتحسرون على ذوبان، وتراجع أنهارهم الجليدية. كنت ولسنوات قد قبلت مفهوم ارتفاع درجة حرارة الأرض بعقلانية. لكن فكرة ان الفولياج الخريفي المورق الملون، هذا الذي كنت قد ترعرعت على مشاهدته، والذي كان رمزاً يمثل أفضل أوقات السنة لدي، كان على لائحة الانقراض صدمتني بقوة.

ثم كان لدي تفكير آخر: إن الحوادث المتنبأ بها علمياً يمكن تداركها ومنعها من الوقوع. على الأقل تلك التي نسببها نحن البشر. تذكرت شيئاً كنت قد قلته عدة مرات خلال الكلمات التي كنت ألقيها: من أجل تغيير العالم يجب علينا تغيير حكم تحالف أثرياء المال والشركات، يجب علينا أن نتوقف عن السماح لأولئك القلة من الرجال في الاستمرار بتشكيل وتحديد مصير كوكبنا. يجب علينا أن نوقف هجماتهم على قمم الجليد، والأنهار المتجمدة، ومشاهد الخريف الرائعة، ويجب إيقاف هجماتهم على مستقبل أرضنا وأولادنا.

متطلعاً من خلال نافذة الطائرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، الأرض التي كافحت وقاتلت من أجلها أجيال من أسلافي، صدمت بحقيقة أن كل قصص رجال الاقتصاد المأجورين والعملاء في آسيا، وأمريكا اللاتينية، والشرق الأوسط، وأفريقيا هي قصص تستدعي الإعجاب، الغضب، الفرح أو الحزن، لكنها ببساطة هي في النهاية قصص حول ماضينا إلا إذا اخترنا أن نحولها إلى شيء آخر أكثر أهمية، إلا إذا أصبحت دروساً تدفعنا للقيام بعمل ما لتصحيح مسيرتنا.

كان ذلك اليوم بالغ الأهمية بالنسبة لي. كنت قد قطعت عهداً على نفسي لتأليف كتاب يلهم الناس لتغيير هذا العالم. إنه هذا الكتاب. أتممت مسودات كل الأجزاء ما عدا هذا الجزء الأخير الذي أكتبه الآن، الجزء الحاسم والأهم. حتى هذه اللحظة أعاقت الشكوك جهودي. كانت لدي فكرة جيدة حول ما كنت أريد قوله، لكن لم يكن لدي الأسلوب للتعبير عنه. كيف، سألت نفسي: تقنع الرجال والنساء الذين يعيشون بمستوى مريح لتغيير نظام يزودهم بهذه الرفاهية التي يعيشون بها - حتى عندما يعلمون حول أعمال ووسائل رجال الاقتصاد المأجورن والعملاء، عندما يدركون أنه يرتبط برفاهيتهم ثمن فظيع يدفعه آخرون؟ أين تجد الكلمات لتمكينهم من الوقوف في وجه قوة كقوة حكم تحالف أثرياء المال والشركات؟ كيف تحرضهم للقيام بأعمال تؤدي إلى إخضاع الشركات الكبرى إلى إرادة الشعب؟.

ذلك اليوم، وبينما كانت طائرتي تتجه من الساحل الشرقي إلى الساحل الغربي في الولايات المتحدة كنت أقرأ مقالات ومخطوطات حملتها معي، أدركت بأن تلك الأسئلة لم تكن أسئلة جديدة. كانت تسأل أسئلة مشابهة في الماضي على مر التاريخ من كل شخص وقف ضد الظلم، وناضل من أجل العدالة والحرية. قابلت على مدى اليومين التاليين أصدقاء قدامى، وصادقت أشخاصاً جدداً من بين الناس الذين يدعمون "شبكة أعمال لحماية غابات المطر" ومنظمات أخرى مشابهة. أدركت بأن مفتاح الإجابة على تلك الأسئلة تحمله الإجابات على أربع أسئلة أخرى.

السؤال الأول الذي يجب علينا التصدي له يتعلق بالتفاؤل، إمكانية الوصول إلى هدفنا. هل نحن في وضع نستطيع معه فعلاً أن نأمل بإحداث تغيير؟ لنفترض بأننا مقتنعون بأن هناك أسباباً تدعونا للتفاؤل، فلنسأل أنفسنا السؤال الثاني: هل نحن متأكدون بأننا نريد التغيير؟ القصص حول رجال الاقتصاد المأجورين والعملاء، والمعاناة التي يكابدها البشر حول العالم تنهك الأعصاب، وترهق المشاعر، لكننا الآن نطالب بدليل قاطع بأن المظالم التي نشتكي منها تبرر بذل الجهود التي سيتطلبها التغيير. السؤال الثالث: هل توجد مبادئ موحدة تضفي الشرعية على جهودنا وتؤيدها؟ ننظر إلى أن نتحقق من أننا لسنا نسعى إلى فرض أخلاقنا، ديننا، أو قيمنا الفلسفية على الآخرين، لكن بدلاً من ذلك نهدف إلى خلق شيء ما حقيقي ودائم من الفوائد التي تعم الكون. وأخيراً: ماذا يستطيع كل منا فعله؟ أنت وأنا شخصياً نحتاج إلى تقييم مقدراتنا وعواطفنا. ما هي خياراتنا ورغباتنا الفردية؟ كيف لها أن تنسجم مع اللوحة الأكبر؟

سنتفحص في الأجزاء التالية من هذا الكتاب هذه الأسئلة بعمق أكثر. سنعتمد على إجابات واقعية عملية، حديثة وتاريخية أيضاً لكي نجيب على تلك الأسئلة. سنتحدث إلى رواد اليوم، رجالاً ونساءً، الذين هم أنفسهم كانوا قد طرحوا هذه الأسئلة نفسها، ووصلوا إلى إجابات، وهم الآن يبادرون بأعمال ستساعد كل منا لأخذ القرارات الخاصة بنا. سنتفحص الطرق التي اتبعت في الماضي، والطرق التي ثبت نجاعتها اليوم. في أوقات مثل هذه الأوقات التي نعيشها اليوم، إنه لمن الأهمية بمكان أن نكون فلسفيين وأن نبحث في المضامين الأخلاقية لأعمالنا، مع ذلك إنه حيوي وهام أيضاً أن نرى بأنفسنا وقائع وحقائق الحياة لاتباع طرق تؤدي إلى تغيير مادي ملموس صلب ومستمر.

54 التغيير ممكن

يجب علينا الاقتناع بأن التغيير ممكن، وذلك من أجل أن نكون مستعدين للتحرك وتحمُل المخاطر. هل يوجد لدينا أسباب تجعلنا متفائلين؟

كنت ذكرت الثورة الأمريكية عدة مرات في هذه الصفحات. إنها ليست مقارنة عَرضَية. يوجد الكثير من التشابه بين الوضع الذي نحن عليه اليوم، حيث نعيش تحت حكم تحالف أثرياء المال والشركات المضلل، وبين التحديات التي واجهها أولئك المستوطنون الأوائل. كما كان الوضع حينذاك، توجد اليوم ثورة عاصفة من الإيمان الراسخ باتجاه تغيير حكم تحالف أثرياء المال والشركات. لم تكن الثورة الأمريكية لتحدث لولا إقناع المستوطنين أنفسهم بأن النصر كان ممكناً.

رأى الإقطاعيون البريطانيون في عام 1755 لأول مرة بأن الإمبراطورية كانت غير محصنة، خلال الحرب الفرنسية والهندية في معركة مونونغاهيلا (معركة البراري). عندما كان جورج واشنطن يخدم تحت إمرة الجنرال البريطاني إدوارد برادوك، شاهد شخصياً إحدى أسوأ الهزائم في التاريخ الإنكليزي، كان تأثير ذلك عليه هائلاً. قتل برادوك، بزغ نجم واشنطن كبطل، وحاز القادة الوطنيون على احترام المستعمرات، بينما تضاءل الاحترام للجيش البريطاني الذي كان إلى حد تلك اللحظة قد اعتبر جيشاً لا يقهر. مع ذلك، بالإضافة إلى الموالين الأمريكيين لإنكلترا حينذاك، امتنع كثير من الأمريكيين عن اتخاذ أي قرار.

من ثم، خلال الثورة، في معركة بانكرهل في عام 1775، تغلبت القوات الأمريكية على البريطانيين في معركة ضارية تلاحم فيها الجيشان. على الرغم من نفاذ ذخيرة الأمريكيين وادعاء البريطانيين النصر، سقط نصف الجيش البريطاني تقريباً بين قتيل وجريح. شعر الأمريكيون بثقة أكبر. عبر الجنرال واشنطن دَلاوير في ليلة الميلاد عام 1776، وهزم الهسيين المرتزقة في اليوم التالي هزيمة شنعاء في موقعة ترنتون. من ثم، أقنع واشنطن حوالي 8000 من المقاتلين الجدد بالانضمام إلى جيش الثورة الأمريكية. بعد ذلك بأقل من سنة، رسخ النصر الذي أحرزته القوات الأمريكية في ساراتوجا التفوق الأمريكي في ساحات القتال، وأقنع البريطانيين بأنه من الأفضل، خدمة لمصالحهم، أن يقبلوا بالتغيير. كان ذلك نقطة تحول حاسمة حملت الفرنسيين على تغيير موقفهم، وأصبحوا حلفاء لجيش الثورة الأمريكية.

إسقاط تجربتي الشخصية على معركة مونونغاهيلا، حدث خلال السنوات الأخيرة في التسعينات من القرن الماضي وبداية سنوات القرن الجديد، وذلك عندما قمت بعدد من الرحلات إلى الأمازون في إطار أعمال جمعية تغيير الحلم. في كل مرة أركب الطائرة عابراً فوق الأدغال كنت أشاهد خراباً ودماراً أكثر. كان ناس قبيلة الشور يذكرونني باستمرار بأن

ما كان يجري هو علامة فشل، فقدان الإحساس بالخطر على المدى الطويل، ودليل بأن حكم تحالف أثرياء المال والشركات غير معصوم عن ارتكاب أفدح الأخطاء - مثل البريطانيين خلال الحرب الفرنسية الهندية. أدركت بأن تغيير مجرى ما يحدث لم يكن فقط مجرد شيء نرغبه بل إنه شرط لازم من أجل الحفاظ على بقاء الجنس البشري. علمنا التاريخ بأن الإمبراطورية المنهارة تقود إلى فوضى، وحروب، وإلى إمبراطورية جديدة. في السياق المعاصر، تسبب الفوضى والحروب على الأرجح إبادة الحياة كما نعرفها. بالنسبة لي أقنعتني أدغال أمريكا الجنوبية لأعود بهذه النظرة إلى الولايات المتحدة. عدت مدركاً بأنه يجب علينا ببساطة أن نجد بديلاً لما يحدث من خراب. لكن، سألت نفسي، هل إن ذلك ممكن، لمعرفة ذلك احتجت إلى برهان.

بالإضافة إلى الرحلات التي قمت بها إلى الأمازون، كنت أعطي دروساً عملية أيضاً لمساعدة مدراء شركات تنفيذيين لإيجاد طرق إبداعية جديدة لحل المشاكل. كان "طلابي" يمثلون قطاعات عديدة من أقوى الشركات في العالم - اكسون، جنرال موتورز، فورد، هارلي - دافيدسون، شل، نايكي، هيولت - باكارد، وحتى البنك الدولي.

أشارت عدة أفلام وكتب كانت معروفة حينذاك بأن الشركات الكبرى تتمتع بالحقوق نفسها التي يتمتع بها الشخص العادي وفقاً للتعديل الرابع عشر من الدستور. أيدت المحكمة العليا هذا المبدأ عام 1886 في قضية بلدية سانتا كلارا ضد شركة جنوب الهادي للسكك الحديدية، وأصبحت سابقة قانونية يقاس عليها منذ ذلك الحين. كنت أؤكد لأولئك المدراء بأنه يجب على الشركات الكبرى أن تكون ملزمة بقبول المسؤوليات نفسها المتوقع قبولها من الشخص العادي: هي أيضاً يجب أن تكون مواطناً صالحاً، شريفاً، عضواً من أعضاء المجتمع يتحلى بالأخلاق الحميدة. في حالة الشركات العالمية يجب تحديد المجتمع التي تنتمي إليه الشركة بالمجتمع العالمي.

في الواقع العملي، نجد أن الشركات هي على النقيض من المواطنين الجيدين. إنها تقدم الرشاوى للسياسيين من أجل إصدار قوانين للاحتيال على المجتمع، وبشكلٍ رئيسي السماح لهم بالتهرب من دفع العديد من الكلف الحقيقية التي تنتج عن مباشرة أعمالهم. تسقط من الحساب عند التسعير ما يشير إليه الاقتصاديون بـ "المخرجات" وهذه تشمل التكلفة الاجتماعية والبيئية الناتجة عن تدمير موارد قيْمة، التلوث، ما يتحمله مجتمع العاملين المصابين أو المرضى، والذين تقدم لهم معالجات طبية صغيرة جداً أو لا يقدم لهم أي علاج على الإطلاق، التمويل غير المباشر الذي تتلقاه هذه الشركات عندما يسمح لها بتسويق منتجات تنطوي على اخطار قد تقع على الناس والبيئة، النفايات الملقاة في البحار والأنهار، دفع رواتب للمستخدمين أقل من الراتب المقدر للمعيشة، شروط العمل السيئة في معاملها، واستخراج مصادر الثروة الطبيعية من أراضي الملك العام بأسعار أقل بكثير من أسعار

السوق. علاوةً على ذلك، تعتمد معظم الشركات الكبيرة على المعونات الحكومية، الاستثناءات، حملات دعاية ضخمة، حملات سياسية تقوم بها جماعات الضغط العاملة في خدمة مصالح هذه الشركات، وأنظمة النقل والاتصالات المعقدة الممولة من المواطنين دافعي الضرائب. يتلقى مدراء هذه الشركات مرتبات ضخمة، منحاً، ومبالغ وفوائد تقاعدية ذهبية تقتطع من الضرائب المتوجب دفعها من قبل هذه الشركات.

تحت ظروف عمل محاسبي صحيح، تدخل كل تلك "المخرجات" في حساب كلف الإنتاج. هذه البضائع والخدمات التي بطبيعتها تكون نظيفة ستباع أيضاً بسعر أرخص. بذلك يدفع المستهلكون سعراً أعلى للمنتجات التي تجهد البيئة والمجتمع متضمناً السعر أموالاً من أجل معالجة الأضرار البيئية والاجتماعية. في اقتصاد السوق "الحر" الحقيقي، تدخل هذه الكلف الحقيقية في عملية إنتاج السلعة "المدخلات" لكنها هنا لا تدخل. لماذا؟ لأن المؤسسات الحسابية غير ملزمة بتنفيذ المبادئ المحاسبية السليمة. إن عليهم فقط التقيد بتلك المبادئ التي يتطلبها القانون - المكتوبة من السياسيين الذين يعتمدون على حكم تحالف أثرياء المال والشركات.

إن الشركات اليوم تملك كل الحقوق التي يملكها الأفراد لكنها لا تتحمل أية مسؤوليات. في الواقع، إن هذه الشركات تُمنح ترخيص من أجل السرقة. من وجهة النظر الاقتصادية، لا يوجد ببساطة كلمة أخرى للتعبير عن ذلك. إنهم يسلبون الفقراء والأجيال القادمة من أجل أن يزداد غنى الأثرياء.

بينما كنت أعطي دروساً عملية مفكراً بهذه الأمور، أدركت بأن فهمنا لضرورة إحداث تغييرات أساسية في شركاتنا الكبرى شيء، وإقناع الناس بأننا نستطيع أن نجعل هذه التغيرات تحدث شيء آخر تماماً. ما هي المرادفات المعاصرة لمعارك بانكرهل، ترنتون، وساراتوجا؟ أين هي نقاط القوة التي تعطينا الأمل؟

وجدت الجواب في مجموعة من مقالات المجلات التي كنت أحملها معي للقراءة في الطائرة المتجهة إلى سان فرانسيسكو في ذلك اليوم من تشرين الأول عندما علمت بأن خريف نيوانغلاد المورق الملون يتهدده الانقراض.

كان يوماً بالغ الأهمية لأسباب كثيرة.

55 رجال اللحظة المعاصرين

"جنود البيئة".

"رجال اللحظة على جسر السلام".

"الفدائيون الخضر".

تشير هذه العبارات إلى منظمة "شبكة أعمال لحماية غابات المطر"، المنظمة غير الربحية حيث كنت على وشك إلقاء كلمة في المؤتمر التي دعت إليه. على الرغم من شهرة هذه المنظمة بإنقاذ غابات معرضة للخطر، ذكرتني المقالات التي قرأتها في الطائرة بشيء كنت قد فكرت فيه منذ خمس سنوات، ومن ثم نسيته تقريباً. تقول المقالات بأن المنظمة تستطيع أن تكون مثالاً يحتذى من أجل شيء أكبر. تتراوح مقالات هذه المجلات من كتاب الشركة المقدس، الثروة، إلى الدراجة الثلاثية: بوذايت ريفيو (النقد البوذي)، تشرح بالتفاصيل كيف يمارس المتطوعون حرية الكلام من خلال العصيان المدني، مسرح الشارع، والمظاهرات السلمية. سار أعضاء المنظمة في مظاهرة إلى المراكز الرئيسية للشركات، يحملون الملصقات، وحتى يتسلقون جدران الأبنية ليضعوا عليها اللافتات المكتوب عليها انتهاكات الشركة الأكثر وقاحة. يشترون صفحة إعلان كاملة في الصحف، ويكتبون رسائل إلى المحررين. مع ذلك، يتوخون الحذر بأن لا يؤذوا أحداً أبداً، ولا يوقعوا أضراراً بالممتلكات. ويعرضون المساعدة على المدراء التنفيذيين لصياغة حلول تعود بالنفع على كل الفرقاء. أظهرت هذه النجاحات بأننا "نحن الناس" نستطيع دفع الشركات لتغيير سياساتها. تثبت منظمة "أعمال لحماية الغابات" بأننا نستطيع إخضاع إرادة أقوى الأقوياء، ويمكن للتغير أن يخدم مصالح الشركة نفسها كما يخدم المجتمع بشكل عام.

أثارت هذه المقالات ذكرياتي حول الحملة التي قامت بها المنظمة في منتصف التسعينات لإقناع أعضاء من مجموعة شركة ميتسوبيشي، كانت في ذلك الحين تُعتبر أكبر شركة في تدمير أخشاب الغابات الاستوائية، لتغيير سياساتهم. عندما رفض مدراء ميتسوبيشي عروض المنظمة الأولية، ورفضوا التفاوض، أخذت الأمور طابعاً شخصياً. وقف موظفو ميتسوبيشي ضد مؤسس ومدير منظمة "أعمال لحماية الغابات"، تبادل الطرفان انتقادات حادة كانت تأخذ أحياناً طابعاً شخصياً.

انتصرت المنظمة في النهاية. في 12 تشرين الثاني عام 1997 وقعت شركة ميتسوبيشي موتور وميتسوبيشي اليكتريك الأمريكيتان اتفاقاً تاريخياً مع منظمة أعمال لحماية الغابات، تعهدت بموجبه الشركتان في "دعم حماية البيئة وتحمل المسؤوليات الاجتماعية" بالإضافة إلى ذلك، وافقت الشركتان أيضاً على اتباع أربعة عشر إجراءً محدداً لضمان تنفيذ هذه التعهدات.

بعد عدة شهور من الوصول إلى ذلك الاتفاق، حضرت مؤتمراً على ساحل كاليفورنيا. كنت قد سمعت بأن مؤسس ومدير منظمة "أعمال لحماية الغابات"، راندي هايس سيكون من بين حوالي ثلاثين من المشاركين في المؤتمر. تطلعت متشوقاً لمقابلة هذا الرجل الذي تصدى لتحديات هائلة والذي تكللت جهوده بالنصر والنجاح. كان هذا الرجل، في رأيي، بطلاً معاصراً يمشي على دروب مهدها توم باين، هاريت توبمان، مارتن لوثر كينغ الأحدث، سيزار شافيز، راتشل كارسون، وآخرون كانوا قد نهضوا بنا لتغيير الطريقة التي ننظر بها لأنفسنا والطريقة التي نتصرف بها تجاه العالم.

كان مركز المؤتمر يقع على التلال المطلة على المحيط الهادي. قررت أن أنصب خيمة أقضي فيها أيام المؤتمر بدلاً من قبول أحد الغرف المخصصة للمشاركين. أقمت خيمتي في حقل صغير على موقع منحدر فوق مجموعة من أشجار التنوب التي تحضن قمة المنحدر الصخري المطل على المحيط. على الرغم من أنني سأنام على كرسي ينحني ظهره إلى الوراء، لكنني كنت أستطيع أن أفتح النافذة وأشاهد مناظر الساحل الوعر الخلابة. بما أنه كان يوماً صاحٍ معتدلاً لم أعر اهتماماً كثيراً لشد أربطة الخيمة إلى الأرض، أقمتها بسرعة وجلست إلى الوراء أراقب الشمس تزحف في الأفق البعيد. كان أريج شجر التنوب الممتزج برائحة البحر يبعث في النفس النشوة والخيال.

نهضت فجأة، ونظرت إلى ساعتي. أدركت بأنني أضعت نصف ساعة تقريباً مسترخياً ومتأملاً المشاهد الخلابة التي تحيط بالخيمة. مشيت متجهاً إلى حفل الاستقبال، رغبتي في أن لا أغادر هذا المشهد الرومانسي كانت تعادل توقي إلى لقاء مدير منظمة أعمال لحماية الغابات.

لم تكن لدي أية فكرة بأن خصم راندي العنيد، المدير التنفيذي في شركة ميتسوبيشي، كان في اللحظة نفسها في طريقه إلى حفل الاستقبال نفسه.

عرفت راندي في الحال، فلقد كنت شاهدت صوره من قبل في الصحف. قدمت نفسي إليه، عبرت عن تقديري لعمله، وهنأته على انتصاره الأخير. تحدثنا حول تجاربي في الأمازون. من ثم نظر إلى الباب، علت وجهه الدهشة، اعتذر مني ومشى بخطى بطيئة باتجاه الرجل الذي كان قد دخل لتوه. تصافحا، تبادلا بضع كلمات، ومن ثم علا صوت يسألنا جميعاً بأن نجلس في أماكننا معلناً بداية المؤتمر. همست المرأة التي كانت تجلس إلى جانبي بأن القادم الجديد كان هو مدير تنفيذي لشركة ميتسوبيشي. بعد تبادل التحيات الأولى، بدا وكأن كل واحد منهما كان يتجنب الآخر.

حصلت في اليوم التالي لقاءات جماعية مكثفة، دعوت راندي خلال العشاء لشرب البيرة في حوض الاستحمام الساخن حيث نستطيع أن نتابع المناقشة التي كنا قد بدأناها في اليوم السابق. وصلنا إلى قمة المنحدر الصخري المطل على المحيط الهادئ، واتجهنا في ممر وعر

ضيق. عندما اقتربنا من حوض الاستحمام، لاحظنا بأنه يوجد شخص ما في الحوض. كان هذا الشخص هو المدير التنفيذي في شركة ميتسوبيشي، وقد بدا مندهشاً لرؤيتنا. لكنه عاد إلى طبيعته بسرعة، تبسم لنا من بين فقاعات الماء، ورفع علبة البيرة التي كانت في يده وعلق بالقول: "ما أجمل غروب الشمس، تفضلا بالانضمام إلي". شعرت بالقلق إلى حد ما، وأنا اخلع ثيابي وأنزل إلى الماء الساخن. ها أنا ذا هنا، الشخص الوحيد على هذا الجبل وسط هذين الخصمين اللذين كان كل واحد منهما حتى هذه اللحظة يقف في مواجهة الآخر. تحدثنا عن وقائع المؤتمر، التي حدثت بعد ظهر اليوم، استعرضنا قضايا المؤتمر وتناقشنا حول مشاركين آخرين كانوا أصدقاء مشتركين بيننا. وبشكلٍ متعمد تجنبنا الإشارة إلى أي نزاع.

غرقت الشمس في المحيط. وتغير لون السماء من الأحمر الوردي الفاتح إلى الأحمر الضارب إلى الزرقة إلى الأحمر الأرجواني. فتحنا علباً جديدة من البيرة، وقرعناها ببعضها البعض. شربنا أنا وراندي من علبنا، لكن استمر رفيقنا ممسكاً بعلبته عالياً وقال: "راندي، أريد ان أقول لك شيئاً مهماً".

نظر راندي مباشرةً إليه. أحسست بأنه، مثلي، لم يكن لديه أدنى فكرة حول ما يمكن أن يحدث. تابع المدير التنفيذي في شركة ميتسوبيشي: "أريد أن أشكرك، أنا وعدد من المدراء في ميتسوبيشي أردنا تغيير سياساتنا قبل أن تأتي منظمتكم، وتدعو إلى التغيير. لكننا لم نجرؤ على مواجهة مجلس إدارتنا. كنا خائفين من أن نُطرد من العمل. إن احتجاجاتكم وإعلاناتكم سرّعت الأمور باتجاه الحسم والتغيير. كان ذلك عسيراً جداً. جعلتمونا نشعر إلى حد ما بنوع من الضيق والحرج. لكن في النهاية، جعلتمونا نفكر معاً باهداف مشتركة. أشار أحد ما إلى أن مسؤولياتنا لا يمكن أن تقف مع حملة الأسهم اليوم بل يجب أن تتضمن أولاد حملة الأسهم، أولادنا. لقد أعطتنا منظمتكم فرصة. أقنعنا أنفسنا، وشركتنا، لكي نقوم بالعمل الصحيح". مال باتجاه راندي، تقارعت علبتيهما مرة ثانية وانضمت علبتي إلى علبتاهما. قال: "شكراً لكم".

في وقت متاخر من تلك الليلة، تحركت عاصفة باتجاه شاطئ المحيط. استيقظت على صوت المطر يضرب خيمتي، وفكرت حول ذلك المساء. إن كلمات موظف ميتسوبيشي حملت بارقة أمل. إنه، كما كنت أنا خلال أيامي كرجل اقتصاد مأجور، فهم هو ورفاقه الآخرون في ميتسوبيشي ماذا يجب فعله لجعل العالم مكاناً أفضل؟! لكنهم شعروا بأنهم وقعوا في شرك نظام يطالبهم بأن يصموا آذانهم لكي لا يسمعوا نداء ضمائرهم.

تذكرت كيف كنت أشعر في أعماق قلبي بأنني أعلم أن الكثير من أعمالي كانت خاطئة، لكن اجتمعت الأشياء والظروف لإقناعي بشيء مختلف. جامعات إدارة الأعمال، المنظمات الدولية، واقتصاديون مبجلون علموا بأن بناء مشاريع بنيوية ضخمة كان شيء هام ورئيسي

من أجل التطور والنمو، كان هو الحل لإنهاء الفقر. لقد أثني علي لأني اتبعت الصيغ والوصفات التي وضعوها، رقيت في عملي، أعطيت علاوات مرتب، عين لمساعدتي موظفون أكثر، منحت نفوذاً أكبر، وفر لي الجنس مع أجمل الحسناوات، أعطيت أسهماً في شركات كبرى، مشاركة في ملكية شركات، ضمانات صحية وتقاعدية... توفرت لي كل الأشياء التي تحدد، وتعرف النجاح في مجتمعنا. دعيت إلى إلقاء محاضرات في أهم جامعات العالم وأعظمها هيبة وشربت النبيذ، وتناولت الطعام مع رؤساء دول وموظفين كبار.

عانى المدير التنفيذي في ميتسوبيشي شيئاً مماثلاً لما كنت أعانيه ـ هو وكل أولئك الرجال والنساء الذين يحيطون به. كرسوا نجاحهم المهني على القضايا الدونية: أرباح مالية قصيرة الأجل على الدولار. واعتمد ترقيهم، مكاسبهم، والرعاية الصحية لأولادهم على بيان الدخل الربع السنوي لشركتهم. دربّوا لكي ينظروا إلى العالم من خلال الزجاج الأحمر الداكن، كلون النبيذ المعتق، لنوافذ غرفة مجلس الإدارة. من ثم دخلت منظمة شبكة أعمال لحماية الغابات الصورة...

نشطت الريح، وبدأت تعصف بخيمتي، بدا وكأن الطبيعة تعلن عزمها على تسوية الأمور وجعلها صحيحة. استعادت ذاكرتي كلمات الزعيم الأندي في الأمازون: "إن العالم لا يحتاج إلى من ينقذه، إن العالم ليس في خطر. نحن البشر الذين في خطر. إذا لم نغير سلوكنا، ستهزنا أمنا الأرض، وتتخلص منا كالبراغيث". بدأ الاهتزاز الآن. بدت هذه الليلة وكأنها رمزٌ للاهتزاز الكبير المعبر عنه من خلال الفيضانات، الجفاف، الأوبئة المتفشية، وأنهار الجليد الذائبة.

سمعت فجأة صوت التواء. اندفع الماء من خلال سقف الخيمة. انحل مصراع باب الخيمة! لعنت نفسي لأنني لم أعر انتباهاً أكثر للتفاصيل عندما نصبت الخيمة، من ثم جمعت حاجاتي بسرعة، أشعلت بطارية يد صغيرة، وأخذت طريقي خلال وابل من المطر متجهاً إلى البيت حيث كان لقاؤنا.

شعرت بالارتياح عندما وجدت أريكة مع بطانية ووسادة، وكأن أحد ما قد ترك ذلك من أجلي. خلعت ملابسي المبللة، استلقيت على الأريكة، ونمت على صوت العاصفة وهي تضرب صخور الشاطئ هناك في الأسفل.

56 تغيير الأسطورة

استيقظت باكراً، ونظرت إلى السماء من خلال النافذة. كانت الشمس قد بدأت بالشروق. لم تكن هناك أية غيوم مرئية في السماء. على الرغم من الطقس الجميل كان يلح علي شعور مزعج، خجل بالتفكير بأن المغامر الذي جاب غابات الأمازون كان مهملاً، قام بعمل غير متقن ولم ينصب خيمته بشكل جيد فلم تصمد في وجه الريح والمطر. ارتديت ملابسي المبللة، وجرجت نفسي خارج الباب.

هب نسيم برّد ولطف الهواء، كان الأثر الوحيد الباقي من عاصفة الليل، مشيت بحذر عائداً إلى الحقل الصغير حيث نصبت خيمتي. عندما وصلت هناك، تجمدت مندهشاً. لقد اختفت الخيمة.

وقفت فاغر الفم مفتوح العينين، مفكراً فيما إذا كنت بطريقة ما أضعت طريقي. دائرة العشب الأصفر في بحر من الحشيش الأخضر الذي سوّته العاصفة بالأرض أخبرتني بغير ذلك. ربما سبقني أحد ما إلى هناك، وفك الخيمة. لكن من هو يا ترى؟ ولماذا؟ نظرت إلى الشاطئ هناك بعيداً في الأسفل. كانت العاصفة تحمل أمواجاً ضخمة وتضرب بها صخور الشاطئ. برز فجأة لوحان خشبيان ضيقان عليهما مغامران طموحان يركبان متن تلك الأمواج التي تتكسر على الشاطئ في هذا الجو العاصف. ثم شاهدت شيئاً ما في شجر التنوب قرب حافة المنحدر الصخري، كرة من النايلون، عرفت من لونها بأنها خيمتي.

أسرعت إليها، كانت على جوانبها، لكنها ما تزال مشدودة إلى الإطار. جذبتها بحذر باتجاهي إلى فوق بعيداً عن المنحدر الصخري. كانت الخيمة متمعجة لكن لم يلحق بها أضرار سوى انحناء بسيط في قضيب الألمينيوم كانت مغطاة بالطين. شرعت بنصبها مرة ثانية. لكن هذه المرة كنت أكثر حذراً معيراً انتباهاً أكثر إلى واقية المطر. عدت إلى البيت شاكراً لكوني لم أصادف أحد المشاركين الآخرين. وجدت إناءً، ملأته بالماء، حملته إلى الخيمة، وغسلتها من الوحل.

بعد أن انتهيت من تنظيف الخيمة تمشيت على طول الطريق في قمة المنحدر الصخري. امتزجت رائحة المطر برائحة خشب التنوب. وصلت إلى مقعد خشبي، وجلست. كانت الشمس من ورائي والمحيط أمامي. فكرت حول الضعف الخلقي الذي يقودنا إلى ارتكاب الآثام. بالطبع أول ما فكرت حول ضعفي أنا. كنت قد تجاهلت مفتاحاً رئيسياً من مفاتيح التخييم: ترقب دائماً الأسوأ، توقع عاصفة. كرجل اقتصاد مأجور وجدت أنه من السهل أن اتجاهل الحقائق خلف أسطورة مهنتي. كنت أخلق إمبراطورية بدلاً من جعل العالم أكثر تعقلاً، أكثر امناً، أكثر رحمة، كنت أخدم حكم تحالف أثرياء المال والشركات بدلاً من حل مشاكل الفقر.

من ثم فكرت حول الضعف الخلقي لمدير ميتسوبيشي التنفيذي. كان، مثل كثر آخرين، رفض أن يترقب عاصفة، أن يتوقع بأن نهب وسلب غابات المطر سيدمر بالنتيجة مستقبل أولاده. خمنت بأنه قد أقنع نفسه بأن عقلاً مبدعاً سيكتشف طريقة ما لتأجيل المعاناة على المدى الطويل - الطاقة الشمسية وطاقة الريح، سيارات تعمل على طاقة البنزين والكهرباء بالوقت نفسه، الزراعة بالماء المغذّى. إنه، كمعظمنا، يستطيع أن يجد الأعذار.

كنت أراقب كيف تتكسر الأمواج على صخور الشاطئ في الأسفل البعيد، فكرت كيف أن الناس الذين حضروا ورشات العمل لمنظمة تغيير الحلم، أو الذين انضموا إلى رحلتنا إلى الأمازون، بدوا أنهم ينظرون، كأمر مسلّم به، إلى أن مدراء الشركات التنفيذيين هم على أحسن الأحوال فاقدو الحس بالمسؤولية الأخلاقية، وعلى أسوأ الأحوال هم شريرون فاسدون. ثم إنه ليس هناك أي شيء يمكن لنا ان نفعله إلا أن نقبل إعلاناتهم ونقنع أنفسنا باننا نحتاج إلى المزيد من منتجاتهم. منظمة شبكة أعمال لحماية الغابات والمتطوعين الذين يعملون فيها كانوا يغيّرون الأسطورة. كانوا يطلبون من مدراء الشركات التنفيذيين أن يستخدموا تفكيرهم الإبداعي بحكمة وفي الوقت نفسه يجعلوننا نرى بأن هؤلاء المدراء ليسوا فاقدي الحس الأخلاقي، وليسوا أشراراً، إن الشركات الكبرى ليست كلية القدرة، ونحن لسنا عاجزين. كانوا يخبروننا - مدراءً وكل شخص آخر - بأنه يجب علينا أن نتحمل المسؤولية من أجل حياتنا ومن أجل العالم الذي سنتركه لأحفادنا.

عندما نهضت من المقعد، شعرت بالحيوية والنشاط. فتح لقاء حمّام المياه الساخن عينيّ على إمكانيات جديدة. ذلك اليوم واليوم الذي تلاه ركزت على الحديث مع الحضور الذين عملوا في شركات كبرى. كرجل اقتصاد مأجور كنت قد عرفت مثل هؤلاء الناس - لقد كنت واحداً منهم - وكنت قد علمتهم في ورش عملية، واختلطت بهم في حلقات دراسية وحفلات شراب. حقيقةً أنهم كانوا في هذا المؤتمر يشيرون إلى تفهمهم للطرق البديلة في العمل، لكنني كنت أحمل مجموعة من الأسئلة الأكثر تحديداً. أردت أن افحصهم بطريقة جديدة. إذا كانت الفرضية صحيحة بأن معظمهم أشخاص معقولون يرغبون بترك عالم أفضل لذريتهم ويرحبون "بالتدخل" في شؤونهم من قبل منظمات مثل منظمة شبكة أعمال لحماية الغابات، فهذا يحمل مضامين مذهلة.

تابعت فحص فرضيتي. بالإضافة إلى التحدث إلى مدراء الشركات، قرأت أيضاً دراسات قام بها آخرون. استنتجت بأنه كان يوجد بين المدراء شخصيات مَرَضية - أشخاص لا يقيمون أي تقدير أو اعتبار للحياة أو لسلامة أي شخص ما عدا أنفسهم - وكان عددهم ضئيلاً، ربما يعكس عدد هؤلاء الذين في المجتمع على وجه العموم. يهتم معظم المدراء بحماس حول عواقب أعمالهم وحول العالم الذي سيتركونه لأولادهم وأحفادهم. بينما قد يكون جزءاً من ثقافتهم المؤسساتية أن يخافوا من منظمات، كمنظمة راندي هايس، لكن في

أعماق قلوبهم يرحبون بهذه المنظمات. عندما تعلق منظمة كشبكة أعمال لحماية الغابات لافتات على المراكز الرئيسية لشركاتهم، يطلق هؤلاء المدراء تنهيدة ارتياح هادئة.

بعد فترة قصيرة من وصولي إلى تلك الاستنتاجات، صدمت بعدد من الأزمات الشخصية: أمراض في العائلة ووفاة والدي. قلصت من نشاطاتي إلى الرئيسية والهامة منها. رحلات إلى الأمازون وورشات عمل كان قد عيّن تاريخها من قبل. وضعت كل المشاريع الأخرى جانباً. ثم حدث 11 أيلول. بعد زيارتي إلى موقع الأبراج المهدمة ركزت على تأليف كتابي "اعترافات" وبعد النجاح الذي لاقاه الكتاب، قمت بجولات لإلقاء كلمات ومحاضرات. بعد أن حضرت ذلك المؤتمر لجمع تبرعات من أجل منظمة أعمال لحماية الغابات في 2006 بدأت أتأمل المضامين الأعمق لحملاتها ضد ميتسوبيشي وضد العديد من معاقل حكم تحالف أثرياء المال والشركات.

أدركت خلال تلك الرحلة بأننا إذا كنا نريد تغيير العالم الذي يحكمه حكم تحالف أثرياء المال والشركات، يجب علينا أن نغير الشركات الكبرى. كلما فكرت حول ذلك كلما ازددت اقتناعاً بأن راندي وموظفيه ومتطوعي المنظمة وضعوا أيديهم على جرح كبير. هذه الطوابير من الصفوف المحتجة أمام مراكز الشركات وهذه اللافتات المحمولة والمعلقة كانت المعادلة العصرية المساوية لصناديق الشاي التي قذف بها في ميناء بوسطن. فكان متوجباً عليك أن ترمي الشاي قبل أن تنتصر في معركة ساراتوجا.



57 الرأسمالية الجديدة

لم تكن منظمة شبكة أعمال لحماية الغابات نوعاً من المنظمات التي تُرْعب الشركات الأقوى في العالم. كان عدد موظفيها عام 2006 أقل من أربعين، وميزانيتها أقل من 4 ملايين دولار، كانت صغيرة بشكل مدهش إذا أخذنا بعين الاعتبار حجم العمل الذي كانت تقوم به. سافرت عدة مرات إلى سان فرانسيسكو، والتقيت بعدد من هؤلاء الناس بعد الانتهاء من إلقاء الكلمات.

التقيت بجيم كولين رئيس مجلس إدارة منظمة شبكات أعمال لحماية الغابات، سألته: عن نقطة ضعف حكم تحالف أثرياء المال والشركات، فأجاب: "قابلية تأثرهم بالضغط. نرى مرة بعد أخرى بانه بالإمكان إقناعهم بإدخال تغييرات كبيرة في سياساتهم". كان جيم يتكلم اليابانية بطلاقة، وهو من أوائل الغربيين الذين عملوا في طوكيو في مركز رئيسي لمؤسسة كانت حينذاك من أكبر المؤسسات الأمنية في العالم، تدعى نومورا. جاب العالم لمصلحة شركة مورغان ستانلي وبعد ذلك أسس شركة للاستثمار خاصة به. إنه يعرف ماذا يدور في عالم الشركات الكبرى.

تابع جيم: "لكي تقنعهم بالتغيير، يجب عليك أن تكون مرناً، تتكيف مع الوضع". وصف جيم شركة هوم ديبوت كمثال "كانت هوم ديبوت أكبر بائع للأخشاب في العالم، وكانت غير راغبة بالتعامل معنا. لذلك مارسنا عليها الضغط تدريجياً بواسطة مظاهرات أمام مراكز البيع وفي اجتماعات حاملي الأسهم. سَرَّب لنا صديق من داخل الشركة شيفرة نظام الاتصال الداخلي في المركز الذي يعمل به، اكتشفنا فيما بعد بأن أنظمة الاتصال الداخلي في المراكز الأخرى لها نفس الشيفرة. قام متطوعينا في أحد الأيام بإدخال الشيفرة وتشغيل أنظمة الاتصال الداخلي في مراكز الشركة وأعلنوا بصوت يسمعه كل من في هذه المراكز من متسوقين وغيرهم: "انتباه، متسوقي هوم ديبوت! أوكازيون على الأخشاب الموجودة في الجناح العاشر. إن هذه الأخشاب اقتطعت من الأمازون. قد توجد دماء مسفوكة على الأرض، الرجاء توخي الحذر. قطع هذه الأخشاب يؤدي إلى اقتلاع جماعات السكان الأصليين من أراضيهم، تعرية التربة، وتدمير الأرض". حالما استطعنا تنظيم حلفائنا الطلاب، كنا نستطيع أن نحدث نفس الشيء في ما يصل إلى 162 مركزاً للبيع في يوم واحد. ولك أن تتخيل! بدأ جرس الهاتف بالرنين في المركز الرئيسي لشركة هوم ديبوت في أتلانتا. من ثم طلبوا أن يتحدثوا معنا. بعد مفاوضات، وافقوا أن يتوقفوا عن بيع أخشاب من أشجار كبيرة معمرة وأخشاب من غابات معرضة لخطر الزوال، وقررت شركات أخرى مثل شركة لوس أن تنضم إلى هوم ديبوت في ذلك الاتفاق".

اعترف جيم: "إنني مع الرأسمالية، الشركات الكبرى هي أكبر قوى ديناميكية في عالم اليوم. لديها النفوذ والطاقة لتخلق التغيير. إنها مسؤوليتنا في جعل ذلك يحدث. إنني أؤمن بالفعالية والنشاط".

أشارت مجلة فورتشن إلى منظمة أعمال لحماية الغابات كـ "بعوضة في الخيمة" لأنها لم تخفّ في استهداف خصوم كبار. كان من بين الشركات الكبرى الأخرى التي أذعنت لمطالب المنظمة شركات كينكوس، ستابلس، بويس كاسكاد، سيتي كروب، بنك أوف أمريكا، جي بي مورغان تشيس، ماكدانوس، وغولدمان ساتشس.

عين راندي هايس مايك برون في عام 2003 لإدارة أعمال المنظمة اليومية، على الرغم من متابعة المؤسس نفسه لعمله بفعالية كبيرة كرئيس مجلس إدارة المنظمة. كان المدير التنفيذي الجديد يعمل سابقاً مديراً لحملات المنظمة الإعلانية، وقد أثبت براعة فائقة في وضع استراتيجية فعالة للمنظمة. شرح لي بأن الناس لا يستيطعون أن يدركوا كيف لمنظمة ميزانيتها فقط 4 ملايين دولار قادرة أن تقنع شركات ميزانيتها 100 بليون دولار أن تغير من سياساتها. قال مايك: "إننا جزء من حركة عالمية أكبر في النضال من أجل العدالة، جنود الخط الأول من أجل شبكة تنظيم واسعة لمنظمات بيئية متمتعة بحرية نسبية كبيرة من الحركة، مستثمرين مسؤولين اجتماعياً، فاعلي خير متنورين، ومتعاطفين مطلعين على بواطن الأمور. إنه يوجد كثير من المنظمات، كمنظمتنا، لديها أمل كبير بأننا نستطيع بشكل فعلي أن نغير شركة 'أمريكا المتحدة'". أنهى حديثه بابتسامة مشرقة واثقة.

سألته لماذا هو واثق إلى هذا الحد؟.

أجاب: "توجد أربعة أسباب تدعوني إلى الثقة. الأول، هو أننا على حق. في الواقع يعتمد اقتصادنا العالمي ومستوى حياة جميع البشر على مناخ متوازن مستقر، وازدهار وتنوع الكائنات الحية، وهواء وماء نظيفين. هذه جميعها حقوق إنسانية رئيسية. وكما تقول الملصقة على إحدى السيارات. لا توجد أية وظائف على كوكب ميت. السبب الثاني: إن المدراء التنفيذيين للشركات ومدراء الشركات العامين لا يستطيعون نكران هذا. بدأ العديد منهم يدرك - ببطء - بأنهم يستطيعون أن يكونوا جزءاً من الحل، وليس جزءاً من المشكلة. السبب الثالث: نحن نرى الشركات الكبرى كحلفاء محتملين: نعمل معهم، نشير إلى الحلول التي تخدم كلا الطرفين، نسدي لهم النصيحة لإيجاد حلول لسياساتهم ونحيي القيادة المسؤولة. رابعاً وأخيراً: إننا لن نستسلم. الغالبية العظمى من الجماهير تدعم الحماية البيئية، ومجموعات منظمة كشبكة أعمال لحماية الغابات ستضع هذه الشركات أمام مسؤولياتها".

المفتاح الهام هو فهم تفكير هؤلاء المدراء التنفيذيين. إليس هوغ، المديرة المالية العالمية لمنظمة شبكة أعمال لحماية الغابات ترعرعت في كنف والدها الذي كان يعمل سمساراً

للأسهم المالية، أخبرتني إليس: "ينسى الناس بأن الشركات الكبرى تتألف من كائنات إنسانية، الكثير منهم لديهم أولاد، وأنهم قلقون جداً حول المستقبل".

اتجهت منظمة أعمال لحماية الغابات إلى نشاط جديد مهم في عام 2006 عندما وضعت برنامجاً يدعى فورد الوثبة الأولى: هدفه هو تغيير الشركات غير المرتبطة أعمالها بتدمير الغابات بشكل عام. أشارت مديرة الحملة جنيفر كريل إلى أن "السيارات تستخدم النفط، كثير من النفط يأتي من مناطق الغابات. إلى جانب أن النفط هو المساهم الأول الأكبر في التغييرات المناخية، التي تؤثر في الغابات، وتؤثر فينا جميعاً". أرسلت هذه الحملة إشارةً بأن هدف المنظمة هو أوسع بكثير مما يعبر عنه اسمها.

لم يكن لدى كريل أدنى شك حول نتيجة مشروع فورد الوثبة الأولى. أعطت كل حملة من حملات المنظمة نتائج حقيقية ملموسة. قالت: "ليس السؤال هو إذا كنا سننجح أم لا، إنما السؤال هو هل سنفعله في الوقت المناسب".

الإجابة على هذا السؤال هو: لا، إذا لم نعترض طريق حكم تحالف أثرياء المال والشركات. طلبت لجنة الوسائل والموارد في الكونغرس من منظمة شبكة أعمال لحماية الغابات أن تقدم معلومات حول كل احتجاج كانت قد قامت به منذ عام 1993. جَسَّد طلب اللجنة العلاقة الحميمية بين الشركات الكبرى والكونغرس الأمريكي، هدف التحقيق إلى إلغاء استثناء المنظمة من دفع الضرائب. وفقاً لما قاله مايك براون، استجابت منظمته لطلب لجنة الوسائل والموارد استجابة كاملة: في 31 أيار 2005 سلمت المنظمة مئات الوثائق وأشرطة الفيديو، قال مايك: "كلفنا ذلك وقتاً كبيراً وأموالاً طائلة بالنسبة للمنظمة وحجمها" أكد ذلك هازاً رأسه بحزن "إننا مصممون على حماية المتبرعين للمنظمة من احتمال ملاحقتهم ومضايقتهم: لذلك حذفنا كل اسم وكل وجه من المواد التي سلمناها لهم. كان عملاً شاقاً. لكننا نريد أن نؤكد بأننا نؤمن بالنظام والقانون وفي الوقت نفسه لا ننوي أن نظهر بأننا مستضعفون، يسهل الاستقواء علينا".

سألته ماذا كان شعوره تجاه عمل لجنة الوسائل والموارد؟

توقف برهة ثم قال: "ماذا أشعر؟ من جانب، أغضبني عمل اللجنة كثيراً. كان من الواجب عليهم أن يلاحقوا الشركات التي تسيء استعمال السلطة والقانون، وليس مجموعات كمجموعتنا تحاول حماية ميراث أولادنا. من جانب آخر، آمل بأن ذلك سيفتح عيون الشعب الأمريكي على القوة والنفوذ اللذين نملكهما جميعاً، بشكلٍ خاص عندما نجتمع، وننظم أنفسنا. إن الكونغرس لا يلاحق منظمات غير ربحية صغيرة إلا إذا شعر أشخاص مهمون جداً في مركز سلطة المال والقرار بتهديد شديد مباشر".

في الأيام والأسابيع التي تلت اللقاء في سان فرانسيسكو أصبحت مدركاً بأن الكثير من الأشخاص المهمين يشعرون بخطر العديد من المنظمات غير الحكومية. إن حكم تحالف أثرياء المال والشركات ما يزال رسمياً يتحكم بالأمور، لكنه بدأ يدرك أن أيامه معدودة.



58 لائحة من المظالم

إن منظمة شبكة أعمال لحماية الغابات هي واحدة من المنظمات العديدة التي تكشف عدم حصانة ومناعة حكم تحالف أثرياء المال والشركات، وتثبت بأن هذا الحكم قابل للتغيير، وتؤكد على أن هذا التغيير سوف يحدث. ستصف الفصول التالية من هذا الكتاب الطرق الناجحة لعدد من هذه المنظمات غير الحكومية. لقد أجبروا شركات صناعية عملاقة على تنظيف أنهار ملوثة، منعوا طبقة الأوزون من تدمير الغلاف الجوي، عملوا على حماية كائنات حية مهددة بالانقراض، فتحوا أبوابهم للأقليات، حرّموا التمييز على أساس الجنس، ووضعوا سياسات أخرى واسعة المدى في المسائل الاجتماعية، البيئية، الحقوق المدنية، والقضايا الإنسانية. يمكن اتباع طرق أخرى مشابهة لتغيير الأهداف الأساسية للشركات الكبرى، لتحويلهم إلى مواطنين جيدين على الأرض يخدمون مصالح المجتمع والبيئة بدلاً من خدمتهم لأقلية أرستقراطية عالمية.

بعد بحث طويل ونقاش واسع، استنتجت بأن التغيير ممكن، إنه يحدث في طرق هامة جداً. إن الشركات الكبرى تذعن لإرادتنا. نملك القوة لكي نصل إلى هدفنا بإحداث تغييرات كبرى في المجتمع.

السؤال الثاني الآن، هو: هل نحن متأكدون بأننا نريد التغيير؟ لقد رأينا العواقب الوخيمة لأعمال رجال الاقتصاد المأجورين والعملاء وعواقب "الحل الأخير" للعسكريين في آسيا، وأمريكا اللاتينية، والشرق الأوسط، وأفريقيا، ونتذكر معاناة سكان المستعمرات من الظلم والعذاب بسبب سياسات بريطانيا. نسأل أنفسنا فيما إذا كان كل ذلك كافياً ليكون لنا دافعاً للقيام بالتحركات الضرورية.

قبل قيام الثورة الأمريكية، أدرك صحفيون مثل بنجامين فرانكلين، دعاة سياسيون مثل باتريك هنري، وكتاب تحريضيون مثل توم باين أهمية التعريف المحدد للأعمال الظالمة التي ارتكبت من قبل التاج البريطاني. ببساطة لم يكن هناك بديل عن تقديم أسباب قوية، بيانات، وإحصائيات. نتجت عن جدالهم لائحة طويلة من المظالم ضد الحكومة الملكية البريطانية. في النهاية أوجزت هذه المظالم في وثيقة إعلان الاستقلال، وكانت دافعاً قاد إلى التحرك بالإضافة إلى كونها صحيحة ومنطقية. توجد اليوم لائحة أطول من المظالم ضد حكم أثرياء المال والشركات إنها تُعرض لنا بشكل نظامي من قبل الصحافة (غالباً بشكل غير مقصود)، على الإنترنت، وفي أفلام وكتب. ملخصاً لأبرز هذه المظالم:

بسبب سياسات وأعمال حكم تحالف أثرياء المال والشركات...

- يعيش أكثر من نصف سكان العالم على أقل من دولارين في اليوم - حوالي الدخل الحقيقي نفسه الذي كانوا يعيشون عليه منذ 30 سنة.

- أكثر من بليوني شخص يفتقرون إلى الحاجات الأساسية للحياة متضمنة الكهرباء، والماء النظيف، والطبابة والصحة العامة، وسندات ملكية الأرض، وخدمة الهاتف، وشرطة حفظ الأمن والنظام، والحماية ضد الحريق. تصل نسبة المشاريع الفاشلة من مجموع المشاريع التي يدعمها صندوق النقد الدولي إلى 55 – 60٪ (وفقاً لدراسة قامت بها اللجنة الاقتصادية في الكونغرس الأمريكي).
- إن كلفة خدمة دين العالم الثالث هي أكبر من كل ما ينفق في العالم الثالث على الصحة والتعليم، تقريباً ضعف المبلغ التي تستلمه سنوياً هذه البلدان كمساعدات أجنبية. بغض النظر عن الادعاء والكذب بإعفاء هذه البلدان من تلك الديون فإن ديون العالم الثالث تنمو، وتزداد كل سنة، وهي تقترب الآن من 3 تريليون دولار. هذه أرقام لا تبشر بخير. خلال عام 1996 في دورة "الإعفاء من الديون" التي عقدتها مجموعة السبعة الكبار، وصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي أعلن عن إلغاء ما يصل إلى 80٪ من ديون البلدان الفقيرة الأكثر مديونية، لكن ما بين عام 1996 وعام 1999 زاد مجموع المبالغ المدفوعة من قبل هذه البلدان كخدمات دين بنسبة 25٪ أي من 88.6 تريليون دولار إلى 114.4 تريليون دولار.
- تَحوّل فائض التجارة للدول النامية البالغ بليون دولار في السبعينات إلى عجز يقدر بـ 11 مليون دولار في بداية الألفية الجديدة، وهذا العجز في ازدياد.
- التمركز الكبير للثروة في العالم الثالث الآن والذي فاق حقبة السبعينات التي جرى فيها تطويرا واسعا للبنى التحتية وحقبة التسعينات التي شاهدت موجة واسعة من الخصخصة. يملك الآن 1٪ فقط من العوائل في كثير من البلدان أكثر من 90٪ من مجموع الثروات الخاصة.
- تبسط الشركات فوق القومية سيطرتها على نسبة عظمى من إنتاج وتجارة البلدان النامية. مثال: تتركز40٪ من تجارة القهوة العالمية في أيدي أربع شركات وتحتكر30 شركة من الشركات التابعة، التي تملك سلسلة مراكز بيع، ثلث مبيعات البقالة في العالم تقريباً. تتحكم حفنة من شركات النفط وشركات استخراج الموارد الأخرى ليس بالأسواق فقط بل أيضاً بحكومات البلدان التي تحتوي على هذه الموارد.
- وصل طمع الشركات إلى حدود مذهلة من الوقاحة عندما أعلنت شركة إكسن موبل تحقيق رقم قياسي جديد من الأرباح البالغة 10.4 بليون دولار في الربع الثاني من عام 2006 . كان ثاني أكبر ربح تعلن عنه حتى الآن شركة أمريكية، وقد تجاوزته فقط شركة إكسن إذ حققت 10.7 بليون دولار في الربع الأخير من عام 2005، وقد سبب ارتفاع أسعار النفط في كلتا السنتين معاناة شديدة بين فقراء العالم. وتتلقى شركات النفط

معونات حكومية عالية من خلال الإعفاءات الضريبية، والاتفاقات التجارية، وقوانين العمل والبيئة الدولية المحابية لها.

- إن الحصة التي تدفعها الآن الشركات الأمريكية من مجموع الضرائب الفيدرالية هي أقل من 10٪، التي كانت21 ٪ في عام 2001 و أكثر من 50٪ خلال الحرب العالمية الثانية. إن ثلث أكبر الشركات الأمريكية وأكثرها ربحاً لم تدفع أية ضريبة على الأقل في إحدى السنوات الثلاث الأولى من الألفية الجديدة. وفي عام 2002 وفرت الشركات الأمريكية 149 بليون دولار باختيارها دول محمية من دفع الضرائب مثل إيرلندا، وبرمودا، ولوكسمبورغ، وسنغافورة.
- من الاقتصاديات المائة، التي تعتبر الأكبر في العالم، تشكل الشركات واحد وخمسون منها، وسبعة وأربعون من هذه الشركات هي شركات أمريكية.
- يموت كل يوم على الأقل 35000 طفل قبل أن يبلغوا الخامسة من العمر بسبب الجوع أو أمراض يمكن تجنب وقوعها.
- تظهر الولايات المتحدة والعديد من الدول التي تصفها واشنطن بالديمقراطية الخصائص اللاديمقراطية التالية: احتكار الإعلام من الشركات الضخمة والحكومة؛ ويدين السياسيون بالفضل لمتبرعي حملاتهم الانتخابية الأثرياء، وتضمن السياسات الموضوعة "خلف الأبواب المغلقة" حجب المعلومات حول القضايا المفتاحية عن الناخبين.
- عندما أقرت الجمعية العمومية للأمم المتحدة في عام 1997 الاتفاقية الدولية لحظر الألغام الأرضية بـ 142 صوتاً مقابل لا شيء، امتنعت الولايات المتحدة عن التصويت. رفضت الولايات المتحدة التوقيع على اتفاقية 1989 الخاصة بحقوق الطفل، والمعاهدة الدولية لمنع انتشار الأسلحة البيولوجية، واتفاقية كويوتو، والمحكمة الجنائية الدولية.
- وصل الإنفاق العسكري العالمي في عام 2006 إلى رقم قياسي جديد أعلى من 1.1 تريليون دولار، نصيب الولايات المتحدة منه حوالي النصف (بمعدل 1600 دولار لكل مواطن أمريكي).
- أتى ترتيب الولايات المتحدة في حرية الصحافة في المرتبة الـ 53 في عام 2006 مقارنةً بالمرتبة 17 في عام 2002 وقد انتقدت بشدة منظمة (صحفيون بلا حدود) والمنظمات غير الحكومية الأخرى الولايات المتحدة بوضعها القيود على الصحافة وبتهديدها الصحفيين وسجنهم.
- الدَين الوطني الأمريكي (مقدراً بالأموال المدينة بها حكومة الولايات المتحدة الفدرالية إلى الدائنين الذين يملكون سندات على الخزينة الأمريكية) هو الأكبر في العالم، وصل في آب عام 2006 إلى 8.5 تريليون دولار أو 28500 دولار لكل مواطن امريكي، كان يزيد بمبلغ 1.7 بليون دولار كل يوم. تملك البنوك المركزية اليابانية والصينية وأعضاء في

الاتحاد الأوروبي النسبة الأكبر من هذا الدين، واضعاً هذا، الولايات المتحدة في موقع ضعيف غير محصن تجاه هذه الدول.

- الدين الخارجي الأمريكي (مجموع الدين العام والخاص، المستدان من غير المقيمين، والقابل للوفاء بعملات أجنبية، بضائع، أو خدمات) هو أيضاً الأكبر في العالم، قدر في عام 2005 بحوالي 9 تريليون دولار. (جدير بالملاحظة بأن الولايات المتحدة تستخدم الدين الوطني والخارجي للبلدان الأخرى كأسلحة، مجبرة حكومات تلك الدول للإذعان لمطالب حكم تحالف أثرياء المال والشركات مهددة إياها بمواجهة الإفلاس، عقوبات اقتصادية، وشروط قاسية تُفرض من صندوق النقد الدولي، مع ذلك نجد أن الولايات المتحدة هي الدولة المدينة الأكبر في العالم).

إن هذه اللائحة الجزئية من المظالم لا تترك أدنى شك بأنه يجب علينا أن نستخدم كل الوسائل التي تحت تصرفنا لإنجاز التغيير. هذه المظالم هي دافعنا للتحرك. بالإضافة إلى أنها أيضاً مبنية على المنطق والعقل. من أجل تعديل هذا الواقع البغيض للعالم الذي خلقه حكم تحالف أثرياء المال والشركات. وفي جوهر وقلب كل مظلمة نجد حكم تحالف أثرياء المال والشركات. إننا بتغيير هذا الحكم الجائر سنغير العالم.

يجب الإصرار على النضال لكي تصبح الشركات الكبيرة ديمقراطية وشفافة. لن نقبل بعد الآن الرأسمالية الإمبريالية حيث تتحكم حفنة من الأثرياء في كل القرارات وبمعظم الأموال، ويفعلون ذلك إلى حد كبير في السر. سنطالبهم بالموافقة والرضوخ لتلك المبادئ التي نؤمن بها لكي تكون بينة على أنفسهم كما وردت في وثائقنا الأكثر قداسة. سنطالبهم بتطبيق مبادئ العدالة، المساواة، الرحمة الإنسانية، ولكي يتحملوا مسؤولياتهم في تأمين السلام والاستقرار والعدالة الاجتماعية من أجل الأجيال المقبلة. ندرك بأننا نعيش في مجتمع عالمي صغير يجب على الشركات الكبرى فيه أن تضع أهدافاً جديدة تعكس هذا الواقع. بدلاً من تكديس الثروة بأيدي القلة يجب عليهم أن يهتموا بمستخدميهم حتى بعد التقاعد، يخدمون زبائنهم، ويعتنون بأولئك الذين يمدونهم بالموارد التي يستخدمون. أولئك الذين يحفرون المناجم، ويزرعون، ويجنون، وينسجون، ويصهرون المعادن، ويعملون في المصانع، ويخيطون الملابس، ويُرَكِّبون ويجمعون. ويجب عليهم أن يعملوا على حماية المجتمع والبيئة حيث يعيش جميع هؤلاء الناس.

تتطلب أيضاً هذه العملية أن نحترم أوجه طبائعنا تلك التي تترافق مع الأنوثة، ونرفض فكرة أن هذا العالم هو "عالم الرجل" انضمت الكاتبة رينيه إيسلر، مؤلفة الكتاب الأكثر مبيعاً في أمريكا "كأس القربان والسيف" إلى عدد من الباحثين في تحليل المعايير مقارنة بين أوضاع النساء والأوضاع التي تتصل بمستوى معين من الحياة. استنتجت الدراسة، معتمدة على

إحصائيات جمعت من 98 دولة، بأن أوضاع النساء هي مؤشر أفضل لمستوى الحياة العامة من مؤشر الإنتاج الوطني.

في كتابها "الغنى الحقيقي للأمم" تقول الدكتورة إيسلر التالي: "في المجتمعات التي تكون فيها أوضاع النساء جيدة. ويؤلفن تقريباً نصف الحكومة، مثل الدول الاسكندنافية، تعطى أولوية الإنفاق المالي للسياسات التي تعتني بالإنسان مثل الطبابة والصحة العامة، العناية الفائقة بالطفل، والثقافة الموجهة للآباء، وإجازات أمومة وأبوة مدفوعة الأجر بسخاء... عندما تتميز النساء بأوضاع ونفوذ عاليين فإن الأمة بشكل عام تتمتع أيضاً بمستوى حياة أفضل، وعندما تتدنى أوضاع النساء فإن مستوى حياة الجميع يتدنى أيضاً. يجب علينا أن ندرك بأن عيشنا يعتمد على قدرتنا بأن نكون رحماء. يجب علينا أن نكون رعاة مهتمين ومحبين".

إن كوكبنا الصغير، مثل الباخرة تايتانك، يغرق بسرعة. لكنه يختلف عنها بأنه لا يحتوي عدة قوارب نجاة، إن كوكبنا لا توجد عليه أية قوارب للنجاة. لقد دفعت أقوى مؤسساتنا وشركاتنا الكبرى بالقارب إلى جبل الجليد: والآن يجب عليهم أن يتحملوا مسؤولياتهم، ويشغلوا المحركات، وينتزعوا القارب خارجاً بعيداً عن جبل الجليد، ويضعوه في وجهة سير جديدة صحيحة.

نحن أيضاً يجب علينا التحرك في الاتجاه الصحيح، الاتجاه المنطقي العملي. يجب علينا أن نرفع أصواتنا، ونطالب الشركات بأن تصبح ديمقراطية وشفافة.

قبل أن نتكلم عن القضايا التي تتعلق بتوحيد المبادئ، وماذا يستطيع كل مبدأ أن يفعل، والأعمال التي نستطيع مباشرتها كأفراد وكجماعات، من الهام أن نتكلم عن الحاجز الذي يمنع الكثير منا سؤال تلك الأسئلة. واجهت هذا الحاجز بينما كنت أحضر مؤتمراً على جزيرة في المحيط الأطلسي. اكتشفت كم حكم تحالف أثرياء المال والشركات مؤثر في كبت ومنع معارضيه من الكلام، وذلك بنشر الخوف في المنظمات عينها التي هي في أفضل الأوضاع لتغييره.



59 مواجهة خوفنا

خلال تلك المرحلة في عام 2006 عندما كنت أكتشف تأثير المنظمات غير الحكومية على الشركات الكبرى، انضممت إلى مجموعة مؤلفة من ثلاثة وعشرين رجلاً وامرأة واحدة في جزيرة مارثاس فينيارد وذلك في لقاءات استمرت عدة أيام. أعتقد بأن النقاشات كانت صدى لتلك المناظرات التي ثارت في المستعمرات البريطانية في أمريكا خلال السنوات التي سبقت الثورة. كانت عدة مستعمرات ترتعب من البريطانيين، عارضوا مع أولئك "الموالين" أو "المؤيدين" لبريطانيا القيام بأي تحرك ضد التاج. قالوا منذرين: "إن الإمبراطورية البريطانية كبيرة جداً، قوية جداً، أية مقاومة ضدها ستكون مجرد عبث، وسنخسر أية حرب نقوم بها وبالنتيجة سنحاكم بتحدينا لها".

إن جلسات تلك اللقاءات من عام 2006 على ساحل ماساتشوستس كانت مبشرة بالخير والنجاح، كانت نوعاً ما صورة مصغرة عن عالم اليوم الكبير.

كانت فينيارد يوماً موطناً لأسطول صيد الحيتان وأصبحت في القرن الثامن عشر مساوية للشرق الأوسط والأمازون اليوم - مصدراً رئيسياً للنفط، للصناعات الأمريكية وللبيوت. ومثل صحارى وغابات اليوم، تراجع عدد الحيتان بشكل كبير. قاد اكتشاف البترول قرب بنسلفانيا الذي أمّن بديلاً أرخص إلى هدم صناعة النفط في أماكن وجود الحيتان. حازت الجزيرة مؤخراً على شهرة كموطن لعائلات كندي وكلينتون، وممثلين، وكتاب، وموسيقيين. وكانت موقعاً لتصوير فيلم "الفك". عند الوقت الذي وصلت فيه إلى الجزيرة في عام 2006 كانت أيضاً انعكاساً لعدم التوازن البيئي الشائع في عالمنا اليوم. أدى كثرة عدد الأيائل في الجزيرة إلى اكتساحها بمرض الغدة اللمفاوية حاملاً معه حشرة تعيش على مص دماء الأيائل. أخبرت بأن عدوى المرض قد أصابت العديد من سكان الجزيرة. ونتيجة ذلك أنذرنا بأن لا نتمشى خلال الأراضي الخضراء المورقة أو الغابات الساحرة، و"الأفضل أن تشاهد تلك المناظر، وأنت جالس في سيارتك المكيفة".

مثلت معظم المؤتمرات الثلاثة والعشرين منظمات غير ربحية، التي استلمت تبرعات من المضيفين، محسنين أثرياء. لقد كرست المؤتمرات لحماية البيئة، الكائنات الحية المهددة بالانقراض، حقوق الإنسان وقضايا تتعلق بالصحة وحقوق المرأة.

طلبت في مناسبات عديدة من المشاركين أن يكرسوا بعض جهودهم للضغط على الشركات الكبرى لتحسين سياساتها، وكنت أضرب مثلاً على ذلك ما تقوم به منظمة شبكة أعمال لحماية الغابات. ذهلت بالإجابات التي تلقيتها:

"لا يمكن الوثوق بالمدراء التنفيذيين".

"لنبتعد عن عالم الشركات، لأنه عالم فاسد إلى حد كبير".

"تملك الشركات قوة ونفوذاً كبيرين، لن تجدي جهودنا نفعاً، سنخسر، وقد نعاقب".
"إن هذا النوع من النشاط خطير جداً، فالأفضل عدم المخاطرة".

قلت: "انظروا، كل شخص منكم مشغول بعمل مهم جداً، لكن، بطريقة ما، أنتم تعملون كمجموعة، إذا لم نبدأ بمعالجة المرض، السبب الرئيسي، فكل المجموعات المساعدة في العالم لن تستطيع إنقاذنا. أنتم على حق أن تحموا أنفسكم من فساد هذه الشركات، لكن بحق الله، تعاملوا معهم، ضعوا استراتيجية معينة".

تحدثت منى كادينا نائبة مديرة المنطقة الشرقية في منظمة العفو الدولية فقالت: "نحن في منظمة العفو الدولية موافقون. إن أعضاء منظمتنا يبلغون 1.8 مليون عضو في 150 بلداً. نعرف قوة ونفوذ الشركات. في الواقع، نشتري أسهماً في بعض أسوأ هذه الشركات انتهاكاً للبيئة وللإنسان. نشتري فقط بقيمة تخولنا حضور الاجتماعات وعرض حلول واقتراحات تتطلب من الشركات تبني سياسات حقوق الإنسان في كل بلد تعمل فيه".

استعداد منى على الكلام بجرأة منحني الشجاعة.

بعد ذلك، بينما كنا جالسين قرب النافذة المطلة على بحيرة ضخمة مالحة انفصلت عن المحيط الأطلسي بحاجز رملي صغير، تحدثت منى حول توني كروز، منسق أعمال منظمة العفو الدولية للشركات في كاليفورنيا، لقد دفع للمشاركة في النقاش وجهاً لوجه في اجتماعات حاملي الأسهم، كل من مؤسسي غوغل سيرجي برين ولاري بيج، ورئيس "ياهو" تري سيمل والمؤسس جيري يانغ، مصراً على أن تمتنع هذه الشركات عن مساعدة كبت حرية التعبير في الصين. بالإضافة إلى ذلك، شارك أكثر من 40000 ناشط بأعمال ضد هذه الشركات من خلال الإنترنت. تنهدت منى قائلة: لم نستطع أن ندفع أي من هذه الشركات إلى الآن إلى أخذ مواقف فعالة. لكننا أعددنا مقالة في مجلة العمل الأسبوعي وأحاديث على الهواء في بعض محطات إذاعة ايه بي سي. إننا على يقين بأن جهودنا لن تذهب هباءً. الضغط يولد النتائج".

بعد عدة أيام، عندما اتصلت بميلا روز مديرة برنامج العمل وحقوق الإنسان في منظمة العفو الدولية، أخبرتني على الهاتف بأن "منظمة شبكة أعمال لحماية الغابات قامت بعمل عظيم، إن عملهم فيه كثير من التحدي. يجب عليهم أن يجبروا الإدارة على قبول قيود محددة في قطع الأشجار. تظن بأن طريقة عملنا باستخدام حلول واقتراحات حاملي الأسهم أسهل، وأن الشركات سترى بأن التعهد باحترام حقوق الإنسان ينفع الجميع. لكن مازالت تعترضنا مقاومة شديدة. اكسن موبل هي حالة وثيقة الصلة بموضوعنا، وتوضح مدى الجهود الواجب بذلها بإصرار وعناد...".

إن هذه الشركة العملاقة، شركة الطاقة الكبرى على هذا الكوكب، راكمت سجلات حافلة بانتهاكات حقوق الإنسان في الكثير من البلدان. ركزت منظمة العفو الدولية على كل من

الكاميرون، تشاد، نيجيريا، وأندونيسيا. تابعت ميلا تقول: "رأينا كيف أن اكسن موبل قاومت بعناد الجهود من أجل جعلهم يقومون بتنظيف ما لوثوه، غمر أعضاء منظمتنا رؤساء هذه الشركة ببطاقات بريدية، ونظمنا السهرات، والمحاضرات، والاحتجاجات. أرسلنا بطاقات في عيد الحب نطلب منهم أن يملكوا قلباً يحس بحقوق الإنسان. شكلنا تحالفات مع حاملي الأسهم الآخرين الذين يشاركوننا تفكيراً مشابهاً".

جنباً إلى جنب مع منظمات اتحاد العمال والمؤتمر الصناعي الأمريكي، ونظام تقاعد المعلمين لمدينة نيويورك، وإدارة الموجودات العامة في بوسطن، والتحالف الصناعي، والاتحاد العالمي لنقابات عمال الطاقة والكيمياء، ومركز العهد المتبادل للمسؤولية المشتركة، وإدارة والدن للموجودات، طلبنا من اكسن موبل "أن تتبنى وتنفذ سياسة واسعة في أماكن العمل، تتفق مع حقوق الإنسان، مبنية على إعلان 1998 لمنظمة العمل الدولية، الذي وضع المبادئ الأساسية للحقوق في مكان العمل، وتحضير تقرير يكون في متناول حاملي الأسهم المهتمين بتطبيق هذه السياسة". بعد تقديم الاقتراح، اجتمع التحالف مع موظفي الشركة. وافقت اكسن مويل أن تضيف عبارة على تقرير المواطنية تدعم فيها إعلان مبادئ منظمة العمل الدولية.

في عام 2004 في الاجتماع السنوي لحاملي الأسهم، أنذر تشيب بيتس، الذي كان حينذاك رئيس مجلس إدارة منظمة العفو الدولية، أن أعضاء التحالف سيحملون الشركة المسؤولية عن وعودها.

اعترفت لي ميلا: "لم نحصل على كل ما أردناه، لكنها كانت بداية جيدة، تعلمت منها منظمتنا بشكل كبير. سنغير تلك الشركات ـ واحدة بعد أخرى".

أصبت بإحباط بداية الاجتماع الذي حصل على جزيرة مارثاس فينيارد، لأنني رأيت أن الكثير من الحضور كان قد استسلم للتخويف الذي تمارسه الشركات. مع ذلك ازداد تقديري كثيراً لمنظمة العفو الدولية والمنظمات الأخرى التي، مثل هؤلاء الأمريكيين في معركة بانكرهل، واجهوا خوفهم وذلك بوقوفهم في وجه الشركات الكبرى، وألهمونا جميعاً. عرفت بأن سماع منى وهي تتكلم بجرأة وثقة يجب أن يكون قد أقنع واحداً أو اثنين من هؤلاء المحافظين لكي يملكوا الشجاعة للتحرك إلى أبعد.



60 تغيير وول ستريت من خلال الضغط المالي

"أعادت منظمات عائلة 'إلى الأمام' أمريكيين حقيقيين إلى العملية السياسية. بتعدادنا البالغ ما يزيد عن 3.3 مليون عضو على امتداد أمريكا من نجارين إلى أمهات ربات منازل إلى قادة عمل ـ نعمل معاً لكي ندرك الرؤية التقدمية لمؤسسي بلدنا. 'إلى الأمام' هي خدمة ـ طريقة لمواطنين مشغولين ليس لديهم الوقت لكنهم مهتمون يبحثون عن صوت سياسي لهم في نظام هيمن عليه المال الكبير والإعلام الكبير".

— من موقع "إلى الأمام" على الإنترنت

في إطار شن حملة إعلامية كردٍ على "التبديد السخيف لنشاط أمتنا" على إجراءات عزل الرئيس كلينتون في أيلول 1998، نظم مؤسسو 'إلى الأمام' جوان بلادس وويس بويد عريضة على الإنترنت من أجل "لوم وتقريع الرئيس كلينتون والتحرك إلى القضايا الملحة..." وقع العريضة مئات الألوف في الأيام القليلة الأولى. منذ ذلك الحين، استخدمت "إلى الأمام" الإنترنت كمنبر لحرية التعبير. من جملة حملاتها تناضل "إلى الأمام" من أجل:

- وقف الإبادة الجماعية في مناطق النزاعات.
- إصدار قوانين تقضي بوضع سجلات ورقية على آلات الاقتراع.
- تأسيس تمويل شعبي عام للحملات السياسية وإنهاء اعتماد المرشح على تبرعات الشركات.
- تحريم التعذيب في الأماكن التي تحت سيطرة الولايات المتحدة.
- جعل الأسقف الشمسية لتوليد الطاقة جزءاً من سياسات لجنة الخدمات العامة.
- العمل على زيادة شعور الناس بخطر التهديد الأمريكي باستخدام "الخيار النووي". حماية الضمان الاجتماعي.
- منع المزيد من احتكار الإعلام بيد بضع شركات.

قال المدير التنفيذي لمنظمة "إلى الأمام" إيلي باريسير: "إن الناس ليسوا فاتري الهمة وغير مبالين ـ إنهم فقط يفهمون بأنه من الصعب وحدهم أن يكون لهم تأثير كبير، لذلك فإن "إلى الأمام" تعمل على إسماع واشنطن صوت الناس. معاً نستطيع، حتى أن نباشر القتال ضد شركات النفط والأدوية وحلفائهم في واشنطن ـ لوضع سياسة تخدم الجميع وليس فقط بضع شركات كبيرة.

ولدّت منظمات شبكة أعمال لحماية الغابات، والعفو الدولية، وإلى الأمام، تغييراً من خلال: الاحتجاجات، والاجتماعات الجماهيرية، ومسرح الشارع، وتعليق اللافتات، وإعلانات الصحف، وإرسال البطاقات البريدية لرؤساء الشركات، وقرارات حاملي الأسهم، والخطب، ورسائل إلى محرري الصحف، وحملة اتصالات إلى النواب السياسيين، وعرائض من خلال

الإنترنت، وطرقاً متنوعة أخرى لجلب الانتباه لأهدافهم، ومن أجل أن يعرف حكم تحالف أثرياء المال والشركات متى تكون أعماله مقبولة. إنهم في جوانب عديدة يدينون بنجاحاتهم إلى قادة أمريكيين أفارقة.

إن الأمريكيين الأفارقة قادوا، أكثر من أية مجموعة أخرى، الاحتجاجات السلمية. بدأت حملة احتجاجاتهم قبل الحرب الأهلية بزمن طويل واستمرت في الأوقات الحديثة من خلال مؤتمر قيادة المسيحيين الجنوبيين، والاتحاد الوطني التقدمي للملونين، ومن خلال العديد من حركات الحقوق المدنية الأخرى. إن قصة العبودية في الولايات المتحدة الأمريكية والكفاح من أجل إنهائها، والحصول على حقوق المساواة لسلالات أولئك العبيد هي قصة ضخمة، مقلقة، غير مشجعة، وقصة ملهمة في وقت واحد. بينما يعلم معظمنا حول الطريقة التي بدأت فيها الحركة "العصيان المدني"، لكن القليل فقط هم المطلعون على قيادة هذه الحركة باستخدام وول ستريت كأداة لتحويل حكم تحالف أثرياء المال والشركات. إن الأمريكيين الأفارقة لهم الفضل ليس فقط بكونهم مثالاً يحتذى في استخدامهم الاحتجاجات، والاجتماعات الجماهيرية، بل أيضاً لهم الفضل بدورهم في إدراك قوة النفوذ المالي واستخدامه. لقد رسموا اتجاهاً اتبعته المنظمات غير الحكومية.

في عام 1996 تسربت اتهامات بأن مستخدمي شركة تكسكو يطلقون عبارات تمييز عنصري موجهة ضد الأمريكيين الأفارقة. أعلن القس جيسي جاكسون مقاطعة فورية لشركة تكسكو. اتصل بصديقه كارل ماكول مراقب النفقات والحسابات في ولاية نيويورك، وطلب منه أن ينضم إلى صفوف المضربين. أجابه ماكول "جيسي، عندما تملك مليوني سهماً عليك أن لا تُضرب". لكن ماكول وبكونه يتحكم باستثمارات نيويورك أدرك أنه في وضع يستطيع معه أن يفعل شيئاً، ويضغط على الشركة. كتب رسالة حادة إلى رئيس شركة تكسكو، بيتر بيجور، موضحاً قلقه حول سياسات الشركة تجاه المستخدمين من الأقليات. في النهاية، دفعت تكسكو 176 مليون دولار مصالحة خارج المحكمة وتعهدت بزيادة سخية في الرواتب لمئات من مستخدميها الأمريكيين الأفارقة.

نجاح هذه الحملة أقنع جاكسون بتأسيس مشروع وول ستريت، وسيلة مالية لاستخدام ملكية الأسهم بطرق إبداعية فعالة، وأيضاً من أجل رفع الوعي بين حاملي الأسهم الأمريكيين الأفارقة. باستخدام هذه الاستراتيجيات أقنع جاكسون وزملاؤه كوكاكولا، سفن إلفن، شونيس، كورس، وشركات عملاقة أخرى بتغيير سياساتها.

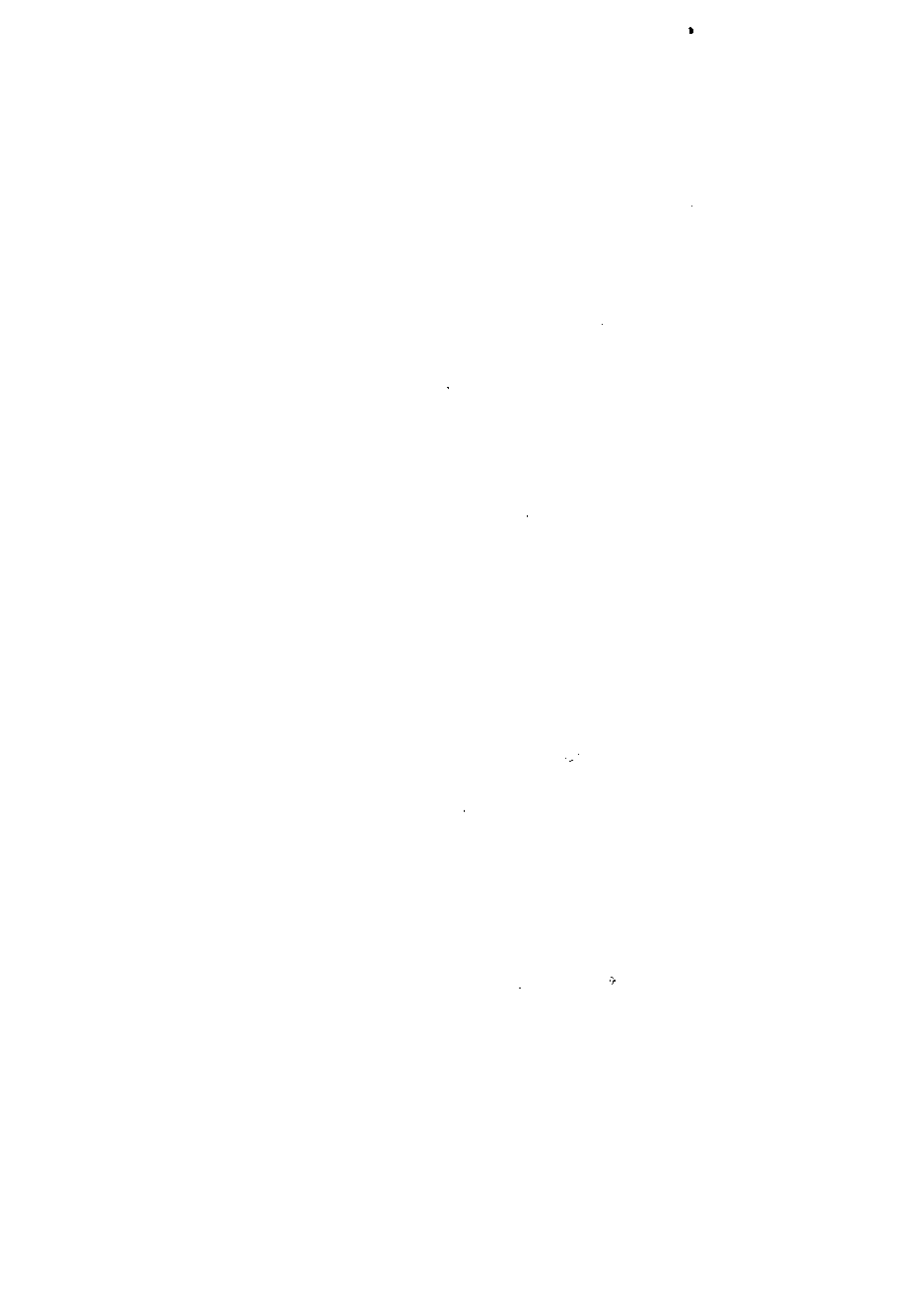
شرح جاكسون: "عندما تحضر اجتماعاً كمساهم، تملك الحق في الكلام... لقد تحولنا من مستثمري أسهم إلى مالكي أسهم".

تبنى مستثمرون آخرون أيضاً هذه السياسة. مجموعة من حاملي الأسهم الذين لديهم حس المسؤولية الاجتماعية، غالباً ما يضغطون على منظمات مانحة، ومؤسسات مشتركة

لكي تقف بقوة في مواجهة الشركات الكبرى، التي ترفض تبني سياسات تؤدي إلى حماية البيئة وحقوق الإنسان. عندما كنت أسافر حول الولايات المتحدة كنت مراراً أصادف مقاومة طلاب الجامعات لشركات مختلفة. كان الطلاب في كثير من المدن الجامعية ساخطين بشكل خاص حول المزاعم التي تقول بأن شركة كوكاكولا تسيء معاملة مستخدميها في بلدان أخرى، تضمنت هذه الاتهامات استئجار الشركة عملاء لتخويف وقتل قادة النقابات في كولومبيا.

في تموز عام 2006 رفضت مؤسسة حساب الضمان الاجتماعي التي تبلغ ميزانيتها 8 بليون دولار تمويل شركة كوكاكولا. هربرت اليسون رئيس هذه المؤسسة التي تقوم بتمويل برامج تقاعدية في الحقول الأكاديمية، والطبية، والثقافية، أعلن ذلك في الاجتماع السنوي لتمويل أسهم التقاعد الجامعي. أدى هذا إلى تجريد كوكاكولا من 1.2 مليون سهم. الأسباب التي دعت مؤسسة تمويل أسهم التقاعد الجامعي إلى ذلك التحرك تمركزت حول عدم التزام كوكاكولا في حماية حقوق العمال في مراكز تعبئة منتجات الشركة الموجودة خارج الولايات المتحدة، وتسويق منتجات الشركة الغازية واستهدافها الأولاد، وقضايا بيئية تدور حول استعمال المياه.

طرقاً مختلفة تماماً لاستخدام الضغط المالي أبدعتها منظمات غير ربحية تعمل مع قبائل في أعماق الأمازون.



61 شراء ديون العالم الثالث

تشكلت منظمة اتحاد الباشاماما كنتيجة لبعثة 1994 التي قدتُها إلى الأمازون. تبرع المشاركون في اليوم الأخير من الرحلة بـ 118000 دولار، لمساعدة قبائل الأمازون في الدفاع عن أراضيهن ضد شركات النفط. بل تويست، زوج لين تويست جامعة الأموال لدعم المنظمات غير الربحية، الذي رافقني إلى غواتيمالا، تطوع لإدارة تلك الحملة وأصبح رئيساً نشيطاً جداً لمجلس إدارة المنظمة. بحلول عام 2006 كانت تجمع الباشاماما حوالي 1.5 مليون دولار كل سنة. اشترت أجهزة إرسال واستقبال وطائرة وبذلك يستطيع السكان الأصليون التغلب على العقبات التي تعترض اتصالاتهم واجتماعاتهم ببعضهم البعض. كلفت محامين لإقامة إجراءات قانونية ضد شركات البترول التي تتعدى على أراضي السكان الأصليين. أقامت ورشات عمل للتعليم وأنتجت أفلاماً لتنوير وتمكين الشعب في الولايات المتحدة للنضال من أجل التغيير. ثم استهلّت خطة لم يسبق لها مثيل.

سألني بل تويست ذات يوم بينما كنا نرحل سوية خلال أدغال الأمازون في الإكوادور: "ماذا لو أننا حافظنا على هذه الغابات قائمة، وليست مقطوعة . لنتخلص من قروض الإكوادور الأجنبية؟"

جلسنا على جذع شجرة في يوم مشمس إلى جانب شجرة سيبا عملاقة، تميل جذورها الضخمة من ساقها إلى الأرض مثل أنصاف القناطر الداعمة لجدران كاتدرائية أوروبية من القرون الوسطى، تحدثنا حول حقيقة أن غابات المطر هذه هي حيوية وهامة بالنسبة لنا جميعاً: تمتص ثاني أكسيد الكربون، تطلق الأوكسجين، تؤثر في المناخ العالمي، تولد ماءً عذباً، تحتوي على ملايين الأنواع من النباتات، والحيوانات، والحشرات، والطيور، والأسماك، ويمكن لأزهارها أن تقدم الشفاء للسرطانات، والإيدز، وأمراض أخرى. ناقشنا الدين الخارجي للإكوادور الذي يعتبر من بين أعلى الديون في أمريكا اللاتينية، يصل إلى أكثر من 18 بليون دولار، يعادل ضعف الميزانية الوطنية. تستنزف خدمة هذا الدين أموالاً طائلة كان من الممكن استخدامها لحاجات ضرورية ملحة كالصحة العامة، التعليم، السكن، وبرامج اجتماعية وبيئية أخرى.

أشرت بأنه معظم ديون الإكوادور حصلت من خلال خدع وألاعيب رجال الاقتصاد المأجورين من أجل أن يزداد غنى شركات النفط الأمريكية وشركات أخرى وبضعة موظفين محليين فاسدين. مرة أخرى نجد هنا بأن البنك الدولي وصندوق النقد الدولي خدما مصالح حكم تحالف أثرياء المال والشركات على حساب الشعب الإكوادوري.

علق بل :"الطريقة الوحيدة الآن التي تستطيع فيها الإكوادور وفاء ذلك الدين هي أن تبيع بترولها الخام لشركاتنا النفطية. وخلال هذه العملية تنهب غابات المطر". توقف لبرهة بينما

طارت فراشة زرقاء زاهية، ودخلت إلى حيث كنا نجلس تحت الأشجار. حوّمت قرب كتف بل، ومن ثم صفقت بجناحيها مبتعدة باتجاه مجموعة أغصان بروملياد قرمزية: "فكرتي هي أن نستخدم هذه الغابات القائمة كوسيلة لكي نبعث برسالة بأنها تعني الكثير إلى العالم أكثر مما تعني إلى شركات النفط، إنها نوعاً من دَيْن مقابل الطبيعة. وبذلك تحمي الإكوادور مورداً حيوياً وهاماً بالنسبة لنا جميعاً، مقابل إعفاءها من الدين".

قلت: "إنها فكرة عظيمة، لكن مبالغ هذا الدين ضخمة جداً". ابتسم لي موحياً لي بأنني قد بدأت أفهم دلالة كلامه وبأنه جدي كل الجد. تخرّج بل من جامعة ستانفورد، وأعدته خبرته في الاستشارات الإدارية، وتأجير المعدات، وخدمات مالية مؤسساتية، إلى أن يفكر تفكيراً كبيراً وطموحاً.

كانت تلك المحادثة في عام 2001. خلال بضع السنوات التي تلت كرّس بل طاقاته الشخصية لتحويل فكرته إلى واقع. في آب 2006 وقع ممثلون عن شركة تي بي ايه اتفاقاً مع وزارة البيئة ووزارة الاقتصاد والمالية الإكوادوريتين للقيام بدراسة عملية لوضع "خطة خضراء" في الأمازون: يقدم الاتفاق اعتمادات لتمويل تطوير المنطقة الدائم، متضمناً دراسة تحليل التأثيرات السلبية لاكتشاف النفط، إعادة تحديد قيمة غابات المطر، وتقدير قيمة الفوائد المحتملة للتقدم العلمي في المستقبل، الذي على الأرجح ستؤدي إلى زيادة الطلب على زرع الأشجار. تحديد هذه القيم سيمكن الإكوادور من المساومة على صيانة مواردها الطبيعية. مثال: إذا قيّم قسم من الغابة بمقدار1 بليون دولار، يمكن للإكوادور أن تتعهد في الحفاظ على ذلك القسم قائماً سامحة للباحثين في المجال الطبي ومجالات أخرى أن يستخدموه بطرق تقويه وتعززه، مقابل تخفيض ديونها الأجنبية بمقدار 1 بليون دولار. يوضع نظام من الشيكات والأرصدة البنكية يتضمن التزامات تقع على عاتق الدائنين ومنظمات مراقبة غير حكومية لحماية المستهلكين لا تسمح هذه الالتزامات لشركات النفط. أو أية نشاطات تهدد بأية أضرار. أن تدخل ذلك القسم من الغابة. كعضو فيها، راقبت منظمة تي بي ايه تنمو من ذلك الاجتماع الذي تناولنا فيه الأخطار في عام 1994، لتصبح قوة هامة تؤثر في الحكومة الإكوادورية وشركات البترول العملاقة. أخبرني بل مؤخراً بأن:"الخطة الخضراء هي الخطوة الأولى في تطوير طرق جديدة لحل مشكلة الدين، إننا نخلق نموذجاً تستطيع البلدان الأخرى أن تحتذي به في حماية أراضيهم من الاستغلال. إننا نرى أن هذا هو طريقة مبتكرة لتمويل تنمية دائمة وعادلة".

بالإضافة إلى ذلك، قامت تي بي إيه بتدريب حوالي 300 شخص في خمسة بلدان لكي يقوموا بتعليم وتنبيه الناس لتمكينهم من التأثير على العالم من خلال أعمالهم وخياراتهم اليومية. الهدف هو أن تملك بضع آلاف من المدربين ليصلوا إلى ملايين الناس خلال السنوات القليلة التالية، هذا هو جزء من رؤية لين تويست للمستقبل. أخبرتني لين: "نريد أن

نشخّص الأعراض - تدمير غابات المطر والديون غير العادلة - لكننا ندرك بأنه يجب علينا أن نعالج، ونشفي المرض: طرقنا قصيرة النظر في حب المادة وقلة تبصرنا في رؤية العالم".

لين، بل، وأنا لطالما ناقشنا هذه الفكرة، فكرة معالجة جذور الأزمة التي تواجهنا . لنفعل ذلك، يتطلب منا الإجابة على السؤال الثالث المطروح في مقدمة هذا الجزء من الكتاب: بواسطة أية مبادئ نتثبت من صحة وشرعية أعمالنا؟

كان لدى الأمريكيين المستعمرين مبادئ موحدة. لقد عارضوا الحكم الاستبدادي، وكانوا مصممين للحصول على الحرية والاستقلال. تستمر هذه المبادئ في زمننا لتكون أضواء هداية. لكن إذا أخذنا بعين الاعتبار وجهات النظر الكثيرة والأعراف المختلفة في عالم اليوم، نرى بأننا نحتاج هدفاً أكثر عالمية. كلمات مثل استبداد، حرية، واستقلال هي موضع تأويل واختلاف. كما رأينا في الأجزاء الأولى من هذا الكتاب، توجد شعوب في أفريقيا تنظر إلى الولايات المتحدة على أنها دولة استبدادية، وتعتقد شعوب في أمريكا اللاتينية، آسيا، والشرق الأوسط بأننا ندعم أنظمة تقمع حرياتهم وخياراتهم. كيف نجيب على ذلك السؤال الثالث؟ كيف نتأكد بأننا بدلاً من فرض أخلاقنا، ديننا، أو قيمنا الفلسفية على الآخرين ننوي خلق شيء ما من فوائد حقيقية ثابتة ودائمة.

62 خمسة عوامل مشتركة

ذات صباح يوم مشمس من عام 2006، بعد أن ألقيت كلمة في جامعة كولورادو، جاء كل من سارة ماكون وجوزيف بيها وأخذاني بسيارتهما من الفندق الدوار الذي كنت أنزل فيه. كان لهما الفضل في ترتيب لقاء لي لألقي محاضرة في جامعة دنفر التي يدرسان فيها. سارة هي طالبة دراسات دولية وعلوم سياسية وقد قضت وقتاً في أمريكا اللاتينية، أفريقيا، وجنوب آسيا. بينما كان جوزيف يركز على الدراسات الدولية، اللغة الإسبانية، والفن. عاش لمدة ستة أشهر في الأرجنتين حيث كان طالباً في جامعة كويو في ماندوزا.

صعدت السيارة إلى جانب جوزيف في الأمام. سارة في المقعد الخلفي. مع هزهزات السيارة الخفيفة كستارة مسرح خلفية توقعت أن تهدأ أعصابي في رحلة مريحة إلى دنفر. لم يكن شيئاً بعيداً عن تفكير سارة وجوزيف. أمطراني بأسئلة حول حياتي كرجل اقتصاد مأجور ومواقفي الحالية تجاه الأشياء التي كنت قد قمت بها في الماضي. ثم سألتهم كيف يشعرون حول هذا العالم الذي كان جيلي يتركه لهم.

أجابت سارة: "قلق، خوف. إن هذا حقاً زمن حساس بالنسبة لنا. يقول الذين في عمرك، بأننا نحن الذين أصبحنا في العشرينات من العمر سنحدد ماذا سنفعل بالنسبة إلى البقية الباقية من عمرنا. كلمات كهذه ترعبنا. إننا نتساءل ماذا سيحدث لاحقاً".

أضاف جوزيف: "إنه ليس لأننا لا نريد أن نتابع حياتنا، ونتحرك إلى الأمام أو نكبر، إننا فقط لا نريد أن ندخل سباق الجرذان ونقضي أربعين سنة القادمة ننشب مخالبنا صاعدين سلم الشركة الوظيفي، مغيِّرين مهناً، منتهين بأزمة منتصف الحياة".

من ثم ذهبنا في ذلك المساء إلى مطعم في دنفر، حيث انضم إلينا طلاب آخرون والبروفيسور روبرت برينس، المحاضر في جامعة دنفر والذي، مثلي، كان متطوعاً في فرق السلام في الستينات، لكنه لم يكن بالنسبة إلى الطلاب مُعلِّماً ملهماً فحسب بل كان أيضا مثال الرجل الذي يفعل ما يقول، شخص يطمحون إلى محاكاته.

قال لي البروفيسور روبرت: "إن هؤلاء الأولاد مدهشون، يرون ما يحدث في العالم وهم مصممون على تغييره. إنني أتخوف من أن نظامنا التعليمي في الأعم الأغلب يحاول إفسادهم، وتهميشهم. يجب على رجال مثلي ومثلك أن يرسموا لهم مخرجاً، يساعدوهم لكي يروا بأنهم يستطيعون توجيه طاقاتهم إلى أعمال إيجابية. يمكن تحريض الكثير من هذه العقول المتقدة الذكاء".

تحدث الطلاب مرة بعد مرة خلال ذلك المساء حول النظام الفاسد الذي سيرثونه. كما أنهم عبروا عن تقديرهم لمنظمات شبكة أعمال لحماية الغابات، العفو الدولية، إلى الأمام، اتحاد الباشاماما، ومنظمات غير حكومية أخرى التي تزرع الأمل فيهم، وتلهمهم. كنت عميق التأثر بتصميم هؤلاء الطلاب وحيويتهم.

بعد العشاء، أوصلني إلى الفندق كل من سارة، جوزيف وصديق آخر اسمه إيريك كورناكي. تحدث إيريك عن البحث الذي كان يقوم به حول شركة محلية، شركة البيرة البلجيكية الجديدة في مدينة كولينس في كولارادو. قال ضاحكاً: "إنني لست فقط أحب البيرة التي ينتجونها بل تعجبني أيضاً طريقة معاملتهم مع الناس. إنهم في الطليعة من حيث الطرق التي يجب على الشركات اتباعها في إدارة أعمالهم". رمى بنظرة خاطفة إلى رفقائه قائلاً: "عوامل مشتركة". ثم عاد بنظره إلي متابعاً: "لقد حددنا عدة عوامل مشتركة بين المنظمات الجيدة".

أضافت سارة: "خمسة عوامل: العدالة، الشفافية، الثقة، التعاون، والازدهار لكل المشاركين في عملية الإنتاج. في الجوهر، إن هذه هي المقومات الرئيسية للديمقراطية". أخبروني حول الشركات التي هي مجال بحثهم والتي تدمج هذه المبادئ في خطط عملها. كانوا يجدون نماذج تتراوح من مصنعٍ للقرميد في الأرجنتين إلى إنتاج المواد الغذائية الطبيعية في الغرب الأوسط في الولايات المتحدة.

كان طلاب جامعة دنفر يصوغون الإجابة عن السؤال الثالث حول مبدأ موحد. بعد ذلك جاء إليّ اثنان من طلاب المرحلة الثانوية في مكان لم أتوقع إطلاقاً أن يحدث ذلك فيه، وعرضا وجهات نظر أفحتمني.

63 أوقات الفرص السانحة

دعيت إلى إلقاء خطبة رئيسية في عام 2006 أمام المحاربين القدماء في المؤتمر الوطني للسلام، في مدينة سياتل. فكرة اللقاء مع الرجال والنساء الذين خاطروا بحياتهم من أجل وطنهم، ويطالبون الآن بالسلام كانت فكرة مثيرة للفضول. علمت بأن الكثير منهم فقدوا أطرافاً من أجسادهم وأصيبوا بجراحات خطيرة - نفسياً وجسدياً. بماذا كانوا يفكرون الآن يا ترى؟

خلال رحلتي في الطائرة إلى الطرف الآخر من البلاد قرأت كتاب صديقتي لين روبرت: "إحياء ذكرى جيدة". عكس الكتاب حكمة السكان المحليين في كل أنحاء العالم. أدهشتني بشكل خاص قراءة الفقرة التالية:

"إننا نعيش في أوقات هامة من استغلال الفرص السانحة. عند قراءتنا للجريدة نشعر بالإرباك بسبب الأزمات اليومية التي تبدو وكأنها تقفز من العناوين الرئيسية. مع ذلك، إننا نعرف بأن تلك الأزمات والفوضى قد تكون من المقومات الحيوية من أجل تبصر المستقبل، ومن أجل التغيير. غالباً ما تفرض هذه الأزمات خيارات لم نكن نراها سابقاً. أوقات كهذه تلح علينا لأن نصيخ السمع، ولننتبه إلى ما تعني الرسائل التي تصلنا".

لخصت هذه الفكرة تفكيري حول المنظمات غير الحكومية التي تقنع الشركات لكي تكون مواطنين جيدين، وحول المدراء التنفيذيين الذين يستجيبون لهذه المنظمات، ويقومون بأعمال إيجابية. إن ذلك في الواقع هو "أوقات هامة لاستغلال الفرص السانحة". كان لدي شعور بأن هؤلاء المحاربين السابقين يحتاجون إلى سماع تلك الأخبار الجيدة.

حالما وصلت إلى سياتل، اختلطت بالمحاربين القدماء، حضرت استقبالاً مسائياً، ميكرفون مفتوح لقراءة الشعر، وعدة ورش عمل قاموا بها. شربت البيرة مع امرأة كانت قد قضت إحدى وعشرين سنة في الجيش، شعرت بالقرف، واستقالت عندما غزونا العراق للمرة الثانية. سمعت رجلاً مقطوع الرجلين يغني مرثاةً صفق لها رفقاؤه المحاربون تصفيقاً حاراً:

لقد ضحيت بأرجلي
من أجل جورج بوش وديك تشيني
أن يسكبا النفط
على آحاداتهم ذات الكافيار الذهبي

شعرت بإحباط هؤلاء المحاربين وغضبهم، وتصميمهم لتصحيح خطأ كانوا قد ساعدوا على ارتكابه. لم أكتب كلمة لإلقائها أو حتى لم أضع مخططاً لكلمة. حالما وقفت أمامهم في تلك القاعة الضخمة، ونظرت إلى وجوههم، شعرت بقرابة عميقة تجاههم. تلاشى غضبي الذي شعرت به عندما كنت طالباً في جامعة بوسطن خلال حرب فيتنام محاولاً أن أمنعهم

من الصعود إلى السفن في ميناء الأسطول البحري في بوسطن. ذهب أيضاً غضبي الشديد الذي شعرت به عندما أمطروا مدينة بنما بالقنابل. كل ما شعرت به هناك وأنا واقف على المنصة هو الشفقة على الناس الذين تم استغلالهم واستخدامهم من قبل حكم تحالف أثرياء المال والشركات. بغض النظر عن الخلافات التي أضمرناها لبعضنا البعض في الماضي، كانوا أخوة وأخوات لي. إنهم أيضاً قد رأوا حماقة حكومتهم، واجتمعوا الآن كمحاربين من أجل السلام. هذا المبدأ ـ مبدأ اجتماع هؤلاء الجنود من أجل السلام ـ ترك في نفسي أثراً عميقاً.

لا أستطيع تذكر تفاصيل ما قلته تلك الليلة. أعرف بأنني حرضتهم على فهم الرسالة في كتاب لين رويرت، هذه الأزمة يمكن أن تمهد الطريق من أجل التغيير. ناشدتهم أن لا يُحمّلوا إدارة بوش وحدها المسؤولية، طلبت منهم أن يدركوا أن حكم تحالف أثرياء المال والشركات هو أكبر بكثير من رئيس بمفرده. تحدثت عن المنظمات غير الحكومية التي قاتلت ببسالة من أجل التغيير، وأثنيت على جيوش المتطوعين في منظمة شبكة أعمال لحماية الغابات الذين سيطروا على أنظمة الاتصالات الداخلية العامة في شركة هوم ديبوت على امتداد الولايات المتحدة. توسلت إلى أولئك المحاربين أن يثقوا بأنفسهم، وبمنظمتهم، وأن يعلموا بأنهم يستطيعون أن يخلقوا نوعاً جديداً من العالم الذي أرادوه عندما قبلوا أن يرتدوا البزة العسكرية مقسمين على الدفاع عن الديمقراطية. ومن ثم سمعت نفسي أردد فكرة كنت قد عبرت عنها بمناسبات أخرى أمام الكثير من الحضور:

"من أجل أن يكبر حفيدي في عالم مستقر يسوده السلام الدائم، يجب أن يكبر كل طفل في أفريقيا، وأمريكا اللاتينية، والشرق الأوسط، وآسيا في عالم مستقر يسوده السلام الدائم".

أدركت هذه المرة بينما كنت أتفوه بتلك الكلمات بأنني كنت أحدد جزءاً آخر من ذلك المبدأ الموحد.

بعد أن نزلت عن المنصة متجهاً إلى الطاولة التي سأوقع عليها نسخاً من كتابي "اعترافات" للجمهور، اقترب مني شابان.

حاولت امرأة كانت تشارك في تنظيم هذا اللقاء أن تصرفهما قالت: "آلا تريان، يوجد صف طويل ينتظر من أجل الحصول على توقيعه؟"

لكنهما لم يتراجعا. قدّما نفسيهما بأسماء جول براي وتايلر ثومبسون. كان جول في السنة الثانية من المرحلة الثانوية في ثانوية أوليمبيا في مدينة أوليمبيا في واشنطن، ويدرس تايلر في الجامعة التحضيرية في سياتل. أخبراني بأن قراءتهما لكتاب "اعترافات" أقنعتهما بأن يتحركا، ويفعلا شيئاً. بينما كنا نسير ونشق طريقنا وسط حشد الناس، قال أحدهما بأنه تأثر عميقاً بتلك العبارة التي قلتها باكراً في ذلك المساء حول الأحفاد. قال: "إن أولئك هم أولادي، وليسوا أحفادي. نعم إنه أهم شيء يجب إدراكه من قبل الجميع: لن يكون لأولادنا أي مستقبل إلا إذا كان لجميع الأولاد في العالم مستقبل". وقفا خلف طاولتي قرب

الكرسي الذي أجلس عليه. انتظرا حتى فرغت من توقيع الكتب. أخيراً أعطيتهما كامل انتباهي. شرح لي جول "بدأنا نادياً يدعى الوعي العالمي والتغيير" قاطعه تايلر متابعاً "أسسنا ذلك النادي آملين أن نتمكن من تنظيم مناسبات أكبر بين مدارسنا ومدننا، بهذه الطريقة نصل إلى الكثير من الناس، بعد عدة أسابيع من التخطيط اتصلنا بالمئات من الناس والمنظمات الذين يشاركوننا أهدافنا، كما أننا تلقينا الدعم من طلاب ومعلمين كثر في مدارسنا".

أضاف جول: "كانت ردة فعل كل الأشخاص الذين تحدثنا معهم إلى حد الآن إيجابية وحماسية. يبدو أن الجميع يريدون أن يساهموا بقسطهم من العمل. قررنا أن نغطي قضايا عديدة مختلفة في مجالات السياسة، البيئة، علم الاجتماع، والاقتصاد. لكن بعد قراءة كتابك ومشاهدة فيلم آل غور "حقيقة مقلقة" فكرنا بأنه يجب علينا التركيز على الاقتصاد والبيئة وعلاقتهما ببعضهما البعض. نحن نعرف أنك مشغول جداً، لكننا نرغب بمراسلتك بواسطة الإنترنت لنضعك بصورة ما نفعل". ومد يده لي بقصاصة ورق من أجل أن أكتب لهم عنواني على الإنترنت.

بعد عودتي إلى بيتي في سياتل بعدة أيام استلمت رسالة إلكترونية من جول وتايلر. تضمنت التالي:

"مهمة المنظمة:

الوعي العالمي والتغيير هو ناد يعمل على إيقاظ الوعي من أجل التغيير وإيجاد الحل النهائي لقضايا العالم. يواجه العالم الذي نعيشُ فيه الآن الكثير من المشاكل الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والبيئية، وسنرى تأثيرات كل مشكلة من هذه المشاكل في حياتنا الباقية. بالإضافة إلى ذلك، وليس من أجل إيجاد الحلول فقط بل أيضاً لتنفيذها، من الضروري تعاون كل فرد، وجمع كل نشاط فعال في مجتمعنا. إن هدف نادي الوعي العالمي والتغير هو تثقيف الناس حول هذه القضايا والقيام في الوقت نفسه بدور فعال في حلها. معاً، وبهذه الطريقة فقط، سنتمكن من عكس التأثيرات السلبية التي أحدثناها نحن بأنفسنا. إن مقدرتنا على العيش هي على المحك".

شعرت بالرضى والسرور من الإلحاح والتصميم اللذين عبّر عنهما هذان الطالبان. لم يستطع نظام التعليم لدينا أن يخمد عزيمتهما، ويطفئ اتقاد ذكاؤهما، ويحرِفهما عن القضايا الحيوية الملحة، بتركيزه على الامتحان، والوظائف البيتية، والعلامات المدرسية، ومكاتب القبول في الجامعات، والبحث عن عمل، وأشكال أخرى من الإنجازات المرْضية. لم يكونا قد خدرا بواسطة التلفزيون أو شلت حركتهما بواسطة الخوف. وصل هذان الشابان إلى فهم عميق وعرفا أن "إمكانية عيشهم هي على المحك". ليس فقط أولادهم وأحفادهم بل هم أيضاً سيتأثرون بالوضع الرهيب للمشاكل التي كان يخلفها جيلي وراءه. كما أنهما أيضاً

أدركا بأنه لن يجدي أي حل إلا إذا شمل العالم كله. كان هذان الشابان وأمثالهما الكثير يثقون بمقدرتهم، ويؤمنون بأنهم سينجحون.

بينما كنت أقرأ رسالتهما الإلكترونية، أدركت بأن المبدأ الموحد يجب أن يشمل ما قالا عنه التعهد بالعمل على إشراك كل فرد من أفراد المجتمع. يجب أن يشمل مبادئ العدالة الاجتماعية، والبيئية، والاقتصادية التي تدافع عنها المنظمات غير الحكومية. ومن الضروري الأخذ بعين الاعتبار تلك العوامل المشتركة الخمسة التي عبر عنها طلاب جامعة دنفر. ويجب احترام وتقدير العزم الأنثوي بتربية أطفالنا وزرع شعور الأمان والرعاية فيهم. بدلاً من التركيز على الأخلاق والدين يجب التركيز على الشيء العملي المبين للأمنية العالمية الشاملة الحقة في العيش الكريم، والتي يتشارك فيها جميع الرجال والنساء وفي الواقع، كل أشكال الحياة على هذا الكوكب. ويجب أن تكون بسيطة، تكون شيئاً يستطيع كل واحد منا أن يحفظها عن ظهر قلب. كَتَبْتُ بعجالة واختصار بعض الكلمات على ظهر تلك الورقة:

"المبدأ الموحد هو التعهد بخلق عالم مستقر يعمه السلام الدائم من أجل كل البشر في كل مكان".

كنت على وشك أن أضيف عبارة أخرى تقول بأنه لن يرث أي طفل عالم كهذا إلا إذا ورثه كل الأطفال. لكن بدا أن ذلك كان واضحاً بذاته ولا داعٍ لذكره. وكان صحيحاً أيضاً ما يتعلق بفكرة "العدالة"، من ثم فكرت حول تضمين النبات، الحيوان، والبيئة في ذلك التعريف، لكنني قررت بأن كلمتي استقرار ودائم تفيان بالغرض. فكرت بأنه من الأفضل أن يكون ذلك التعريف تعريفاً قصيراً وبسيطاً:

"تعهد بخلق عالم مستقر يعمه السلام الدائم من أجل كل البشر في كل مكان".

إلى حين مقابلتي لطلاب جامعة دنفر، ولقائي بالمحاربين القدماء وبطلاب المدرسة الثانوية في سياتل كنت أفكر بهذا الزمن على أنه زمن هام من التاريخ. لكنني أدرك الآن بأن طلاب الجامعة والثانوية العامة والمحاربين القدامى الذين طالبوا بوضع نهاية للحرب - بالإضافة إلى محادثاتي مع أعضاء المنظمات غير الحكومية والأفكار حول تحويل الرأسمالية الإمبريالية إلى رأسمالية ديمقراطية - كل هذا أقنعني بأن هذا الزمن هو الزمن الأهم في التاريخ. إننا نعلم بأن مجتمعنا يتداعى، بأننا نستغَل، بأن قادتنا يعيشون، ويزدهرون على الفوضى وعدم المساواة، مع ذلك علمونا بأن نشك إننا حقاً نعرف هذه الأشياء. يلخِّص ترددنا في سؤال واحد كان يسأل من أحد ما في كل لقاءاتي تقريباً التي كنت أعرض فيها أفكاري. إنه السؤال الأوحد الأهم الذي يواجهنا اليوم.

64 السؤال الأكثر أهمية في وقتنا الحاضر

"قبل أن أطرح سؤالي، أود القول بأنني اتفق معك". قالت ذلك المرأة من خلال الميكروفون وهي واقفة في وسط الممشى الفاصل بين صفوف مقاعد القاعة. إنها ربما في أواخر الثلاثينات أو أوائل الأربعينات من العمر. تهدل شعرها الأصحر على كتفيها، وذكرتني ابتسامتها المشرقة بماريل ستريب. بلوزتها الزرقاء السماوية وبنطالها البيج الفضفاض يوحيان بأنها قد تكون معلمة، محامية، فنانة، أو ربة منزل. تابعت: "من أجل تغيير العالم، يجب علينا أن نحث الشركات الكبرى لكي تغيِّر أهدافها. يجب عليهم أن ينتقلوا من خدمة قلة غنية من الناس إلى التركيز على صنع حياة أفضل من أجل عموم الناس. بالإضافة أيضاً إلى حماية البيئة والمجتمع حيث نعيش جميعاً". ابتسمت بلطافة ورقة: "إنني اتفق معك تماماً". عند ذلك الوقت كنت متأكداً تماماً بأنني أعلم ماذا سيحدث لاحقاً، كانت على وشك أن تطرح السؤال الذي كان يبرز دائماً في مثل تلك المناسبات والذي كان ينتاب تفكير كل شخص. السؤال الذي هو الأخير على لائحتي المتضمنة الأسئلة الأربعة التي يجب علينا جميعاً الإجابة عليها.

وضعت يدها الاثنتين على خصرها، ورمتني بنظرة تحدٍ وقالت: "لكن ماذا أستطيع أن أفعل. أنا شخصياً. لجعل ذلك يحدث؟".

قلت لنفسي: "إنه هو، هذا هو السؤال". كأن شيئاً علق بحنجرتي، فسعلت وقلت: "شكراً لك".

سابقا، عندما بدأت جولاتي التي كنت التقي الناس فيها وأتحدث إليهم، كنت أتساءل فيما إذا كان الناس في الماضي يسألون هذا السؤال دائماً، أم أنه كان ميزة فريدة من مزايا ما بعد حقبة هتلر، فيتنام، واترغيت، 11 أيلول، وغزو العراق؟ هل كنا دائماً نشعر بالضعف واليأس؟ أم نشعر بذلك الآن فقط؟

محاولاً الإجابة على هذه الأسئلة، كنت غالباً ما أفكر حول جدي. لقد كان يملك مصنعاً صغيراً لصنع المفروشات في ريف نيوهامشر خلال فترة الانهيار الاقتصادي والكساد. مات جدي قبل أن أولد أنا، لكنني ترعرعت في ظل السمعة التي تركها خلفه. جرت أسطورة تقول بأنه لم يكن يأخذ قراراً كبيراً أبداً دون موافقة العمال الذين يستخدمهم. أعلن بأنه لا يمكن لأولاده أن يعيشوا حياة جيدة إلا إذا عاش أفقر الناس المقيمين حيث يعيش، حياة جيدة، بالتالي كرس نفسه لانتشال هؤلاء الناس من فترة اليأس والركود. اختار هو وأصحاب عمل آخرون ألا يستخدموا مدخراتهم في استغلال المعوزين بشراء بيوتهم ومزارعهم بأبخس الأثمان، بدلاً من ذلك عملوا على بناء اقتصاد وفَّر العمل للعاطلين. من قاطعي أخشاب، ونجارين، وكناسي شوارع، ومعلمي تمديدات صحية، وخياطين، ومنجدون. لم يوصف جدي

لي أبداً على أنه سامري فاضل* بل بالأحرى كانت أسطورته تدور حول حكمته وبأنه رجل فهم بأن مستقبل حفيده الذي لم يكن قد ولد بعد سيكون مستقبلاً آمناً إذا كان مستقبل أحفاد هؤلاء المزارعين والعمال المعوزين آمناً أيضاً. فكرت أيضاً بأبي. أخمن بأنه كان يمكنه أن يطلق على هتلر اسم إمبراطور أوروبا، قائلاً: "قتل عدة ملايين. ما هو الأمر الجلل في هذا؟ إنني أعيش في الجانب الآخر من الأطلنطي. إنني آمن". إنه كان يستطيع أن يوجد مخرجاً منطقياً لنفسه بعيداً عن كل ماكان يحدث. أو بكونه أستاذ لغة كان يستطيع أن يقبل عملاً كمدرب للمترجمين. لكنه بدلاً من ذلك، تطوع في البحرية وقاد طواقم مسلحة تعمل على المدافع الموجودة على سفن الأسطول التجاري لنقل البترول عبر الأطلنطي. كان عملاً خطيراً جداً.

فكرت بالنساء اللواتي نادين بحق المرأة بالاقتراع، بقادة النقابات العمالية، بالمطالبين بالحقوق المدنية، بالمتظاهرين الذين احتجوا على حرب فيتنام، الفتيات الشابات اللواتي وضعن وروداً في مواسير البنادق، وبالطلاب الذين استلقوا على الأرض أمام الدبابات. بدت تلك الأوقات كأنها مضت منذ زمن بعيد. مع ذلك إن الكثير من هذه النشاطات حدث عندما كنت في سن الرشد.

هذا جعلني أفكر حول الآن حول وقتنا الحاضر. وحول الرجال والنساء الذين استلقوا على الأرض أمام البلدوزرات في غابات أورغن، حول المزارعين الكولومبيين الذين ربطوا أنفسهم بسلاسل إلى سياجات لكي يتحدوا مرتزقة الشركات الذين يحاولون إجبارهم على الرحيل عن أراضيهم، حول الرياضيين الذين رفضوا أن يرتدوا ملابسهم الرياضية المصنوعة في مصانع يدفع للعمال فيها أدنى الأجور، ويعانون من ظروف عمل سيئة جداً، فكرت حول الذين يغنون ويتسلقون المباني لتعليق اللافتات، الذين يكتبون الأشعار، يتسوقون فقط في المحلات التي تأتي بضائعها من شركات يكون لديها الحس بالمسؤولية البيئية والاجتماعية أو من متاجر خاصة لمالكين محليين، وفكرت حول أناس ـ مثل ابنتي جاسيكا ـ تخلوا عن وظائف مربحة في شركات كبيرة من أجل أن يكرسوا أنفسهم لأهداف وأسلوب حياة أخرى تحقق شيئاً آخر أكثر من المال. إن هؤلاء جميعاً يفعلون كل هذه الأشياء الآن.

* - أجاب المسيح رجلاً كان قد سأله "من هو جاري؟" فضرب له مثلاً حكاية السامري (أحد سكان سامرة بفلسطين) الذي كان هو الشخص الوحيد بين عابري السبيل الذي هرع لنجدة أحد اليهود الذي كان قد تعرض للسرقة والضرب وتُرك ليموت على قارعة الطريق. إن عطف السامري كان جديراً بالإعجاب بشكل خاص لأن اليهود كانوا أعداء السامريين. أجبرت هذه الحكاية السائل لكي يعترف بأن السامري كان هو الجار الحقيقي للرجل الذي تعرض للسرقة والضرب. (العهد الجديد، إنجيل لوقا). مجازياً: إن "السامري الفاضل" هو شخص يبذل جهداً خاصاً متعمداً القيام طوعاً بأعمال نبيلة لمساعدة الآخرين في محنهم، خصوصاً الغرباء، دون مقابل. "المترجم".

قلت للسيدة ذات الشعر المتصحر الأحمر وذات البلوزة الزرقاء السماوية والبنطال البيج: "يتردد هذا السؤال على مسمعي كثيراً. إنني لست متأكداً لماذا أسمعه دائماً. نعيش أنا وأنت في بلد تفتخر بأنها بلد ديمقراطي وبلد موقف وفعل". أخبرتها عن قصة أبي وجدّي: "رجاء لا تشعري بأنك وحيدة". جلت بنظري على الحضور: "كم منكم يشارك هذه السيدة سؤالها؟ كم منكم يريد أن يعرف ماذا يستطيع أن يفعل لكي يجعل الأمور تتحسن نحو الأفضل؟" ارتفعت في القاعة غابة من الأيدي. تحولت بنظري إلى المرأة. هزت برأسها معبراً وجهها عن الارتياح والرضى سألتها: "لماذا نشعر بأنه لا حول لنا ولا قوة؟ لأن حكم تحالف أثرياء المال والشركات لديها عملاء للعمل على سلب قوتنا".

تجعد جبينها. من ثم ابتسمت تلك الابتسامة الشبيهة بابتسامة ماريل ستريب وقالت: "نحن هؤلاء العملاء".

أجبت: "بالضبط. لا يستطيعون أن يسلبونا القوة إلا إذا نحن سمحنا لهم بذلك".

بدأت المرأة بالابتعاد عن الميكرفون. لكنها غيرت رأيها، وعادت سائلة يعلو وجهها تلك الابتسامة اللطيفة: "أتفق معك، لكن، أعود وأسأل ماذا أستطيع أن أفعل؟".

أجبت: "استعيدي قوتك، واعملي على إقناع كل شخص تعرفينه لكي يفعل الشيء نفسه".

رفعت نظري منها إلى بقية الحضور: "إذا أردتم أن تقولوا إن المشكلة كبيرة جداً، إن الشركات والحكومة أقوياء جداً، ولن يجدي نفعاً أي عمل نقوم به، فهذه هي أعذار للتملص من مسؤولياتكم أنتم، في القيام بعمل ما". توقفت لبرهة لأعطي فرصةً لاستيعاب ما قلته جيداً. "شكراً لله، لم يقل أسلافنا في السبعينات من القرن الثامن عشر: ماذا نستطيع أن نفعل؟ إن ملك إنكلترا قوي جداً ولا نستطيع أن نفعل أي شيء ضده".

أخبرت ذلك الحضور كما كنت أخبر الكثير الآخرين بأننا نحتاج اليوم إلى معرفة أن كل واحد من آباءنا وأمهاتنا المؤسسين عرّض نفسه للاعتقال. لقد وقفوا ضد أقوى إمبراطورية في التاريخ، وصدف أن تكون هذه الإمبراطورية هي حكومتهم أيضاً. كانوا خونة وإرهابيين في عيون التاج، تحدوا وواجهوا، ولم تثن عزيمتهم التهديدات بالإعدام شنقاً. اليوم، نجل شجاعتهم كما نجل شجاعة أبي وآخرين من جيله في كل مكان الذين أوقفوا زحف هتلر. نحترم كرمهم واستعدادهم للتضحية.

نحن أيضاً علينا أن نكون شجعاناً وكرماء. يجب أن نكون مستعدين لدفع أسعار أعلى للماس والذهب، للكمبيوترات المحمولة والهواتف الخليوية. ويجب أن نكافح، ونصر على أن يتسلم عمال المناجم رواتب عادلة، وعناية طبية وضمانات اجتماعية. ويجب علينا أن ندفع سعراً أعلى للبضائع التي لا تنتج في معامل وورش تحت ظروف عمل سيئة لكنها تنتج في أماكن يعامل فيها العمال بعدالة. يجب علينا قيادة سيارة صغيرة أكثر وفراً للوقود، يجب علينا أن نستخدم مجمل طاقة أقل واستهلاكاً عاماً أقل، يجب علينا حماية البيئات الطبيعية

مع تنوع الكائنات الحية التي تقطن هذه البيئات. إنه من الملح والضروري بأن ننمي الوعي بأن كل عمل نقوم به وكل منتج نشتريه يؤثر على أناسٍ آخرين والأماكن التي يعيشون فيها، إجمالاً، إن أسلوب حياتنا اليوم يحدد مستقبل أولادنا وأحفادنا. يجب أن نكون مستعدين للتضحية كما ضحّى أسلافنا - بما فيها التضحية بالنفس إذا كان ذلك ضرورياً - لكي نضمن بأن نترك لذريتنا من بعدنا عالماً هو على الأقل بجودة العالم الذي تركه لنا آباؤنا.

إن الأفراد يؤثرون، ويصنعون الفرق. أعلم أنه من السهولة أن ننسى ذلك - ينفق حكم تحالف أثرياء المال والشركات البلايين كل عام في محاولة إقناعنا بأن أعمالنا لا تقدم، ولا تؤخر، ما عدا عندما نشتري منتجاً (أ) أو صنفاً (ب). لكننا جميعاً ندرك بأن الناس يؤثرون بالناس. لنتذكر الرجال والنساء في منظمات شبكة أعمال لحماية الغابات، العفو الدولية، تحالف الباشاماما، إلى الأمام، ومنظمات أخرى مشابهة. لنتذكر الأشخاص الذين أثروا فينا شخصياً.

مترعرعاً في ريف نيوهامشر، لم يكن لدي أية فكرة بأن الأمريكيين الأفارقة كانوا يجبرون على الركوب في مؤخرة الباص في بعض أجزاء من الجنوب، حتى قامت امرأة تدعى روزا بارك، وفتحت عيني على ذلك. كان ينمو كثير من الأعشاب السامة حول بيتنا، كنا غافلين عن حقيقة أن مبيد الـ ددت الذي كنا نرشه للقضاء على هذه الأعشاب الضارة كان يقتل أيضاً السمك، العصافير، السناجب، والكثير من الكائنات الحية الأخرى، حتى كتبت راتشل غارسون "الربيع الصامت" وانتشر هذا الكتاب في الحركة العالمية لحماية البيئة. بدأ ايوجين مكارثي حركة أخرى - حركة سياسية - أسقطت أحد أقوى رؤساء الولايات المتحدة، ليندن جونسون. لم يفز مكارثي بالرئاسة لكنه كان له فضل كبير في إنهاء الحرب الفيتنامية. كوريتا ومارتن لوثر كينغ الأحدث علّمانا حول قوة الأحلام. كسرا حواجز التمييز العنصري ليس فقط هنا في الولايات المتحدة وإنما أيضاً في جنوب أفريقيا وفي كثير من الأماكن الأخرى. غرس والدي في نفسي احترام كبير للمبادئ التي احتوتها وثيقة إعلان الاستقلال. شجعتني أمي على كتابة افتتاحية لجريدة المدرسة الثانوية العامة التي كنت أدرس فيها واستمعَت لساعات بينما كنت أتدرب على المناظرة التي كانت ستجري بين فريقين في مدرستي. دون تشجيع والديَّ، لم أكن لأستطيع تأليف هذا الكتاب.

رويت هذه الأشياء للحضور في تلك الليلة. ثم ألقيت نظرة على المرأة التي كانت قد وقفت وتكلمت بالميكروفون وقد عادت الآن إلى مقعدها، سألتها: "هل لديك عمل؟". هزت برأسها نعم. تابعت: "هل لك أن تخبريني ما هو عملك؟".

أجابت: "إنني معلمة".

قلت: "إنك تتمتعين بموقع ممتاز بشكل مدهش، كانت لديّ معلمة في الصف الثالث مدام شنار، لقد مكنتني من الوقوف في مواجهة بعض الطلاب الذين كانوا يستضعفونني في باحة

المدرسة، ومن ثم ألقت علي محاضرة حول الدفاع دائماً عن معتقداتي بالإضافة إلى الدفاع عن جسدي أيضاً. عندما كنت في السنة الثانية من المرحلة الثانوية العامة غرس في معلمُ اللغة الإنكليزية الأستاذ ريتشارد دافيس فكرة أن القلم هو حقاً أمضى من السيف. بعد سنة على ذلك اختار لي معلم التاريخ الأستاذ جاك وودباري بعض الكتب لقراءتها، أقنعتني تلك الكتب بأن الناس الأقوياء هم أيضاً معرضون للخسارة والهزيمة. كان يقول: "حتى الملوك هم بشر. إن قلوبهم تنهار مثل قلبي وقلبك. ينزفون دماً، ويمكن الضغط عليهم لتحقيق المطالب ـ أو يمكن إسقاطهم".

مشت السيدة ببطء عائدة إلى الميكرفون، انحنى الرجل الذي في الصف الأمامي، وأفسح لها مكانه قالت: "أظن بأنني اعرف ذلك، لكن في بعض الأحيان، اعتدنا على النسيان لأن ذلك هو الأسهل. لكن ليس بعد الآن أبداً. إنني معلمة. سأعلم الآن، أعلم بحق".



65 اليوم هو اليوم

نشعر هذه الأيام بأننا نريد أحياناً وصفة لحل مشاكلنا. إن حكم تحالف أثرياء المال والشركات علمنا أن نفعل ذلك. اتبع الخط المنقط. إذا شعرت بصداع خذ الحبة البيضاء، ومن أجل حرقة في المعدة خذ الحبة الحمراء القرنفلية. لا ترتاب أبداً بالسلطة. المعلم يملك كل الأجوبة. أو الكاهن أو السياسي أو مدير العمل أو مدير الشركة او الرئيس.

الحلول الجاهزة، طاعتنا العمياء لهذه الحلول، خوفنا وقلقنا من انحرافنا عن قواعد السلوك . هذه الإجابات مسبقة الصنع أغرقتنا في مشاكل عميقة. يمكن أن يشبع غرورنا الإحساس بأننا مجتمع مبني على العلم والعقل، لكن الحقيقة المرة هي تقبلنا بسرور جدل الإمبراطور، بأنه هو وحده الذي يملك كل الإجابات. هذا هو كذب ونفاق.

أصيب صديق لي حديثاً بنوبة قلبية خطيرة. بعد إجراء ثلاث عمليات لفتح الأوعية الشريانية أخبرني: "أبلغني الطبيب بأن علم الطب لم يستطع أن يثبت بأن الغذاء الذي أتناوله كان هو السبب في النوبة القلبية، لكن هذا هو احتمال قائم وكبير. لذلك لقد غيرت طريقة غذائي". نحن في وضع مشابه على الصعيد العالمي لوضع صديقي المريض. تصر حكومتنا على أننا نحتاج إلى دليل قاطع بأن التغير في المناخ سببه ما ينتجه الإنسان من ثاني أكسيد الكربون وذلك قبل أن يعيدوا كتابة القوانين البيئية. دليل قاطع. ممن؟!

خلال التاريخ، رجال ونساء نبجلهم اليوم ارتابوا في نظام الأوضاع الراهنة. صفقنا لأناس مثل غاليلو، جوان آرك، مولي ستارك، توماس أديسون، جوناس سالك، هيلين كيلر، غاندي، والدالاي لاما. إنه من الهام جداً أن نتذكر بأن كل هؤلاء الناس كانوا مجرد أشخاص. كانوا أفراداً، مثلي ومثلك. عرفوا الخوف والشجاعة، الحزن والفرح. أنجزوا أشياءً عظيمة، لكن كل واحد منهم واجه أيضاً عقبات بدا في حينها أنه من الصعب تخطيها، لقد جربوا، ثابروا و (نستطيع أن نقول الآن) نجحوا.

لا يوجد هناك وصفة جاهزة، لكن يوجد الكثير من الرجال والنساء لإلهامنا وشحذ همتنا. لقد ذخر هذا الكتاب بأسمائهم: من الأخ والأخت السودانيين إلى الرجل من سكان البلد الأصليين الذي أصبح رئيساً لبلاده، من متطوعي فرق السلام إلى مؤسسي المنظمات غير الحكومية، من طلاب المدرسة الثانوية إلى أساتذة الجامعة، كتّاب، صانعي أفلام، إنهم يشملون أيضاً أشخاصاً يتحدثون إلى جيرانهم وأشخاصاً يدعمون محطات إذاعة إن بي آر (راديو الشعب الوطنية) المحلية، انظر حواليك ستجدهم في كل مكان.

انظر في المرآة. إنك واحد منهم.

إنك تؤثر وتصنع الفرق في كل يوم بطريقة أو بأخرى. إنك تؤثر في الناس الذين حولك. الشيء الهام هنا أن تكون مدركاً لهذا التأثير، ومن ثم تبدأ بفعله بشكل واعٍ، بطرق إيجابية

تجعل العالم مكاناً أفضل. تعهد كل يوم أن تعمل على خلق عالم مستقرٍ يعمه السلام الدائم من أجل جميع البشر في كل مكان.

أقول لجمهوري: "إذا كنتم تريدون مني أن أرسم لكم طريقة عمل، بهذا أنتم تطلبون مني أن أفعل ما يفعله حكم تحالف أثرياء المال والشركات. أنتم لا تحتاجون إلى ذلك. إنكم تملكون عواطفكم ومواهبكم الخاصة بكم والمختلفة عن عاطفتي وموهبتي. بالطبع توجد هناك خطوات معينة نستطيع اتباعها. وهذه أشياء بسيطة نعرفها جميعاً وكلما فعلنا المزيد منها سيساعدنا ذلك على الشعور بشكل جيد ويدفعنا إلى التحرك إلى أبعد وبالنهاية سيقودنا أيضاً باتجاه مستقبل آمن يمكن العيش فيه باستقرار". أدرج هنا بضعة أمثلة على هذه الخطوات: أشياء لنفعلها:

- عندما يغريك أن تتورط في شراء شيء ما "كعلاج للتخفيف من الضغط النفسي" بدلاً من ذلك، قم بنزهة سيراً أو عدواً، استغرق في التأمل، اقرأ، أو ابحث عن حل آخر.
- تَسَوَّقْ بوعي إذا كان لابد لك أن تشتري شيئاً: اشتر أشياء يكون تعليبها، المواد الداخلة في صنعها، أو طريقة إنتاجها تحافظ وتدعم البيئة والحياة.
- حاول الحفاظ على كل شيء تملكه أطول فترة زمنية ممكنة.
- تسوق في محلات تقتصد في النفقات أو تبيع بضاعتها بالأمانة، بحيث يمكن معالجة كل شيء والاستفادة منه ثانية.
- احتج، وتظاهر ضد اتفاقات التجارة "الحرة" وضد المصانع التي تستخدم العمال بأجور منخفضة وفي ظل ظروف عمل سيئة.
- اكتب رسائل إلى شركات مونسانتو، دوبيرس، اكسن موبل، أديداس، فورد، جي إي، كوكاكولا، وول مارت، وشركات أخرى تستغل العمال وتدمر البيئة، أخبرهم فيها لماذا ترفض أن تشتري منتجاتهم.
- اكتب رسائل شكر إلى شركات هوم ديبوت، كينكوس، ستي كروب، ستار باكس، هول فودوس، وشركات أخرى لتعاونها مع منظمات شبكة أعمال لحماية الغابات، العفو الدولية، ومنظمات غير حكومية أخرى.
- خفض استهلاكك من النفط والغاز
- صغر حجم سيارتك، وبيتك، وخزانة ملابسك، كل شيء في حياتك.
- تبرع إلى المنظمات غير الربحية، محطات راديو، ومنظمات أخرى تشجع، وتدعم قضايا عادلة.
- تطوع بوقتك وطاقتك إلى مثل تلك المنظمات.
- ادعم أصحاب المحلات التجارية المحليين.
- شجع المحلات التجارية في شراء بضائعهم من المزارعين، المنتجين، والموزعين المحليين.

- تسوق في سوق المنتجات الزراعية المحلية.
- اشرب من الحنفية، ولا تشتر زجاجات المياه المعبأة (اضغط على شركة المياه لكي تحسن عملها إذا كان ذلك ضرورياً).
- انتخب مجالس إدارة مدرسية، ولجاناً، ومجالس بلدية، وسياسيين متنورين.
- رشح نفسك للوظائف والمكاتب العامة.
- أصر على أولئك الذين يشغلون أموالك - البنوك، الأموال المقتطعة من أجل التقاعد، مؤسسات الأسهم، الشركات، لكي يوظفوا هذه الأموال في استثمارات مسؤولة اجتماعياً وبيئياً.
- تكلم، وارفع صوتك في كل منبر متاح.
- تطوع للحديث في المدارس المحلية حول الموضوع المفضل لديك (تربية النحل، صنع النسيج، التنس، أي شيء). واستخدم ذلك لتحريك تفكير الطلاب وإيقاظ وعيهم.
- ناقش التكلفة الحقيقية للمواد، تكلفة تلوث المناخ، ظروف العمل السيئة، المعونات العامة، الإعفاءات الضريبية الممنوحة للشركات، وعوامل بيئية، اجتماعية، وسياسية أخرى من الواجب إدخالها في الأسعار التي ندفعها ثمناً للبضائع والخدمات لكنها (نوقش هذا الأمر في الفصل 54) لا تدخل. دع الناس يعرفون بأننا عندما لا ندفع ثمناً من أجل هذه النفقات الحقيقية هذا يعني بأننا نسرق الأجيال القادمة.
- شجع على دفع الضرائب على الكلف الحقيقية للبضائع - وادفع أسعاراً أعلى للوقود، والملابس، والكهرباء إلخ طالما أن الفرق يستخدم لرفع وتصحيح الأضرار الاجتماعية والبيئية.
- شكل حلقات دراسية في المكتبات المحلية، ومحلات بيع الكتب، والكنائس، والنوادي.
- وسع، وطور هذه اللائحة وشارك فيها كل شخص تعرفه.

كل هذه المواد المذكورة أعلاه تؤثر في القادة السياسيين، وقادة الشركات. لكسر قبضة الإمبراطورية الخانقة لكوكبنا، يجب علينا أن ننتزع القوة من الخصائص السبعة للإمبراطوريات، للإمبراطور، لحكم تحالف أثرياء المال والشركات. فقط من خلال تحويل وسائل تحكمهم التي هي الشركات، سننجح في إقامة العالم الذي نرغب أن نخلفه لأولادنا. حقنا وواجبنا أن نطالب الشركات بأن تصبح مواطنين صالحين، وتكف عن نشاطاتها الإمبريالية، وبدلاً من ذلك أن يتقبلوا قوانين ومبادئ الديمقراطية.

دَعْ ما تقوم به من عمل - الطرق التي تنفق فيها نقودك، وتعطي فيها أصواتك الانتخابية - يبعث برسائل قوية إلى هؤلاء الذين يقودون منظماتنا بأنه يجب عليهم أن يكرسوا أنفسهم لخلق عالم مستقر يعمه السلام الدائم.

قد يقول قائل: "هل تطلب مني أن أدفع سعراً أعلى لشراء قميصي الداخلي؟ أن لا أتسوق في محلات وول مارت؟ أن أشتري من محلات حيث النقابات تعمل على رفع أسعار البضائع؟"

إنني غالباً ما أسمع هذه الأسئلة. في العادة يتبعها القول: "إنني أكد في عملي، لدي أولاد. لا أستطيع تحمل تقديم مثل هذه التضحيات". أجيب "إنني لا أطلب منك أن تضحي، بمستقبل أولادك. لكن تأكد بأن أصناف البضائع التي تشتريها قد أنتجتها شركات مسؤولة اجتماعياً وبيئياً - وول مارت لا يلتزم بذلك - على الأقل إلى الآن. ارتد قمصاناً داخلية أقل إذا كان ذلك ضرورياً. حاول أن تحافظ عليها لمدة أطول. تذكر أيضاً بأنك أحياناً تدفع في الواقع ثمناً أعلى لمنتجات تم صنعها في معامل يتقاضى فيها العمال أخفض الأجور، ويعانون من ظروف عمل سيئة جداً. إن منتجات نايكي ليست رخيصة. دع الشركات والمحلات التجارية "الجيدة" تعلم لماذا أنت تتعامل معهم وتشتري بضائعهم، وتأكد بأن تجعل الشركات والمحلات التجارية "السيئة" تعلم لماذا لا تتعامل معهم ولا تشتر بضائعهم".

أخيراً إنه حيوي وهام العمل معاً لنبعث برسالة جديدة على امتداد كوكبنا، فأولئك الذين يتأثرون بالأعمال التي نقوم بها يحتاجون لأن يسمعوا الأسباب التي تدفعنا للقيام بما نقوم به، ويحتاجون أن يشعروا بعاطفتنا تجاههم ودعْمنا لهم. إن حكم تحالف أثرياء المال والشركات يزدهر من خلال التضليل والسرية، فيجب علينا فضح أكاذيبه وخداعه.

فكر بقصص الاغتيال والفساد التي قرأتها في مقدمة هذا الكتاب، القصص التي يتنمل لها جلدك. عندما لا تتسوق، وتعيش بشكل واعٍ يؤدي ذلك إلى الاستمرار بعدم الكشف عن هذه القصص؛ أي إلى دعمك لرجال الاقتصاد المأجورين والعملاء.

عندما كنت صغيراً في نيوهامشر، تمنيت لو أنني ولدت في أوائل القرن الثامن عشر لكي أشارك في الثورة. أما الآن أشعر بالامتنان لأني أعيش في هذا الزمن. أعلم بأننا أنا وأنت موجودون في زمن ربما يكون هو الأهم والأخطر في تاريخ بلدنا والأكثر إثارة في تاريخ العالم.

أودّ أن أناشد بشكل خاص أولئك الذين تجاوزوا الخمسين من العمر: "لم يعد الكثير منهم يعتريهم القلق من خوفهم أن يطردوا من عملهم، لقد غادر أولادكم العش. فهذا هو زمنكم لكي تصنعوا الفرق. اخرجوا من شرانقكم. انصحوا، وعلموا الشباب. هزوا الغرف الداخلية في الجامعات تحركوا للعمل وتمتعوا بذلك".

وأقول لشباب اليوم "يستطيع بعضكم العمل في الشركات الكبرى، وإحداث تغييرات من الداخل. بينما آخرون سيفسدون من خلال عملهم هذا، فليعملوا هؤلاء خارج الشركات، فليعملوا لمصلحة المنظمات غير الحكومية أو منظمات أخرى مماثلة. أنتم وحدكم من يعرف ما هو الأفضل بالنسبة لكم. فوق ذلك كله، افهموا بأن النجاح لا يحدده حجم بيوتكم أو سياراتكم، أو يخوتكم - النجاح يأتي عندما تشعر جيداً حول نفسك".

أشجّعُ كل شخص بأن ينضم إلى منظمات النشاط الاجتماعي والاقتصادي والبيئي. على مر تاريخنا كانت حركات التحرر المدني، مثل حركة أبناء الحرية خلال الثورة الأمريكية، رئيسية وهامة باتجاه ديمقراطيتنا. إننا أحوج ما نكون لمثل هذه المنظمات الآن أكثر من أي وقت مضى. توجد قائمة ببعض هذه المنظمات في الملحقين (أ) و(ب) يمكنكم أن تجدوا منظمات أخرى على الإنترنت بواسطة البحث عن كلمات تصف أعمق رغباتكم في النشاط في مجال معين. ومن ثم تقررون ما هي المنظمة الأكثر ملائمة لكم. شاركوا في حملات العرائض على الإنترنت، الاعتصامات، المظاهرات، تبرعوا بـ 10 دولار أو 10.000 دولار، تطوعوا بالإجابة على الهواتف. أو تطوعوا في وقتكم للعمل في بعض نشاطات هذه المنظمات، اجعل نفسك مؤثراً، وتعهد بتوسيع وتطوير معلوماتك.

توجد في حوزتنا كل الوسائل التي نحتاجها لكي نعمل على جعل هذا العالم عالماً أفضل، عالماً مستقراً يعمه السلام الدائم والشامل. إن حكم تحالف أثرياء المال والشركات قد زودنا بهذه الوسائل. الثقافة والعلم، الوسائل المالية، شبكات الاتصالات ووسائل النقل، المعادن والموارد الأخرى، التقدم العلمي التقني والمعلوماتي كل هذا هنا تحت تصرفنا لخدمتنا وخدمة أهدافنا في خلق عالم أفضل.

إننا نستطيع إنقاذ أطفال المستقبل من الموت جوعاً ومرضاً، نستطيع تأمين أسباب الحياة لكل الناس، ردم الهوة الكبيرة بين الفقر والثراء الفاحش، وتدبر أمر الشركات الكبرى لجعلهم يدفعون حصة عادلة مما يربحونه إلى المجتمعات التي يعملون فيها. لكن المفتاح لكل ذلك هو بأننا أنا وأنت يجب أن نقف، ونواجه، ونؤثر!

بالإضافة إلى نمو وازدهار حكم تحالف أثرياء المال والشركات من خلال التضليل والسرية، يزدهر وينمو أيضاً على اللامبالاة، لامبالاتنا نحن. إنه يعتمد على سلبيتنا وعدم فعاليتنا، نقبل دعاياته على أنها حقيقة مطلقة، نشتري بغير وعي، فلا نعرف لماذا، وكيف نشتري؟، ونسمح لنظامه بالاستمرار في تدمير كوكبنا. يجب إيقاف هذا، ووضع حد نهائي له. يجب علينا اليقظة من سباتنا والتحرك.

التحرك والفعل هما الطريقة الوحيدة لضمان أن أولادنا وأحفادنا وأولاد أخوتنا وأخواتنا وأولادهم سيرثون عالماً غير ممزقاً وغير منهكاً، عالماً غير مدمرٌ بالحروب والعنف.

أنت شخصياً تملك قوة كبيرة: إنه هام جداً أن ترقى بعواطفك، توجهها بطرق تكمل فيها مواهبك، وأن تتحرك، وتأخذ المبادرة. إن الطريق الذي تختاره يجب أن ينبع من قلبك وفكرك وليس من أوامر تأخذها من أي شخص آخر. إنك ببساطة يجب عليك التحرك والتقدم إلى الأمام.

هل أنا متفائل؟ نعم مائة بالمائة. كيف لي أن لا أكون متفائلاً، وأنا أرى آلاف المنظمات التي تثير التغيير بنجاح، أرى الناس الذين يعملون في الشركات يبحثون عن أعذار لكي يفعلوا

الشيء الصحيح، والملايين من الأبطال الذين لم يكتب عنهم في الأغاني والقصائد والذين تطوعوا بوقتهم ومالهم من أجل أهداف سامية؟ كيف لي أن أكون إلا متفائلاً، وأنا أعرف مدى القوة التي نملكها أنا وأنت؟.

على مدى مئة سنة الأخيرة رهنًا نحن الأمريكيون أنفسنا من أجل ما يدعى "التقدم"، تخيلنا مدناً كبيرة حيث حلت السيارات محل الأحصنة وأضاءت الكهرباء بيوتنا، وشغلت مصانع ضخمة، وحيث نتمتع بمنتجات زراعية طازجة في منتصف الشتاء الشمالي. كرسنا في كل يوم أنفسنا لمهمات هدفت لتحقيق تلك التخيلات والرؤى الأخرى المشابهة. تحدثنا عن أحلامنا وأنتجنا كتباً، أفلاماً، وبرامج تلفزيونية تمجد هذه الأحلام، وشجعنا كل شخص للانضمام لنا في هذه العملية. وقعنا في شرك أعمالنا وأحلامنا، أصبحنا منهمكين ومشغولين إلى حد أننا سمحنا لبضعة رجال بأن يستغلونا ويستغلوا العالم كله. لقد حلموا بإمبراطورية، واستخدموا شبكات أعلامهم لكي يقنعونا بأن إمبراطوريتهم هي إمبراطورية ديمقراطية، مدافعة عن حقوق المضطهدين، مشجعة ومعززة لكوكب سليم معافى. حولوا رؤيتنا، بخبث ومكر وبغفلة منا، إلى نوع من الكابوس.

سمحنا بذلك يحدث ونستطيع قلبه الآن. إننا ندرك الآن بأن رؤيتنا كانت تدور حول انتشال أنفسنا من الفقر، لنعيش حياة أكثر صحة وعافية أكثر احتراماً وكرامة. نريد أن نخلص أنفسنا من التلوث الناتج عن زحمة الشوارع بالأحصنة والأبنية المفتقرة إلى أنظمة الصحة العامة، نرغب براحة أكبر وطعام أكثر تغذية، قبلنا رؤى بدت بأنها ترضي حاجاتنا . وفعلنا ذلك لمدة من الزمن . أما الآن نرى بأننا خدعنا من حكم تحالف أثرياء المال والشركات، جعلونا نستخدم طرقاً كانت أنانية ومدمرة. الرؤى التي دسوها في مخيلاتنا أقصت بلايين الناس وهمشتهم، خربت مواطن كاملة مع كائناتها الحية، تشكل تهديداً لنا ولذريتنا من بعدنا، وتهدد بقاء هذا الكوكب نفسه كما نعرفه. تظهر بلادنا اليوم تلك الخصائص السبع للإمبراطورية التي حددناها في مقدمة هذا الكتاب. لم يكن هذا في حسباننا، ولم يكن شيئاً نريده. بل إنه في الحقيقة مناقض لأبسط مبادئنا . نرغب في شيء أكثر أهمية من النزعة الاستهلاكية والرفاهية التي تقدمها لنا مدننا الحديثة، السيارات، المصانع، والأسواق الكبيرة. حلمنا هو حول الحياة. حول قابلية العيش على كوكب يعمه الاستقرار والسلام الدائمين، حول تكريس أنفسنا لنقل مبادئ الحرية، الحق، والعدالة إلى أولادنا .

أحد أولئك الأولاد حدد مؤخراً جوهر المشكلة التي خلقناها نحن البشر والحل لتلك المشكلة. ساره آلين، سَمِعتْ كلمتي التي ألقيتها في حفل تخرج الثانوية العامة في مدرستها، ثانوية هارتسبروك في مدينة هادلي في ولاية ماساتشوستس، في عام 2006، حيث كانت في الصف الحادي عشر، كتبت في الخريف التالي لهذا الحفل المقالة التالية:

"لقد رأيت العالم كله لأول مرة عندما كنت في الصف الثاني، كان موضوعاً على خريطة من ورق. لون المحيط أزرق، البلدان بلون أصفر، أخضر، أحمر وردي. شكلت هذه الطريقة بمشاهدة كوكبنا إدراك الناس لمئات السنين. أود أن ألقي لمرة واحدة نظرة على العالم غير مقيدة بإدراكات الناس وطريقة نظرتهم ما عدا إدراكي الشخصي - لأرى عالماً معلقاً في فضاء قاتم بالطريقة التي يبدو فيها من خلال نافذة مكوك فضائي. أريد أن أرى بأن هذه الحدود والأسماء المطبوعة على الخرائط هي من صنعنا نحن. بإدراك عدم ديمومة هذه الحدود التي صنعها الإنسان والتي تفصل بيننا، نستطيع أن نظهر حقيقة كم نحن جميعاً حقاً متحدين على هذا الكوكب. ما قد أخبرنا به وما قد شاهدناه على أنه حقيقة يمكن أن يبقى معنا إلى الأبد. مع ذلك، أعتقد أنها مهمتنا أن نطور مجتمعات العالم ونجعلها تتعرف على التصورات والمفاهيم الرئيسية المكونة مسبقاً وإدراكها كما هي وفهم تأثيرها علينا. حينئذ فقط، نستطيع أن نبدأ بالأعمال الضرورية من أجل عيش الأجيال القادمة".

إن الساعة قد أتت بالنسبة لنا لكي نقوم بتلك الأعمال. إننا نملك كل شيء نحتاجه لتجسيد رؤية جديدة. كل الوسائل والموارد، كل الشبكات والأنظمة في محلها المناسب. وقد وجدنا أيضاً في السنوات الأخيرة بأننا نملك الإرادة - أنا وأنت - نملك أدوات التغيير الضرورية.

اليوم هو اليوم بالنسبة لنا جميعاً لنبدأ فعلياً بتغيير العالم.



الملحق 1: منظمات ذكرت في هذا الكتاب

Amnesty International
www.amnesty.org

Cinema Libre Studio
www.cinemalibrestudio.com

Democracy Now!
www.democracynow.org

Dream Change
www.dreamchange.org

Ecova-mali
(founded by Gregory Flatt, Cynthia Hellman, and Siré Diallo to promote sustainable development in Mali)
www.ecovamali.org

Educating for Justice
(founded by Jim Keady and Leslie Kretzu, filmmakers who lived like Nike workers in Indonesia)
www.educatingforjustice.org
Sweat, the film depicting conditions of Nike workers:
www.sweatthefilm.org

Global Awareness and Change Club (GAC)
(founded by high school students Joel Bray and Tyler Thompson)
At www.dreamchange.org, see "Dream Change Projects"

Global Dialogue Center, The
www.globaldialoguecenter.com

MoveOn
www.moveon.org

Pachamama Alliance, The
www.pachamama.org

Rainforest Action Network
www.ran.org



ملحق 2: نقاط أساسية فعّالة من أجل ديمقراطية حيّة

بقلم فرانسيس مور لابي

مؤلف كتاب "حمية من أجل كوكب صغير"

وكتاب: حافة الديمقراطية: اختيار إنقاذ بلدنا بواسطة إعادة الديمقراطية إلى الحياة

إن مبادرات عشرات الآلاف من المواطنين على امتداد بلدنا تُحَوّل المعنى الحقيقي للديمقراطية إلى ممارسة حية. بالاتصال بهم والتعلم منهم، يستطيع كل واحد منا أن يجد نقاطاً أساسية فعّالة مقنعة تساعد على كسر دائرة القوة المدمرة المهيمنة. في كتابي: حافة الديمقراطية الذي صدر في عام 2006 جاهدت من أجل فهم الدروس التي يعلمها هؤلاء المواطنون. رحّبَ بي جان بركنس مشكوراً لكي أشارك قرّاءه حول بعض المنظمات والمصادر التي استخدمت في هذا الكتاب. إن اللائحة التالية هي موجز عن تلك المنظمات يعكس طبيعة كتاب جان. من أجل الاطلاع على مجموعة أوسع يمكنكم العودة إلى "حافة الديمقراطية". أيضاً يمكنكم زيارة موقع الإنترنت (www.deomcracysedge.org) من أجل الاطلاع على المزيد. إن الكثير من هذه المنظمات تصدر رسائل إخبارية، وتنشر مطبوعات أخرى من كتب وصحف ومجلات ونشرات. بعضها يقوم ببرامج تدريبية. تعمل على الوصول إلى الناس وتحريضهم! إنني أرحب بكم أيضاً في البحث في الخدمة الأمريكية الإخبارية (الأخبار التلغرافية التي كنت أصدرها في التسعينات) من أجل الاطلاع على أرشيفنا الإلكتروني الذي يضم 1600 قصة مازالت وثيقة الصلة، من قصص المواطنين الذين يعالجون مشاكلنا الكبرى - من العناية الصحية إلى إصلاح السجون - وذلك على موقعنا الإلكتروني: (www.smallplanetinstitute.org/ans.php).

قضايا بيئية واجتماعية وطنية وعالمية:

Association of Community Organizations for Reform Now (ACORN)
Tel.: (877) 55ACORN
Web site: www.acorn.org

Bioneers
Tel.: (877) BIONEER
Web site: www.bioneers.org

The Gamaliel Foundation
Tel,: (312) 357-2639
Web site: www.gamaliel.org

Industrial Areas Foundation (IAF)
Tel.: **(312) 245-9211**
Web site: www.industrialareasfoundation.org

National People's Action (NPA)
Tel.: (312) **2433038**
Web site: www.npa-us.org

National Training and Information Center (NTIC)
Tel.: **(312) 243-3035**
Web site: www.ntic-us.org

Pacific Institute for Community Organizations (PICO)
Tel.: (510) 655-2801
www.piconetwork.org Web site:

العمل من أجل نظام سياسي أكثر ديمقراطية:

Center for Responsive Politics
Tel.: **(202)** 857-0044
Web site: www.opensecrets.org

Center for Voting and Democracy
Tel.: (301) 270-46r6
Web site: www.fairvote.org/irv

Clean Flections Institute, Inc.
Tel.: (602) 840-6633
Web site: www.azclean.org

Common Cause
Tel.: (202) 833-1200
Web site: www.commoncause.org

InstantRunoff.com
Tel.: (312) 587-7060
Web site: www.instantrunoff.corn

League of Independent Voters/League of Pissed-Off Voters

Tel.: (212) 283-8879
Web site: www.indyvoter.org
League of Women Voters
Tel.: **(202)** 429-1965
Web site: www.lwv.org
Center for Responsive Politics
Tel.: (202) 857-0044
Web site: www.opensecrets.org
Public Campaign
Tel: (202) 293-0222
Web site: www.publicampaign.org
Public Citizen
Tel.: (202) 588-1000
Web site: www.citizen.org
Working Families Party
Tel,: (718) 222-3796
Web site: www.workingfamiliesparty.org

العمل من أجل اقتصاد أكثر ديمقراطية:

The Alliance for Democracy
Tel.: (781) 894-1179
Web site: www.theallianceforde mocracy.org
American Independent Business Alliance (AMIBA)
Tel.: (406) **582-1255**
Web site: www.amiba.net
As You Sow Foundation
Tel: (415) 191.3212
Web site: www.asyousow.org
Bi - Mart
la: (800) 456-0681
Web site: www.bimart.com
Business Alliance for Local Living Economies (BALLE)
Tel.: (415) 3486284
Web site: www.livingeconomies.org
Center for Working Capital
Tel.: **(202)** 974-8020
Web site: www.centerforworkingcapital.org
Citizens Trade Campaign
Tel.: **(202) 778-3320**
Web site: www.citizenstrade.org

Clean Clothes Connection
Tel.: (207) **947-4203**
Web site: www.cleanclothesconnection.org/search.asp
Coalition for Environmentally Responsible Economies (CERES)
Tel.: (617) **247-0700**
Web site: www.ceres.org
Co-Op America
Tel.: (8oo) 584-7336
Web site: www.coopamerica.org
Corporate Accountability International
Tel.: (617) 695-2525
Web site: www.stopcorporateabuse.org
The. Corporation
Web site: www.thecorporation.com
Domini Social Investments
Tel.: (8oo) 762-6814
Web site: www.domini.com
Dow Jones Sustainability World Index (DJSI World)
Zurich, Switzerland
Tel.: **(+41-1)** 395-2828
Web site: www.sustainability-index.com
Ecological Footprint Quiz
Web site: www.myfootprint.org
E.F. Schumacher Society
Tel.: **(413) 528-1737**
Web site: www.schumachersociety.org
Fair Labor Association
Tel.: **(202)** 898-1000
Web site: www.fairlabor.org
Fair Trade Resource Network
Tel.: **(202)** 234-6797
Web site: www.fairtraderesource.org
GreenMoney Journal
Tel,: (8oo) 849-8751
Web site: www.greenmoney.com
Greenpeace, Inc.
Tel.: (8cc) 326-0959
www.greenpeaceusa.orgWeb site:
IdealsWork.com
Web site: www.idealswork.com

Institute for Local Self-Reliance
Tel.: (612) 379-3815
Web site: www.ilsr.org; www.newrules.org
Interfaith Worker justice (IWJ)
Tel.: (773) 728-8400
Web site: www.iwj.org
International Labor Organization
Tel.: (202) 653-7652
Web site: www.us.ilo.org
Justice Clothing
Tel.: (207) 941-9912
Web site: www.justiceclothing.com
National Center for Employee Ownership (NCEO)
Tel.: (550) 208-1300
Web site: www.nceo.org
National Cooperative Business Association
Tel.: (202) 638-6222
Web site: www.ncba.coop
Natural Step
Tel.: (415) 318-8170
Web site. www.naturalstep.org
No Sweat Apparel
Tel.: (877) 992-7827
Web site: www.nosweatapparel.com
Program on Corporations, Law and Democracy (POCLAD)
Tel.: (508) 398-1145
Web site: www.poclad.org
Reclaim Democracy.org
Tel.: (406) 582-1224
Web site: www.reclaimdemocracy.org
Redefining Progress
Tel.: (510) 444-3041
Web site: www.rprogress.org
Social Accountability International (SAI)
Tel.: (212) 684-1414
Web site: www.cepaa.org
Social Investment Forum
Tel.: (202) 872-5319
www.shareholderaction.org
Sustainable Connections

Tel.: (360) 647-7093
Web site: www.sconnect.org
TransFair USA
Tel.: (510) 663-5260
Web site: www.transfairusa.org
Trillium Asset Management
Tel.: (800) 548-5684
Web site: www.trilliuminvest.com
Unionwear
E-mail: resource@unionwear.com
Web site: www.unionwear.com
United Nations Global Reporting Initiative (CR1)
Amsterdam, Netherlands
Tel.: (+31-0-20) 5310000
Fax; (+31-0-20)5310031
Web site: www.globalreporting.org
United Students Against Sweatshops (USAS)
Tel.: (202) 667-9328
Web site: www.studentsagainstsweatshops.org
United Students for Fair Trade
E-mail: linam@gwu.edu
Web site: www.usft.org
Verité
Tel.: (413) 253-9227
Web site: www.verite.org
Walden Asset Management
Tel.: (617) 726-7250
Web site: www.waldenassetmgmt.com
White Dog Café
Tel.: (215) 386-9224
Web site: www.whitedog.com
Workers Rights Consortium (WRC)
TeL: (202) 387-4884
Web site: www.workersrights.org

العمل من أجل طريقة أكثر ديمقراطية، أكثر ديمومة في الوصول إلى الغذاء:

American Community Garden Association
Tel.: (877) 275-2242
Web site: www.communitygarden.org
American Corn Growers Association

Tel.: (202) 835-0330
Web site: www.acga.org
Community Food Security Coalition
Tel.: (310) 822-5410
Web site: www.foodsecnrity.org
Earthsave International
Tel.: (800) 362-3648
Web site: www.earthsave.org
Food First/Institute for Food and Development Policy
Tel.: (510) 654-4400
Web site: www.foodfirst.org
Global Resource Action Center for the Environment (GRACE)
Tel.: (212) 726-9161
Web site: www.gracehnks.org
Heifer International
Tel.: (800) 422-0474
Web site: www.heifer.org
Local Harvest
t Tel.: (831) 475-8150
Web site: www.localharvest.org

National Campaign for Sustainable Agriculture
Tel.: (845) 361-5201
Web site: www.sustainableagricultnre.net
National Cooperative Grocers Association
Tel.: (251) 621-7675
Web site: www.ncga.coop
National Farm to School Program
Tel.: **(323) 341-5095**
Web site: www.farmtoschool.org
National Gardening Association
Tel.: (800) 538-7476
Web site: www.kidsgardening.com

Organic Consumers Association
Tel.: (218)226-4164
Web site: www.organicconsumers.org

استعادة وإصلاح وسائل الاعلام المرئية:

Alliance for Community Media
Tel.: (202) 393-2650
Web site: www.alliancecm.org

Allied Media Projects
E-mail: info@alliedrnediaprojects.org
Web site: www.clamormagazine.org/allied/ahout.html
Center for Digital Democracy
Tel.: **(202)** 986-2220
Web site: www.democraticmedia.org

Center for International Media Action
Tel.: (646) **249-3027**
Web site: www.mediaactioncenter.org

Center for Media & Democracy (Publisher of PR Watch)
Tel.: (6o8) 260-9713
E-mail: editor@prwatch.org
Web site: www.prwatch.org
Fairness and Accuiacy in Reporting (FAIR)
Tel.: **(212)** 633-6700
Web site: www.fair.org
Media Access Project
Tel.: (202) **232-4300**
Web site: www.mediaaccess.org
Media Rights
Tel: (646) 230-6288
Web **site:** www.mediarights.org
Media Tenor
Tel.: (212) 448-0793
Web site: www.mediatenoy.com
Microcinema International
Tel.: **(415)** 864-0660
Web site: www.microcinema.com
Openflows Networks, Ltd.
Tel.: (416) 5305944
Web site: www.openflows.org
Reclaim the Media
E-mail: universaldeclaration@reclaimthemedia.org
Web site: www.reclaimthemedia.org
Third World Majority
Tel.: (510) 682-6624
Web site: www.cultureisaweapon.org

التفاعل مع الإعلام المرئي والمسموع:

AlterNet
Web site: www.alternet.org
Coalition of Immokalee Workers/Radio Conciencia
Tel.: (239) 657-8311
Web site: www.ciw-online.org
Common Dreams News Center
Web site: www.commondreams.org
Free Press
Tel.: (866) 666-1533
Web site: www.freepress.net
Free Speech TV
Tel.: (303) 442-8445
Guerrilla News Network/GNN.tv
Web site: www.guerriflanews.com
Hometown Utilicom (public Internet utility)
Tel.: (610) **683-6131**
Web site: www.hometownutilicorn.org
Independent Media Center
Web site: www.indymedia.org/en/index.shtml

In the Mix
Tel.: (800) 597-9448
Web site: www.pbs.org/inthemix
Tire Meatrix
Web site: www.themeatrix.com
Pacifica Radio
Tel.: (510) 849-2590
Web site: www.pacihca.org
Thin Air Radio
Tel.: **(509) 747-3807**
Web site: www.thinairradio.org
Tompaine.com
Web site: www.tompaine.com
TruthOut
Web site: www.truthout.org

الثقافة والتعليم:

Big Picture Schools
Tel.: (401) 781-1873
Web site: www.bigpicture.org

Center for Collaborative Education
Tel.: (617) **421-0134**
Web site: www.ccehos.org
Coalition of Essential Schools
Tel.: (510) **433-1451**
Web site: www.essentialschools.org
Educators for Social Responsibility
Tel.: (617) 492-1764
Web site: www.esrnational.org
Forum for Education and Democracy
Tel.: (740) **448-3402**
Web site: www.Forumforeducation.org
Institute for Student Achievement
Tel.: (516) 812-6700
el) site: www.studentachievement.org
KIDS Consortium
Tel.: **(207)** 784-0956
Web site: www.kidsconsortium.org
School Mediation Associates
Tel.: (617) 926-0994
Web site: www.schoolmediation.com
School Redesign Network
Tel.: (650) 725-0705
Web site: www.schoolredesign.net

YouthBuild USA
58 Day Street
Somerville, MA **02144**
Tel.: (617) 623-9900
Web site: www.youthbuild.org

تشجيع وتعزيز الحوار الشعبي العام:

Conversation Café
New Road Map Foundation
Tel.: (206) 527-0437
Web site: www.conversationcafe.org

Meetup. Inc.
Tel.: **(212) 255-7327**
Web site: www.meetup.com

National Coalition for Dialogue and Deliberation
Tel.:(802) **254-7341**
Web site: www.thataway.org
September Project
E-mail: info@thesepteinherproject.org
Web site: www.theseptemberproject.org
Study Circles Resource Center
Tel.: (86o0 928-2616
Web site: www.studycircles.org

قضايا عدل وقانون:

Justice Policy Institute
Tel.: (202) 363-7847
Web site: www.justicepelicy.org
Men Against Destruction-Defending Against Drugs and Social Disorder (MAD DADS)
Tel.: **(904)** 388-8171
Web site: www.maddads.com
National Association for Community Mediation
Tel.: **(202)** 667-9700
Web site: www.nafcm.org
National Youth Court Center
Tel.: (859) 244-8r93
Web site: www.youthcourt.net
Sentencing Project
Tel.: **(202)** 628-0871
Web site: www.sentencingproject.org
Time Dollar USA
Tel.: **(202)** 686-5200
Web site: www.timedollar.org

ملحق 3: كتب للقراءة

Cohen, Ben and Mal Warwick. Value-driven Business: How to Change the World, Make Money, and Have Fun. San Francisco: Berrett-Koehler, 2006.

Derber, Charles. Regime Change Begins at Home. San Francisco: Berrett-Koehler, 2004.

Eisler, Riane. The Real Wealth of Nations: Creating a Caring Economics. San Francisco: Berrett-Koehler, 2007.

Farmer, Paul. Pathologies of Power: Health, Human Rights, and the New War on the Poor. Berkeley: University of California Press, 2005.

Floyd, Esme. 1001 Little Ways to Save Our Planet: Small Changes to Create a Greener, Eco-friendly World. London: Canton Books, 2007.

Garrison, Jim. America as Empire: Global Leader or Rogue Power? San Francisco: Berrett-Koehler, 2004.

Goodman, Amy, with David Goodman. The Exception to the Rulers; Exposing Oily Politicians, War Profiteers, and the Media That Love Them. New' York: Hyperion, 2004.

Hammel, Laury, and Gun Denhart. Growing Local Value; flow to Build Business Partnerships That Strengthen Your Community. San Francisco: Berrett-Koehler, 2007.

Henderson, Hazel, and Daisaku Ikeda. Planetary Citizenship: Your Values, Beliefs and Actions Can Shape a Sustainable World. Santa Monica, CA: Middleway Press, 2002.

Henry, James S., and Bill Bradley. The Blood Bankers: Tales from the Global Underground Economy. New York: Four Walls Eight Windows, 2003.

Hiatt, Steven, editor, with an introduction by John Perkins. A Game as Old as Empire; The Secret World of Economic Hit Men and the Web of Global Corruption. San Francisco: Berrett-Koehler, 2007.

Kabat-Z inn, John. Coming to Our Senses; Healing Ourselves and the World Through Mindfulness. New York: Hyperion, 2005.

Korten, David. When Corporations Rule the World. San Francisco: Berrett-Koehler, 2001.

Lappé, Frances Moore. Democracy's Edge: Choosing to Save Our Country by Bringing Democracy to L. San Francisco: Jossey-Bass, 2006.

Mander, Jerry and Edward Goldsmith, eds. The Case Against the Global Economy and for a Turn Toward the Local. San Francisco: Sierra Club Books, 1996.

Palast, Greg. The Best Democracy Money Can Buy. New York: Plume, 2004. Roberts, Llyn. The Good Remembering: A Message for Our Times. New York:

O Books, 2007.

Rodriguez Felix I., and John Weisman. Shadow Warrior: The CIA Hero of a Hundred Unknown Battles. New York: Simon and Schuster, 1989.

Rossi, M. L. What Every American Should Know About the Rest of the World. New York: Plume, 2003.
Stiglitz, Joseph E. Globalization and Its Discontents. New York: W. W. Norton, 2003.
Twist, Lynne. The Soul of Money: Transforming Your Relationship with Money and Life. New York: W. W. Norton, 2003.
Zinn, Howard. People's History of the United States: 1492 to Present. New York: Harper Perennial Modern Classics, 2005.

الهوامش

Part 1: Asia

1. According to World Bank and IMP-IFS statistics; see Giancarlo Corsetti, Paolo Pesenti, and Nouriel Roubini, "What Caused the Asian Currency arid Financial Crisis," Flseerer, May 7, 1999, www.sciencedirect.com/scieucc/article/B6VF1-3XJSW8X-1/2/77bdde4277268f51bc3e813dec579a79, Table **23** (p. 335) and Table **27** (p. 337).
2. Associated Press," Indonesia Admits 'Support' by U.S. Gold Company to the Military," The New York Times, Dec, **30. 2005,** www.nytimes.com/2005/12/30/international/asia/3oirndo.html.
3. Amy Goodman, with David Goodman. The Exception to the Riders: Exposing Oily Politicians, War Profiteers, and the Media That bee Them (New York: Hyperion, **2004).** p. 1.
4. "Thirty Years After the Indonesian Invasion of East Timor, Will the U.S. Be Held Accountable for Its Role in the Slaughter?" Democracy Now! December 7, **2005:** www.democracynow.org/article.pl?sid=05/12/07/1519244.
5. Jane Perlez, "A Cautious Reformer as Indonesia's Next President," Ike New York Times, Sept. **22, 2004,** www.nytimes.com/2004/o9/22/interuational/asia/2 **2** indo. Html.
6. Melissa Rossi, What Every American Should Know About the Rest of the World (New York: Plume, **2003),** p. **32.**
7. NPR, **"Interview:** Sidney Jones on the Tsunami Easing Peace Process with Aceh Rebels," Morning Edition, Dec. **27, 2005, www.**nl.newsbank.com/nl-search/we/Archives?p_action=doc&p_docid=10EC735E901BD (downloaded Aug. **14.** 2006).
8. Ibid.
9. Jane Perlez, "U.S. Takes Steps to Mend Ties with Indonesian Military," The New York lanes, Feb. 7, **2005,** www.nytimes.com/2005/02/07/internasional/**asia/07**indo.html.
10. Democracy Now!, www.democracynow.org/article.pl?sid=05/11/23/152214.
11. Michael Sullivan, "The Green Heart of Sumatra," Morning Edition, NPR, Aug. **14,** 2006, www.npr.org/templates/story/story.php?storyId=5611866.
12. Steve Bailey, "'The Bribe Memo' and Collapse of Stone and Webster," The Boston Globe, March 15, **2006,** p. Es. See also www.boston.com/business/globe/articles/2006/03/15/the_bribe_memo_and_stone_webster/.
13. Associated Press, "Indonesia Admits 'Support' by U.S. Gold Company to the Mili**tary,** The New York Times, Dec. **30, 2005, www.nytimes.com/2005/12/30/**international/asia/**30indo**.html.
14. Jane Perlez. "U.S. Cold Mining Company Says Indonesia Detains 4 Officials." The New York 'Iimes, Sept. 23! 2004,

WWW.nytimes.com/2004/09/23/intrnational/asia/23CN-INDO.htm; and Jane Perlez and Evelyn Rush, "Spurred by Illness, Indonesians Lash Out at U.S. Mining Giant," The New York Ti flies, Sept. 8. 2004. www.nytimes.com/2004/09/08/international/asia/08indo.html.
15. Joseph E. Stiglitz, Globalization and Its Discontents (New York: W.W. Norton. **2003), p. 232.**
16. Jane Perlez, "China Competes with West in Aid to Its Neighbors." The New York Times, Sept. 18, 2006, p. A1,www.nytimes.com/2006/09/18/world/asia/18china.html.

Part 2: Latin America

17. Felix I. Rodriguez, Shadow Warrior: The CIA Warrior of a Hundred Unknown Bottles (New York: Simon and Schuster, 1989).
18. See my Confessions of an Economic Hit Man (Sari Francisco: Berrett-Koehler,2004).
19. Ibid.
20. Paul Richter, "The U.S. Had Talks on Chavez Ouster," Los Angeles Times, April 17. 2002,
21. "Lucio Gutierrez: Ecuador's Populist Leader," BBC News World edition, Nov. **25, 2002, www.**news.bbc.co.uk/2/hi/americas/2511113.stm.
22. "Indigenas Achar liberan a ocho petroleros," Reuters, December r6, 2002.
23. Associated Press," Lawmakers Remove Ecuador's President," April **20, 2005,** www.foxnews.com/story/0,2933,154069,00.html.
24. "Bechtel Abandons Water Suit Against Bolivia," Earth Justice, www.earthjustice.org/urgent/print.html?ID=107. Maude Barlow, Tony Clarke, Blue Gold: The Fight to Stop the Corporate Theft of the World's Water (New York: New Press, 2003), pp. 91, **107, 124-25.** 138, **152, 154-55,** 177, 186.
25. Alma Cuillermoprieto, "A New' Bolivia?" New York Review of Books. Aug. 10, 2006, p. 36, www.nybooks.com/articles/19210.
26. Quotes from Wikipedia, WWW.en.wikipedia.org/wiki/Evo_Morales (accessed June 28, 2006).
27. Juan Forero, "Ecuador's New Chief Picks Cabinet; Leftist in Economic Post,'
the New York Times, April **22, 2005,** p. A4.
28. Juan Forero, "Presidential Vote Could Alter Bolivia, and Strain Ties with U.S." The New York Threes, Dec. 18, **2005,** sect. A. p. 13.
29. Paulo Prada, "Bolivian Nationalizes the Oil and Gas Sector," The New York Times, Maya, 2006, p. A9,www.nytimes.com/2006/05/02/world/Americas/02bolivia.html.
30. "Evo Morales Nationalizes Gas Resources in Bolivia," Democracy Now!, May,2006, www.democracynow.org/article.pl?sid=06/o5/o5/1432216.
31. Quoted from "Hello President," Hugo Chavez's regular TV and radio program, **April 10, 2005, no. 218.** Radio Nacional **de Venezucla, Caracas. 'Translated** and observed by BBC World Monitoring. April 13. **2005.**

32. Associated Press "War Crimes 'tribunal Dispute 'Threatens Aid," The New York Times, July 1, 2003, www.npwj.org/ ?q=node/ 1307.
33. Raúl Zibechi. "Brazilian Mi] tare Getting Ready for Vietnam-style U.S. Invasion," Brazzil Magazine, July22, 2003, www.brazzil.com/coritent/view/9344/76. See Professor Zibechi's Monthly column at www.Americas.irc-online.org.

Part 3: The Middle East

34. James S. Henry, The Blood Bankers: Tales from the Global Underground Economy (New York: Thunder's Month Press, 2005). pp. 307-10; **Jim** Garrison, America As Empire: Global Leader or Rogue Power? San Francisco: berrett-Koehler, 2004). pp. 93-95.

Part 4: Africa

35. BBC News, "The Chagos Islands: A Sordid Tale," Nov. 3. 2000. www.news.bbc.co.uk/2/hi/uk_news/politics/1005064.stm (accessed Aug. 28, 2006).
36. BBC News, "Country Profile: Seychelles," www.news.bbc.co.uk/2/hi/africa/country_profiles/1070461.stm (accessed Aug. **28**, 2006).
37. For more information, see Larry Rohter, "Pinochet Entangled **in** Web of Inquiries," The Men' York Times, Feb. 7, **2005,** p. A7, www.nytimes.com/2005/02/07/international/opcbile.html.
38. Both quotes from "Nobel Peace Laureate Waugari Maathai and Sun of Executed Nigerian Activist Ken Wiwa Discuss Oil and the Environment," Democracy Now! Sept. **2o, 2005**, www.democracynow.org/print.pl?sid=05/09/20/1330227.
39. A general Summary of "The Seychelles Case," including the names of inns of the mercenaries involved (Jack is listed tinder his legal name. not as Jack Corbin, an alias) is available under "The Truth Commission Files" at www.**contrast**.org/truth/html/seychelles.html.
40. BBC News. "The Chagos Islands: A Sordid Tale," Nov. 3, **2000,** www.news.bbc.co.uk/2/hi/uk_news/politics/1005064.stm (accessed Aug. 28, **2006).**
41. BBC News, 'Diego Garcia Islanders Battle to Return," Oct. **31. 2002,** www.news.bbc.co.nk/2/hi/africa/2380013.stm (accessed Aug. **28, 2006).**
42. Simon Robinson and Vivienne Wall, "The Deadliest War in the World," 'TIME, June 5. 2006, pp. 40-41. www.time.com/time/magazine/article/0,9171,119821,00.html.
43. Ibid., p.39. Parenthetical definition included in original.
44. Cynthia McKinney, "Covert Action in Africa: A Smoking Gun in Washington **D.C.,"** April 16, 2001, www.house.gov/mckinney/news/pr010416.html; House Committee on International Relations, Suffering and Despair: Humanitarian Crisis in the

Congo: Hearing Before the Subcommittee on international Operations and Human Rights, 107th Cong., May 17, 2001'.

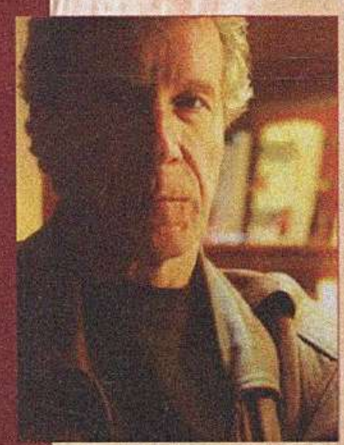
45. Robinson and Walt. "The Deadliest War in the World" p. 39.
46. For more information, see Joan Baxter "Mali's David v. Goliath GM Struggle," BBC News, Dee.7, **2005,** www.news.bbc.co.uk/2/hi/africa/4445824.stm.

Part 5: Changing the World

47. David C. Kocten, When Corporations Rule the World (San Francisco: Berrett-Koehler, 1995). See Joel Bakan, The Corporation: The Pathological Pursuit of Profit and Power (New York: Penguin, 2004) and The Corporation. DVD, directed by Mark Achdar and Jennifer Abbott (Zeitgeist Films, 2004).
48. Dr. Riane Eisler, The Real Wealth of Nations, Ch. 10. p. 9. galley proofs.
49. Qunto from and more information at Amnesty International Web site, www.amnesty.org.
50. MoveOn, www.moveon.org, accessed July **31, 2006.**
51. Quotes from Thomson Gale, "Black History: Jesse Jackson." www.gale.com/free_resources/bhm/bio/jackson_j.htm (accessed Aug. **27, 2006):** "On the Issues: Rev, Jesse Jack son on Civil Rights," www.ontheissues.org/Celeb/Rev_Jesse_ Jackson_Civil_Rights.htm (accessed Nov. **1. 2006**): "How Jesse Jackson's Focus on the Financial Markets Could Make a Differences," Look Smart, www.findarcicles.com/p/articles/mi_m1365/is_n3_v29/ai_21227720 (accessed Nov. 1. 2006).
52. Cal Manjowski, "TIAA-CREF Drops Coke from Social Choice Account," Reuters, July 18, 2006, WWW.reuters.com/misc/topnews&storyID=2006-0, www.indiaresource.org/news/2006/1080.html.
53. Central Intelligence Agency. The World FactBook, www.cia.gov/cia/publications/factbook/geos/ec.html.

التاريخ السري للامبراطورية الأمريكية

.... حاولت تأليف هذا الكتاب عدة مرات. تكلمت إلى الرجال الاقتصاديين المأجورين والعملاء الآخرين والمرتزقة المستخدمين من وكالة الاستخبارات الأمريكية ـ سي آي إيه ـ الذين تدخلوا بسياسات الدول للتأثير وللتملق والمداهنة، لدفع الرشاوى، وأحياناً للاغتيال. سألتهم لكي أُضَمِّنَ قصصهم في "اعترافات". انتشر النبأ بسرعة: عُرِضَتْ عليَّ الرشاوى، وتعرضتُ للتهديد شخصياً، فتوقفت عن الكتابة. بعد 11 أيلول، وعندما قطعت عهداً على نفسي، وعزمت أن أبدأ من جديد، قررت هذه المرة أن لا أخبر أحداً إلا بعد نشر المخطوطة عندها سيصبح ذلك وثيقة ضمان لي: عرف العملاء بأنه إذا حدث أي مكروه لي سينتشر بيع الكتاب كالنار في الهشيم. كانت كتابة "اعترافات"، دون مساعدة الآخرين الذين لهم تجارب مثل تجاربي، صعبة جداً، لكنها كانت أسرع طريقة لتأليف الكتاب. بعد نشر الكتاب خرج أشخاص عديدون من الظل، رجال اقتصاد مأجورون، عملاء، صحفيون، متطوعو فرق السلام، مدراء شركات تنفيذيون، وموظفون في البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، وموظفون حكوميون، جاؤوا إليَّ باعترافاتهم الشخصية. إن القصص التي سمعتها منهم والمدونة في الصفحات التالية من هذا الكتاب تكشف الحقائق خلف الأحداث التي تشكل العالم الذي سيرثه أولادنا. لقد أكدوا الاستنتاج المحتوم: يجب أن نتحرك، يجب أن نتغيَّر.



جان بركنس

مؤلف الكتاب الأكثر مبيعاً

«اعترافات رجل اقتصادي مأجور»

«نيويورك تايمز»

دار الطليعة الجديدة

سورية ـ دمشق ـ ص ب: 34494

تلفاكس: 2311378

كلمات في "اعترافات رجل اقتصاد مأجور"

«هذه هي تفاصيل الحياة الحقيقية . أحقاد، مكائد، شرور محضة . لحيل وخدع الشركات العالمية منسوجة في رواية تنافس أكثر قصص الجاسوسية إثارة وظلاماً»

- جريج بالاست، مؤلف «مستشفى مجانين مُسلَح» و«أفضل ديمقراطية يستطيع المال شراءها».

«جمع بركنس تألق وتشويق رواية غراهام غريني المثيرة مع ما تمتع به هو من نفوذ بسبب موقعه في داخل نظام عَمِلَ لحسابه مطلعاً على بواطن أموره ليروي قصة شخصية حقيقية، قوية، كاشفة، وموحية، تقشعر لها الأبدان تسمي الأشياء بأسمائها، وتصل بين النقاط والحروف».

- دافيد سي. كورتن، مؤلف الكتاب الأكثر مبيعاً «عندما تحكم الشركات العالم»

«كتاب يروي كل شيء ويستحوذ عليك»

- أخبار روكي ماونتين

«مذهل»

- بوسطن هرالد.

«أحد أروع الكتب التي قرأتها منذ زمن طويل. إنه أيضاً واحدٌ من أكثرها ترويعاً»

- نيوستا تسمان

«آسر للانتباه، ينظر إلى عالم مؤامرات ومكائد ويُقرأ كرواية تجسسية».

- لايبراري جورنال

التاريخ السري للإمبراطورية الأمريكية

في مذكراته المذهلة، اعترافات رجل اقتصاد مأجور، التي بقيت لأكثر من عام في صحيفة نيويورك تايمز على لائحة الكتب الأكثر مبيعاً، يكشف جان بركنس تفاصيل دوره في السبعينات والثمانينات من القرن الماضي، في مكائد الشركات العالمية التي خلقت واقعياً إمبراطورية أمريكية.

يتكشف فضح هذه المشاهد الأسرة والدائرة خلف الكواليس، عن رائعة سينمائية نراها من خلال عيون رجل ساعد مـرةً في تشكيل هذه الأمبراطورية.

والأن في التاريخ السري للأمبراطورية الأمريكية، يركز المؤلف على البقاع الساخنة حول العالم معتمداً على لقاءات مع رجال اقتصاد مأجورين آخرين، عملاء، رجال إستخبارات«CIA»، صحفيين ونشطاء، ويدقق في الأزمة الجيوسياسية الحالية. حيث يكمن عدم الاستقرار في طبيعة سلوكها: إنه من الواضح أن العالم الذي خلقناه هو عالمٌ خطر وبقاؤه كما هو لم يعد ممكناً. كيف وصلنـا الى هنا؟ ومن هو المسؤول؟ ما العمل المجدي الذي قمنا به؟ وعلى حساب من؟ ماذا نستطيع أن نفعل لتغيير الأمور من أجل الأجيال القادمة؟

يكشف بركنس، في اجابته عن هذه الأسئلة وغيرها، عن التاريخ السري وراء الأحداث التي حددت عالمنا.

بدءاً من الجيش الأميركي في العراق الى البنية التحتية لاقتصاد أندونيسيا النامي، من متطوعي فرق السلام في افريقيا الى العملاء في فنزويلا، يفضح المؤلف شبكة الفساد وخدع الشركات الكبرى. منذراً لكنه واعداً ينتهي كتاب التاريخ السري للامبراطورية الأمريكية بنظرة ثاقبة واضحة إلى المسـتقبل وخطة متعاطفة لإعادة صياغة العالم.

علي مولا

دار الطليعة الجديدة
سورية - دمشق - ص ب: 34494
تلفاكس: 2311378